رسائل السلام
(٩)
أسرار الأقدار
إجابات شافية حول مسائل القضاء والقدر والحكمة والعدل
د. نور الدين أبو لحية
دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

خلاصة الحقائق التي تبحث فيها هذه الرسالة هي أن نظام القدر الذي هو برنامج الكون ونظامه يتأسس على التعرف على أربعة أسرار كبرى، كل سر منها يشكل حقيقة عظيمة من حقائقه، ويقع الخطأ بقدر الاقتصار على بعض أسراره والغفلة عن بعضها.

وهذه الأسرار الأربعة، هي: التوحيد والعدل والحكمة والرحمة.

فكشف سر التوحيد يبصرنا بالمهندس الأول للكون، والمنظم الأوحد لشؤونه، والمدبر الخبير بتفاصيله، فلا نرى في مرآة هذا السر غير الله، فنغيب بالله عن الكون الذي يسيره.

وكشف سر العدل يعيدنا إلى ذواتنا لنبصر إرادتنا، وهي تتحرك في أطر كثيرة واسعة من الاختيارات، لنتحمل حينها مسؤوليتنا على تصرفاتنا.

وكشف سر الحكمة يجعل من الكون مرآة لتجليات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وكشف سر الرحمة يعيدنا إلى بدء الخلق وغاية الخلق، فالله خلق الخلق ليرحمهم، وأكرمهم بالوجود ليكرمهم بعدها بكل ما يقتضيه وجودهم من أنواع الإكرام.

وكشف كل سر من هذه الأسرار يشعرنا بالسلام الشامل مع الله، ومع الكون، ومع ذواتنا، لأن أول خطيئة هي الصراع، الصراع مع الله، ومع تخطيط الله، ومع مراد الله.

رسائل السلام

(9)

أسرار الأقدار

إجابات شافية عن تساؤلات العقل حول مسائل

القضاء والقدر والعدل والحكمة

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

2015 – 1436

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة **9**
الفصل الأول **14**
سر التوحيد **14**
أولا ـ العلم **17**

1 ـ سعة العليم: **18**
2 ـ خبرة العليم: **27**
3 ـ غنى العليم: **43**
ثانيا ـ الإرادة **53**

1 ـ إرادة الله: **54**
إرادة الخالق البارئ المصور: 58
إرادة النافع الضار: 62
إرادة الخافض الرافع: 65
إرادة المعطي المانع: 68
إرادة الهادي المضل: 72
2 ـ إرادة البشر: **81**
مدافعة الأقدار: 85
التسليم للأقدار: 86
الجانب سلوكي: 89
الجانب المعرفي: 93
ثالثا ـ الكتابة **97**

1 ـ المقادير الأبدية: **98**
الشمولية: 100
الحفظ: 103
الستر: 104
2 ـ المقادير المؤقتة: **117**
مقادير محتملة: 118
مقادير مؤجلة: 127
التقدير العمري: 129

التقدير السنوي 131
التقدير اليومي: 132
3 ـ سنن المقادير: 133
صيغ السنن: 135
حقا: 135
علينا: 141
كلمتنا: 141
القسم: 143
الوعد: 144
التحريم: 146
ثبات السنن: 150
تبصر السنن : 150
رابعا ـ التنفيذ 157

1 ـ قدرة الله: 159
2 ـ قدرة العبد: 168
الفصل الثاني 172
سر العدل 172
أولا ـ عدالة التكليف 192

1 ـ الفطرة الأصلية: 197
2 ـ مؤهلات التكليف: 202
طاقات التكليف: 203
جو التكليف: 207
3 ـ اختبارات التكليف: 211
ثانيا ـ عدالة الهداية 223

1 ـ حجب الغفلة: 224
2 ـ أنوار الهداية: 244
الله جل جلاله: 244
أكوان الله: 246
كلمات الله: 248
أهل الله: 250
ثالثا ـ عدالة الجزاء 255

1 ـ المساواة: 256
المكلفون: 256
غير المكلفين: 268
القول الأول: 270
القول الثاني: 279
القول الثالث: 279
القول الرابع: 280
القول الخامس: 281
القول السادس: 282
2 ـ الميزان: 288
وزن العمل: 290
وزن أثر العمل: 300
وزن العامل: 303
وزن أجور العمل: 305
3 ـ المحاكمة 305
الكتابة: 305
الشهادة: 309
الدفاع: 311
الشفاعة: 314
4 ـ التوافق 315
في الدنيا: 317
في الآخرة: 322
الفصل الثالث 336
سر الحكمة 336
أولا ـ الوحدانية 345

1 ـ وسائط القدرة: 347
الصمد: 353
القريب: 354
الرحيم: 355
القيوم: 356
الغني 357
2 ـ وسائط الحكمة 359
الجواب التوحيدي: 365
الجواب الجزائي: 367

الجواب المقاصدي: 368
3 ـ الوسائط التقديرية: 378
نفي الأسباب: 378
إثبات الأسباب: 381
ثانيا ـ الملك 386

1 ـ الله المالك: 387
2 ـ الله الملك: 394
ملكية التدبير: 395
ملكية التشريع: 405
ثالثا ـ الحمد 408

1 ـ عالم الخلق: 409
2 ـ عالم الأمر: 412
رابعا ـ القدرة 414

1 ـ العزيمة: 418
2 ـ العلم: 420
3 ـ العقل: 420
4 ـ الأمل: 421
الفصل الرابع 423
سر الرحمة 423
أولا ـ رحمة النشأة الأولى 442

1 ـ الرحمة الخالصة: 445
2 ـ الرحمة الممزوجة: 454
مزيج الظالمين: 456
مزيج الصالحين: 472
الجواب الأول: 472
الجواب الثاني: 476
الجواب الثالث: 479
الجواب الرابع: 480
مزيج الأبرياء 481
الجواب الأول: 483
الجواب الثاني: 483

ثانيا ـ رحمة النشأة الآخرة 489

1 ـ رحمة المقربين : 494
2 ـ رحمة الأبرار: 508
3 ـ رحمة الظالمين : 514
4 ـ رحمة الجاحدين: 539
خلود العذاب: 540
انتهاء عذاب أهل النار: 545
رؤية ابن القيم: 549
الدليل الأول: 549
الدليل الثاني: 555
الدليل الثالث: 559
رؤية صدر المتألهين: 568
منافاة العذاب الأبدي مع الإيجاد والعلية: 568
منافاة العذاب الأبدي مع الرحمة الالهية الشاملة للكل: 569
ثبات وبقاء الفطرة وعرضية الهيئات الردية الموجبة للعذاب: 570
الخلاصة: 571

المقدمة

حقـائق القضـاء والقـدر من أعظم حقـائق الوجـود وأهمهـا وأولاها بالمعرفة بعد معرفة اللـه، لأنهـا معرفـة نظـام علاقـة اللـه بخلقه، والقوانين التي تحكم ذلك، فكل شيء ـ كما أخبر الله تعالى ـ مخلوق بقدر، قال تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (القمر:49)

ولكن.. لماذا ـ مع هذا ـ تعتبر معانيها أسرارا، وحقائقها ألغازا، ومكشوفاتها غوامض؟

وهل السر إلا ذلك الذي يخزن في الصدر، فلا يكشـف، ويخبـأ في سـراديب الوجـدان، فلا يـرى، ومن يكشـفه يتعـرض للمقت، فقلوب الأحرار قبور الأسرار!؟

ثم كيف لنـا نحن البسـطاء الـذين نشـكل صـفرا عريضـا في بنيان هذا الكون أن نكشف أو نكتشف أسرار الأقدار، وقد تهنـا في التعرف على بعض أسرار هذا الكون المادي البسيط الـذي نعيشـه أو نعيش فيه، وأسـرار الأقـدار هي أسـرار الكـون جميعـا، بـل هي أسرار الأزل والأبد؟

وتتفرع عن هذه التساؤلات تساؤلات أخـرى كثـيرة تمتلئ بهـا جوانح قلوبنا ومـدرجات جامعاتنـا وأزقـة شـوارعنا، يسـألها العامـة والدهماء، كما يسألها الخاصة والكبراء، وتطـرح كـل إجابـة سـؤالا، ويلقي كل كشف سرابيل جديدة من الغموض.

فهل نستطيع الإجابة على هذه التساؤلات؟

وهل يمكن أن نصل في هذا الباب ـ الـذي أراد البعض إغلاقـه درءا للفتنة ـ إلى مرحلة اللاغموض، أو المرحلة التي يستسلم فيها الوجدان لله، محبة له ورضا بالقوانين التي تحكمه، وقناعة بأن الله أحكم الحاكمين، وأعدل القاضين، وخير المهندسين؟

في هذا البحث نحاول الوصول إلى هذه النتيجة العظيمة بثقة عظيمة، لأننا نحمل سراجا تنكشف به الحقائق، وتحـل بـه الألغـاز، وتفك به الطلاسم، وتقرأ به جميع الأبجديات الغريبة التي سـطرت بها شيفرة الكون.

وهذا السراج ـ الذي هو نور على نور ــ هـو كلام اللـه تعـالى، فهو وحده الهادي في مثل هـذه الظلمـات، فاللـه مخطـط الكـون وواضع برنامجه هو المتكلم بالقرآن، وهو المعـرف بحقـائق الكـون ونواميسه.

وسبب الخلط العظيم الذي وقع في هذا الباب الخطير، فوقع فيه الناس مشردين محجوبين غافلين، أو أصبحوا فرقا وطوائف تتنابز بالألقاب، أو يرمي بعضهم بعضا بالكفر والفسوق والبدعة والضلال هو إعمال بعض النصوص وهجر بعضها، أو تحميل النصوص ما لا تحتمل، أو تقديم العقل المدنس(1) على النص المقدس، أو تقديم فهم امرئ من الناس على صريح كلام الله، أو على ما يقتضيه العقل من معان، أو التعصب للمذاهب والآراء على حساب الحقائق والمعارف..

وأسباب أخرى كثيرة لا يهمنا معرفتها، ولا يضرنا الجهل بها..

ونحن ـ بفضل الله ـ في هذه الرسالة لن نغفل بالرد على هذه الطوائف على ما أردناه من كشف حقائق القدر لعقولنا وقلوبنا وأرواحنا، ولن نغفل بالجدل الذي انحرفت به المعارف عن مساراتها.. وإنما ستكون وجهتنا وقبلتنا واحدة، ولا يهمنا بعد ذلك من توجه معنا إليها، أو خالفنا فيها.

بل نحسب أنا قد لا نخالف أحدا فيما ذهبنا إليه، فكل قد رام الحق، وكل وصل إلى بعض الحق..

* * *

وخلاصة الحقائق التي وصلنا إليها في هذه المسألة الخطيرة هي ـ ببساطة ـ أن نظام القدر الذي هو برنامج الكون ونظامه يتأسس على التعرف على أربعة أسرار كبرى، كل سر منها يشكل حقيقة عظيمة من حقائقه، ويقع الخطأ بقدر الاقتصار على بعض أسراره والغفلة عن بعضها.

وما وقع في التاريخ الإسلامي من تنازع المذاهب والطوائف(2) وقع بسبب نصرة بعض أسراره على بعض، فكل ينصر حقا على حساب حق، ويرد بحق على حق، ويقف في زمرة حق ضد زمرة حق.

ولو تخلوا عن التعصب، واهتدوا بهدي القرآن الكريم وأعملوا النصوص جميعا لرأوا أن الحق في النصوص جميعا، بل في الظواهر البسيطة للنصوص، والتي لا تحتاج إلى تعسف تأويل أو تكلف شرح.

وهذه الأسرار الأربعة، والتي أسسنا عليها هذه الرسالة، هي:

---

1) الدنس هنا ليس وصفا العقل الأصلي، وإنما هو وصف للأهواء التي دنسته، أما الأصل في العقل فهو القداسة، لأن الله هو واضع برامج العقول.

2) مسألة القضاء والقدر من أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف في الأمة، ولا يزال الخلاف فيها ساريا إلى اليوم.

التوحيد والعدل والحكمة والرحمة.

فكشف سر التوحيد يبصرنا بالمهندس الأول للكون، والمنظم الأوحد لشؤونه، والمدبر الخبير بتفاصيله، فلا نرى في مرآة هذا السر غير الله، فنغيب بالله عن الكون الذي يسيره، وقد نرى الأمر حينها جبرا، لولا أن يمدنا الله بحقائق صفاته، ومقتضيات أسمائه لتعود لنا عقولنا، فنستكنه سائر الأسرار، ونعيش سائر الحقائق.

وكشف سر العدل يعيدنا إلى ذواتنا لنبصر إرادتنا، وهي تتحرك في أطر كثيرة واسعة من الاختيارات، لنتحمل حينها مسؤوليتنا على تصرفاتنا، وقد تصيبنا الغفلة عند هذا السر عن السر الأول، فتنصور أن لنا كونا قائما بذاته يضاهي الألوهية، لولا أن يردنا السر الأول إلى حقيقتنا، فينسجم التوحيد مع العدل، ونترتب في بنيان هذا الكون بحسب الترتيب الذي وضع لنا.

وكشف سر الحكمة يجعل من الكون مرآة لتجليات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فنرى من خلال حركات الكون صفات الله، أو تجليات أسماء الله، فنعيش مع الله، وتصبح أقدار الله حينها رسائل جميلة يهديها الله لنا كل حين لنتعرف عليه، لا جبالا قاسية نصطدم بها كل حين، أو نظل نسبها كل حين.

وكشف سر الرحمة يعيدنا إلى بدء الخلق وغاية الخلق، فالله خلق الخلق ليرحمهم، وأكرمهم بالوجود ليكرمهم بعدها بكل ما يقتضيه وجودهم من أنواع الإكرام، وقد يمرون بالفتن التي تختبر جواهرهم، أو تهيئ جواهرهرهم لرحمة الله، وهذا السر يرينا تجليات الرحمة الإلهية في تلك الفتن كما يرينا تجلياتها في الرحمة المحضة.

وكشف كل سر من هذه الأسرار يشعرنا بالسلام، السلام الشامل مع الله، ومع الكون، ومع نظام الكون، ومع ذواتنا، لأن أول خطيئة من خطايا سوء الفهم للأقدار هي الصراع، الصراع مع الله، ومع تخطيط الله، ومع مراد الله.

* * *

بعد هذا، قد نرى من يعتبر هذا الأمر لغوا، أو ترهات، أو جدلا فارغا، ونحن ـ لحبنا السلام وبغضنا للصراع والجدال ـ نوافقهم في كثير من ذلك، لأن اسم القدر أصبح عنوانا للشغب والجدال، فلا ترى كتابا يبحث في هذه المسألة إلا وترى فيه من الجدل والتشنيع على المخالفين ما يملأ نفسك مرارة، فلا تخرج منه بحلاوة الإيمان، وإنما تخرج منه ببغض القدرية والجبرية وغيرهم ممن تكلم في

القدر أو حاول أن يكشف أسراره.

ولكنا مع ذلك لا نوافقهم على عدم الخوض في هذه المسألة، فهي مسألة من مسائل الإيمان، بل ركن من أركانه، بل هي من مسائل الوجود التي يقتضي العقل البحث فيها، ومن العبث عدم تلبية متطلبات العقل، لأن وساوسه ستظل تلح على الإنسان شاء أم أبى.

ثم لماذا ننظر إلى هذه المسألة بهذه السوداوية، مع أن أريج الروائح الطيبة لها ـ كما يصورها القرآن الكريم ـ تجعل الإنسان مسوقا من حيث لا يشعر إلى التلذذ بروائحها العطرة!؟

وفي الأخير..

قد يعاتبنا البعض على التعبير عن حقائق القدر بكونها (أسرارا)، فهل في الدين أسرار؟

وهذا التعبير في الحقيقة لم نبتدعه ابتداعا، وإنما هو تعبير سلفنا الأول من العلماء، بل قد كان هذا التعبير ملاصقا للقدر من القرون الأولى، وسبب ذلك ليس ما نفهمه من معنى السر الذي لا يجوز كشفه، وإنما هو من معنى السر الذي يحرص على كشفه، فبعض الناس لا يلقي باله إلا إذا عرف أن الأمر سر، فاستجلاء الأسرار طبع لا ينفك عنه طبع الإنسان.

ثم إن القدر سر من نواح أخرى كثيرة..

فهو لغموضه سر، لا يفهمه ـ بدقائقه ـ إلا الخاصة من الناس، فهو ـ كسائر النظريات التي تفسر الكون جميعا ـ يحتاح إلى عقل واع بصير.

وهو لارتباطه بالنواحي الوجدانية سر لا يفهمه إلا من ذاق رحيق الإيمان من رياض الحقائق الأزلية، فالقدر أعظم تجليات الإيمان، كما أن الحقائق الكبرى للوجود من أعظم تجليات العلوم.

وهو ـ لتشعب نواحيه ـ سر لا يفهمه إلا من أوتي بصيرة توفق بين ما يراه الناس متعارضات يستحيل الجمع بينها، فيوفق بين البرودة والحرارة، ويحول من الألوان المشوشة عند بعض العيون سجادة جميلة تمتلئ بها الأبصار، وتشرق بها البصائر.

وهو سر من نواح أخرى كثيرة سنكتشفها في هذه الرسالة التي نستغفر الله من الزلل فيما أودعناه فيها من آراء، ونحمده على ما هدانا فيها من صواب، ونحن شاكرون لكل باحث عن حق هدانا إلى حق، أو صدنا عن باطل.

الفصل الأول

سر التوحيد

أول سر من أسرار القدر وأكمله وألذه، وما تعلقت به قلـوب العارفين، وهامت فيه أرواح المشتاقين هو سر التوحيد.

وهو سـر باعتبـاره حقيقـة لا يفهمهـا إلا من تخلص من كثافـة الطبع وأدران التشبيه، فميز بين الرب والمربوب، والعبد والخالق.

وهو سر ـ كذلك ـ باعتبـار تـأثيره الوجـداني الرقيـق في روح المؤمن به، فهو يجد له من اللذة ما لا يستطيع التعبير عنه.

وهـو سـر في الأخـير، لأن إلقـاء مفاهيمـه على غلاظ الطبـاع ومن رانت على قلوبهم الغفلة قد يحجبهم عن رؤيـة سـائر أسـرار القدر، فينحجبوا بتوحيد الله عن حكمة الله وعدله ورحمته.

ولهذا، فإن رسول الله ﷺ اعتبر الإيمان بالقـدر آخـر ركن من أركـان الإيمـان، وهـو في الحقيقـة نتيجـة حتميـة للإيمـان باللـه، فيستحيل على من عرف كمالات الله المبثوثة في كتابـه الصـامت والناطق أن يغفل قلبه عن هذه الحقيقة التي ينطق بها كل شيء.

والمتأمل في حياة رسول الله ﷺ يجد حضـور هـذا السـر في كل محل، بل يشعر باستشعار رسول الله ﷺ لهـذا السـر، وتذوقـه له، ففي الحديث: قالت أم سلمة: يا رسـول اللـه، لا تـزال نفسـك فى كل عام وجعة من تلك الشاة المسـمومة الـتى أكلتهـا؟، قـال: (ما أصابنى من شيء منها إلا وهو مكتـوب على وآدم فى طينتـه)(1)

وكأن أم سلمة في هذا الحديث تدعوه ﷺ ـ من غير أن تقصد ـ إلى التأسف على أكله من تك الشاة، أو إلى أشـياء أخـرى يتـنزه عنها ﷺ، فأخبرها ﷺ إلى أن تنظر من كـوة سـر التوحيـد لتصـرف عنها كل أسف أو حقد أو انتقام.

وكان ﷺ في حياته كلها ينظر بهذا المنظار.. في أعقد الأمـور وفي أبسطها..

قال أنس بن مالك :(خدمت رسول اللـه ﷺ عشـر سـنين، لا والله ما سبني قط، ولا قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلتـه لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعلـه لم لا فعلتـه)(2)، وفي روايـة:(خـدمت

---

1) رواه ابن ماجه.

2) رواه عبد الرزاق في المصنف.

رسول الله ﷺ عشر سنين، فلا والله ما قال لي لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء لم أصنعه ألا صنعته؟ ولا لامني، فإن لامني بعض أهله قال: دعه، وما قدر فهو كائن أو ما قضي فهو كائن)

ولهذا كان من اهم آثار هذا أن رسول الله ﷺ (ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)(1)

ولكن هذه المعاني الذوقية الرفيعة والعلمية المتينة عرض لها من كبر عليه الجمع بين حقائق الإيمان بالقدر وأسراره، فصار إما منكرا للتوحيد معطلا لما دل عليه من النصوص ابتغاء تحقق العدالة والحكمة، أو مثبتا للتوحيد معطلا لعدل الله وحكمته ورحمته.

بناء على هذا، وبناء على اعتبار القدر نظام التوحيد، والنتيجة الحتمية له، نحاول ـ بعيدا عن مصطلحات المتكلمين وجدل الفرق ـ تبصر الحقائق التي ينطوي عليها القدر من معاني التوحيد، والتي ورد النص عليها في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وهي أربع حقائق كبرى، كل واحدة منها تشكل مرتبة من مراتب تقديرات الله.

وهذه المراتب الأربعة هي: علمه تعالى السابق بالأشياء قبل وجودها،، ثم مشيئته المتناولة لكل موجود، ثم كتابة ذلك فى الكتب المختلفة، ثم خلقه للموجودات وفق علمه ومشيئته وكتابته.

وسنخص كل مرتبة من هذه المراتب بمبحث خاص.

---

1) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

أولا ـ العلم

أول معرفة بالله تقود المؤمن إلى سر التوحيد في القـدر هـو التعرف على الله العليم اللطيف الخبير الشهيد(1).

ثم التميـيز بين حقـائق هـذه الأسـماء بالنسـبة للـه تعـالى، وبالنسبة لخلقه، فالله لا يشبه خلقه بأي حـال من الأحـوال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى: 11)

لأن كل الشبه التي يزرعها الشيطان في قلب الإنسان، فينكر القدر، أو ينكر الاختيار منشؤها تشبيه علم الله بعلم الخلق، وقياس معلومات الله بمعلومات الخلق.

والتأمل في القرآن الكريم وحده كاف للدلالة على هذا النـوع من المعرفة، فالله تعـالى يـرد كـل الأشـياء إلى علمـه، ويفسـرها بعلمه، ولذلك لا تخلو أكثر الآيات من الإشارة إلى علمه وما يرتبـط به، وقد قال تعالى عن القرآن الكـريم: لَكِنِ اللَّهُ يَشْـهَدُ بِمَـا أَنْـزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَـةُ يَشْـهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَـهِيداً (النسـاء: 166)،ـ وقال تعـالى: قُـلْ أَنْزَلَـهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّـرَّ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (الفرقان:6)

وعلم الله ـ كما يتجلى في القرآن الكـريم ــ علم شـامل تـام محيط، فهو تعالى يعلم ما بدا وما خفى، أحاط علما بجميع الأشـياء من الكليات والجزيئات، علم في الأزل جميـع مـا هـو خـالق، وعلم جميــع أحــوال خلقــه وأرزاقهم وآجــالهم وأعمــالهم وشــقاوتهم وسعادتهم ومن هـو منهم من أهـل الجنـة ومن هـو منهم من أهـل النار، وعلم عدد أنفاسهم ولحظاتهم وجميع حركاتهم وسكناتهم أين تقع ومتى تقع وكيف تقع.

كل ذلك بعلمه وبمرأى منه ومسمع لا تخفى عليه منهم خافية سواء في علمه الغيب والشهادة والسر والجهر والجليـل والحقـير، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذه المعـارف الإيمانيـة من اليقينيـات الـتي يؤسـس عليهـا المؤمن فهمه للقدر الإلهي، ويبني عليها تذوقـه لـه.. ولكن الشـبهة التي تعرض لمن لم يفقه معنى العلم الإلهي هـو عـدم تميـيزه بين علم البشر وعلم خالق البشر، فوقوعه في براثن التشبيه هو الذي يوقعه في مستنقعات نفي القدر أو القول بالجبر.

---

1) هذه الأسماء كلها تدل على العلم بمراتبه المختلفة، كما سنرى.

ويمكن ـ من خلال القرآن الكريم ـ استنباط ثلاث نـواح يتمـيز بها علم الله عن علم الخلق، وبإدراكها والتعمـق في فهمها تـزول كل الشبه المرتبطة بهذا الجانب من مفهوم القدر، وهـذه النـواحي هي: السعة، والخبرة، والغنى.

أما السعة فننفي من خلالها ما تصوره لنـا أوهامنـا من تشـبيه علم الله اللامحدود بعلمنا المحـدود، وبنـاء على ذلـك تنتفي غرابـة علم الله بالتفاصيل والجزئيات ما دق منها وما جل.

وأمـا الخـبرة، فننفي من خلالهـا مـا تصـوره الأوهـام من استغراب علم الله بالأشياء قبل حصولها.

وأما الغنى فنرى فيه مدى القصور الـذي تضـعنا فيـه أوهامنـا حين تصور لنا حاجة الله الغني العليم إلى حصول الأشـياء ليحصـل له العلم بها.

وإدراكنا لهذه الحقائق وتسليمنا لها لا يجعلنا متـوافقين فقـط مـع مـا تنص عليـه النصـوص المقدسـة، ولكنـه يجعلنـا ـ أيضـا ـ متوافقين مع ما تقتضيه عقولنا في أرقى درجات تقدسها.

ذلك أن العقـل المتخلى عن زهـوه وخيلائـه وكـبره يـدرك أن جميع معارفه إذا ما قيسـت بالمجاهيـل، فإنهـا تـؤول إلى الصـفر.. وهو ما عبر عنه في النصوص بأنه بمنزلة القطرة من البحر.

1 ـ سعة العليم:

الله تعالى هو المحيط بكل شيء علما، دقيقه وجليلـه، وأولـه وآخره، وعاقبتـه وفاتحتـه، لا نهايـة لمعلوماتـه ولا حصـر لهـا، قـال تعالى على لسان نبيه شعيب ﷺ: وَسِـعَ رَبُّنَـا كُـلَّ شَـيْءٍ عِلْمـاً (لأعراف: 89)

وهـذا كسـائر صـفات اللـه تعـالى، فهي كلهـا من السـعة مـا يجعلها محيطة بكل شيء، مهيمنة عليه، لا يغيب عنها شـيء، تامـة كاملـة، ولـذلك كـان من أسـماء اللـه تعـالى الـتي نص عليهـا في القرآن الكريم اسم الله (الواسع)، وقد ورد في ثمانية مواضع في القرآن الكريم.

وهو اسم نرى اقترانه الدائم في القرآن الكريم بـالعلم ليـدل على أن سعة علم الله مزدوجة مع سعة فضله وتصريفه وقيوميته، قال تعالى: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَمَـا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:115)

وقال عن هبة الملك: وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ (البقرة: 247)

وقال عن مضاعفة الأجور: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:261)

وقال عن هبة المغفرة والفضل: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:268)

وهكذا في كل آي القرآن الكريم، حتى في الآية التي ورد فيها اسم الواسع مضافا قرن بالعلم، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (لنجم:32)

فقد قرن تعالى في هذه الآية بين سعة مغفرته وبين علمه بخلقه.

فلذلك لا نهاية لمعرفة الله ولا حد لها، لأن (كل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف، والذي لا ينتهي إلى طرف، فهو أحق باسم السعة، والله سبحانه وتعالى هو الواسع المطلق، لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق وكل سعة تنتهي إلى طرف، فالزيادة عليه متصورة وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة)(1)

وانطلاقا من هذا يبث القرآن الكريم في روع المؤمنين الأوصاف الكثيرة الدالة على هذه السعة التي لا حدود تنتهي إليها، ويجعل ذلك في كثير من الفواصل القرآنية لتكون برهانا على ما اشتملت عليه الآية من أمر أو تدبير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (لأنفال: 75) الذي ورد في فاصلة عشرين موضعا في القرآن الكريم.

والقرآن الكريم يذكر بعض تفاصيل هذه المعلومات، كشأنه من ذكر الحقائق مجملة ومفصلة، لأن الاقتصار على التفصيل قد يفهم منه البليد الحصر والضيق والمحدودية، والاقتصار على المجمل لا يكون له من التأثير النفسي ما يكون للتفصيل.

ولذلك انتقل الخليل عليه السلام من بعض تفاصيل معلومات الله إلى مجامعها كما حكى ذلك عنه الله تعالى في قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (ابراهيم:38)

---

1) المقصد الأسنى: 119.

ولا بـأس أن نسـتعرض على طريقـة القـرآن الكـريم بعض التفاصـيل الـتي قـد تعمـق مفهـوم السـعة المجمـل، ونسـوقها باعتبارين:

الاعتبار الأول: هو البرهنة على هذا بالنسبة لمن ينكـرون علم الله بالتفاصيل أو يستبعدون ذلك.

والاعتبار الثاني: هو تعميق هذه الحقيقة في النفس المؤمنـة، لأن حقائق الإيمان، كسـائر الحـق لا تغـرس بـذورها في النفس إلا بمثل هذه التفاصيل.

وانطلاقا من هذا، فإن القرآن الكريم يخبرنا، ويبث في روعنـا أن اللـه تعـالى يعلم جميـع التفاصـيل الـتي بـنيت على أساسـها السموات والأرض، فلا يخفى عليـه شـيء منهـا، قـال تعـالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (آل عمـران:5)، فكلمة شيء في الآية تشمل الصغير والكبير، والحقير والجليل.

وقال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِـكَ فِي كِتَـابٍ إِنَّ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرٌ (الحج:70)، و(مَـا) الموصـولية تفيـد العمـوم، فيـدخل في معناهـا كـل شـيء بكـل تفاصيله.

وقال تعالى: قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَـوْلَ فِي السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الانبياء:4)، وقـد وردت هـذه الآيـة مطلقـة كـذلك لتفيد سعة علم الله بكل قول مهما كان نوعه.

والله تعـالى يعلم الصـغير والكبـير، والكليـات والجزئيـات من السموات والأرض، ولـذلك يستدل بهـذا العلم على الساعة، قـال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَأْتِينَـا السَّـاعَةُ قُـلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَـأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْـهُ مِثْقَـالُ ذَرَّةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (سبأ:3)

وهو يذكر بعض هذه التفاصـيل الدقيقـة ليمتلئ قلب المـؤمن إحساسا بهذه السعة، قال تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَـا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَـا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (الأنعـام: 59)، وقال تعالى: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَـرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَـا وَمَـا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَـعُ إِلَّا بِعِلْمِـهِ وَيَـوْمَ يُنَـادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (فصلت:47)، وقال تعالى: يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَـا يَخْـرُجُ مِنْهَـا وَمَـا يَنْـزِلُ مِنَ السَّـمَاءِ وَمَـا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (سبأ:2)

ويخطئ البعض حين يفسر مفاتح الغيب بأمور محدودة، ويتصور أنها هي وحدها التي استأثر الله بعلمها، ويستدل على ذلك بفهم خاطئ لقوله ﷺ:(مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّه، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:34)(1)

أو بحديث جبريل عليه السلام حين تبدي له ﷺ فسأل عن الإيمان الإسلام الإحسان، قال له النبي ﷺ فيما قال له:(خمس لا يعلمهن إلا اللّه)، ثم قرأ الآية السابقة.

وهذه الأحاديث لا تعني التحديد أو الحصر، لأن سعة علم الله لا تحصر، وإنما المراد منها ذكر بعض التفاصيل، وهو مما ورد مثله كثيرا في السنن المطهرة، ولهذا قال العلماء:(العدد لا مفهوم له)

ويخطئ آخرون خطأ أشنع حين يعتبرون قوله تعالى في الآية: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ مقصورا حول جنس الجنين، أهو ذكر أم أنثى، ويتصور بعضهم ـ انطلاقا من ذلك ــ أن الآية تتناقض مع ما تعرف عليه العلم الحديث من هذا الباب.. مع أن هذا النص لا يدل على جنس الجنين فقط، بل يدل على أن اللّه تعالى يعلم عدد الأجنة الموجودة في الارحام ووضعيتها واستعداداتها وأذواقها ومواهبها وقدراتها وضعفها وجميع خصوصياتها في كل لحظة.. بل في كل ثانية.. بل في كل ما لا يمكن التعبير عنه من الظروف.

وهكذا عن الغيث، فقد أحاط علمه بكمية الغيث ونوعيته وعدد قطراته ووزنها ومحل سقوطها ولا أحد يمكنه أن يحيط علما بهذه الأمور وبأي وسيلة كانت.

وهكذا كل ما يعلمه الله من سقوط الورق.. أو الحب المختبئ في الظلمات.. أو الرطب أو اليابس.. أو كل ما لا يمكن حصره من أكوان الله.

* * *

وبما أن المخاطب الأول في القرآن الكريم هو الإنسان، فإن الله تعالى يحدثنا عن بعض هذه التفاصيل المتعلقة بعلمه بالإنسان، ويجعل من بيان علمه بتفاصيل السموات والأرض دليلا على علمه بالإنسان، قال تعالى:﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات:16)

فالله تعالى:﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا

1) رواه البخاري.

تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (الرعد:8)

وفي أي حالة كان الإنسان، فإن الله يعلمه: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (يونس:61)،ـ وقال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (المجادلة:7)

ولذلك، فإنه تعالى يعلم ما تكنه ضمائرنا من خير أو شر، قال تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (البقرة:235)

ويعلم ما نفعله ظاهرا من كل ذلك: وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ (البقرة: 197)

وهو يعلم طبائعنا وما نتحدث به لأنفسنا: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ (البقرة: 187)

وهو يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (البقرة: 255)

ويعلم تفاصيل أجسادنا وحياتنا وأعمارنا، قال تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (فاطر:11)

ويعلم أعمالنا، قال تعالى: وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (محمد: 30)

ويعلم من ضل منا ومن اهتدى، قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (الأنعام:117)

* * *

بعد هذا البيان القرآني الذي يبث في روع المؤمن سعة علم الله المحيط بكل شيء، والذي يعمر قلبه بلذة لا نهاية لها، لا يلتفت المؤمن إلى ذلك الجدل العقيم الذي أفرزته مقولة (إن العلم الإلهي لا يتعلق بالجزئيات)(1) أو إلى أولئك المحجوبين بعقال

1) من الردود التي رد بها المتكلمون على هذه المقولة:
1. أن الله تعالى فاعل لهذه الأجسام على سبيل الإحكام والإتقان، وكل فاعل على هذا الوجه فإنه لا بدّ وأن يكون عالماً بما فعله وهذه الدلالة بعينها ذكرها الله تعالى في

العقل الذين نفوا إحاطة علمه تعالى بكل شئ، رافضين شهادة الموجودات الصادقة على علمه المحيط بكل شئ.

لأن عقل المؤمن عقل مؤيد بوحي الله، فلذلك لا يقيس الواسع على الضيق، ولا المطلق على المحدود، ولا العليم على الجهول.

بل هو يدرك ما قاله الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام عندما جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر عليه السلام:(ما علمي وعلمك في علم اللّه إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر)(1)

وهو تشبيه تقريبي.. أما الحقيقة فأعظم من ذلك، فلا يمكن مقارنة علم الله بعلم عباده، فعلم العباد هبة من الله وفضل منه، فهو علم تبعي لا ذاتي، وظل لا حقيقة.

ولذلك استعمل القرآن الكريم هذه التشبيهات ليصور سعة علم الله، فقال تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (الكهف:109)، وقال تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (لقمان: 27)

فهذه الآية تنص على أنه لو كانت تلك البحار ـ بجميع مياهها ـ مداداً لكلمات اللّه، والشجر كله أقلاما، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات اللّه قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا أن يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه.

* * *

أما السؤال الذي يجره الوهم بعد هذا، والذي منشؤه التشبيه، وحصاده الجهل والجحود، وهو: كيف يكون الله عالما بكل شيء؟.. أو كيف لا يعزب عن الله شيء؟

قوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة:29)، فقد ذكر الله تعالى خلق السموات والأرض، ثم فرع على ذلك كونه عالماً.

2. أن الخالق للشيء على سبيل التقدير والتحديد لا بدّ وأن يكون عالماً به وبتفاصيله لأن خالقه قد خصه بقدر دون قدر والتخصيص بقدر معين لا بدّ وأن يكون بإرادة، وإلا فقد حصل الرجحان من غير مرجح والإرادة مشروطة بالعلم، فثبت أن خالق الشيء لا بدّ وأن يكون عالماً به على سبيل التفصيل.

وقد رد الغزالي على هذه المقولة ردا مفصلا في كتابه (تهافت الفلاسفة)

1) رواه البخاري.

والجواب عن هذا لا يحوج المؤمن إلى أي تكلف، بل يكفيه أن يقرأ سورة الإخلاص ليعلم أن صفات الله تابعة لذات الله (2)، وذات الله لا تحد ولا تقيد، ولا يقال عنها كيف، ومثلها صفاته.

وهذا الجواب يرضي العقل السليم ويغنيه، لأنه إذا قيل له: (إن فلانا الراعي يدرك خفايا النظريات العلمية ودقائقها، بل يستطيع أن يحول منها واقعا ملموسا) تجده يستغرب، ويسأل محتارا:(كيف يكون هذا؟)

لكن إن قيل له:(إن الدكتور الفلاني يعلم كل ذلك) لا يستغرب ولا ينكر ولا يسأل عن كيف ولا أخواتها.

فهو يدرك أن حقيقة الدكتور العلمية تختلف عن حقيقة الراعي.

وذلك نفس ما يقوله العقل السليم عن الله، فلا يستغرب صفاته تعالى ولا يتعجب منها إلا الجاهل بذات الله أو بقدر الله.

ولذلك قال تعالى في الإخبار عن قصة أصحاب الكهف: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً (الكهف: 9)، أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة اللّه تعالى؛ وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

فلذلك أمرنا بتسبيح الله عند رؤية آياته حتى ننزهه من أن نحصر قدرته أو صفاته في حدود معينة، كما قال تعالى عن العارفين: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (آل عمران: 191)

فالتسبيح هو تنبيه العقل إلى عدم حد الله بأي حدود، فالله هو الواسع المحيط بكل شيء.

* * *

بعد هذا نتساءل عن علاقة هذا بالقدر.. أو ما الذي يؤسسه

---

2) هناك خلاف بين المتكلمين في علاقة الصفات بالذات، وهو خلاف جدلي لا قيمة له، ولا ينتج عنه الحكم على طرف من الأطراف بالسنية أو البدعية، كما يبالغ في ذلك الكثير، لأن الذي يقول بأن الصفات عين الذات، لا ينفي الصفات في الحقيقة، وإنما يبالغ في إثبات اتصاف الله بها، فكيف يحكم على من يقول بهذا بالبدعية.

ولو رددنا الأمر إلى أصله، فليس في النصوص لفظ (الصفات).. بل ليس هناك إلا الأسماء، فالله تعالى قال: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (لأعراف: 180)، ولم يقل: (ولله الصفات العليا).. ولو أن الأمة اكتفت بالأسماء لارتفع الخلاف بينها في هذا المجال.

هـذا النـوع من الإيمـان في النفس والعقـل والقلب من حقـائق القدر؟

والجواب عن ذلك هو أنه من الشبه الكبيرة التي قـد تسـيطر على النفس ـ وربما لا يستطيع اللسان أن يعبر عنها حياء أو أدبـا أو خوفا من الكفر والضلال والبدعة ـ هـو تصـور المحدوديـة في علم الله، باعتبار أن المعلومـات الـتي ينتظمهـا هـذا الكـون من السـعة بحيث لا يتصـور لهـا نهايـة.. والعقـل الإنسـاني يتيـه لا محالـة عنـد الوصول إلى هذه الغاية.. ولذلك يحكم عليها ـ شـعر أو لم يشـعر ـ بالاستحالة.

وانطلاقـا من دنس هـذا التشـبيه يقـع في أنـواع أخـرى من الدنس تحول بينه وبين فهم القدر الإلهي وتذوقه.

ولهذا كان هذا النوع من العلم هو اللبنة الأولى الـتي يتأسـس عليها الإيمان بالقدر.

2 ـ خبرة العليم:

الفرق الثاني بين علم الله وعلم خلقه، والذي نحتاجـه لإدراك سـر التوحيـد في القـدر، هـو أن علم اللـه محيـط بـالمعلوم، يعلم ظاهره وباطنه، ومكشوفه وغامضه، وسره وعلانيته، فينكشـف لـه انكشافا تاما بخلاف علم الخلق المحدود، والـذي يعلم من الأشـياء ما تقتضيه مصـلحته منهـا، فلا يعـدوا أن يعـرف الأعـراض والظلال دون الحقائق والجواهر، ولذلك عبر القرآن الكريم عن العلوم التي وهبها لآدم ﷺ بكونها أسماء، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَـةِ فَقَـالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَـؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:31)

فكل ما يعرفه البشر الآن من معـارف، والـتي قـد يتصـورون أنهم قد بلغوا بها الذروة لا تعدو أن تكون معرفـة لبعض الخصـائص والصـفات، وهي أقـل من أن تـدرك حقـائق الأشـياء على مـا هي عليه.

أما علم الله فهو علم شامل محيط بالمعلوم من كل نواحيـه، ولذلك كان من أسماء الله تعالى الخبير والشهيد واللطيف:

أما الخبير، فهو الذي لا تعزب عنه الأخبـار الباطنـة فلا يجـري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضـطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها(1).

---

1) الخبير بمعنى العليم ولكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة ويسمى صاحبها خبيرا، انظر: المقصد الأسنى: 103.

أما الشهيد فهو العالم بما ظهر، فالشهادة تعني الحضور، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾(البقرة: 185)، ولهذا أخبر تعالى أنه شهيد على كل شيء، فقال على: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (الحج: 17)، وقال: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة:6)، وقال: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (البروج:9)

ومثل هذا الاسم اسمه تعلى (الرقيب) فهو يدل على حضور الله التام لكل شيء، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء:1)، فقد جعل الله تعالى في هذه الآية أمره بالتقوى مستندا إلى رقابة الله التي تعني حضوره الشامل الكامل لكل شيء، وهو ما يفسره قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد:4)، فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أصنافا كثيرة من معلوماته، ثم ربطها بحضوره التام.

وقد جمع الله تعالى بين الرقابة والعلم في قوله على لسان نبيه يوسف: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة: 117)

أما اللطيف فهو الذي يعلم ما لطف من الأشياء، وما دق منها، وما بني عليها، وما تفرع منها.

وبهذه الأسماء الثلاثة يكون علم الله محيطا بالمعلوم من كل جوانبه.. فهو يعلم باطنه بكونه خبيرا.. ويعلم ظاهره بكونه شهيدا.. ويعلم أساسه وما دق منه بكونه لطيفا.

ولهذا، فإن القرآن الكريم يحدثنا ويملأ قلوبنا بمعاني هذه الأسماء، ويربينا على أساسها، ولذلك يكثر التنبيه إلى علم الله بالسر والجهر والخفي والمعلن والغيب والشهادة، ولكل ذلك تأثيره العلمي والذوقي لفهم سر التوحيد في القدر.

بل إن لذلك دوره في كشف غوامض القدر، والرد على الشبهات التي تفرزها الغفلة، وتبثها الشياطين.

ولتقريب الصورة نرى في واقعنا الاهتمام في كل مجال بما يقوله الخبراء، فيرجع إليهم في التحاليل السياسية والعسكرية

والطبيــة وغيرهــا، حــتى أن أقــوالهم الــتي تحــاول استشــراف المستقبل بناء على الواقـع تصـبح هي الواقـع الـذي يـؤثر في كـل المجالات.

فلذلك يكفي أن يقول الخـبراء الاقتصـاديون باحتمـال ارتفـاع عملة معينة ليحول السوق من قبلة إلى قبلة.

ويكفي أن يوجه الخبراء السياسيون حادثة معينة توجيها خاصا ليتحول العالم إلى عالم آخر.

بل إنا في حياتنا العادية نرجع إلى الخبراء في كـل المجـالات، لأن علم الخبير مبـني على الواقـع لا على الخيـال، ومؤيـد بـالخبرة والتجربة والمعايشة التي تحول من تنبؤاته علما محققا.

وانطلاقا من هذه الخبرة الهزيلة التي منحهـا الإنسـان، والـتي من خلالهــا اســتطاع أن يستشــرف كثــيرا من خبايــا المســتقبل، نتساءل عن التعجب من خبرة الله، وعن سؤال: كيـف؟ عن خـبرة الله.

فالله تعـالى الـذي خلـق الإنسـان، ويعلم خصائصـه الظـاهرة والباطنة،كيف لا يعلم مستقبل الإنسان، قـال تعـالى: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:14)

وذلك، كما أن صانع الآلة ومخترعها هو خبـير بإمكانيتهـا، وبمـا يحصل لها من عطب، وبما يؤول إليه أمرها، فيتعامل معها، وكأنهــا جزء منه، بخلاف من يتعامل معها تعامـل المسـتهلك الـذي لا يـرى منها إلا جانبها المنفعي المحدود.

وللفرق بين علم الخبـير وعلم غـيره أمـر اللـه تعـالى طـالب معرفـة اللــه بـالرجوع إلى الخبـير، وهــو العـالم باللــه العـارف بـه المصاحب له، قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ الـرَّحْمَنُ فَاسْـأَلْ بِـهِ خَبِـيراً﴾ (الفرقان:59)

ولذلك يخبرنا الله تعالى في معرض الحديث عن أحكامـه عن خبرته بأعمال خلقه، لأن العالم بذوات الخلق أعلم بأعمالهم:

ففي معرض ذكر الله تعـالى لجـواز تـزين النسـاء بعـد انتهـاء إحدادهنا، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْـنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَـإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَـا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:234)

وهي تحمل عتابا مبطنا لمن ينكر عليهن، لأن في إنكاره تعديا على اللــه، فاللــه هــو الخــالق الخبــير بخلقــه، وهــو أعلم بمــا في

نفوسهم وبواطنهم، وله وحده الحق في الإنكار أو عدمه.

وفي معرض ذكره للصدقات قال تعالى: ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّـدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة:271)، فالله تعالى عقب على هذا السلوك الذي هو إظهار الصدقات أو إخفائها بكونه خبيرا، وكأنه يخبر من أظهر الصدقات بأن الله خبير يعلم نيته في إخراجه لها علانية.. فالعلانية لا تدل بحد ذاتها على الإخلاص أو على الريـاء، ولهذا فهي تحتاج إلى خبير يميز بينهما.

ومثل هذا يقال في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمـران:153)، وقوله تعالى: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (آل عمران:180) وغيرها من آيات القرآن الكريم.

ولهذه الفاصلة المترددة في هذه الآيات وغيرها تأثير سـلوكي تربوي عظيم.. فهي تربي المؤمن على مراعاة خبرة اللـه ببـواطن الأشياء.. وذلك مـا يجعلـه يتقن العمـل ظـاهرا وباطنـا، فلا تشـغله حروفه عن مقاصده، ولا ظاهره عن باطنه.

وتـرد خـبرة اللـه تعـالى في القـرآن الكـريم مقرونـة بلطفـه وعلمه في مواضع كثيرة للتنبيه إلى أن هـذه الخـبرة مسـتندة إلى العلم الواسع من جهة، ولا يصدر منها إلا اللطـف من جهـة أخـرى، فهي خبرة علمية عملية:

وقد جمع الله تعالى بينها جميعا في قوله: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك:14) والتي جاءت عقب قوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الملك:13)

وكأنها بذلك تعلل سر علم الله بسـر العبـاد وجهـرهم وبـذات صدورهم، فالله هو الخالق، وهـو اللطيـف الـذي لطـف في خلقهم بتلك الصورة، وهـو الخبـير بمصـالحهم وأحـوالهم وتصـرفاتهم عنـد فعلها أو قبل فعلها.

وقال تعـالى قارنـا للطـف بـالخبرة في حكايتـه عن موعظـة لقمان عليه السلام لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَـرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَـأْتِ بِهَـا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيـفٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان:16)

فالله تعالى خبير بموضعها لطيف بوضعها الموضع المناسب لها.

وقال تعالى في تعليل إدراكه للأبصار، وعدم إدراكها له: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الأنعام:103)

فعدم إدراك العباد لله معلل بلطف الله وخبرته، فالله لطيف بعباده رفيق بهم خبر ضعفهم عن إدراكه فحرمهم منه في الدنيا لطفا ورفقا لا شحا وبخلا، فهو الكريم الجواد.

وقال تعالى عن لطفه المقترن بخبرته في النظام والإبداع الذي زين به السماء والأرض: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (الحج:63)

وقال تعالى قارنا بين العلم والخبرة: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (لقمان:34) فقد علل تعالى علمه بمستقبل الأشياء بعلمه بها وخبرته.

وقال تعالى مرجعا سر خلق البشر على هذه الصور المختلفة إلى علم الله وخبرته: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:13)

كما يرد في القرآن الكريم الاقتران بين خبرة الله وبصره ليدل على علم الله المطلق بالأشياء وبصره بها، قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (الاسراء:17)، وقال تعالى: وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (فاطر:31)

* * *

والقرآن الكريم ينقلنا من العلم المجمل إلى العلم المفصل، ومن العلم النظري إلى العلم العملي حين يخبرنا عن علم الله بكل ما نخفيه وما نبديه، قال تعالى: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (طه:7)، وقال تعالى: لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (النحل: 23)، وقال تعالى: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (الانبياء:110)، وقال تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (النمل:74)، وقال تعالى: إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً

(الأحزاب:54)

وهو تعالى عليم بذات الصدور، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (غافر:19)، وقال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الملك:13)

فلذلك يعلم ما يكنه اليهود من أحقاد على المؤمنين، قال تعالى: ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران:119)

وهو عليم بما تكنه صدور المنافقين من الأحقاد، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران:154) أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين.

وهكذا يرتاح المؤمن، وهو يرى أن الله مطلع على القلوب التي تحمل عليه الأضغان والأحقاد، فيكتفي بعلم الله عن أن يشغل نفسه بذلك.

* * *

وانطلاقا من هذه الأوصاف الدالة على خبرة الله بكل شيء، وهي التي يتأسس عليها سر التوحيد في القدر، يخبرنا القرآن الكريم عن علم الله بالمستقبل، وهو العلم الذي يجادل فيه المنكرون للقدر شعروا أو لم يشعروا.

فالله تعالى أخبرنا بما سيكون من الممكنات لو كان على غير الصورة التي كان عليها:

فأخبر عن مقولة الكفار الذين لم يرضهم أن يكون الرسول ﷺ بشرا مثلهم، قال تعالى حاكيا قولهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ ﴾ (الأنعام:8)، ثم قال بعدها مبينا الحال لو كان الرسول ملكا: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام:9)

وعلى عكس هذا أخبر القرآن الكريم عن مقولة الكفار المجادلين فيما لو كان الأمر على خلاف ما بعث لهم، فقال تعالى

عن قولهم لو كان القرآن الكريم أعجميا: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُـهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَـرَبِيٌّ قُـلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُـدىً وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت:44)

وهكذا لو كان رسـولهم أعجميـا لاعتلـوا بعلـة عجمتـه: ﴿ وَلَـوْ نَزَّلْنَـاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَـرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَـا كَـانُوا بِـهِ مُـؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:198 ـ199)

وقال تعالى فيما لو نزل عليهم في كتاب فعاينوه ورأوا نزولـه وباشروا ذلك: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَـاسٍ فَلَمَسُـوهُ بِأَيْـدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام:7)

ومثل هذا أخبر عن قولهم في مكابرتهم للمحسوسات: ﴿ وَلَـوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَـالُوا إِنَّمَـا سُـكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر:14 ـ 15)

وهكذا قولهم في سائر آيات الله التي يزعمون أنها لو جـاءت لآمنوا بها، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَـاءَتْهُمْ آيَـةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَـا الْآيَـاتُ عِنْـدَ اللَّهِ وَمَـا يُشْـعِرُكُمْ أَنَّهَـا إِذَا جَـاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:109)

بل أخبر الله تعالى عن المستحيلات التي لم تقع ولن تقع، بل يمنع العقل وقوعها لو وقعت كيف يكون تأثير وقوعها:

فقال تعالى فيما لو كان الكون تحت سـيطرة مجموعـة آلهـة كما يعتقد الوثنيون: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الانبياء:22)

وقال فيما لو كانت الألوهية شركة بين الله وغيره: ﴿ مَـا اتَّخَـذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَـذَهَبَ كُـلُّ إِلَـهٍ بِمَـا خَلَـقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:91)

وقـال تعـالى رادا على المشـركين في دعـواهم الـتزلف إلى الله بآلهتهم: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَـةٌ كَمَـا يَقُولُـونَ إِذاً لَابْتَغَـوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ (الاسراء: 42)، أي لو كـان الأمـر كمـا تقولـون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليـه وتشـفع لديـه، لكـان أولئـك المعبـودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبـدوه أنتم وحده كما يعبـده من تدعونـه من دونـه، ولا حاجـة لكم إلى معبـود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه بل.

وهكذا يمتد علم الله وخبرته إلى كل الأمور ما كـان منهـا في حيز الوجود، أو ما كان مخبـأ في سـراديب العـدم، أومـا لن يكـون

أبدا.

* * *

وانطلاقا من هذا نحب أن نستشرف بعقولنا الضعيفة السر في علم الله بأفعال الإنسان وأجزيته قبل صدور ذلك منه، وهو ما لم تتقبله بعض العقول الضعيفة فراحت تلحد في آيات الله.

فالله تعالى يرجع ذلك العلم إلى كونه الخالق الذي يعلم حال المخلوق، ولهذا يرد في القرآن الكريم الربط والاقتران بين العلم والخلق، كما قال تعالى: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:14)

وقد قال قبلها: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الملك:13)، فقد أرجع سر علمه بذات الصدور إلى كونه الخالق لها.

وهكذا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (قّ:16)، فقد أرجعه علمه تعالى بالإنسان إلى كونه الخالق له، وهو أقرب إلي من حبل الوريد.

ولهذا يعلل تعالى مغفرته لذنوب العباد، وخاصة ما كان منها من اللمم بعلمه بنشأتهم، وما جبلوا عليه، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (لنجم:32)

فاللمم المستثنى هو صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال التي قد يغلب فيه الطبع، ولهذا قال ابن عباس :(ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال النبي ﷺ:(إن اللّه تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنَّفْس تمنّى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)(1)

فاعتبر ﷺ هذا الطبع الذي يغلب على الإنسان ولوكان صالحا من الجبلة التي جبل عليها، والتي يجتهد في توجيهها، ولكنها مع ذلك قد تغلبه، والله تعالى وعد بالمغفرة عليها إذا ما لم يستسلم الإنسان لها، فتوقعه في الكبائر.

ولهذا يرد في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة الحديث عن جوانب خلق الإنسان لما لها من التأثير في سلوكه وطبعه، قال تعالى مفصلا نعمه في خلق الإنسان وخلق جميع احتياجاته:

---

1) رواه البخاري ومسلم.

 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (الزمر:6)

ثم رتب على هذا الخلق أوامره وتشريعاته، قال تعالى بعد الآية السابقة: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (الزمر: 7)

* * *

ونرى في القرآن الكريم أن الله تعالى ــ لعلمه بخلقه وطبائعهم وما فطروا عليه من خير وشر ــ يرجع سر اختيار الإنسان أو المصطفين من بني الإنسان إلى علمه بهم:

فلهذا قال تعالى للملائكة ــ عليهم السلام ــ حينما بدا من منهم الاستغراب من خلق من يفسد فيها ويسفك الدماء رد عليهم بأنه يعلم منهم ما لا يعلمون، قال تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (البقرة:30)

فالملائكة ــ عليهم السلام ـ نظروا إلى تسبيحهم وتقديسهم وغفلوا عن مراد الله من الخليفة، وهو كما يقتضي الفساد يقتضي الصلاح، ومراد الله الصالحون من خلقه.

وهؤلاء الصفوة من خلقه هم الذين اختارهم الله على علمه بهم، ولهذا رد الله تعالى على المشركين الذين أنفوا من اتباع الحق لما رأوا غالب من اتبعه في أول بعثته ﷺ ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال تعالى حاكيا عن قولهم: لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ (الاحقاف: 11)، وقال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً (مريم:73)

فرد الله تعالى هذه المقولات كما رد مقولة الملائكة إلى أن علمه بخلقه وبما جبلوا عليه هو الذي أهلهم لذلك التخصيص، فقال تعالى ردا على قولهم: أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا (الأنعام: 53) بقوله تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (الأنعام: 53) أي

أن الله أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:69)

وبمثل هذا رد الله تعالى على استهزاء المشركين برسول الله ﷺ الناشئ عن احتقارهم له والمتولد من عدم معرفتهم به، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (الانبياء:36)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ (الفرقان:41)

وقال تعالى عن المماثلة في ذلك بين قوم رسول الله ﷺ وقوم غيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (الأنعام: 10)

فالله تعالى رد على هذا الاحتقار الممزوج بالحسد والكبر بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: 124)، أي أن الله أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، فليس كل محل أهلا لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، كما أنه ليس كل محل أهلا لقبولها والتصديق بها.

ولهذا يقرن القرآن الكريم بين التخصيص والعلم كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، ثم عقب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ (الاسراء:55)

* * *

قد يقال بعد هذا: لماذا كان الأمر هكذا؟

وكما قلنا في (كيف) نقول في (لماذا)، فالله تعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار، وليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: 68) فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه.

ولهذا نفى أن يكون لغيره اختيارا مع اختياره، بل اعتبر اعتقاد

ذلك شركا، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: 68)

وإن أراد العقل أن يتصور ذلك ويقتنع به فلينظر إلى جميع اختياراته ما دق منها وما جل، ليرى أنه لا يختار إلا ما يراه طيبا، ولا يطرح إلا ما يراه خبيثا.

وكذلك الأمر ـ وللـه المثل الأعلى ـ بالنسبة للمختارين من خلق الله، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (لأنفال:37)

وهذا التمييز هو المراد من التكليف والابتلاء ليقسم الناس يوم القيامة على أساس علاقتهم بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: 28)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (الروم:14)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (الروم: 43)، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يّس: 59)

* * *

وكما أن الله تعالى يرجع أسرار اصطفائه للمخلصين من عباده إلى علمه بهم وبما تكن طبائعه من جواهر الطيبة يرجع أسرار تشريعاته وخاصة ما غمض على العقل إدراكه أو صعب على الجوارح تنفيذه إلى علم الله وخبرته.

ولذلك قال تعالى في تشريع القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:216)

فالله تعالى ينهى عن الاستسلام لأذواقنا ورغباتنا فنحن نجهل بأنفسنا من أن نشرع لأنفسنا:

رب أمـــــــــر تتقيه جـــر أمـــرا ترتضـــيه

خفي المحبـــــوب منه وبـــدا المكـــروه فيه

ولهذا قال ﷺ لرجل:(أسلم)، فقال:(أجدني كارهاً)، قال: (أسلم وإن كنت كارهاً)(1)

ومن هذا الباب قوله تعالى في النهي عن العضل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا

1) رواه أحمد.

تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقرة:232)

فالله تعالى نهى عن اتباع ما تأمره به الأحقاد والضغائن وأعاد الأمر للزوجين، فهو أعلم بهما وبرغبتهما.

* * *

ومثل خبرة الله بتشريعاته وعلاقتها بمصالح الخلق، فإن القرآن الكريم يخبرنا عن علم الله المطلق وخبرته بعواقب حياتنا وما يحصل لنا من مقادير، ولذلك كان تعالى أدرى بمصالحنا من أنفسنا.

ومن أمثلة ذلك ما حصل للصحابة عند انصرافهم من غير عمرة في صلح الحديبية، وتصوروا أن ما حصل لهم كان هزيمة شديدة، ولكن الله تعالى الخبير بعواقب الأمور يبشرهم معتبرا ما حصل فتحا من الله، قال تعالى: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (الفتح:27)

فقد بين تعالى حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام التالي، وكان ذلك الفتح هو صلح الحديبية فبسببه حصل من مصالح الدين والدنيا ما لم يكن يخطر على بال الصحابة(1) ولهذا سماه فتحا، وسئل النبي ﷺ:(أفتح هو) قال:(نعم)(2)

ومثل هذا قول يوسف عليه السلام: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (يوسف: 100)، فأخبر أن الله تعالى بلطفه نقله من تلك الأحوال جميعا إلى ذلك الحال المرتضى بطرق خفية لا يعلمها الناس.

---

1) فبسببه تمكن المسلمون من الاجتماع بالكفار ليدعوهم إلى الإسلام ويبينوا لهم محاسنه، فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام.. ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي ﷺ في ذي القعدة عام ست كانوا ألفاً وأربعمائة، ولما أراد النبي ﷺ فتح مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان، وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح لكونه سبباً لقوة المسلمين وكثرة عددهم.

2) رواه أحمد وأبو داود.

ولهذا كان لاسم اللطيف دلالة أخرى غير دلالته على العلم، وهي دلالته على نوع من أنواع القدرة.. فتقديرات الله تقديرات لطف.. لا تقديرات عنف، وهو لهذا يرتب الأمور بعضها على بعض إلى أن تصل إلى النتيجة المطلوبة، وهو معنى قوله يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾

ولنفهم هذا المعنى الذي قاله يوسف عليه السلام نرجع إلى قصة يوسف في القرآن ... فالله تعالى بدأ هذه السورة بالغاية التي سينتهي إليها يوسف عليه السلام، وهو ما رآه في حلمه من المكانة التي أعدها الله.

ثم جاءت جميع أحداث السورة لتبين كيف كان اللطيف الخبير يسير حياة يوسف عليه السلام لتتحقق له تلك المكانة التي أعدت له ابتداء.

وقد كان يعقوب عليه السلام مدركا لعجيب لطف الله، فلهذا لم يستغرب لما جاءه البشير، بل لام من استغرب ذلك، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:96)

وهكذا ما ورد في سورة القصص، فقد بدأت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)﴾ (القصص)

ثم بينت من أين بدأ لطف الله يحضر لهذا المن والتمكين الذي ينتظر المستضعفين، فقال: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص:7)

فقد بدأ المن والتمكين بتحضير أم صالحة ترضع رضيعا ... ليقع هذا الرضيع بعد ذلك في يد أعدائه ... ثم يتربى في حجرهم ... ثم يفر منهم ... ثم يعود إليهم بعد أن يئسوا من عودته ليحقق الله به البشارة التي وعد بها من تمكين المستضعفين.

* * *

وهذا الأساس المعرفي يلقي للمؤمن أول ثمرة من ثمرات التوحيد في القدر، فيستشعر المؤمن أنه بين يدي خبير رحيم

لطيف قد يوقعه ظاهرا في بعض المحن التي تطهر خبثه وتنقي سريرته، ولكنه يوقن أنه سيخرجه منها نقيا طاهرا سعيدا، مثلما يخرج الطبيب الخبير مريضه الذي قطع أوصاله وآلمه بأنواع المرارات صحيحا معافى.

ولذلك كان إدراك المؤمنين لهذه الحقيقة هو الذي جعلهم يستسلمون لأوامر الله، وهم يدركون أن اختيار الله لهم خير لهم من اختيارهم لأنفسهم، وقد روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:232) أن بعض الصحابة زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول اللّه ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب، فقال له:(يا لكع ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، واللّه لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك)

قال الراوي:(فعم اللّه حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل اللّه تعالى:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ (البقرة: 231) إلى نهاية الآية، فلما سمعها قال:(سمعا لربي وطاعة)، ثم دعاه فقال:(أزوجك وأكرمك)(1)

وهذا التسليم لخبرة الله وعلمه في شؤون التشريع والحياة هو الذي يجعل المؤمن يلتجئ إلى الله العالم بعواقب الأمور يستخيره فيما يعرض له من أمور، ولهذا قال ﷺ:(من سعادة ابن آدم كثرة استخارته لله تعالى ورضاه بما قضى الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله تعالى وسخطه بما قضى الله تعالى له)(2)

ودعاء الاستخارة الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ، بل كان حريصا على تعليمه يحمل كثيرا من معاني الالتجاء لله والتسليم له باعتباره العليم الخبير، عن جابر بن عبدالله قال:(كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن فيقول:(إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام

1) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة واللفظ للترمذي.
2) رواه الترمذي.

الغيــوب، اللهم إن كنت تعلم أن هــذا الأمــر خــير لي في ديــني ومعاشي وعاقبة أمـري، أو قـال عاجـل أمـري وآجلـه فاقـدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمـر شـر لي في ديـني ومعاشـي وعاقبـة أمـري، أو قـال عاجـل أمـري وآجلـه فاصرفه عني واصرفني عنه، وقدر لي الخير حيث كان، ثم رضـني به، قال: ويسمي حاجته)(1)

ففي هذا الدعاء الرقيق يلجأ العبد الضـعيف إلى ربـه معترفـا بجهله وعجزه مستسلما لعلم الله وقوته.

وهكذا يتلقى المـؤمن العـارف باللـه هـذه المعـارف الجليلـة، حيث يحولهــا إلى علاقــات ذوقيــة وجدانيــة ومنهج حيــاة يعيش بمقتضاه في صحبة ربـه هائمـا في مواجيـده، بينمـا يتلقاهـا العقـل المتكبر المستبد الجاهل بكبريائه وجهله، مقارنا نفسه بربه، يجـادل في الله بغير علم ولا برهان ولا كتاب منير.

وهو في ذلك كالمياه العذبة تتلقاها التربة الطيبة، فتخرج منها ثمـارا يانعـة تـؤتي أكلهـا كـل حين، وتتلقاهـا المسـتنقعات الآسـنة، فتنتشر روائحها المنتنة في أرجاء الفضاء.

3 ـ غنى العليم:

الفـرق الثـالث بين علم اللـه وعلم خلقـه، وهـو حقيقـة من الحقائق الكبرى التي ندرك بهـا سـر التوحيـد في القـدر هـو أن أن الله غني عليم.

والغنى المطلـق يعـني تـنزه الغـني عن أي علاقـة لـه بغـيره سواء في ذاته أو في صفاته(2).

وكما أن الله غني بذاته غنى مطلقا، فهو كذلك غـني بصـفاته عنهم، فلذلك لا يكون علم الله تعالى مستفادا من المعلومات، بـل تكون المعلومات مستفادة منه.

وهذا بخلاف علم العبد الذي يتبع الأشياء ويحصل بها، فلا يعلم الشيء إلا بعد وجوده.

ولا يسـتغرب هـذا الوصـف للـه، فاللـه هـو مبـدع الخلـق من العدم، ولا يستحيل على المبدع أن يدرك من أسرار اختراعه مـا لا يدركه غيره، ولهذا يختلف علم متعلم الشطرنج عن علم واضعه، (فإن علم الواضع هو سبب وجود الشطرنج، ووجـود الشـطرنج هـو سـبب علم المتعلم، وعلم الواضـع سـابق على الشـطرنج، وعلم

1) رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

2) نحب أن ننبه هنا إلى أن إطلاقنـا لفـظ الصـفات هنـا جـاء من بـاب الغـالب.. لا من الباب الذي حصل فيه الخلاف بين المسلمين، والذي لا نرى له مسوغا.

المتعلم مسبوق ومتأخر، فكذلك علم الله عز وجل بالأشياء سابق عليها، وسبب لها وعلمنا بخلاف ذلك)[1]

ويضرب النورسي على استقلالية علم الله، واستناد الأشياء جميعا إلى علمه مثلا بما لو أمررنا مادة كيمياوية معينة على كتاب كُتب بحبر كيمياوي لا يُرى، فإن ذلك الكتاب الضخم يظهر عياناً حتى يستقرىء كل ناظر اليه.

ومثل هذا يتعين مقدار كل شيء وصورته الخاصة به في العلم المحيط للقدير الازلي، فيمرر القدير المطلق قوته - التي هي تجلٍ من قدرته - بكل سهولة ويسر، كإمرار تلك المادة في المثال، على تلك الماهية العلمية، يمرره بأمر (كن فيكون)، وبقدرته المطلقة تلك، وبارادته النافذة.. فيعطي سبحانه ذلك الشيء وجوداً خارجياً، مُظهراً إياه أمام الأشهاد، مما يجعلهم يقرأون ما فيه من نقوش حكمته.

وهكذا يكون علم الله أساسا لمشيئته وتقديره ـ كما سنرى ـ

ويضرب مثلا آخر على ذلك بما لو أن شخصا محبوسا في غرفة صغيرة لايوجد فيها سوى ثقب صغير يطل على الخارج، فعندما تمر قافلة من الإبل من أمام هذا الثقب، فان هذا السجين سوف يشاهد رأس بعير أولا، ثم رقبته، ثم سنامه، ثم أرجله، ثم ذنبه، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الإبل الأخرى.

وبذلك يصير ذلك الثقب هو السبب في إيجاد حالات من الماضي والحاضر والمستقبل لدى الناظر السجين، لكن المسألة تختلف تماما بالنسبة للواقف على سطح الغرفة، وينظر الى الصحرا نظرة شاملة، فهو يشاهد جميع إبل القافلة في وقت واحد.

ومن هنا يتضح ان ايجاد مفاهيم الماضي والحال والمستقبل ناجمة عن محدودية نظرة الإنسان، فما هو ماض بالنسبة لنا كان مستقبلا لأقوام قد سبقونا، وماهو مستقبل بالنسبة لنا هو الآن ماض بالنسبة لأقوام سيأتون.

ويضرب مثلا آخر على ذلك، فيقول:(إذا وجدت في يدك مرآة، وفرضتَ المسافة التي في يمينها الماضي، والمسافة التي في يسارها المستقبل، فتلك المرآة لا تعكس الاّ ما يقابلها، وتضم الطرفين بترتيب معين، حيث لا تستوعب أغلبهما، لأن المرآة كلما كانت واطئة عكست القليل، بينما اذا رفعت إلى الأعلى فإن

1) المقصد الأسنى، ص87.

الـدائرة الـتي تقابلهـا تتوسـع، وهكـذا بالصـعود تـدريجياً تسـتوعب المرآة المسافة في الطرفين معاً في نفسها في آن واحد.

وهكذا يرتسم في المرآة في وضعها هـذا كـل مـا يجـري من حالات في كلتا المسافتين. فلا يقال إن الحالات الجارية في إحداها مقدمة على الأخرى، أو مؤخرة عنها، أو توافقها، أو تخالفها) (1)

وانظلاقا من هذا الأمثلة، فإن الذات الـتي لا يحصـرها مكـان، بل لا علاقة لها بالمكان.. بل ولا علاقة لها بالزمان(2).. قد أحـاطت بالأزل والأبد.. فـإن الماضـي والحاضـر والمسـتقبل بالنسـبة لهـا لا معنى له، فجميع حوادث الدهر ماثلة بين يـديها (ولكن كـل واحـدة في موقعهـا الخـاص)، وهـي محيطـة علمـابجميع الـحوادث وموجودات العالم، سوا بالماضي، أوبالحاضر، وبالمستقبل بصـورة متساوية.

نعم.. إن تصـور هـذا بالنسـبة للعقـل المحبـوس في مضـيق الحس صعب.. ولكن كل الحقائق لا تدل إلا على هذا.. ولا نملك أن نقول في هذا غير هذا.

ولهذا، فإن القـرآن الكـريم ينص في نصـوص كثـيرة على أن علم الله لا يرتبط بالمكان والزمـان، فالله تعـالى يقـول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:34)

ويخبر عن مقالة أهل الجنة وأهل النـار قبـل أن يقولـوا ذلـك، بل إن القرآن الكريم يعبر عن ذلـك بصـيغة الماضـي الـذي حصـل وانقضـى، فيقـول:﴿ وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَمِيعـاً يَـا مَعْشَـرَ الْجِنِّ قَـدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَـالَ أَوْلِيَـاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَـا اسْـتَمْتَعَ بَعْضُـنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَـا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:128)

ويصور القرآن الكريم مشهدا من مشاهد الآخرة، فيعـبر عنـه بصيغة لا تفيد إلا شيئا واحدا، وهو أن هذا المشهد مضـى وانقضـى، قال تعالى:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاتِـهِ

---

1) انظر: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، رسالة القدر، لبديع الزمان النورسي.

2) إلا علاقة خلق المكان والزمـان.. ولا ينبغي أن نلتفت هنـا إلى أولئـك الغـارقين في أوثان التشبيه ممن يتصورون هذا إعداما للإله، فالعلم الحديث يقر بـأن المكـان والزمـان مخلوقان محدثان.. فهذا (ستيفن هوكنج) العالم الفيزيـائي الشـهير، والـذي يـدعى نيـوتن العصر الحديث، يقول:« لم تكن المادة هي وحدها التي خلقت أثناء الانفجـار العظيم، بـل إن الزمان والمكان أيضاً خلقـا.. إن للمكـان بدايـة، إذن: للزمـان بداية) (انظـر: الكـون، بوزلو، ص46)

أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) (الأعراف)

بل إن الله تعالى يذكر الساعة، فيخبر بأنها أتت، قال تعالى: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (النحل:1)

وهكذا يمتلئ القرآن الكريم بمثل هذه النصوص التي تصف علم الله بكونه علما مستغنيا عن انتظار ما سيحصل ليعلم به (1).

* * *

قد يقال بعد هذا: ولكن ظواهر النصوص التي تزعم اعتبارها أصلا تخبر بغير ذلك، فالله تعالى يقول: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران:140)، فهو يخبر أن مراده من ذلك الابتلاء هو أن يعلم المؤمنين من غيرهم.

ومثله، وفي نفس الموقف قوله تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران:166)

ومثله قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (المائدة:94)

---

1) انظر رسالة (معجزات حسية) فصل (نبوءات)، فقد ذكرنا فيها الكثير من الأمثلة من الكتاب والسنة الدالة على هذا.

ومثلـه قولـه تعـالى: ﴿ وَلَقَـدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَـاذِبِينَ﴾ (العنكبـوت:3).ـ وقولـه تعـالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَـافِقِينَ﴾ (العنكبـوت:11).. وقولـه تعـالى: ﴿ لَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَـا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُـرُهُ وَرُسُـلَهُ بِـالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَـوِيٌّ عَزِيـزٌ﴾ (الحديد:25)

بل إن من الآيات ما يقيد ذلك بصيغة الظرف، كما قال تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَـعْفاً فَـإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُـوا أَلْفَيْنِ بِـإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (لأنفـال:66)، فظـاهر الآيـة يـدل على أن علم اللـه حصل بعد أن لم يكن.

بل القرآن الكريم يخبر بأن مراد الله من تصـريفات مقـاديره هو حصول العلم له بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿ وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَـاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَـا جَعَلْنَا الْقِبْلَـةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَـا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِـعُ الرَّسُـولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِـيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ وَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:143).ـ وقال تعـالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِـزْبَيْنِ أَحْصَـى لِمَـا لَبِثُـوا أَمَـداً﴾ (الكهف:12).ـ وقـال تعـالى: ﴿ وَمَـا كَـانَ لَـهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (سـبأ:21)

بل في آيات أخرى ما قد يدل دلالة أصرح، كمـا قـال تعـالى: ﴿ أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَـدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:142).. وقال تعـالى: ﴿ أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُـؤْمِنِينَ وَلِيجَـةً وَاللَّهُ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ﴾ (التوبـة:16)، فالآيتـان تكـادان تصـرحان بـأن البلاء من وسـائل حصـول العلم بالمؤمنين، وتمييزهم عن غيرهم.

والجواب عن كل هذا ـ ابتداء ــ هـو أن القـرآن الكـريم الـذي نطق بهذه النصوص هو الذي نطق معهـا وقبلهـا بالحقـائق الغيبيـة قبل حصولها، فكانت كما أخـبر، وقـد مـر معنـا من أمثلـة ذلـك مـا يغني عن إعادته، ولا ينبغي ضرب محكم القرآن الكريم بمحكمه.

فالحقيقة إذن لا جدال فيها، وإنما الجدال الذي قد يحصل هـو

في التعبير عن الحقيقة، ولا محذور من مخالفة ظـاهر التعبـير إلى تعبيرات أخرى تؤدي المعنى وتحققه، فاللغة حمالة وجوه.

ومثل هذا ما عبر به الحديث القدسي الذي يقول اللـه تعـالى فيه على لسان نبيه ﷺ:(يـا ابن آدم مرضـت فلم تعـدني)(1) فهـذا الحــديث أصــل في هــذا البــاب، يفتح المجــال لفهم النصــوص المتشابهة على ضوء النصوص المحكمة.

فنحن لا نشك في كونه تعالى لا تعتريه الأعـراض والحـوادث، ولكن النص جـاء لغـرض معين، فلا ينبغي أن يجـادل أحـد ويحمـل الظاهر على ظاهره، ولو خالف الحقائق القطعية.

وما دام الأمر مجرد تعبير لفظي قـد يحمـل وجوهـا مختلفـة، فقد اتفق العلمـاء على أن المـراد ليس مـا يوهمـه ظـاهر اللفـظ، وإنما المراد معان أخرى:

فمنهم من قال: إن المراد (علم المعاينة)، فهـو وحـده العلم الذي يوجب الجزاء.

ومنهم من قــال: معنــاه (إلا ليعلم حزبنــا من النبــيين والمؤمنين)، وذلك مثل ما يقول الملك: فتحنـا البلـدة الفلانيـة، أي: فتحها أولياؤنا.

ويدل لهذا الفهم من النصوص قوله ﷺ فيما يحكيـه عن ربـه: (استقرضت عبدي فلم يقرضـني، وشـتمني ولم يكن ينبغي لـه أن يشتمني يقول وادهراه وأنا الدهر)(2).. وقولـه ﷺ فيمـا يحكيـه عن ربه: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)(3)

ومثله الحديث السابق الذي اعتبرناه أصلا في هذا الباب.

ومنهم من عبر عن معنـاه بقولـه: (ليحصـل المعـدوم فيصـير موجوداً).. ويصبح معنى قولـه تعـالى: إِلَّا لِنَعْلَمَ (البقـرة: 143) في هذا المحل وغيره هو:(إلا لنعلمه موجوداً)

ومنهم من فسر العلم بـالتمييز، فقـال في الآيـة السـابقة (إلا لنمـيز هــؤلاء من هــؤلاء بانكشــاف مــا في قلــوبهم من الإخلاص

---

1) نص الحديث: (إن الله تعالى يقول يوم القيامـة: يـا ابن آدم! مرضـت فلم تعـدني؟ قال: يا رب! كيف أعوذك وأنت رب العالمين! قال: أما علمت أن عبدي فلانـا مـرض فلم تعده! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني؟ قال: يا رب! كيف أطعمك وأنت رب العالمين! قال: أما علمت أنه استطعمك عبـدي فلان فلم تطعمـه! أمـا علمت لـو أنـك أطعمتـه لوجـدت ذلـك عنـدي، يـا ابن آدم! استسـقيتك فلم تسقني؟ قال: يا رب! كيـف أسـقيك وأنت رب العـالمين! قـال: اسـقاك عبـدي فلان فلم تسقه، أما! إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي) رواه مسلم.

2) رواه الحاكم.

3) رواه البخاري.

والنفاق، فيعلم المؤمنون من يوالـون منهم ومن يعـادون، فسـمي التمييز علماً، لأنه أحد فوائد العلم وثمراته)

ومنهم من فسر العلم بالرؤية، وهذا مما تستعمله العرب في كلامها، ومثله قولـه تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُـوا مِنْ دِيَـارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُـوا ثُمَّ أَحْيَـاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَـذُو فَضْـلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَشْـكُرُونَ﴾ (البقـرة:243)، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْـدِ مُوسَـى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ قَـالَ هَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَـا مِنْ دِيَارِنَـا وَأَبْنَائِنَـا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَـالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:246)، وقوله تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ فَـإِنَّ اللَّهَ يَـأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:258).. وغيرها.

ومنهم من ذهب إلى مـا ذهب إليـه الفـراء في تشـبيهه هـذا بمثال هو أن جاهلاً وعاقلاً اجتمعا، فيقـول الجاهـل: الحطب يحـرق النار، ويقول العاقل: بل النار تحرق الحطب، وسنجمع بينهمـا لنعلم أيهما يحرق صاحبه، فيكون معنى ذلك (لنعلم أينا الجاهل)

وقد اعتبر هذا من جنس قولـه تعـالى في الإسـتمالة والرفـق في الخطاب ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُـلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سـبأ:24)، فأضـاف الكلام الموهم للشك إلى نفسه ترقيقاً للخطاب ورفقاً بالمخاطب.

ومنهم من أرجع ذلـك إلى معـنى (نعـاملكم معاملـة المختـبر الذي كأنه ليعلم)، وهو قول قوي، فالعدل يوجب ذلك.

ومنهم من اعتبر العلم في مثل هذه الآيات صـلة زائـدة(1)، فيكـون معـنى قولـه تعـالى: ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِـعُ الرَّسُـولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: 143):) إلا ليحصل اتبـاع المتبعين، وانقلاب المنقلبين).. ومثل هذا من يقول في الشيء الذي ينفيه الشخص عن نفسه: (ما علم الله هذا مني) أي ما كان هذا مني والمعنى: أنه لو كان لعلمه الله.

---

1) نحن نستبعد مثل هـذا في القـرآن الكـريم، فـالقرآن كلـه محكم لا زائـد فيـه، قـال تعالى في وصف القرآن: ﴿ لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:42)

وأكثر هذه المعاني مقبـول وصـحيح، ولكن أجملهـا وأليقهـا بطريقة تفكير أهل عصرنا ما عبر عنه الشيرازي بقوله:(عبـارة لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِــعُ الرَّسُــولَ (البقــرة: 143)، وأمثالهــا من التعبيرات القرآنية، لا تعني ان اللّـه لم يكن يعلم شـيئا، ثم علم به بعد ذلك، بل تعني تحقق هذه الواقعيات)

وهذا معنى ذكرناه في سياق تعداد الأقوال، ولكن الجميل في تفسيره قوله:(بـعبارة أوضـح، اللّـه سـبحانه يعلم منـذ الأزل بكـل الحوادث والموجودات، وإن ظهرت بالتدريج على مسـرح الوجـود، فحـدوث الموجـودات والأحـداث لا يزيـد اللّـه علمـا، بـل إن هـذا الحدوث تحقق لما كان في علم اللّه.. وهـذا يشـبه علم المهنـدس بكل تفاصيل البناء عنـد وضـعه التصـميم، ثم يتحـول التصـميم الى بـنــاء عــملي، والمهنـدس يقـول حين ينفـذ تصـميمه على الأرض: أريد أن أرى عمليا ما كان في علمي نظريا)

وقال:(إن تعبـير (لنعلم) أو (ليعلم) وأمثالهـا لا يقصـد بهـا أن اللّـه لــم يكن يعلم شـيئا، وأنـه يريـد أن يعلمـه عن طريـق اختبـار الناس، بل المقصود هو إلباس الحقيقة المعلومة لـدى اللّـه لبـاس العمل والتحقق الخارجي، وذلك لأن الاعتماد على نوايـا الاشـخاص الداخلية واستعدادهم غير كاف للتكامل وللمعاقبة والإثابة، بل يجب أن ينكشف كل ذلك خلال أعمال خارجية لكي يكون لها تلك الآثار) (1)

1) انظر (الأمثل) للشيرازي.

ثانيا ـ الإرادة

السر الثاني من أسرار التوحيد في القدر هو أن يعلم المؤمن أن لله تعالى حضورا دائما في الكون، فهو الذي يسيره بلطفه ورحمته ومقتضيات أسمائه الحسنى، فالكون كونه، والإرادة إرادته، والتصريف تصريفه، فهو المهيمن على كل شيء، الملك الذي يخضع الكل لمشيئته.

وهذا هو التوحيد الذي يحرر المؤمن من ربقة التبعية لغير الله، فهو يعلم أن مشيئة الله هي النافذة، وأن مشيئة غيره إن شاء له شيئا وهم وسراب لا حقيقة له، ولذلك ربط ﷺ بين حقائق القدر، وهذا المعنى في قوله ﷺ مخاطبا ابن عباس: (يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(1)

وقد انشغل البعض عن هذه المعاني العملية الذوقية بالجدل، فتصوروا أن إثبات المشيئة لله يلغي مشيئة عبده، وبذلك يقع العبد في أسر الجبر، وترفع عنه عهدة التكليف، وذهب آخرون إلى إلغاء مشيئة الله حفاظا على مشيئة العبد، فحجروا على الله، وجعلوه مهانا في ملكه، يحدث ما لا يريده، وتقع الأشياء من غير مشيئته.

وهذا الجدل هو نتيجة طبيعية للاكتفاء بالبحث العقلي المجرد بعيدا عن نور الوحي، والعقل لا يمكنه أن يستكنه من الحقائق إلا بعض جوانبها، بل قد يتصور أن اجتماع جوانبها في نسق واحد تناقض تأباه الطبيعة، وتنفر منه.

ولكن الحقائق الشرعية التي امتلأت النصوص بأنوارها تبين هذا الاجتماع، بل تصوره بصورة بديعة الجمال، مكتملة الأركان، لا يشذ فيها طرف عن غيره، ولا ينحرف عن مساره.

بل تجمع بين هذا التناسق العجيب وأثره السلوكي والوجداني، فهي حقائق علمية عملية، بينما أوهام الجدل لا تفرز إلا الحيرة والاضطراب الذي قد يفسد السلوك أو يغرق الوجدان في الظلمات.

وسنحاول في هذا المبحث تجلية هذه الحقائق بذكر الإرادتين

---

1) رواه الترمذي والحاكم.

جميعا: إرادة الله، وإرادة البشر.

1 ـ إرادة الله:

يرد القرآن الكريم على اليهود الذين قالوا: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة: 64) أي بخيلة بقوله تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة: 64)، أي بل هو الواسع، الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، كما قال ﷺ: (إن يمين اللّه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه)(1)

ومن هذ المنطلق نرى الفرق بين رؤية المؤمنين ورؤية الغافلين سواء كانوا فرقا أو طوائف أو عامة أو خاصة.

فالمؤمن يرى يد الله مبسوطة، تتصرف في الكون تصرفا لا تحده الحدود، بل لا يرى في الكون إلا ما شاء الله له أن يكون، فهو يتعرف على الله من خلال مشيئته وتصريفه وتسييره لدفة الكون.

بينما يرى الغافل يد الله مغلولة، وكأنه خلق الكون، ثم اعتزل وتركه، أو أنه خلق الكون ــ كما يعتقد بعض العامة ــ وكتب مقاديره، ثم ترك الملائكة أو غيرهم تتصرف فيه، فلا حضور لله ولا مشيئة له.

والنظرة العرفانية الأولى، والتي توحد الله في المشيئة والإرادة لا ترى أي تناقض في الكون، لسبب بسيط، وهو أن الله هكذا أراد الكون.

ومثال ذلك مثال الرسام الذي يرى أن كل لون من ألوان لوحته في مكانه المناسب، فقد يكون اللون في بعض المواضع حيا مونقا مليئا بالسعادة، ويكون في مواضع أخرى أسود مظلما، تنبعث منه الكآبة، والرسام مريد للجميع، لأن الصورة لا تكتمل إلا بوجود الجميع.

أو مثال ذلك مثال المخرج البارع الذي يصور في فيلمه كل المشاهد الفرحة والحزينة، وهو يريد ذلك كله ويقدم عليه، لأن حقيقة الفيلم لا تقوم إلا به، بل هو يعلم أنه لو وضع فيلما خاليا من تلك المشاهد المتناقضة قد لا يكون فعل شيئا مذكورا.

وهكذا، ولله المثل الأعلى إرادة الله تعالى، فقد توجهت إرادته لوجود هذا الكون بهذه الصورة البديعة، المتكاملة

---

1) رواه البخاري ومسلم.

المتناسقة، والقرآن الكريم يصرح بأن مشيئة الله هي التي اقتضت وجود الكون وأحداثه بهذه الصورة.

بل إن النصوص الشرعية تحثنا على مراعاة رد المشيئة لله في كل أمر، وتخبر عن مراعاة الأنبياء والصالحين في تعابيرهم للاستثناء بمشيئة الله:

قال تعالى عن يوسف عليه السلام لما التقى بأهله، وطلب منهم الدخول إلى مصر: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (يوسف:99)

وقال عن موسى عليه السلام في استجابته للخضر عليه السلام: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (الكهف:69)

وقال عنه في رده على الشيخ الصالح: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (القصص: 27)

وقال عن إسماعيل عليه السلام في استجابته لوالده: يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (الصافات: 102)

وعلمنا رسول الله ﷺ الاستثناء في كل الأمور، فقال للأمة عبر خطابه لأصحابه:(ألا هل من مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية)، قالوا:(نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها)، قال:(قولوا:(إن شاء الله)، قال القوم:(إن شاء الله)(1)

ودخل مرة على بعض الأعراب يعوده، فقال له ﷺ:(لا بأس طهور إن شاء الله)، وكان الأعرابي جلفا غليظا، فقال:(طهور، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور)، قال:(فنعم إذن)(2)

وكان ﷺ يراعي الاستثناء بمشيئة الله في كل أحواله، قال ﷺ :(إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها)(3)، وقال ﷺ:(اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء) (4)، وقال ﷺ:(لكل نبي دعوة مستجابة دعا بها في أمته فاستجيب له، وإني أريد إن شاء الله تعالى أن أدخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) (5)

---

1) رواه ابن ماجة.
2) رواه البيهقي.
3) رواه البخاري ومسلم.
4) رواه البخاري ومسلم.
5) رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ لما حاصر الطائف:(إنا قـافلون غـدا إن شـاء اللـه) وقال لما قدم مكة:(منزلنـا غـدا إن شـاء اللـه بخيـف بـني كنانـة) وقال يوم بدر:(هذا مصـرع فلان غـدا إن شـاء اللـه، وهـذا مصـرع فلان إن شــاء اللــه)، وقــال في بعض أســفاره:(إنكم تســيرون عشيتكم وليلتكم ثم إنكم تأتون الماء غدا إن شـاء اللـه)، وقـال ﷺ في زيارة المقابر:(وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)(1)

وجاء رجل لرسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! لدغت الليلة فلم أنم حتى أصبحت، قال:(ماذا؟)، قال:(عقرب)، قال:(أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر مـا خلـق لم يضرك شيء إن شاء الله تعالى)(2)

وقال ﷺ في قصة نومهم في الوادي:(إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شـاء، وردهـا عليكم حين شـاء، يـا بلال قم فـأذن الناس بالصلاة)(3)

بل قد ورد في النصوص ما يفيد أثر التقصير في رد المشــيئة إلى الله تعالى من عدم تحقق المطالب، وإلى ذلك الإشارة بقولـه تعالى عن أصحاب الجنة الذين أقسموا ليجذن ثمرهـا ليلاً، لئلا يعلم بهم فقـير ولا سـائل، ولا يتصـدقوا منـه بشـيء: وَلا يَسْـتَثْنُونَ (القلم:18)،ـ أي فيما حلفوا به، بأن يقولوا: إن شاء اللـه، ثم قـال بعدها مباشرة: فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (القلم: 19)، أي أصابتها آفة أهلكتها.

وإلى ذلـك الإشـارة أيضـا بقولـه ﷺ:(لـولا أن بـني إسـرائيل قالوا: وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (البقرة:70) لمـا أعطـوا، ولكن استثنوا)(4)

وقد نهى ﷺ عن إشراك مشيئة أي كان مع مشيئة الله، فقال :(قد كنت أكره لكم أن تقولوا (ما شاء الله وشـاء محمـد)، ولكن قولوا (ما شاء اللـه ثم شـاء محمـد)(5)، وقـال ﷺ:(لا تقولـوا: مـا شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان)(6)

وجاء رجل الى النبي ﷺ يكلمه في بعض الأمر، فقـال الرجـل لرسول اللـه ﷺ:(مـا شـاء اللـه، وشـئت) فقـال رسـول اللـه ﷺ:

---

1) رواه مسلم.
2) رواه ابن السني وغيره.
3) رواه البخاري وأبو داود والنسائي.
4) رواه ابن أبي حاتم ورواه الحافظ ابن مردويه بنحوه.
5) رواه الحكيم والنسائي والضياء.
6) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(أجعلتني لله عدلا، بل ما شاء الله وحده)[1]

* * *

انطلاقا من هـذه الآداب الإيمانيـة سـنرحل ــ بصـحبة القـرآن الكريم ـ لنرى بعض تفاصيل مشيئته تعـالى، فـالكلام المجمـل قـد يكفي العقل، ولكنه يقصر عن ملء الوجدان أو تحريك السلوك.

ولذلك يكثر في القرآن الكريم رد الأمر إلى مشيئة الله بصيغ مختلفة، فتارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة يخـبر أنـه إن ما لم يشأ لم يكن، وتارة يخبر أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، أو لو أنه شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، فدل كل ذلـك على أن كل شيء واقع فبمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته.

وهذه النصـوص الـتي سـنذكرها، وهي نمـاذج عن غيرهـا من النصـوص ترجـع جميعـا إلى مقتضـيات أسـماء اللـه الحسـنى، لأن مشيئة الله الفعلية تابعة لصـفات اللـه، وصـفات اللـه هي مـا دلت عليه أسماء الله الحسـنى، فلـذلك سـنذكر المشـيئة الإلهيـة تابعـة لبعض الأسماء المقتضية لها، وفيما نـذكر من الأسـماء إشـارة إلى غيرها من الأسماء التي لا بد أن تكون لها مقتضياتها[2].

إرادة الخالق البارئ المصور:

من أسماء الله تعـالى الخـالق البـارئ المصـور، وهي أسـماء تدل على طلاقة القـدرة في الإبـداع والاخـتراع بمسـتوياته الثلاثـة: التقدير وهو ما يدل عليه اسم الخالق، والإيجـاد على وفـق التقـدير وهو ما يدل عليه اسم البارئ، والتصوير بعد الإيجـاد، وهـو مـا يـدل عليه اسم المصور.

فكل بناء يحتاج إلى هذه المستويات الثلاثـة، فـأي بنـاء يحتـاج إلى (مقدر يقـدر مـا لا بـد لـه منـه من الخشـب واللبن ومسـاحة الأرض وعـدد الأبنيـة وطولهـا وعرضـها، وهـذا يتـولاه المهنـدس فيرسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى بنـاء يتـولى الأعمـال الـتي عنـدها يحـدث أصـول الأبنيـة، ثم يحتـاج إلى مـزين ينقش ظـاهره ويـزين صورته)[3]

وهذا في بناء الخلق أما بناء الله، فهو يرجع إلى اللـه الواحـد الأحـد، فهـو الخـالق البـارئ المصـور، ولـذلك تظهـر في جميـع مخترعاته ومخلوقاته صفة الوحدة.

والقرآن الكريم يخبرنا، بل يـربي نفوسـنا على أن للـه تعـالى

---

1) رواه الحاكم عن ابن عباس.
2) انظر فصل (الحكمة) من هذه الرسالة.
3) المقصد الأسنى:76.

الإرادة المطلقة في هذه المستويات الثلاثة:

أما مستوى الإرادة المطلقة في الخلق، فالله تعالى يخبرنا بأنه يخلق من يشاء ومتى شاء، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ابراهيم:19)، وقال تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (فاطر:16)، وقال تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً ﴾ (النساء:133)

وعندما تعجب زكريا عليه السلام من أن يكون له ولد بعد أن كبرت سنه، وكانت امرأته عاقرا رده الله إلى مشيئته، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران:40)

وعندما تعجبت مريم ـ عليها السلام ـ ردها الله إلى المشيئة، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:47)

فخلق الله من خلال هذه النصوص يرجع إلى مشيئة الله المتفردة، فليس هناك من يفرض على الله ـ تعالى الله وتقدس ـ أن يخلق شيئا أو أن لا يخلق.

ولذلك من الأخطاء التي وقعت فيها بعض الطوائف زعمهم بأن من مقتضيات كون الله خالقا أن يخلق في الأزل، وهو قول مناف لمشيئة الله المطلقة، فمشيئة الله لا يقال لها: افعلي أو لا تفعلي.

وقد غاب عن هؤلاء أن (السيف يسمى قاطعا وهو في الغمد، ويسمى قاطعا حالة حز الرقبة، فهو في الغمد قاطع بالقوة وعند الحز قاطع بالفعل، والماء في الكوز مرو، ولكن بالقوة وفي المعدة مرو بالفعل، ومعنى كون الماء في الكوز مرويا أنه بالصفة التي بها يحصل الإرواء عند مصادفة المعدة، وهي صفة المائية، والسيف في الغمد قاطع أي هو بالصفة التي بها يحصل القطع إذا لاقى المحل، وهي الحدة إذ لا يحتاج إلى أن يستجد وصفا آخر في نفسه)[1]

وكذلك، ولله المثل الأعلى، صفة الخالق لله تعالى، فهو خالق في الأزل بالمعنى الذي به يقال الماء الذي في الكوز عذب، وفي السيف أنه قاطع.

---

1) المقصد الأسنى: 36.

ومن الخطأ الكبير أن يقال له ـ تعـالى وتقـدس ــ:(مـا دمت خالقا، فلا بد أن تخلق)

وهذا الحجر للمشيئة أصاب مثله كثيرا من صفات الله تعالى، فصفات الله تعالى أزلية لم تحدث بعد أن لم تكن وإنما مقتضـياتها قد تحدث، فيتصرف الله معها وفق مشيئته.

أما **المستوى الثاني**، وهو مستوى الإيجاد بعد التقدير، وهو ما يدل عليه اسم (البارئ)، فقـد ورد في النصـوص مـا يـدل على مشيئة الله المطلقة في ذلك، ومنه قوله تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّـمْسَ عَلَيْـهِ دَلِيلاً ﴾ (الفرقان:45)

ومن هذا الباب ما من الله تعالى على عباده من جعل الكـون على الصـفة الـتي تصـلح لعبـاده مـع أن مشـيئته وقدرتـه مطلقـة يمكنها أن تفعل غير ذلك:

ومن ذلك قوله تعالى في نعم الحـواس: ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَـذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِـهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام:46)

ومن ذلك قوله تعالى فيما لو شاء، فجعل الليل سرمدا: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ (القصص:71)

أو لـو شـاء فجعـل النهـار سـرمدا: ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِلَيْـلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص:72)

أو لو شاء فجعل الماء غورا: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَـوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك:30)

أو لو شاء جعل الرياح ساكنة: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْـكِنِ الـرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَـبَّارٍ شَـكُورٍ﴾ (الشـورى: 33)

وهكـذا يعيش المـؤمن في ظلال القـرآن الكـريم، وهـو يـرى الاحتمالات المختلفة للأشياء تطوف به ليعيش في كـدرها وضـيقها إلى أن يرى يد الله تعالى مبسوطة له بالخير من كل جهة، فيعيش في رحاب المنة، ولذة الشكر، والفرح بالله، أما الجاهـل المجـادل، فيظل يسأل كيف، ولماذا، ويظل يفرض أحكامه على اللــه إلى أن تفرض أحكام الله عليه.

أما **المستوى الثالث** وهو مستوى التصوير بعد الإيجاد، وهو

مايعبر عن اسم (المصور)، فقد ورد في النصوص ما يدل على مشيئة الله المطلقة في ذلك:

فالله تعالى يمن على عباده أن عدل صورهم في نفس الوقت الذي كان قادرا على تشويههم، قال تعالى: الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (الانفطار:7 ـ 8)

وقال عن مشيئته المرتبطة بتصوير الجنين: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران:6)

وقال تعالى يمن على عباده بقوة أجسامهم وسلامتها: نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (الانسان:28)، وقد ورد عن ابن عباس في تفسيرها:(لغيرنا محاسنهم إلى أسمج الصور وأقبحها)

ويذكر الله تنوع الكائنات في طريقة مشيها، ويستدل بذلك على طلاقة مشيئته، قال تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النور:45)

وينبه تعالى إلى النظر في أطوار الخلق التي يمر بها الإنسان ليعاين طلاقة المشيئة الإلهية في التصوير، قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (الروم:54)

ويذكر الله تعالى الصور المختلفة والطاقات المختلفة الموهوبة للملائكة ـ عليهم السلام ـ وينبه بذلك إلى طلاقة مشيئته، قال تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فاطر:1)

وإدراك المؤمن ـ الذي قد تضايقه صورته الدنيوية ــ لهذه المشيئة الإلهية المطلقة في التصوير تجعله يعيش في راحة تامة، بل في سرور عظيم، فالله ـ أولا ـ هو الذي صوره بهذه الصورة، وهو يرضى ما اختار الله له من صور.

وهو ـ ثانيا ـ يعيش آملا في فضل الله أن يبدله بتلك الصورة التي رضيها في الدنيا صورا أجمل في الآخرة، وقد قال ﷺ مخبرا عن نعيم الجنة:(إن في الجنة لسوقا ما فيها شراء ولا بيع إلا

الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها)[1]، وقال ﷺ:(إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فيها كثبان المسك فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادوا حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)[2]

أما الغافل، فيظل مكتئبا حزينا يعارض مشيئة ربه، غافلا عن حكمته ورحمته.

إرادة النافع الضار:

من أسماء الله الحسنى (النافع الضار) وهما الاسمان المتعلقان بجميع ما يصدر في الكون مما يسمى نفعا أو ضرا، سواء نسب ذلك إلى الله مباشرة أو نسب للملائكة أوالإنس أو الجمادات، فمشيئة الله تعالى وراء كل ذلك، يقول الغزالي:(فلا تظنن أن السم يقتل ويضر بنفسه، وأن الطعام يشبع وينفع بنفسه، وأن الملك والإنسان والشيطان أو شيئا من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضر بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر منها إلا ما سخرت له)[3]

وما نراه من نفع أو ضار صادر من الأشياء، فنتوهمه منها وبها، فننحني شكرا لها، أو نتنحى هيبة منها وهم كبير أفرزته الغفلة عن مشيئة الله، فكل ما نراه (بالإضافة إلى القدرة الأزلية كالقلم بالإضافة إلى الكاتب في اعتقاد العامي، وكما أن السلطان إذا وقع بكرامة أو عقوبة لم ير ضرر ذلك ولا نفعه من القلم، بل من الذي القلم مسخر له، فكذلك سائر الوسائط والأسباب)

بل إن الغافل هو الذي يرى القلم مسخرا للكاتب، أما العارف فيعلم أن الكل مسخر بيد الله ومشيئته الكاتب والقلم وسائر الأسباب والوسائط.

وقد عبرت النصوص عن هذه المعاني مخبرة أن النفع والضر بيد الله ورهن مشيئته، يقول تعالى آمرا رسول الله ﷺ: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (لأعراف:188)، وقال تعالى: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً

---

1) رواه الترمذي.
2) رواه أحمد ومسلم.
3) المقصد الأسنى: 145.

وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ إِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْـتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿ (يونس:49)

ويخبر الله تعالى أن هذه المشيئة المطلقة في الضـر والنفـع هي من مقتضيات الألوهية، قال تعالى:﴿ قُلْ أَتَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائـدة:76) أي لا يقدر على دفع ضر عنكم، ولا إيصال نفع إليكم.

ولهذا يخبر الله تعالى رسـوله ﷺ إلى أن مشـيئة اللـه قـادرة على أن ترزقه من الخير في الدنيا ما يحولها إلى جنة في ناظريـه، قال تعـالى:﴿ تَبَـارَكَ الَّذِي إِنْ شَـاءَ جَعَـلَ لَـكَ خَيْـراً مِنْ ذَلِـكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾ (الفرقان:10)

وفي نفس الوقت يملؤنا بمعـاني التوحيـد حين لا نـرى الضـر والنفع إلا من الله، قال تعالى:﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِـفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يونس:107)

واعتقاد المؤمن في مشيئة اللـه المطلقـة في الضـر والنفـع، يجعله في حصن منيع، وهو يرى ما دون اللـه كالهبـاء، لا يملـك لـه نفعـا ولا ضـرا، فيتحـرر من رق الرغبـة والرهبـة، وكيـف يـرغب أو يـرهب، وهـو يـردد قـول رسـول اللـه ﷺ : (واعلم أن الأمـة لـو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليـك) (1)

وتحرر المؤمن من الرغبة والرهبـة هـو الـذي يجعلـه مطمئنـا سعيدا من جهة، وهو الذي يحرره من العقبات النفسية التي تحـول بينه وبين الـدعوة إلى اللـه، كمـا قـال عبـد اللّـه بن مسـعود :(إن الرجل ليغدوا بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء يلقى الرجــل ليس يملك له ضرا ولا نفعا فيقـول لـه إنـك واللـه كيت وكيت فلعلـه أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء)

وعلى عكس ذلك أخبر الله تعـالى عن مقالـة إبـراهيم عليه السلام لقومه في عزة المؤمن عندما خوفوه بكل ألوان التخويف، قال تعالى:﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِـهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَـذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: 80)

ثم عقب بعدها بسر الأمن النفسي العظيم الذي واجه به كـل

1) رواه الترمذي والحاكم.

تلك المخاوف بقوله: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:81)، وهذا دليل على أن التوحيد هو الدرع الوحيد الذي يقي من كل المخاوف.

ومثله مقالة نبي اللّه هود ﷺ لقومه عندما قالوا له: ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (هود: 53 ـ 54)، فرد عليهم: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (هود:من الآية:54 ـ 56)

إرادة الخافض الرافع:

و(الخافض والرافع) من أسماء الله الحسنى المركبة، ويعني أو يعنيان جميعا أن الله تعالى هو المتفرد بالخفض والرفع، فيرفع من يشاء ويضع من يشاء، ومثله في الدلالة الاسم الكريم (المعز المذل) أي أن الله هو الذي يعز من يشاء، وهو الذي يذل من شاء، قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:26)

وقد قال ﷺ في هذه الآية:(اسم اللّه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران) وقرأ الآية(1)، وفي ذلك إشارة إلى أن من أدرك مالكية الله للملك وما يترتب على ذلك من طلاقة المشيئة في الرفع والخفض والإعزاز والإذلال، وانفراده تعالى بذلك سيحرره من كل توجه إلى غير الله، وهذا التحرر هو نفسه اليقين الذي تستجاب به الدعوة.

ومن نتائج طلاقة المشيئة في هذه الأسماء ما عليه البشر من الدرجات المختلفة المتفاوتة، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام:165)

ورد الله تعالى على المعترضين الذين قالوا: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: 31) بأن مشيئة الله تعالى هي التي تقسم بين الناس معايشهم كما تقسم بينهم درجاتهم، قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ

1) رواه الطبراني.

مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (الزخرف:32)

وقد كان لانتشار هذا المعنى في المجتمع الإسلامي تأثيره الكبير في تلك العلاقة الأخوية التي ربطت بين طبقات المجتمع المختلفة، فلم يحصل فيها الصراع الذي حصل في سائر المجتمعات.

وسر ذلك أن الفقير ــ بعد أن يبذل جهده في الخروج من فقره ـ يرضى بما قسم الله، فلا يحسد غنيا، بل يستغني بفقره لله عن افتقاره لغيره(1)، وهو ـ فوق ذلك ــ يعلم أن الرفعة الحقيقية هي رفعة القرب من الله لا رفعة المال والجاه، ولهذا، فإن أكثر ما يرد في القرآن الكريم من الرفعة هي رفعة درجات المؤمنين، قال تعالى عن خليله عليه السلام: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (الأنعام:83)،

ومثل ذلك الغني، فإنه يحمد الله على غناه، ولا يستكبر به على غيره، ويعلم بعد ذلك أن هذه الرفعة التي أتيحت له رفعة من الله، ولذلك يتصرف فيها وفق ما أمر الله.

وقد يراد بها ـ بالإضافة إلى هذا ـ طلاقة مشيئة الله في إيتاء الملك من يشاء، ونزعه ممن يشاء، كما قال تعالى عن لوط عليه السلام: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:247)

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (يوسف:76)، وقال تعالى: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (يوسف:56)

وقد يقال هنا: فمادام الأمر بيد الله وبمشيئته لا بيد صناديق الاقتراع أو الانتخابات أو الأحزاب، فلماذا لا يجعل الله تعالى الملك في يد الفئة المؤمنة الطاهرة لينتظم البشر في سلك العبودية لله

---

1) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بالعلاج القرآني للمشاكل النفسية للفقير في رسالة (كنوز الفقراء)

كانتظام الكون جميعا؟

وهذا السؤال لا يطرحه إلا غافل عن حكمة الله تعالى في التولية والعزل، فإن حكمة الله تعالى اقتضت أن لا يولى على كل قوم إلا ما هو من جنسهم، كما ورد في الحديث الشريف:(كما تكونوا يولى عليكم)(1)

ومن نتائج إدراك المؤمن لهذه المشيئة استسلامه ليد الله، وهي تخفضه أو ترفعه في منازل الدنيا، عالما أن كل ما يفعله الله به من مقتضيات لطفه ورحمته، فقد يجعل الله تعالى بلطفه عاقبة خفض الجب وظلمة السجن رفعة ملك، قال تعالى عن يوسف عليه السلام معبرا عن هذه الحقيقة: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (يوسف: 100)

بل مثل ذلك حصل للثلة المؤمنة التي كانت تصهر في صحراء مكة، قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً (النور: 55)

فإن لم يحصل بعض ذلك في الدنيا، فإن درجات الآخرة التي يعيش لها المؤمن أعظم بكثير من درجات الدنيا، قال تعالى: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (الاسراء:21)

وإدراك المؤمن لكل هذا يجعله صاحب همة عالية لا تنزل به إلى السفاسف، وكيف ينزل إلى السفاسف من ينتسب إلى إله منه يبدأ كل شيء، وإليه يعود كل شيء، ولا يعجزه شيء.

إرادة المعطي المانع:

من أسماء الله تعالى الدالة على طلاقة المشيئة اسمه المركب (المعطي المانع)(2)، وهو يفيد أن كل ما يحصل في الكون من عطاء وأرزاق وهبات هي فضل من الله تعالى، وكل ما فيه من منع فهو من مقتضيات حكمته تعالى.

ومن أسمائه تعالى الدالة على هذا المعنى كذلك اسمه المركب (القابض الباسط)، وهو يعني أن كل ما في الكون من

1) رواه ابن جميع في معجمه والبيهقي في الشعب.

2) وقد فسر المانع بمعنى الحافظ، أي أن الله تعالى برحمته يمنع عبده من أسباب هلاكه، وليس مرادنا منه هنا هذا المعنى، وإن كانت غايته هذا المعنى.

قبض أو بسط هو من نتائج مشيئة الله وإرادته وحكمته.

ومن موارد قبض الله وبسطه ما ذكره الغزالي بقوله:(الله هو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، ويقبض الصدقات من الأغنياء ويبسط الأرزاق للضعفاء، يبسط الرزق على الأغنياء حتى لا يبقي فاقة ويقبضه عن الفقراء حتى لا يبقي طاقة، ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعاليه وجلاله، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله)(1)

وقد ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة المخبرة عن مقتضيات هذين الأسماء الحسنى، ومنها الإخبار بأن الأرزاق المفاضة على الناس بقدر أو بغير قدر هي من نتائج طلاقة المشيئة الإلهية، وقد ورد التعبير عن هذه الحقيقة الضخمة بصيغ مختلفة:

منها الإخبار بأن ذلك من مقتضيات خبرته بعباده، فهو أعلم أين يضع الغنى وأين يضع الفقر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ (الاسراء:30)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (العنكبوت:62)

ومنها الإخبار بأن الناس بجهلهم لا يدركون هذه الحقيقة، وهذا يعني لو أنهم علموا وتأملوا لتحققوا بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:36)

ومنها الإخبار بأن في هذه الحقيقة آيات للمؤمنين يتعرفون من خلالها على الله القابض الباسط، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الروم:37)، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزمر:52)

ومنها الإخبار بأن هذا التوزيع للأرزاق هو لطف من الله بعباده، والذي يقتضي أن يتعامل مع كل طرف بما يصلح له، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (الشورى:19)

ومن أسباب هذا اللطف في التقدير بغي العباد لو بسطت عليهم الأرزاق، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي

1) المقصد الأسنى: 88.

الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (الشورى: 27)

وأول الآثار التي يتركها هذا الإدراك لمشيئة الله المطلقة هو أن لا يحصل للمؤمن ما حصل للغافلين من ندب حظهم المتعثر الذي أوقعهم في الفقر بينما يتنعم الجاحدون في ضيافة الله بما شاءوا من النعم، فالمؤمن يعتقد أن كل ذلك متاع أدنى لا يستحق زفرة حزن واحدة، قال تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (الرعد: 26)

ويقص علينا القرآن الكريم مقالة الذين تمنوا مكانة قارون بعد أن رأوا مصيره، قال تعالى: وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (القصص:82)

ولذلك، فإن المؤمن يترفع عن نظرة الغافل، ويطلب من يد الله المبسوطة نحوه الأرزاق الشريفة التي لا تنقطع، قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:261)، وقال تعالى: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (النور:38)

ومن الأرزاق التي يطلبها المؤمن الحكمة التي هي هبة من الله يمن بها على من شاء من عباده، قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (البقرة:269)

ومن نتائج هذه النظرة أن يعلم المؤمن أن كل فضل مبسوط فهو ببسط الله ولا يستطيع أي مخلوق تقديره أو قبضه، قال تعالى: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (الحديد:29)، أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله.

ومن نتائجها ألا يحول الخوف على رزقه من تنفيذ أوامر الله، ولهذا ينهى الله تعالى المؤمنين أن يجعلوا من خوف العيلة علة لترك المشركين يزورون المسجد الحرام، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ

اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة:28) وقـد روي في سـبب نـزول الآيـة أن المشركين كانوا يجيئون إلى البيت بالطعام يتجرون فيه، فلما نهـوا عن إتيان البيت، قال المسلمون: أين لنا الطعام؟ فأنزل اللّه الآية.

ومن نتائجها أن يلجأ إلى الله في طلب رزقه معتقـدا أن اللـه يرزق بغير حساب، قال تعالى عن مريم ـ عليها السلام ـ: فَتَقَبَّلَهَـا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَـا نَبَاتـاً حَسَـناً وَكَفَّلَهَـا زَكَرِيَّا كُلَّمَـا دَخَـلَ عَلَيْهَـا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَـالَتْ هُـوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (آل عمران:37)

ومن نتائجها أن يفيض يده بالنفقة في وجوه الخير عالما بـأن الخلق من الله، قال تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَيَقْـدِرُ لَـهُ وَمَـا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَهُـوَ يُخْلِفُـهُ وَهُـوَ خَيْـرُ الرَّازِقِينَ (سبأ:39)

ومن نتائجها ما قاله ﷺ، وهو يتأدب مع أسماء الله الحسـنى ـ بعد أن غلا السعر على عهده فقـالوا يـا رسـول اللـه لـو سـعرت ـ فقال:(إن الله هو الخالق القـابض الباسـط الـرازق المسـعر، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال)(1)

فقد اعتبر ﷺ التدخل في حرية السوق نوعـا من التـدخل في مشيئة الله القابض الباسط(2).

ومن نتائجها ما عبر عنه (ف. س. بودلي) عندما عـايش بعض المجتمعات الإسلامية، وأرى تأثير هـذه الحقـائق فيهـا، فكتب تحت عنوان (عشت في جنة الله) يقول:(في عام 1918أوليت ظهــري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شـطر إفريقيـة الشـمالية الغربيـة، حيث عشـت بين الأعـراب في الصـحراء، وقضـيت هنـاك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكـل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حـتى أنني ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسـول)، وقـد كـانت تلـك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحـل من أمتـع سـني حيـاتي وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضى بالحياة.

وقـد تعلمت من عـرب الصـحراء التغلب على القلـق، فهم ـ

---

1) رواه أحمد.

2) وهذا في الحالة العادية التي ينتفي فيها الظلم، وهو ما أراده ﷺ بقوله هـذا، أمـا إن كان هناك ظلم من التجار، بحيث تحالفوا على رفع الأسعار استغلالا لحاجات الناس، فـإن هذا يوجب على الإمام أن يتصرف بما شاء من التسعير ونحوه.

بوصفهم مسلمين ـ يؤمنـون بالقضـاء والقـدر، وقـد سـاعدهم هـذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذا سهلاً هيناً.

فهم لا يلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق على أمــر، إنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له، وليس معنى ذلـك أنهم يتواكلـون، أو يقفـون في وجـه الكارثـة مكتوفي الأيدي، كلا، ودعني أضرب مثلاً لما أعنيه:

هبت ذات يوم عاصفة عاتية، حملت رمال الصـحراء، وعـبرت بها البحـر الأبيض المتوسـط، ورمت بهـا وادي الـرون في فرنسـا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حـتى أحسسـت كـأن شـعر رأسي ينتزع من منابته، لفرط وطـأة الحـر، وأحسسـت من فـرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون، ولكن العـرب لم يشـكوا إطلاقـا، فقـد هـزوا أكتـافهم، وقـالوا كلمتهم المـأثورة: (قضـاء مكتـوب)، ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبـير، فـذبحوا صـغار الخـراف قبـل أن يـودي القيـظ بحياتهـا، ثم سـاقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كلـه في صـمت وهـدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى.. بـل قـال رئيس القبيلـة:لم نفقـد الشيء الكثير، فقد كنا خلقاء بأن نفقد كل شيء، ولكن حمـداً للـه وشــكراً، فــإن لــدينا نحــو أربعين في المائــة من ماشــيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد)

إرادة الهادي المضل:

من أسـماء اللـه تعـالى (الهـادي المضـل)، ومن مقتضـيات هـذين الاسـمين أن كـل مـا يقـع في الكـون من ألـوان الهدايـة أو الإضلال فبمشيئة الله، فالله تعالى (هو الذي هـدى خـواص عبـاده أولا إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على الأشياء، وهدى عــوام عباده إلى مخلوقاتـه حـتى استشـهدوا بهـا على ذاتـه، وهـدى كـل مخلوق إلى ما لا بد له منه في قضاء حاجاته)(1)

والله تعالى كذلك هو المضل الذي وضع جميع الأسـباب الـتي يهتدي بها الموقنون ويضل بها الغافلون، قال تعالى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الأنعام:39)

ولذلك يخبرنا الله تعالى بأن ما نراه من مشاهد الضلال ليس خارجا عن مشيئته، بل هو من مقتضياتها، قـال تعـالى: وَلَـوْ شِـئْنَا لَآتَيْنَا كُـلَّ نَفْسٍ هُـدَاهَا وَلَكِنْ حَـقَّ الْقَـوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

1) المقصد الأسنى: 146.

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (السجدة:13)

ويعلل الله تعالى ذلك بغناه المطلق عن خلقه، قال تعالى: وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (الأنعام:133)

فلذلك يرى المؤمن في الضلال الموجود على الأرض غنى الله المطلق عن خلقه، قال تعالى: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمر: 7)، وقال تعالى مخبراً عن مقالة موسى عليه السلام: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (ابراهيم: 8)

وقد ورد في الحديث القدسي الجليل:(يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(1)

ويرى أن جهده النابع من إيمانه لهداية الناس ليس إلا سببا هزيلا، أما النتيجة فهي بإذن الله، قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (البقرة: 272)، وقال تعالى: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (القصص:56)، وقال تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (الغاشية: 22)

وسر ذلك أن كتابة الإيمان في القلب فضل من الله، وهذا الفضل لا يكون إلا بإذنه، كما قال تعالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (يونس:100)

ولهذا نهي عن الإكراه على الإيمان، فقد عقب تعالى قوله: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً (يونس: 99) بقوله تعالى: أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس: 99)

ولهذا كذلك يتكرر في القرآن الكريم النهي عن الحزن لضلال الضالين، لأن ذلك لا يخرج عن إرادة الله في خلقه، قال تعالى: فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (فاطر: 8)، وقال تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ

1) رواه مسلم وغيره.

يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (الكهف:6)، وقال تعالى:﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:3)

ولذلك يأمر تعالى بالتسليم لله في أمر هداية الخلق وإضلالهم بعد القيام بالأسباب المشروعة، قال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (الرعد: 31) أي: ألم ييأس الذين آمنوا من إيمان جميع الخلق ويتبينوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا.

ومن النتائج الكبرى لهذه المعرفة أن يتوجه المؤمن بالشكر على هدايته الإيمان كما قال تعالى مخبرا عن مقالة المؤمنين لأقوامهم:﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (الأنعام: 71)، وقال تعالى:﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (ابراهيم:12)، وقال تعالى مخبرا عن مقالة أهل الجنة بعد دخولها:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (لأعراف: 43)

أما الغافلون عن هذه الحقائق، فهم الذين يمنون على الله بإيمانهم، وبالتالي يطالبون بالجزاء على هذا الإيمان، وقد قال تعالى مخبرا عنهم ورادا عليهم:﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الحجرات:17)

وهذه المعارف تجعل المؤمن يعيش في استقرار وطمأنية عظيمة، وهو يعلم أن الله الرحمن الرحيم وحده الهادي، فيستهديه في كل أحواله، كما كان ﷺ يقول:(اللهم أصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)(1)

وكان يقول:(اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها، اللهم أنعشني واجبرني واهدني لصالح الأعمال والأخلاق، فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت)(2)

وأوصى عليا بأنه يقول :(اللهم اهدني، وسددني)، وعلمه ما يستشعره أثناء هذا الدعاء، فقال:(واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم)(3)

بل كما يقول المؤمن في كل صلاة:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ

1) رواه الطبراني في الكبير، والحاكم.
2) رواه الطبراني في الكبير.
3) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

الْمُسْتَقِيمَ ﴿ (الفاتحة:6)

هـذه بعض آثـار إدراك المـؤمن لمشـيئة اللـه المطلقـة في الهداية والإضلال، أما علاقة ذلـك بالعـدل الإلهي والحكمـة الإلهيـة، فسنعرض لها في محالها من الفصلين التاليين.

* * *

وننبـه هنـا إلى أن هنـاك فرقـا كبـيرا بين إرادة اللـه الشـيء ومحبته له أو رضـاه عنـه، فـإن اللـه أراد كـل مـا في الكـون، لكن محبته ورضاه متعلقان بأمور معينة منه، فقد ذكر الله تعالى أن لـه الخلق والأمر، كما قال تعالى:﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْـرُ تَبَـارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴿ (لأعراف: 54)

وأمره تعالى نوعان: أمـر قـدري يتعلـق بإرادتـه خلـق الكـون على ما هو عليه.

وأمـر شـرعي، وهـو الأمـر المتعلـق بمحبتـه ورضـاه وبغضـه وسخطه.

فاللـه تعـالى بنـاء على هـذا أراد المعاصـي، ولكنـه سـخطها وأبغضها، وأراد الطاعات ورضيها وأحبها.

وبناء على هذا، فإن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يسـتلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعا ودينا.

بل قد يأمر بما لا يريده قدرا وتكوينا، كأمر الله تعالى إبراهيم ﷺ بذبح ابنه، فلم يرده تعالى كونـا وقـدرا، وإن كـان أراده أمـرا.. ولهذا حال بينه وبين تنفيذه، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا أَسْـلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِـنِينَ (105) إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَـدَيْنَاهُ بِـذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) ﴿ (الصافات)

والعقل لا يحيل هذا المعنى، بل إن الكثير من تصرفاتنا تقـوم بموجبـه، فالأسـتاذ يمتحن تلاميـذه، وهـو يريـد منهم بامتحـانهم أي إجابة، صحيحة كانت أو خاطئة، ليرى مدى استيعابهم لدروسهم.

وهو مـع هـذه الإرادة يرضـى عن الإجابـات الصـحيحة، ويحب المجيبين بها، ويكره الإجابات الخاطئة، ويعاقب مسـجليها بالعلامـة التي تتناسب مع كسلهم وعدم اهتمامهم.

وهكذا ـ ولله المثل الأعلى ـ أمر الله مع خلقـه، فهـو يمتحنهم مريدا منهم كل الإجابات، ولكنه لا يرضى إلا السليم منها.

والقرآن الكـريم يعـبر عن الإرادة التشـريعية بالألفـاظ الدالـة على محبتـه ورضـاه، كمـا قـال تعـالى:﴿ إِنْ تَكْفُـرُوا فَـإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمـر: 7)، وقال تعالى: وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (البقرة:205)، وهي كثيرة سنذكرها في محالها.

ولكنـه مـع ذلـك قـد يعـبر بنفس التعـابير الدالـة على الإرادة القدرية.. وهنا قد يحصل الاشتباه، ولذل سنذكر بعض الأمثلــة على ذلك هنا:

فلفظ **الإرادة** ـ مثلا ـ قد يعبر بـه عن الإرادة القدريـة كقولـه تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْـرَحْ صَـدْرَهُ لِلإِسْـلامِ وَمَنْ يُـرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمـا يَصَّـعَّدُ فِي السَّـمَاءِ (الأنعـام: 125)، وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْـحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَـحَ لَكُمْ إِنْ كَـانَ اللَّهُ يُرِيـدُ أَنْ يُغْـوِيَكُمْ هُـوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (هود:34)، وقوله تعالى: وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (البقـرة: 253)

وقد يعـبر بـه عن الإرادة التشـريعية الأمريـة كقولـه تعـالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْـرَ وَلا يُرِيـدُ بِكُمُ الْعُسْـرَ (البقـرة: 185)، وقولـه تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْـدِيَكُمْ سُـنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُـوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (النساء:26)، وقوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (النساء:28)، وقولـه تعـالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيـدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة: 6)

ومثل ذلك لفظ (**الكتابة**) فقد يراد به الإرادة الكونية، كقوله تعـالى: قُـلْ لَنْ يُصِـيبَنَا إِلَّا مَـا كَتَبَ اللَّهُ لَنَـا هُـوَ مَوْلانَـا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (التوبة:51)، وقوله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (المجادلة:21)، وقولـه تعـالى: وَلَـوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ عَـذَابُ النَّارِ (الحشر:3)

وقد يـراد بـه الإرادة التشـريعية، كقولـه تعـالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى (البقرة: 178)، وقولـه تعـالى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَـدَكُمُ الْمَـوْتُ إِنْ تَـرَكَ خَيْـراً الْوَصِـيَّةُ لِلْوَالِـدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (البقرة:180)، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة:183)، وقوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُـرْهٌ لَكُمْ (البقرة: 216)

ومثل ذلك لفظ (**الإذن**)، فقد يعبر به عن الإرادة القدرية، كقوله تعالى: وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (البقرة: 102)، وقوله تعالى: قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة: 249)، وقوله تعالى عن المسيح عليه السلام: أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ (آل عمران: 49)

وقد يعبر به عن الإرادة التشريعية، كقوله تعالى: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (الحشر:5)، وقوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (يونس:59)

ومثل ذلك لفظ (**الجعل**) فقد يعبر به عن الإرادة القدرية، كقوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (يّس:8)، وقوله تعالى: وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (الأنعام: 125)

وقد يعبر به عن الإرادة التشريعية كقوله تعالى: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (المائدة:103)

ومثل ذلك لفظ (**التحريم**)، فقد يعبر به عن الإرادة القدرية كقوله تعالى: وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ (القصص: 12)، وقوله تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (المائدة:26)

وقد يعبر به عن الإرادة التشريعية كقوله تعالى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (البقرة:173)، وقوله تعالى: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (الأنعام:119)

ومثل ذلك لفظ (**الأمر**)، فقد يعبر به عن الإرادة التشريعية كقوله تعالى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (البقرة: 27)، وقوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (البقرة: 67)، وقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا (النساء: 58)،

وقوله تعالى:﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ (المائدة: 117)

وقد يعبر به عن الإرادة القدرية، كقوله تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الاسراء:16)

وقد كانت هذه الآية محل خلاف كبير بين المفسرين، بل استغلها بعض المبشرين للتشنيع على المسلمين بأن ربهم يأمر بالفساد، وهذا كله من سوء الفهم للآية.

ومثل ذلك ما ورد في السنة من بيان ما وضع الله من أسباب لإرادة الخير بالعبد، كما قال ﷺ:(من يرد الله به خيرا يفقه في الدين) (1)،

وقوله ﷺ:(من يرد الله به خيرا يصب منه) (2)

وقوله ﷺ:(ألا اعلمك كلمات؟ من يرد الله به خيرا يعلمهن اياه ثم لا ينسيه إياهن أبدا قل: اللهم انى ضعيف فقو في رضاك ضعفي وخذ إلى الخير بناصيتى، واجعل الاسلام منتهى رضاى، اللهم انى ضعيف فقونى، وانى ذليل فأعزني، وانى فقير فارزقني)(3)

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق)(4)

وقوله ﷺ:(إذا أراد بعبيد خيرا رزقهم الرفق في معاشهم، وإذا أراد بهم شرا رزقهم الخرق في معاشهم)(5)

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكره لم يعنه)(6)

وقوله ﷺ:(ذا أراد الله بقوم سوءا جعل أمرهم إلى متر فيهم)(7)

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله بعبد خيرا أرضاه بما قسم، وبارك له فيه)(8)

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه أحمد والبخاري.
3) رواه الطبراني في الكبير والحاكم.
4) رواه أحمد والبيهقي والبزار.
5) رواه البيهقي.
6) رواه أبو داود والبيهقي.
7) رواه في مسند الفردوس.
8) رواه الديلمي.

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله بعبد خيرا جعل غناه في نفسه، وتقاه في قلبه، وإذا أراد بعبد شرا جعل فقره بين عينيه)(1)

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله، قيل: كيف يستعمله؟ قال: يفتح له عملا صالحا بين يدي موته حتى يرضى من حوله)(2)

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله بعبد خيرا طهره قبل موته، قيل: وما طهور العبد؟ قال: عمل صالح يهلمه إياه حتى يقبضه عليه)(3)

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له قفل قلبه، وجعل فيه اليقين والصدق، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه، وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه سميعة وعينه بصيرة)(4)

وقوله ﷺ:(إذا أراد الله تعالى بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)(5)

وغيرها من النصوص الكثيرة التي تنبهنا إلى مرادات الله لنراعيها، وننال ثمارها.

2 ـ إرادة البشر:

من أكبر المغالطات التي وقع فيها الإنسان هو جداله في وجود إرادته، أو في جدواها.

وصعوبة الرد على هذه المغالطة لا ينبع من كونها حقيقة كبرى تحتار الأدلة في نقضها، وإنما لكونها وهما كبيرا يصعب اجتثاثه، لأن اجتثاثه ـ حسب هذا الوهم ـ يتطلب إلغاء إرادة الله.

وأشبه المغالطات بهذه المغالطة هو مقالة السوفسطائية بإلغاء المحسوس، فلذلك يختار مجادلهم في المنطلق الذي يبدأ منه، فإن كلمهم بالعقل نفوه، فالعقل البشري يعتمد في قضاياه على الحس، وإن جادلهم بالحس نفوه، لأنه لا وجود له في أوهامهم.

وأحسن رد عليهم هو أن يذهب عنهم هذا الوهم بألم يصيبهم به ليشعروا بأن هناك حسا، وأن له أثرا، وأنه أثر مر، فينتقلون من هذه المرارة التي زرعها هذا الحس فيهم إلى اليقين بغيرها من

1) رواه الحكيم والديلمي.
2) رواه أحمد والحاكم.
3) رواه االطبراني في الكبير.
4) رواه أبو الشيخ.
5) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، ورواه الحاكم، وابن عدي.

المحسوسـات، ثم ينتقلـون من اليقين بالمحسوسـات إلى اليقين بالمعقولات.

وهكذا الأمر مـع نفـاة إرادة البشـر، اعتمـادا على إرادة اللـه، فإن خطابهم بالحس ينقلهم إلى المعنى، وخطـابهم بشـؤون الـدنيا ينقلهم إلى شؤون الآخرة.

فيقال لهـذا المجـادل في إرادتـه:(إن الأرزاق والضـر والنفـع بمشيئة الله)، فاترك السعي، بل اتـرك الأكـل والشـرب، فـإن من أجبرك على الطاعة والمعصية ـ حسب وهمك ـ هو الذي أخبر بأنـه يطعم ويرزق.

فإن أبى، فهو علامة على أن مصدر هذا الوهم هـو الهـوى، أو مصدر هذا الوهم استكبار العقل.

أمـا إرادة العقـل البحث عن حقيقـة الحقـائق، وهي (كيـف)، فهذا سؤال الوهم لا سؤال العقل.

ولنضرب مثلا بسيطا قد يرفـع هـذا الـوهم، وهـو مـا يطرحـه بعضهم عند ذكر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم من أنه (لمـاذا لم يخـبر رسـول اللـه ﷺ قومـه من بـاب النبـوءة بالمخترعـات الحديثـة؟.. ولمـاذا لم يخـبر بالنظريـات العلميـة الكثـيرة بصـيغها العلمية، فيكون في ذلك الإخبار نبوءة عظمى قـد تتحـول البشـرية جميعا بموجبها إلى الإسلام؟)(1)

والجواب عن هذا بسيط، وهو أنه لو كان الأمـر كـذلك لاحتـار المخاطبون، بل لكذبوا، ولا يستطيع إقناعهم بحقيقة ما قال إلا بعـد نقلهم من ذلك التخلف إلى ذلك الازدهار المادي الذي يتحدث عنه.

وكذلك الأمـر بالنسـبة لمن يجـادل في الجمـع بين إرادة اللـه وإرادة البشـر ــ وللـه المثـل الأعلى ــ فهـو يريـد بعقلـه الضـعيف وطاقته المحـدودة أن يحـد الألوهيـة بحـدوده البشـرية، بـل يريـد ـ ليفهم حقيقة الأمر ـ أن يصبح إلهـا حـتى يـدرك حقيقـة الجمـع بين إرادة الله المطلقة وحرية البشر.

لـذلك، فـإن هـذه المسـألة لا تحـل عـبر الجـدل، ولعلهـا هي المقصودة بالنهي عن الحديث في القدر، وإنما تحـل عـبر الشـعور والإحســاس، وفي نفس الــوقت الإيمــان واليقين، فالشــعور والإحساس باب لإدراك الحرية، والإيمان واليقين باب للوصول إلى حقائق التوحيد.

هذا من جهة..

---

1) قد رددنا على هذه الشبهة بتفصيل في رسالة (معجزات علمية)

ومن جهة أخـرى، لـو غيبت عن هـذا المجـادل جميـع حقـائق التوحيد التي تجعل الأمر لله من قبل ومن بعد، ثم قيل لـه: أتشـك في الفـرق بين نبضـات قلبـك وحركـات يـدك، أم تشـك في كـون الفكر الذي تفخر بـه وليـد خلايـا دماغـك، أو تشـك في مسـؤوليتك على تصرفاتك؟

إن أي عاقل لا يعتريه الشك في هذا، بل لا يكـاد يحطـر على باله مثل هذا السؤال لو لم تطرح حقائق التوحيد.

فيقال له بعد هذا: ما يضيرك أن يكـون اللـه عالمـا باختيـارك قبل أن تختاره، أوعالما بمشيئتك قبل أن تشـأها، أو أنـه هـو الـذي حرك حركاتك لتتمكن من فعل ما فعلته، فهل يقول بعـد هـذا: إذن كنت مجبرا دون أن أشعر؟

ولنضرب مثالا مقربا لهذا المعـنى: وهـو أن الشـرطة مثلا قـد تعلم بعصابة ما، ثم تعلم عزمها على ارتكاب جريمة ما، ومـع ذلـك لا تقبض عليهـا، بـل تـترك لهـا حريـة التصـرف لتقبض عليهـا وهي متلبسة بالجريمة التي تريد ارتكابها، بـل قـد تسـاعدها، فتـوفر لهـا الأجواء المناسبة لارتكاب الجريمة(1).

فهـل يقبـل عـذر هـذه العصـابة لـو اعتلت بعلم الشـرطة وتسهيلاتها على أنها كانت مجبرة على جريمتها؟

أم أن الشـرطة هي المعـذورة في ذلـك التصـرف، بـل هـو مقتضى العدالة التي تمثلها، لأنها لو قبضت على العصـابة في غـير ذلك الوضع، لأنكرت جرائمها، ويكون لها من جهة العدالة الحق في ذلك الإنكار.

بمثـل هـذا المنطـق تحـدثنا النصـوص المقدسـة عن حقيقـة الجمـع بين إرادة اللـه وإرادة البشـر، فهي تنص على كلا الإرادتين، وتخبر على أن الله تعالى يتعامل مع الخلق بكلتا الإرادتين.

أمـا الإرادة الأولى، فهي من مقتضـيات التوحيـد، وأمـا الإرادة الثانية، فهي من مقتضيات العدل.

ولذلك فإن القرآن الكريم يعقب على أفعال العباد المكتسـبة بأنها لم تحصل خارجة عن مشيئة الله، بل هي في إطـار مشـيئته، ليجمـع القلب على التوحيـد بعـد تـذكيرهم بمسـؤوليتهم في عـالم الأسباب.

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات ضرر السحر الـذي هـو فعـل المكلـف: فَيَتَعَلَّمُـونَ مِنْهُمَـا مَـا يُفَرِّقُـونَ بِـهِ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِـهِ

1) وهذا ما يحصل كثيرا في الواقع لإثبات الجريمة، لأن الجريمة لا تثبت إلا ببينة.

(البقرة: 102)، ثم تعقيبه بعدها بأن هذا الضرر لا يحصل إلا بإذن الله: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: 102)

ومن ذلك قوله تعالى إثبات كسب المخالفين والمعادين لرسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (الأنعام: 112)، ثم قوله بعدها في إثبات التوحيد: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (الأنعام: 112))

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات كسب المشركين من قتل أولادهم التشنيع عليهم بذلك: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُم﴾ (الأنعام: 137)، ثم التعقيب على ذلك بالرد إلى التوحيد: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (الأنعام: 137﴿ ﴾ (الأنعام 6: 137).

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات وقوع الشرك من المشركين بنسبتهم إلى الشرك: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 106)، ثم قوله بعدها في إثبات أن شركهم لا يخرج عن مشيئة الله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ (الأنعام: 107)

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات كسب العبد لمشيئة الاستقامة: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير:28)، ثم تعقيبه بعدها بما يقتضيه التوحيد من إرجاع مشيئة العبد إلى مشيئة الله: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:29)

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات كسب العبد ومشيئته في السلوك إلى الله: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الانسان:29)، ثم تعقيب ذلك بإرجاع المشيئة إلى الله: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (الانسان:30)

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات كسب العباد في التذكر بالقرآن الكريم: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55)﴾ (المدثر)، ثم تعقيبه على ذلك بإرجاع المشيئة إلى الله إثباتا للتوحيد: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر:56)

* * *

انطلاقا من هذه المعاني التي تسلم لها العقول السليمة، ويذكر بها القرآن الكريم في المناسبات المختلفة نرجع إلى النصوص التي استندنا إليها في معرفة طلاقة الإرادة الإلهية، لنرى المدى الذي وهبه الإنسان من إرادة وحرية لا حدود لها.

مدافعة الأقدار:

لا يشبه التأكيد الذي وردت به النصوص في الحث على الإيمان بقدر الله وقضائه ومشيئته إلا التأكيد الذي وردت به في الحث على مدافعة ما نتوهمه من أقدار.

فالشرع الذي أمرنا بالإيمان بالقدر هو الذي أمرنا بمنازعة القدر.

بل إن الذي ينازع القدر أعرف بالله من الذي يستسلم له وأكثر تواضعا وأعظم أدبا، فالذي يستسلم للقدر الذي يتصوره يجعل من نفسه خبيرا بأقدار الله، فلذلك يستسلم لأي عقبة تحصل له في حياته ويسميها قدر الله.

بينما الذي ينازع القدر يدرك أن أي حركة يفعلها أو أي اتجاه اتجه إليه هو قدر الله: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ (البقرة: 115)، فلذلك يعرف الحق لأهله، فيتأدب مع عالم الحكمة كما تأدب مع عالم القدرة.

وهو أكثر معرفة لأنه يعرف الله بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا، بينما المستسلم لا يعرف من أسماء الله إلا ما يبرر تواكله وعجزه.

ولهذا جمع ﷺ بين حقائق التوحيد في القدر، وبين القوة، فقال ﷺ:(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)(1)

وقد حض ﷺ على هذه المنازعة ليرد الأوهام عن التطبيقات الخاطئة للإيمان بالقدر لما قيل له:(أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا؟) فقال ﷺ: (هي من قدر الله تعالى)(2)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما ينزل، فإن البلاء ينزل فليقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)(3)

وإلى هذا المعنى أشار قوله ﷺ:(يقول الله يا ابن آدم انما هى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين خلقى، فأما التى لى فتعبدنى لاتشرك بى شيئا، وأما التى لك

1) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة.
2) رواه ابن حبان وغيره.
3) رواه ابن عدي والحاكم وتعقب والخطيب.

فعملك أجزيك به أحوج ما تكون اليه، وأما التى هى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين خلقى فأت الى الناس بما تحب أن يأتوه اليك) (1)

فهذا الحديث نظم علاقات المؤمن حتى لا يطغى بعضها على بعض، ومن أهم ما نظمه علاقة المؤمن بالله.. فالله هو الرب الإله.. والعبد هو المربوب المتوجه لله بالعبودية.. وأول ما يقتضيه هذا التوجه أن لا ينازع العبد ربه في ربوبيته فينفي قدره، وأن لا يتخلى عن وظائف عبوديته، بحجة قدر ربه.

التسليم للأقدار:

قد يقال بعد هذا: كيف يقال هذا.. ونحن نرى المسلمين بعلمائهم وأوليائهم، بل بمصادرهم النصية يتحدثون عن التسليم للمقادير.. وأن الكمال في ذلك التسليم، وأن من نازع الأقدار كان خصما لله، وللنظام الذي أراد الله؟

والجواب عن هذا.. هو أن كل ما تحدث عنه في هذا الجانب يحمل على نوعين:

أما **النوع الأول**، وهو الذي أمر الشرع بالتسليم له تسليما مطلقا، وعدم منازعته في شيء، فهو القدر الذي ليس للإنسان فيه أي اختيار، لأن منازعته لا دور لها إلا تحطيم قلب صاحبها من غير أن يكون لها أي تأثير عملي.

وهذا النوع من التسليم في الحقيقة هو نوع من الدعوة إلى العمل والاجتهاد، لأن أكبر ما يقعد الإنسان عن العمل الجاد الماضي بآلامه والمستقبل بمخاوفه، لهذا قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد:22) ثم قال بعدها: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد:23)

أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تيأسوا على ما فاتكم ولا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا بكدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم.

فكلا الأمرين مما ذكرته الآية الكريمة يحول بين الإنسان والعمل الصالح الجاد، فالأول هو الوهن الذي يسببه تحمل جميع

---

1) رواه الطبرانى.

أثقال الماضي، والثاني هو البطر الذي يسببه الفرح بالحاضر، والإيمان بالقدر يقي من كليهما.

فإذا وقي الإنسان من كليهما توجه بكليته للعمل الجاد المثمر الذي أتيح له التحكم فيه.

ولذلك، فإن الذين ينكرون على المؤمنين ما طبعوا عليه من تسليم الأمر لله في مثل هذا لا يفعلون شيئا في الحقيقة سوى رميهم في أتون الإحباط أو البطر الذي يجعلهم مستعبدين لذواتهم بعيدين عن ربهم، ومن ثم بعيدين عن كل عمل إيجابي.

أما **النوع الثاني**، وهو ما يدخل من التسليم فيما يرتبط بالجوانب الاختيارية، والتي للإنسان فيها الإرادة المطلقة.. فمرادهم من ذلك المزاوجة والجمع بين الإقبال على العمل بهمة المكتسب الذي يعتقد تأثير العمل في حصول المطلوب، وبين الاعتقاد بقدر الله، وأن كسب الإنسان أقصر من أن يحقق نفعا، أو يدفع ضرا.

فبكلتا النظرتين يستقيم السلوك بجانبيه: السلوك الظاهر بالعمل الصالح، والسلوك الباطن بأدب الباطن.

وقد تقاسم هاتين النظرتين في التاريخ الإسلامي، بل في تاريخ الأمة الإسلامية من زمنها الطويل فريقان: العلماء بالحث على السلوك الظاهر، والعارفون بالحث على المشاعر الباطنة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى كلا الفريقين بقوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ (المائدة: 44)، وقوله تعالى: لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (المائدة:63)، وقوله تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ (التوبة: 31)

فهذه الآيات جميعا تذكر أن ورثة الأنبياء هم الأحبار، والرهبان، والمراد بالحبر: المهتم بالنواحي الشعائرية والطقوسية الظاهرة من العبادات، والمراد بالرهبان: المهتمون بالجوانب الشعورية الروحية، اشتقاقا من الرهبة التي تعني مخافة الله.

ومن الأخطاء الكبيرة التي يقع فيها الكثير من الناقدين هي تمييزهم بين النظرتين أو ترجيح إحداهما على الأخرى، أو أن الانتساب إلى إحداهما يلغي الانتساب إلى أخرى.

مع أن كلا النظرتين تكمل الأخرى، وتؤيدها، بل لا يكمل

أحدهما إلا بالآخر.

وسنحاول انطلاقا من هذا أن نجمع بين النظرة السلوكية والنظرة الوجدانية فيما يتعلق بهذا الجانب، جمعا بين النصوص من جهة، وجمعا بين أقوال العلماء من جهة أخرى في ناحية من النواحي السلوكية المهمة، وهو الدعاء.

فالأدب مع النصوص الواردة في الأمر بالدعاء، والأدب مع النصوص الواردة في القضاء والقدر يستدعي التسليم لهما جميعا، فلا يقتضي الأدب مع القدر تجاهل الدعاء، ولا يقضي التعرف على سببية الدعاء تجاهل القدر.

وقد تحقق هذا المعنى في منتهى كماله في رسول الله ﷺ فقد كان يعطي لكل مقام حقه من العبودية، ولعل أدل مثال على ذلك ما وقع منه في غزوة بدر، فقد أراه الله مصارع المشركين حتى أنه أخذ يريها للصحابة(1).. ومع ذلك لم يكف ﷺ من الإلحاح على ربه في الدعاء، عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول اللّه ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح(2).

وفي يوم المعركة كان رسول الله ﷺ لا يكف عن الدعاء، مع يقينه بنصر الله، فعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: (اللهم أني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لاتعبد بعد اليوم)(3)

قد يستشكل هذا..

وللجواب على هذا الاستشكال نقول: للدعاء جانبان، وقد تقاسم الحديث عن كل واحد منهما أحبار المسلمين ورهبانهم، أو علماؤهم وأولياؤهم، أو متكلموهم وصوفيوهم.

الجانب سلوكي:

أما الجانب الأول، وهو الجانب السلوكي، فهو يستدعي القول بأثر الدعاء العظيم في تحقيق المطالب، وهو ما صرحت به النصوص تصريحا لا جدال فيه.

وبما أن العلماء هم الذين ركزوا على هذا الجانب، فسنذكر كيف عالج ابن القيم هذه المسألة، باعتباره ممن أفاض فيها كثيرا في كثير من كتبه، قال في (الجواب الكافي): (والدعاء من أنفع الأدوية وهو عدو البلأ يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه

1) رواه مسلم وغيره.
2) رواه أبو يعلى والبيهقي في الدلائل.
3) رواه البخاري والنسائي.

إذا نزل وهو سلاح المؤمن)[1]

وذكر أن أثره محقق لا محالة، ولكن ما قد يبدو من عدم تأثيره لا يرجع تفسيره إلى قدر الله السابق، بل يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: يعود إلى الداعي، بأن لا يكون محققا لشروط الدعاء، قال ابن القيم:(والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير، فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الأثر) [2]

ولذلك فإن للدعاء في منازعته القدر ـ كما يذكر ابن القيم ـ ثلاث مقامات (أحدها أن يكون أقوي من البلاء فيدفعه، الثاني أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفا، الثالث أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه) [3]

وإلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله:(لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة)[4]

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(لا يرد القدر الا الدعاء، ولا يزيد في العمر الا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[5]

والأمر الثاني يعود إلى لطف الله ورحمته، بأن يعلم الله أن الخير في غير ما سأل عبده، فيعطيه من الخير ما يغنيه عن سؤاله، وإلى هذا المعنى يشير العارفون ـ كما يعبر على لسانهم ابن عطاء الله بقوله:(لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك ؛ فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد)

وإلى ذلك أشار في الحكمة الأخرى بقوله:(ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك)

بل ذلك ما يدل عليه قوله تعالى: وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً

---

1) الجواب الكافي: 4.
2) الجواب الكافي: 4.
3) الجواب الكافي: 4.
4) رواه البزار وفيه إبراهيم بن خثيم وهو متروك.
5) رواه النسائي وابن ماجه وأحمد وأبي يعلى وابن منيع والطبراني.

وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَـرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (البقرة: 216)

أما السؤال المشهور، والناتج من عدم قدرة الوهم على الجمع بين القدر السابق، وتأثير الدعاء اللاحق، وهو (أن المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع، وان لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله)(1)، فقد اختلفت الإجابة عليه، وسنذكر بعضها مطبقين ما سبق ذكره لمحاولة التوصل إلى وجه الحق في المسألة:

فمن الآراء في المسألة من غلب التوحيد، ونفى سببية الدعاء، بل نفى الدعاء مطلقا، ومنشأ هذا الوهم هو عدم إدراك أصحاب هذا الرأي لحقيقة سببية الدعاء.

فالدعاء سبب من الأسباب، لا يختلف عن سائر الأسباب التي يمارسها كل البشر في جميع الأحوال، قال ابن القيم في الرد عليهم:(وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون، فإن اطرد مذهبهم لوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قدرا لك فلا لا بد من وقوعها أكلت أو لم تأكل، وإن لم يقدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل.. فهل يقال هذا عاقل أو آدمي، بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الاسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل سبيلا) (2)

وذهب آخرون إلى اعتبار الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض الذي يطلب به العبد مجرد الثواب من غير أن يكون له أي تأثير في تحقيق المطلوب، ولا فرق عند هؤلاء بين الدعاء والامساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب.

بل إن ارتباط الدعاء عند هؤلاء بتحقيق المطلوب كارتباط السكوت، لا فرق بينهما.

وهذا الرأي يتناقض مع ما صرحت به النصوص من جعل الله تعالى الدعاء سببا في تحقيق المطالب، بل هو يتناقض أصلا مع تشريع الدعاء، بل يعتبر قوله تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (غافر: 60) قولا لا معنى له.

بل كل ما ورد من النصوص الحاثة على الدعاء، والمخبرة عن إجابة الله تعالى دعاء الداعين وتضرع المتضرعين لا حقيقة

---

1) الجواب الكافي: 8.
2) الجواب الكافي: 8.

لها.

وذهب آخرون إلى اعتبار الدعاء علامة جعلها الله تعالى أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له على أن حاجته قد قضيت، وشبهوا ذلك بدلالة الغيم الأسود في الشتاء على أنه يمطر.

وعمموا هذا القول على جميع الطاعات والمعاصي، فهي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أسباب حقيقية له.

بل هكذا الأمر في جميع ما يحدث في الكون من آثار، فكلها أمارت فالكسر مع الانكسار ليس سببا، بل لا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه الا مجرد الاقتران لا التأثير السببي (1).

وقد أنكر ابن القيم هذا القول، واشتدا في الإنكار، بل اعتبراهم مخالفين لـ (لحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء بل أضحكوا عليهم العقلاء)(2) مرجحا القول بالسببية عل كونه أمارة.

ولا نرى صحة هذا الإنكار، بل نرى أن الاختلاف فيها مجرد اختلاف نظري لا مبرر له، ولا حاجة إليه، أو هو اختلاف تنوع، أو هو اختلاف في التفسير لا أثر له.

فسواء قلنا بأن الدعاء أمارة أو سبب لا يختلف الأمر بالنسبة للداعي، ولا يقعده ذلك عن الدعاء، بل إن القول بكون الدعاء أمارة قد يكون أكثر تأثيرا في الدعوة إلى استعمال الدعاء من القول بالسببية.

فالداعي إذا عرف أن الدعاء علامة على استجابة الله قد يجعله أكثر إقبالا إليه من اعتقاده سببا، فالسبب قد يقصر عن تحقيق المطلوب بخلاف جعله علامة.

وقد عبر الشاعر عن هذا المعن بقوله:

لو لم ترد نيل ما أرجوه وأطلبه من جود كفيك ما علمتنى الطلبا

والناحية الأخرى هو الأثر الروحي الذي يتركه اعتقاد كون الدعاء أو العبادة أمارة لا سببا في حد ذاته، والذي سنراه في الجانب المعرفي.

الجانب المعرفي:

بما أن دور العارفين التربوي هو الحديث عن الجوانب

---

1) سنتحدث عن التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (الحكمة) من هذه الرسالة.
2) الجواب الكافي: 9.

المعرفية المتعلقة بالتكاليف الشرعية، وجمع القلـوب على حقـائق التوحيد، تكميلا لدور الفقهاء، لا مناقضة لهم، فقد ألحوا على جانب مراعاة العبودية في الدعاء مع الاعتقاد بالمنة لله في الدعاء او في تحقيقه، ولذلك قال أبو الحسن الشاذلي:(لا يكن همك في دعائـك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همك مناجاة مـولاك)، وقال ابن عطاء الله:(لا يكن طلبك تسبباً إلى العطـاء منـه، فيقـل فهمك عنه. وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية)

ثم علل كون الطلب لا يكون سبباً للعطاء بثلاث علل:

أما العلة الأولى، فعبر عنها بقوله:(كيف يكون طلبـك اللاحـق سبباً في عطائه السابق؟)، فعطاء اللـه للعبـد عطـاء أزلي سـابق، وهو السبب في العطـاء الحـادث، والسـبب لا بـد من تقدمـه على المسـبب، وهـو كمـا قـال الواسـطي: أقسـام قسـمت، وأحكـام أجريت، كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات؟

أما العلة الثانية، فعبر عنها بقوله:(جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل)، أي أن حكم الله يتنزه ويتقدس أن يؤثر فيه أي مؤثر.

أما العلة الثالثة، فعبر عنها بقوله:(عنايته فيك لا لشيء منـك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتـك رعايتـه؟ لم يكن في أزلـه إخلاص أعمــال، ولا وجــود أحــوال. بــل لم يكن هنــاك إلا محض الإفضال، وعظيم النوال)

وهذا هو الأثر الإيماني اللذيذ الذي يعمر القلب بحلاوة الإيمان، فعناية الله الأزلية هي السبب في كل نعمة، وهذا مـا يشـعر القلب بمحبة الله واصطفائه على الكثير من خلقـه، وهـو مـا يجعلـه يعبـد الله مستشعرا منته عليه، وإحسانه السابق إليه.

فهذا هو مقصـود العـارفين من ذكـر التوحيـد بجـانب الـدعاء، فالدعاء سبب شرعي معتبر، ولكن الشرع الذي شرع الدعاء وبين تأثيره في قضـاء الحـوائج هـو الـذي بين سـبق عنايـة اللـه بعبـده، فيفـنى العـارف في الفضـل السـابق، وينشـغل الغافـل بالسـبب اللاحق.

وقد ورد عن بعض العـارفين في بعض أحـوالهم تـرك الـدعاء رضى بالقسمة الإلهية وعدم منازعة الأقـدار، كمـا قـال معـبرا عن ذلك ابن عطاء اللـه بقولـه:(ربمـا دلهم الأدب على تـرك الطلب ؛ اعتماداً على قسمته ؛ واشتغالاً بذكره عن مسألته)

أي قد يكون من الأدب الباطن مع الله ترك السؤال والطلب، اشتغالا بالذكر أو رضى تصاريف الأقدار ؛ وقد ورد ما يؤيد هـذا من

النصوص كقوله ﷺ في الحديث القدسي:(من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)(1)

أو قد يكون حالهم كحال الواسطي الذي قال معبرا عن حالة وجدانية خاصة:(أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور)

فهذا القول من الواسطي تعبير عن حالة وجدانية معينة، وليس تعبيرا عن مذهب أو فكرة كما قد يتصور.

والأدلة على ذلك كثيرة في مواقف رسول الله ﷺ التي كان يكتفي فيها بتصاريف الأقدار عن الإلحاح في الدعاء.

ومن القرآن الكريم قد يستدل على ذلك بتأخر طلب أيوب عليه السلام وصبره تلك الفترة الطويلة، قال تعالى: وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (الانبياء:83)، فقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كان يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم واللّه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه اللّه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل، حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقول غير أن اللّه عزَّ وجلَّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران اللّه، فارجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يذكرا اللّه إلا في حق)(2)

والأصرح من ذلك تأخر دعاء نوح عليه السلام على قومه كل تلك السنين الطويلة، ومثله تأخر دعاء إبراهيم عليه السلام وزكريا عليه السلام في طلب الولد إلى أن بلغا من العمر عتيا، كما قال تعالى عن زكريا

---

1) رواه البخاري في التاريخ والبزار في المسند والبيهقي في الشعب، وهو يشير إلى ما ورد في النصوص من الحث على الجمع بين الذكر والدعاء، وذلك كما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ:عجل هذا، ثم دعاه فقال له أو لغيره: (إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز و جل والثناء عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بعد بما بشاء) رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح ورواه الحاكم في صحيحه.

ويدل لهذا من القرآن الكريم قوله تعالى عن دعاء يونس ـ عليه السلام ــ: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الانبياء: 87)، وقد ورد في الحديث عن فضل هذه الدعوة قوله ﷺ:(دعوة أخي ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فإنه لم يدع بها مسلم قط إلا استجاب له)رواه الترمذي.

2) رواه ابن أبي حاتم.

عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ (مريم:4 ـ5)

فزكريا عليه السلام مع علمه بأنه لم يكن بدعاء ربه شقيا، أي ولم يعهد من الله إلا الإجابة في الدعاء، إلا أنه لم يستعمل هذا السلاح إلا بعد أن اضطر إليه اضطرار.

ولذلك تختلف دعوات الأنبياء والمؤمنين في القرآن الكريم عن أدعية الغافلين المقصورة على المصالح العاجلة، بل إن دعواتهم أشبه بمناجاة الله منها بالدعاء.

ثالثا ـ الكتابة

السر الثالث من أسرار التوحيد في القدر هو كتابة الله تعالى مقادير الأشياء وتسجيلها وفق ما في العلم الإلهي، وقد وردت النصوص الكثيرة الدالة على كتابة الله لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحج:70)

فالله تعالى يخبرنا عن كمال علمه بخلقه، وإحاطته بما في السماوات وما في الأرض، وعلمه بشؤون الكائنات كلها قبل وجودها، ثم كتابة ذلك في كتاب، ثم اعتبار كل ذلك يسيرا لا تعجز عنه الربوبية.

ويخبرنا الله تعالى أنه كتب في هذا الكتاب مقادير جميع الأشياء حتى الورقة الساقطة والحبة والرطب واليابس، فقال تعالى:﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:59)

وأخبر ﷺ بأن الله تعالى (قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)(1)، وأخبر أن (أول ما خلق اللّه القلم، فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة)(2)

ووردت الأحاديث الكثيرة الدالة على أن الله كتب مقادير كل شيء.

وقد أخذ بهذه النصوص من تصوروا الأمر جبرا، وأن العباد لا حظ لهم من الحرية والاختيار والمسؤولية على أعمالهم.

وفي نفس الوقت ورد ما يدل على أن هذه المقادير تنسخ وتبدل وتغير، كما قال تعالى:﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد:39)

وقد ورد في الأحاديث الكثيرة الإخبار بمغالبة الأقدار المكتوبة، كقوله ﷺ:(إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)(3)، وورد في

---

1) رواه مسلم.
2) رواه أحمد والبيهقي في الشعب وابن منيع وابن جرير والطبراني في الكبير.
3) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

الحديث أن صلة الـرحم تزيـد في العمر(1)، وفي حـديث آخـر:(إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض)(2)

فما سر هذا الاختلاف؟

وهل تمحى المقادير، أم هي ثابتة لا تتغير؟

وهل في مقدور الإنسـان الضـعيف الهزيـل أن يبـدل مقـادير الشقاوة مقادير سعادة؟

والجواب عن هذا ـ والله أعلم ـ هـو أن التأمـل في النصـوص الواردة في كتابة الله تعـالى للمقـادير ومحاولـة الجمـع بينهـا تـدل على أن هنـاك ثلاثـة أنـواع من الكتب: كتب كتبت فيهـا المقـادير الأبدية، وكتب كتبت فيها الأقـدار المؤقتـة، وكتب كتبت فيهـا سـنن الكون وقوانينه، وتفصيل ذلك وأدلته نعرفها في المباحث التالية:

1 ـ المقادير الأبدية:

وهي المقادير المستمدة من علم الله وخبرتـه بالأشـياء قبـل وجودها، فالله تعالى ـ كما بينا في هذا الفصـل ــ يعلم كـل شـيء، وفي كل الأحوال.

وهـذه الكتب لا تغيـير فيهـا ولا تبـديل، فهي كتب وصـفية لمـا يحدث، أو تدبيرية لما يحـدث، وهي ممـا اسـتأثر اللـه بعلمـه، وقـد يطلع على بعضه من شاء من خلقه كما سنرى.

وهذا الكتاب الحاوي لهذه المقادير هو المقصود بقوله تعـالى: ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:39)، فأم الكتاب في اللغـة تـدل على الأصل الذي يرجع إليه، فـالعرب تسـمي كـل جـامع أمـراً أو مقـدم لأمـر (أمّـاً)، فتقـول للجلـدة الـتي تجمـع الـدماغ (أم الـرأس)، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها (أمّا)

ولهذا سميت الفاتحة أم الكتاب، كما قـال ﷺ عنهـا:(الحمـد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى)(3)

وسميت الآيات المحكمات التي لا تغيير فيها ولا تبديل، والـتي يرجع إليها عند الاشتباه أم الكتاب، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَـابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ

---

1) من الأحاديث الواردة في ذلك قوله ﷺ:(صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الاعمار) رواه أحمد والبيهقي.

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ:(من سره أن يمد الله له في عمـره ويوسـع لـه في رزقه ويـدفع عنـه ميتـة السـوء، فليتـق اللـه، وليصـل رحمـه) رواه أحمـد وابن جريـر وصححه، والخرائطي في مكارم الاخلاق والطبراني في الأوسط والحاكم وابن النجار.

2) رواه البزار والحاكم.

3) رواه أبو داود والترمذي..

تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (آل عمران:7)، فالمراد بأم الكتاب هنا أصله الذي يرجع إليه عند الإشتباه.

وهذا الكتاب هو المقصود بـ (الإمام المبين) في قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (يّس:12) أي جميع الكائنات مكتوبة في كتاب مسطور مضبوط هو الإمام المبين.

والإمام في التعبير الشرعي يراد به المتبوع والأصل الذي يرجع إليه غيره، كما قال تعالى: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ (القصص:41)، وقال ﷺ:(إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كنت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الاصنام والانصاب إلا يتساقطون في النار حتى لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر)(1)

وهو المقصود باللوح المحفوظ، كما قال تعالى: فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج:22)

وهو المقصود بالكتاب المكنون، كما قال تعالى: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (الواقعة:78)

ومن خلال هذه التسميات المختلفة لهذا الكتاب نستطيع تلمس ثلاث خصائص لهذا الكتاب هي: الشمولية، والحفظ، والستر.

ومعرفة هذه الخصائص أساسية لمن يريد أن يرفع الشبه الكثيرة التي تطرح في هذا المجال.. بل لا يمكنه أن يرفعها إلا بمعرفتها، وسنبين كيفية ذلك فيما يلي:

الشمولية:

وهي اشتمال هذا الكتاب على كل التفاصيل التي خرج بها الكون من العدم إلى الوجود، كما قال تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام:38) أي أن الله تعالى أثبت في اللوح المحفوظ كل ما يقع من الحوادث(2).

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) وقد فسر بعضهم الكتاب هنا بأنه القرآن على معنى أن القرآن لم يترك شيئا من أمر الدين إلا وقد دل عليه ؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ.

ومع أن القرآن حوى الحقائق الكبرى لتفاصيل الوحود، كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ (النحل: 89) إلا أن المراد الظاهر في هذه الآية هو اللوح المحفوظ باعتباره حاويا لتفاصيل الحقائق، لا جملها فقط.

وقد ذكر القرآن الكريم والسنة المطهرة التفاصيل الكثيرة الدالة على كتابة الله للصغير والكبير من أحداث الكون، قال تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: 59)، فأخبر تعالى أنه سجل حركة الأشجار وغيرها من الجمادات في هذا الكتاب.

وأخبر تعالى أن كل ما يحدث في الكون من أنواع المصائب مسجل في هذا الكتاب، قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد:22)

وأخبر أنه لا تموت نفس إلا وعند الله علمها، وأنه سجلها في ذلك الكتاب، قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (قّ:4)(1)

وأخبر أن هذا الكتاب هو الذي تحدث الأشياء كل الأشياء وفقه، قال تعالى: ﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (لأنفال:68)

وأخبر عن مقالة موسى عندما سأله فرعون عن حال القرون الأولى، فقال: ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى﴾ (طه:52)

بل نص على أن كل شيء مسجل في هذا الكتاب تسجيلا واضحا بينا، فقال ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:75)(2)

وأخبر تعالى عما يحويه هذا الكتاب من تفاصيل حياة الإنسان وأعماله، فقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:61)

وأخبر تعالى عن احتواء هذا الكتاب على أعمار الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر: 11)

---

1) فقد فسر ابن عباس الآية بقوله:(ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم)

2) قال ابن عباس في تفسير الآية: يعني: (ما من شيء).. ذلك أن كل شيء يمكن اعتباره غيبا، فالغيب ما ستر عن البعض، وبما أنه ليس هناك من يعلم كل شيء إلا الله، فصار كل شيء بهذا الاعتبار غيبا.

وفي هـذا الكتـاب كـل مـا يتعلـق بتفاصـيل شـقاوة العبـاد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمـالهم قبـل خلقهم، فقـد روي أن رسول اللـه ﷺ كـان في جنـازة في بقيـع الغرقـد، ومعـه مخصـرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال:(ما منكم من أحد - أو مـا من نفس منفوسـة - إلا كتب مكانهـا من الجنـة والنـار، وإلا كتبت شقية أو سعيدة)، فقال رجل:(يا رسول اللّه أفلا نتكـل على كتابنـا وندع العمل؟ فمن كان منـا من أهـل السـعادة فسيصـير إلى أهـل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال:(أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمـا أهـل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء)، ثم قرأ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَـدَّقَ بِالْحُسْـنَى (6) فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْيُسْـرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) (الليل)(1)

ويروى أن رجلاً من مزينة- أَو جهينة- أَتى النبى ﷺ، فقـال: يـا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس ويتكـادحون فيـه، أشـيء قضـى عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نـبيهم؟ قـال:(فيمـا قضى عليهم ومضى)، فقال الرجل:(ففيم العمل؟)، فقال رسـول الله ﷺ:(من كان خلقه الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها)(2)

وورد في حديث جابر أن رجلا جاء رسول اللـه ﷺ فقـال:(يـا رسول الله بين لنا ديننـا كأنـا خلقنـا الآن، فيم العمـل اليـوم، أفيمـا جفت به الأقلام، وجرت به المقادير أم فيما اسـتقبل؟)، فقـال ﷺ: (لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير)(3)

وعن ابن عباس قال:(كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال:(يا غلام ألا أعلمك كلمـات احفـظ اللـه يحفظـك احفـظ اللـه تجـده تجاهك إذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشـيء قـد كتبه الله لك ولو اجتمعـوا على أن يضـروك بشـيء لم يضـروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) (4)

ولهذا استدل آدم عليه السلام بأن ما حصـل منـه قـد كتب عليـه قبـل ذلـك، قـال ﷺ:(حـاجَّ موسـى آدم فقـال لـه:(أنت الـذي أخـرجت النـاس من الجنـة بـذنبك وأشـقيتهم؟)، قـال آدم:(يـا موسـى أنت

1) رواه البخاري وغيره.
2) رواه أحمد ومسلم.
3) رواه مسلم.
4) رواه الترمذي والحاكم.

الذي اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه؟ أتلومني على أمر كتبه اللّه عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره اللّه عليَّ قبل أن يخلقني؟)، فقال رسول اللّه ﷺ:(فحج آدم موسى)(1)

وكتابة المقادير بهذه الصفة لا يصح الاحتجاج بها على ترك العمل ـ كما بين رسول الله ﷺ ـ لأن الله تعالى كما كتب الأجزية كتب الأعمال، بل رتب الجزاء على العمل ن فلذلك إن قعد قاعد، وقال:(إن كنت من أهل الجنة، فلماذا أعمل؟ وإن كنت من أهل النار، فلماذا أتعب نفسي)، فإن هذا يقال له: إن الله كتب لك أن تجوع ثم كتب أن تأكل، ثم كتب لك أن تشبع بعد أكلك، فإذا جعت، فلا تأكل، وقل: إن كان الله قد قدر لي أن أشبع، فما حاجتي لتكلف الأكل.

ولهذا ربط النبي ﷺ بين هذه الحقائق الكبرى وبين العمل، فقد روي في الحديث أن غلامين شابين سألا النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله، أنعمل فيما جَفَّت به الأقلام وجَرَتْ به المقادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال ﷺ:(بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير) قالا: ففيم العمل إذًا؟ قال: (اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له)

وقد كان هذا القول محفزا لهذين الشابين، فقالا:(فالآن نجد ونعمل)(2)

ولذلك،فإن كتابة هذه المقادير لا يفهم منها المؤمن ما يفهمه المجادلون، بل يراها دليلا على كمال الله وغناه المطلق وعلمه الواسع، وهي مع ذلك تحمل كل العدل والرحمة والحكمة.

الحفظ:

ويدل على هذا تسميته باللوح المحفوظ، فهو محفوظ من التغيير والتبديل، فلا يغير ما فيه ولا يبدل، فقد سجل فيه تعالى بقلم القدرة الإلهية ما سيحصل في الكون من الأحداث التي لا تبدل ولا تغير، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

ويدل على هذا المعنى تسميته بأم الكتاب، لأنه هو الأصل لسائر الكتب، ولذلك قال تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) تفسير الطبري (30/144).

أُمُّ الْكِتَابِ (الرعد:39) أي جملة ذلك عنده في أم الكتاب.

فهذا الكتاب يشبه آيات القرآن الكريم المحكمة التي لا يمكن أن تتعرض بحال من الأحوال للنسخ، ولذلك أخبر تعالى أنه لا تبديل لكلمات الله، قال تعالى: لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (يونس:64)

وقال تعالى مخاطبا الإنسي وقرينه من الجن عندما يختصمان بين يديه: قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (قّ:28 ـ 29)

وهو نفس ما قال تعالى في آيات القرآن الكريم، قال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الأنعام:115)، وقال تعالى: وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (الكهف:27)

فهذه الكتاب إذن يحوي المقادير في صورتها النهائية المفصلة، التي لا تغيير فيها ولا تبديل لأنها ترجع إلى علم الله بالأشياء، والعلم لا يتغير.

الستر:

وهو ما يدل عليه اسمه (الكتاب المكنون)، فالمكنون في اللغة هو المصون المستور، كما قال تعالى: أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ (البقرة: 235) أي سترتم وأضمرتم من التزوج بها بعد انقضاء عدتها، ومنه كذلك قوله تعالى: كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (الصافات:49) أي مصون.

وهذا ما تدل عليه النصوص الدالة على اختصاص الله بعلم الغيب، فلو كان هذا الكتاب غير مكنون لأمكن الاطلاع على موعد الساعة والحقائق الغيبية الكثيرة.

ولهذا لا نرى صحة ما ورد في الحديث عن عبدالله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال:(أتدرون ما هذان الكتابان؟) فقلنا:(لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا) ؛ فقال للذي في يده اليمنى:(هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء أبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا)، ثم قال للذي في شماله:(هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء أبائهم وقبائلهم ثم أجمل على أخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا)، فقال أصحاب رسول الله ﷺ:(فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟)،

فقال رسول الله ﷺ:(سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة، وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل النار، وإن عمل أي عمل) ثم قال بيده فقبضها، ثم قال فرغ ربكم عز وجل من العباد، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال:(فريق في الجنة) ونبذ باليسرى فقال: (فريق في السعير)(1)

فإن هذا الحديث ـ مع عدم قوته نقلا ـ يتعارض مع النصوص القرآنية والنبوية الكثيرة الدالة على اختصاص الله بعلم أهل الجنة وأهل النار، بل إن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الاحقاف:9)

فالآية الكريمة تنص على أن رسول الله ﷺ كان لا يعلم مصيره(2)، فكيف يحمل كتابا يحوي مصائر الخلق جميعا، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نزل بعدها: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: 2)

بل ورد في الحديث الشريف ما يدل على هذا، فعن أم العلاء - وكانت بايعت رسول اللّه ﷺ قالت:(طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون، فاشتكى عثمان فمرَّضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول اللّه ﷺ، فقلت:(رحمة اللّه عليك أبا السائب شهادتي عليك، لقد أكرمك اللّه تعالى، فقال رسول اللّه ﷺ:(وما يدريك أن اللّه تعالى أكرمه؟)، فقلت:(لا أدري بأبي أنت وأمي)، فقال رسول اللّه ﷺ:(أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وأني لأرجو له الخير، واللّه ما أدري وأنا رسول اللّه ما يفعل بي)، قالت، فقلت: (واللّه لا أزكي أحداً بعده أبداً)، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عيناً تجري، فجئت إلى رسول اللّه ﷺ، فأخبرته بذلك، فقال رسول اللّه ﷺ:(ذاك عمله)، وفي لفظ:(ما أدري وأنا رسول اللّه

---

1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب ورواه النسائي وأحمد.

2) وفسرت هذه الآية كما قال الضحّاك:(أي ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا؟) وفسرها الحسن البصري على أن المراد منها ما يحصل من أحوال الدنيا وتقلباتها، « أما في الآخرة فمعاذ اللّه وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء؟ أم أقْتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟) انظر: تفسير ابن كثير: 7/276.

ونرى أن هذا هو الأوجه، فإنه ﷺ بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه؛ وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش، إلى ماذا أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون، فيستأصلون بكفرهم؟ ولكن هذا أيضا لا يمنع من احتمال الآية لما ذكرنا.

ما يفعل به)[1]

وأخبر ﷺ أنه لا يعلم أقواما من المرتدين من أمته يوم القيامة مع كونهم كانوا من أصحابه، قال ﷺ:(ليُذادَنَّ أقوام من أمتي حوضي أعرفهم ويعرفوني ويؤخذ بهم جهة النار، فأقول: أصحابي أصحابي. فيقال: ليسوا أصحابك إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً)[2]

وهكذا جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فقد كانوا أعظم البشر خوفاً من الله وفرقاً من عذابه وفراراً إليه، ولو أطلعوا على الغيب لما خافوا كل ذلك الخوف.

وفي حديث الشفاعة الطويل[3] يخبر رسول الله ﷺ عن مخاوف الأنبياء، ولو علموا الغيب المكنون لكان خوفهم مجرد تكلف لا خوفا حقيقيا.

وقد أخبر الله تعالى عن خوف الملائكة الدائم من الله، وهو دليل على عدم اطلاعهم على الغيب المكنون، قال تعالى: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (النحل:50)

وهذا الخوف الشديد من معرفتهم بالله، فكلما ازداد المؤمن معرفة بالله ازداد تواضعه له، وعدم تحديه حدوده، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ:(إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)[4]

* * *

ولهذا يخبر القرآن الكريم أن الله هو المستأثر بعلم الغيب، وأن هذا الكتاب المكنون الذي هو فيض من فيوضات علم الله سر من أسرار الله، قال تعالى: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (النمل:65)، وقال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (الجن: 26)

ولهذا يرد في القرآن الكريم وصف الله تعالى بكونه عالما للغيب والشهادة، قال تعالى: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

---

1) رواه البخاري.
2) رواه مالك وأحمد والشافعي ومسلم والنسائي.
3) رواه البخاري ومسلم.
4) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن غريب.

وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبة:94)،ـ وقال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (الرعد:9)، وقال تعالى: عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (المؤمنون:92)،ـ وقال تعالى: ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (السجدة:6)، وقال تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (الحشر:22)

وأخبر تعالى أنه لا يطلع على غيبه أحدا، كما قال تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران:179)

ورد على من تألى على الله، فزعم أنه يمكن أن ينال بجهده ما لم يقدره الله له، فقال: لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (مريم: 77) بقوله تعالى: أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً (مريم: 78)،ـ أي أعلم ماله في الآخرة، حتى تألى وحلف على ذلك، أم له عند اللّه عهد سيؤتيه ذلك؟

وتردد في القرآن الكريم مواجهة المشركين بعدم علمهم الغيب، قال تعالى: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (الطور:41)، وقال تعالى: أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (لنجم:35) أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا اللّه.

ورد اللّه تعالى على من يزعمون اطلاع الجن على عالم الغيب بحكاية ما حصل لسليمان عليه السلام، قال تعالى: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (سبأ: 14)

بل تردد في القرآن الكريم الأمر بإخبار رسول الله ﷺ عدم علمه بالغيب، قال تعالى: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (الأنعام:50)

وأمره تعالى بالاستدلال على ذلك بأنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما مسه السوء، قال تعالى: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

(لأعراف:188) وأحسن ما قيل في تفسيرها هو أن المراد منها (لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر، أو لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص)(1)، ولا يصح اعتبار الخير هنا العمل الصالح، فرسول الله ﷺ، بل صالحو المؤمنين لا يحجزهم الجهل بالغيب عن العمل، بل يزيدهم عملا وصلاحا.

وأمر ﷺ أن يقول لمن طلبوا الآيات: ﴿ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (يونس:20)

وأمره ﷺ أن يخبرهم بأن رسالته لا تعني اطلاعه على الغيب، قال تعالى: ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (هود:31)

* * *

ولكن مع ذلك قد يطلع الله تعالى بفضله ورحمته بعض خلقه على بعض شؤون الغيب مما تتعلق به مصالح العباد، ولحكم قد تقتضي ذلك، ولهذا ورد الاستثناء بعد قوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ (الجن: 26) بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ (الجن:27)،ـ وقال تعالى: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: 255)

وقد أخبر أن الله تعالى يحفظ هذا الغيب الملقى لهذا الذي خص بهذا الغيب بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر اللّه، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ (الجن: 27)

وقد أخبرنا الله تعالى عن بعض من خصوا ببعض علم الغيب، ومنهم الخضر عليه السلام الذي قال تعالى عن نوع العلم الذي أوتيه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: 65)

وقد كانت تلك التصرفات الغريبة التي فعلها الخضر عليه السلام بمرأى من موسى عليه السلام دليلا على حكمة الله في تقديره، وكيف يجتمع عالم الأمر الذي يمثله موسى عليه السلام بعالم التدبير الذي يمثله الخضر عليه السلام، ونرى ـ والله أعلم ـ أنه لولا الحاجة لتبيين هذه الحكمة

1) ابن كثير: 3/524.

ما فعل الخضر ﷺ ما فعله.

وكذلك ما أخبر الله تعالى به الملائكة الموكلين بالوظائف المختلفة، فلكل منهم من العلم بالغيب ما له علاقة بوظيفته، ولعله من هذا الباب ما أخبر عنه رسول الله من إخبار الملك الموكل بالأرحام ببعض ما يتعلق بالغيب المتعلق بذلك الجنين، فقد ورد في بعض صيغه:(إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة، ثم يتصور عليها الملك الذى يخلقها، فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيجعله الله ذكرا أو أنثى، ثم يقول: يا رب أسوى أم غير سوي؟ فيجعله الله سويا أو غير سوى، ثم يقول: يا رب ما رزقه ما أجله ما خلقه ثم يجعله الله شقيا أو سعيدا)(1)

ومن هذا الباب ما أطلع الله تعالى به رسوله من عالم الغيب مما ترتبط به مصالح دينه وأمته، سواء تعلقت بالماضي أو تعلقت بالمستقبل:

أما ما تعلق منها بالماضي، فمنه تلك الإخبارات الغيبية الواردة في القرآن الكريم، والتي لم يكن ليعلمها رسول الله ﷺ لولا إعلام الله(2)، قال تعالى:﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:49)، وقال تعالى:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف:102)، وقال تعالى:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران:44)

حتى أنه عندما أخبر رسول الله ﷺ باستماع الجن للقرآن الكريم صدر ذلك بقول (قل)، قال تعالى:﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ (الجن: 1)، وفي ذلك رد بليغ على من يتصورون أن بقدرتهم تجاوز عالم الشهادة بطقوس ما أنزل الله بها من سلطان يدخلونها تحت اسم (الرقية الشرعية)(3)

ومن هذا الإطلاع ما أخبر عنه رسول الله ﷺ أمته من النبوءات الغيبية، والمقصد منها إثبات نبوته لكل الأجيال من جهة، وتنبيه أمته لما تفعله عند نزول تلك الفتن من جهة أخرى.

---

1) رواه مسلم.

2) جمعنا أكبر قدر من هذه الأخبار مفصلين لها في رسالة (معجزات حسية)، فصل (نبوءات) من سلسلة (أشعة من شمس محمد)

3) انظر التفاصيل العلمية للرد على ما يسمى بالرقية الشرعية في رسالة (ابتسامة الأنين)

ومن ذلك ـ مثلا ـ ذكره ﷺ للمراحل التي تمر بها الأمـة من خيرها وشرها، حـدث حذيفـة بن اليمـان عن ذلـك، فقـال: كـان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يـا رسـول اللـه، إنـا كنـا في جاهليـة وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد الشر من خير؟ قال: نعم. وفيه دخن. قلت: ومـا دخنه؟ قال: قوم تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلـك الخـير من شر؟ قـال: نعم، دعـاة على أبـواب جهنم، من أجـابهم إليهـا قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركـني ذلـك؟ قال: تلزم جماعة المسـلمين وإمـامهم. قلت: فـإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فـاعتزل تلـك الفـرق كلهـا ولـو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت، وأنت كذلك. قلت: يـا رسـول الله صفهم لنا. قال: هم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»(1)

فقد اختصر ﷺ في هذا الحديث كل الأطوار الـتي تمـر بهـا أمته، ثم بين نواحي الخلل فيها، وكيفية تداركه.. وهو يحمل في حد ذاته رسالة نصح للأمة لا ينتهي مددها.

ومن النبوءات الغيبيـة المرتبطـة بهـذا مـا أخـبر بـه ﷺ عن أنواع الحكم التي ستمر بها الأمة، وكأنـه ﷺ يضـع منحـنى بيانيـا لاسـتقامته وانحرافـه، فقـد جـاء في الحـديث قولـه ﷺ: (تكـون النبـوة فيكم مـا شـاء اللـه أن تكـون، ثم يرفعهـا إذا شـاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون مـا شـاء اللـه أن تكـون، ثم يرفعهـا إذا شـاء اللـه أن يرفعهـا، ثم تكـون ملكـا عاضّـاً، فيكـون مـا شـاء اللـه أن يكـون، ثم يرفعهـا إذا شـاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية فتكون مـا شـاء اللـه أن تكـون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)(2)

ولم يكن ذلك قاصرا على هذا، بل إنه ﷺ باعتباره الرسول الخاتم ذكر لأمته مجامع ما يحدث بعـده إلى يـوم القيامـة، فعن أبي زيد الأنصاري قال: صلى بنا رسـول اللـه ﷺ صـلاة الصـبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نـزل فصـلى العصـر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بمـا كـان ومـا هو كائن، فأعلمنا أحفظنا »(3)

---

1) البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد والطيالسي والـبزار، وعـزاه البوصـيري لابن أبي شـيبة وللطـبراني في الأوسط مختصراً.

3) رواه مسلم.

وفي حديث آخر عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ قائما، فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون الشيء فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه »(1)

وقد نقلت لنا الأسانيد الكثيرة الكثير من هذه الأحاديث.. وكلها لم تزدها الأيام إلا تصديقا، وهو مما يحتج به المسلمون على صدق رسالة رسول الله ﷺ.. وهو كذلك، فلا يمكن أن يأتي بمثل هذه التفاصيل إلا من يتلقى الحقائق من مصدرها.

* * *

ولكن هذا النوع من الغيب الذي يطلع الله تعالى عليه بعض خلقه لبعض الحاجات علم محدود مرتبط بالتدابير التي تتطلب الاطلاع على هذا الغيب، أما ما عدا ذلك فهو مما استأثر الله بعلمه.

وقد عبر القرآن الكريم عن بعض هذا المستأثر بعلمه بكونه (مفاتيح الغيب)، فقال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:59)

وقد بين الله تعالى بعض هذه المفاتيح بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:34)

وفي حديث جبريل عندما سأله:(فمتى الساعة يا رسول الله؟)، قال:(سبحان الله سبحان الله، خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله ما المسؤول عنهن بأعلم بهن من السائل) ثم تلا الآية السابقة(2).

ولكن هذه الخمس كما ذكرنا سابقا بعض ما استأثر الله بعلمه، أو هي إشارات لمجامع ما استأثر الله بعلمه، ولهذا سميت (مفاتيح الغيب)

ونحب أن ننبه هنا إلى الدخن الذي دخل التصوف الإسلامي في هذه الناحية في واقعه التطبيقي حيث تصور البعض أن علامة الولي هي كشفه للغيوب، وقد رد على هؤلاء (ابن عطاء الله)،

---

1) رواه أبو داود.
2) رواه أحمد والبزار.

فقال في بعض حكمه:(تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك[1] إلى ما حجب عنك من الغيوب)

وقد علق على هذه الحكمة ابن عجيبة، فقال: (تشوفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب، كالحسد والكبر وحب الجاه والرياسة وهم الرزق وخوف الفقر وطلب الخصوصية وغير ذلك من العيوب والبحث عنها والسعي في التخلص منها أفضل من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد وما يأتي به القدر من الوقائع المستقبلة، وكالأطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له لأن تشوفك إلى ما بطن من العيوب سبب في حياة قلبك، وحياة قلبك سبب في الحياة الدائمة والنعيم المقيم، والاطلاع على الغيوب إنما هو فضول وقد يكون سبباً في هلاك النفس كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس)[2]

* * *

بعد هذا البيان لهذه الخاصية المهمة من خصائص كتاب المقادير الأبدية نتساءل عن أثر هذه المعارف الجليلة في النفس:

أما الغافل، فينحجب بما ستر عنه من الغيب عن الاستعداد له، كما قال ابن عطاء الله في الحكمة السابقة:(تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)

ولهذا وصف الله تعالى المؤمنين بالإشفاق من الآخرة، فقال تعالى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (الانبياء:49)

بينما يستعجل بها الجاهلون بها، قال تعالى مقارنا بين النظرتين: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (الشورى:18)

ولهذا كثر إلحاح المشركين على معرفة موعد الساعة، قال تعالى: يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (لأعراف:187)، وقال تعالى: يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ

1) التشوف إلى الشيء الاهتمام به والتطلع له.
2) إيقاظ الهمم شرح الحكم، لابن عجيبة.

مُرْسَاهَا (النازعات:42)

ولهذا كان ﷺ يسأل من طلب معرفة موعد الساعة عن مدى استعداده لها، وقد روي أن رجلا دخل والنبي ﷺ يخطب الجمعة، فقال: متى الساعة؟ فأومأ الناس إليه بالسكوت، فلم يقبل، وأعاد الكلام، فقال له النبي ﷺ في الثالثة: ماذا أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ:(إنك مع من أحببت)(1)

ولهذا فإن المؤمن العارف بالله يفرح بغيب الله وشهادته، فيرى الغيب كما يرى أحدنا المفاجأة الجميلة تأتيه من أحب أحبابه، يستقبلها فرحا بمهديها.

وقد كان علم المؤمن باستئثار الله بالغيب نورا تولدت من أشعته هذه الأدعية الرقيقة:

(اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مذلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهدين)(2)

(اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم) (3)

(اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا: إني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد إلا قال الله ادخل الجنة) (4)

وفي هذه الأدعية إشارة جليلة إلى رحمة الله تعالى بعباده بحجبهم عن الغيب المرتبط بهم أو المرتبط بغيرهم.

---

1) رواه ابن خزيمة وأحمد والنسائي والبيهقي.
2) رواه الترمذي والحاكم.
3) رواه البخاري ومسلم.
4) رواه أحمد.

ومما يروى في هذا ـ ونحن نذكره من بـاب التمثيـل لا من باب الوقوع الحقيقي، فهو مما نشك فيه ـ أن إبـراهيم عليه السلام كـان يعرج كـل ليلـة إلى السـماء، فعـرج بـه ذات ليلـة، فـاطلع على مذنب على فاحشة، فقـال: اللهم أهلكـه يأكـل رزقـك ويمشـي على أرضـك ويخـالف أمـرك، فأهلكـه اللـه تعـالى، فـاطلع على آخر، فقال: اللهم أهلكه، فنودي: كف عن عبـادي رويـداً رويـداً، فإني طالما رأيتهم عاصين)

وفي رواية أخرى: فأوحى الله إليه:(يا إبراهيم أين رحمتك للخلق؟ أنا أرحم بعبادي منك إما يتوبون فأتوب عليهم، وإمـا أن أخرج من أصلابهم من يسـبحني ويقدسـني، وإمـا أن يبعثـوا في مشيئتي فأعفوا.. يا إبراهيم كفر ذنبك في دعوتك بـدم قربـان)، فنحر إبلا، فنودي في الليلة الثانية: كفر ذنبـك بـدم فـذبح بقـراً، فقيل له في الثالثة، فـذبح غنمـاً، فقيـل لـه في الرابعـة كـذلك، فقرب من الأنعام إل الله ما بقي عنده، فقيل له في الخامسـة، فقال:(يا رب لم يبق لي شئ)، فقيل له:(إنما تكفر ذنبك بـذبح ولدك لأنك دعوت على العصاة فهلكوا)، فلما شمر لـذلك وأخـذ السكين بيده قال:(اللهم هذا ولدي وثمرة فؤادي وأحب النـاس إلي)، فسمع هاتفاً يقـول:(أمـا تـذكر الليلـة الـتي سـألت إهلاك عبادي، أو ما تعلم أني رحيم بعبادي كما أنت شفيق بولدك)(1)

ولم نورد هذه القصة هنا باعتبارهـا مرتبطـة بـإبراهيم عليه السلام، فمعرفة إبراهيم عليه السلام بالله، وأدبـه مـع اللـه أعظم من أن يوقعـه في هذا، ولكنا ذكرناها من باب التنبيـه على رحمـة اللـه بعبـاده في حجب الغيب عنهم.

2 ـ المقادير المؤقتة:

وهي المقادير المرتبطة بأوقـات معينـة محـدودة، ولـذلك قـد يلحق كتبها التغيير والتبديل، وهـذه المقـادير ممـا يطلـع اللـه عليـه الملائكة الموكلين بالعباد، أو من تقتضي وظيفته التعرف على هـذا النوع من المعارف، كالأنبياء والمرسلين والمحدثين والملهمين.

وإلى هذا النوع من المقـادير الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿ يَمْحُـوا

---

1) وقد روي في مثل هذا حديث مرفـوع رواه ابن مردويـه، وقـد ذكـر ابن كثـير أنـه لا يصح، قال:(لما رأى إبراهيم ملكـوت السـموات والأرض أشـرف على رجـل على معصـية من معاصي الله فدعا عليـه فهلـك، ثم أشـرف على آخـر على معصـية من معاصـي اللـه فدعا فهلك، ثم أشرف على آخر فذهب يدعو عليه، فأوحى الله إليـه: أن يـا إبـراهيم أنـك رجل مستجاب الدعوة فلا تدع على عبادي، فإنهم مـني على ثلاث: إمـا أن يتـوب فـأتوب عليه، وإما أن أخرج من صلبه نسمة تملأ الأرض بالتسبيح، وإما أن أقبضه إلي فإن شـئت عفوت وإن شئت عاقبت)

اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (الرعد:39)

وإليها الإشارة كذلك بالنصوص الواردة في منازعة الأقدار كقوله ﷺ:(لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء، فيعتلجان الى يوم القيامة)(1)، وقوله ﷺ:(لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر الا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) (2)

وقد ذكر ابن عباس في تفسير الآية السابقة:(من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ أي جملة الكتاب)(3)

ومن أهم صفات هذه الكتب من خلال ما ورد في النصوص:

مقادير محتملة:

ومعنى كونها كذلك أنها ليست مقادير قطعية، بحيث تنزل بالعبد لا محالة، بل هي مقادير معرضة للنسخ، بل إن الله تعالى وهب العبد قدرة على نسخها.

ولا يستغرب هذا القول، فإن القرآن الكريم، وهو كتاب من كتب الله، أو هو نموذج من كتب الله يخبرنا عن وقوع النسخ(4)، أو التدرج، أو مخاطبة الإنسان على حسب حاله ودرجته.

أما دور الإنسان وتأثيره في نسخ أحكام هذه الكتب ورفعها فقد وردت النصوص الكثيرة الدالة على ذلك، ومنها قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (المائدة:65)، فهذه الآية الكريمة تذكر تأثير الأعمال في جانب علاقة هؤلاء العباد بربهم تعالى.

ومن الجانب الآخر، وهو دور العبد في تقدير نزول الأرزاق عليه، أو رفعها قال تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (لأعراف:96) أي أن أرزاق الله مفتوحة على العباد، ولكن العباد هم الواقفون دون نزولها.

ومثال هذا مثل من تفرض له جهة ما مبلغا محددا أو جائزة معينة، وتشترط عليه الحضور لتسلمها، ولكنه يظل راضيا بفقره شاكيا منه غافلا عما قدر له.

---

1) رواه ابن عدي والحاكم وتعقب والخطيب.
2) رواه النسائي وابن ماجه وأحمد وأبي يعلى وابن منيع والطبراني.
3) رواه ابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.
4) النسخ الذين نريده هنا هو نسخ القرآن الكريم للكثير من الأحكام الواردة في الكتب السابقة، أما كون القرآن يحوي ناسخا ومنسوخا، فهذا مما ننزه القرآن الكريم عنه، وقد ذكرنا ذلك في كتاب [القرآن والأيدي الآثمة]

لذلك، فإن هذه المقادير المشتملة على مصالح العباد متوقفة على أعمال العباد.

فمع أن الأعمار بآجالها إلا أن رسول الله ﷺ أخبرنا بما يزاد فيه العمر المقدر، فقال ﷺ:(من سره أن يعظم الله رزقه، وأن يمد في أجله، فليصل رحمه)(1)

وقد يظن من لا يفرق بين أنواع المقادير بأن هذا معارض بقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (لأعراف:34)، والآيات الكثيرة الواردة في ذلك كقوله تعالى: ﴿ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران: 154)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الأحزاب:16)، وقوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: 78)، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:168) وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ (آل عمران: 145)

ولكن التفريق بينها يبين موضع التقدير الأول والتقدير الثاني، فالأول، وهو التقدير الاحتمالي مما يحتمل النسخ، بخلاف التقدير الثاني الذي هو في أم الكتاب، والذي لا تغيير فيه ولا تبديل.

ولذلك أخرج القائلون بالتعارض الحديث عن ظاهره، فحملوه محامل مختلفة منها أن زيادة العمر تعني ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت.

وما ذكرنا من حمل الحديث على ظاهره هو ما فسره به ابن عباس عندما قيل له:(كيف يزاد في العمر والأجل؟)، فقال:(قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام:2)،ـ فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني ـ يعني المسمى عنده ـ من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في البرزخ)، فهذه الزيادة في نفس العمر وذات الأجل كما هو ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة.

وإنما اعتمدنا في هذا القول على ما ورد في النص، فمن

1) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

الخطأ تحكيم بعض النصوص، وإلغاء بعضها، بل يحكم كل نص على محله.

قال ابن حزم في الدفاع عن مراد الحديث:(وأما قول رسول الله ﷺ:(من سره أن ينسأ في أجله فليصل رحمه) فصحيح موافق للقرآن ولما توجبه المشاهدة، وإنما معناه أن الله تعالى لم يزل يعلم أن زيدا سيصل رحمه، وأن ذلك سبب إلى أن يبلغ من العمر كذا وكذا وكذا كل حي في الدنيا، لأن من علم الله تعالى أن سيعمره كذا وكذا من الدهر، فإنه تعالى قد علم وقدر أنه سيتغذى بالطعام والشراب ويتنفس بالهواء ويسلم من الآفات القاتلة تلك المدة التي لا بد من استيفائها والمسبب والسبب كل ذلك قد سبق في علم الله عز وجل كما هو)

وما قاله ابن حزم صحيح، ولكنه ليس نافيا للاعتراض، بل إنه تشدد على من قال بأن هناك أجلين، كما ذكرنا، فقال ردا على الاستدلال بالآية:(وهذه الآية حجة عليهم لأنه تعالى نص على أنه قضى أجلا، ولم يقل لشيء دون شيء.. فهذا الأجل المسمى عنده هو الذي قضى بلا شك، إذ لو كان غيره لكان أحدهما ليس أجلا إذا أمكن التقصير عنه أو مجاوزته، ولكان الباري تعالى مبطلا إذ سماه أجلا، وهذا كفر لا يقوله مسلم، وأجل الشيء هو ميعاده الذي لا يتعداه وإلا فليس يسمى أجلا البتة، ولم يقل تعالى أن الأجل المسمى عنده هو غير الأجل الذي قضى، فأجل كل شيء منقض أمره بالضرورة)(1)

وكلامه هذا لا يتعارض فقط مع ما نحن فيه من تقدير الآجال، بل هو معارض بكثير من النصوص التي تدل على ما للأعمال من تأثير في رفع أحكام الأقدار.

فالله تعالى ـ مثلا ـ قدر أرزاقا معينة للعبد، ومع ذلك وعد بالزيادة أو الحرمان لمن توفرت فيه شروط معينة، كما ورد في الحديث السابق، وقد قال بعضهم في الآية السابقة: (يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه)(2)

ومن أدعية السلف في هذا ما روي عن ابن مسعود قال: (ما دعا عبد قط بهذه الدعوات، إلا وسع الله له في معيشته، يا ذا المن ولا يمن عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول، لا إله إلا

1) الفصل في الملل والأهواء والنحل.

2) وقد رفعه إلى النبي ﷺ، فعن عن همام عن الكلبى فى قوله تعالى ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:39)، قال: يمحو من الرزق، و قال: فقلت: من حدثك؟ قال: أبو صالح عن جابر بن رئاب عن النبى ﷺ.

أنت ظهـر اللاجين وجـار المسـتجيرين ومـأمن الخـائفين، إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقيا فامح عني اسم الشقاء، وأثبتني عنـدك سعيدا، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محرومـا مقـترا علي رزقي، فامح حرمـاني ويسـر رزقي وأثبتـني عنـدك سعيدا موفقـا للخير، فإنك تقول في كتابك الـذي أنـزلت: ﴿ يَمْحُـوا اللَّهُ مَـا يَشَـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:39)(1)

* * *

قد يقال هنا: فكيف قال ﷺ:(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن امه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلـك، ثم يكـون مضـغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا ويـؤمر بـاربع كلمـات ويقـال لـه: اكتب عمله ورزقه واجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فـإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مـا يكـون بينـه وبينهـا إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهـل النـار فيـدخل النـار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهـل النـار حـتى مـا يكـون بينـه وبينهـا إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيـدخل الجنـة) (2)

ألا يـدل هـذا الحـديث على أن الملـك الموكـل بـالرحم عـالم بمستقبل العبد وهو لا يزال جنينا في رحم أمه؟

والجواب عن هذا أن هـذا الحـديث قـد يكـون معارضـا بقولـه تعالى:﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُـوَ ﴾ (الأنعـام: 59)، فقـد بين ﷺ هذه المفاتح التي اسـتأثر اللـه بعلمهـا، فقـال في الحـديث الصحيح:(مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّـه، ثم قـرأ:﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:34) (3)

فالآية والحديث الذي فسرها صـريح بـأن هـذه المقـادير ممـا استأثر الله بعلمه.

أما الحديث، فيحمل ـ كما ذكرنا ــ على المقـادير المفترضـة، وهي المقادير التي تحتمل النسـخ، وممـا يـدخل في قولـه تعـالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ (الرعد: 39)

* * *

قد يقال بعد هذا: فما سر هذا المقادير المحتملة، ومـا الغايـة

1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي الدنيا في الدعاء.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه البخاري.

منها؟

والجـواب عن ذلـك، واللـه أعلم، أن هـذا النـوع من المقـادير بمثابة الأسئلة التي يمحن فيها العبد، وإجابات العبد عليها هي الـتي تحدد تصـنيفه، فقـد يمتحن في مواضـع تسـتوجب الـذكر، فـإن لم ينجح فيها كتب غـافلا، واسـتوجب الجـزاء المتعلـق بهم، فـإن عـاد وذكــر محي تصــنيفه من الغــافلين ووضــع في الــذاكرين، ونــال جزاءهم، ولعـل هـذا هـو المحـو من صـنف الأشـقياء والإثبـات في سجل السعداء.

ولعل هذا ما يدل عليه قوله ﷺ في فضـل الاسـتغفار وتـأثيره في محو قدر الغفلة:(من استغفر الله في كل يوم سبعين مرة لم يكتب من الكـاذبين، ومن اسـتغفر اللـه في ليلـة سـبعين مـرة لم يكتب من الغافلين)(1)

ومثله قوله ﷺ في فضـل قـراءة القـرآن:(تعلمـوا أنـه من قرأ خمسين آية في ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قــرأ بمائــة آية في ليلة كتب من القانتين ومن قرأ بمـائتي آيـة في ليلـة لم يحاجه القرآن تلك الليلة ومن قرأ بخمس مائة آية في ليلـة إلى ألف آية أصبح وله قنطار من الجنة)(2)

ومثله قوله ﷺ في فضل الصلوات:(من حافظ على هـؤلاء الصلوات المكتوبـات لم يكتب من الغـافلين ومن قـرأ في ليلـة مائة آية كتب من القانتين)(3)

فهذه الأحاديث تضع أعدادا محصـورة من بلغهـا خـرج من وصف قدر له، ليدخل في وصف آخـر، وهـو في ذلـك يشـبه مـا نجريــه في مســابقاتنا وامتحاناتنــا من تحديــد معــدلات معينــة للامتحان والرسوب.

ومثل هذا أو قريب منه قوله ﷺ:(من نظـر في الـدنيا إلى من فوقــه وفي الــدين إلى من تحتــه لم يكتبــه اللــه صــابرا ولا شـاكرا ومن نظـر في الـدنيا إلى من تحتـه وفي الـدين إلى من فوقه كتبه الله صابرا شاكرا)(4)

ومثله قوله ﷺ:(خصـلتان من كانتـا فيـه كتبـه اللـه شـاكرا صابرا ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكر ولا صابرا من نظـر

1) رواه ابن السني.

2) رواه أبو نصروفي رواية أخرى: (من قرأ أربعين آية في ليلة لم يكتب من الغـافلين ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر) رواه البيهقي.

3) رواه الحاكم والبيهقي.

4) رواه أبو نعيم والبيهقي.

في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى بـه ونظـر في دنيـاه إلى من هو دونه فحمد اللـه على مـا فضـله بـه عليـه كتبـه اللـه شـاكرا صابرا ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظـر في دنيـاه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله لا شاكرا ولا صابرا)(1)

ومثله ما وردت به الأحاديث في الصادقين والكاذبين، قـال ﷺ:(إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهـدي إلى الجنـة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عنـد اللـه صـديقا؛ وإن الكـذب يهـدي إلى الفجور، وإن الفجـور يهـدي إلى النـار، وإن الرجـل ليكـذب حتى يكتب عند الله كذابا) (2)

ومن ذلك قوله ﷺ:(تقعـد الملائكـة على أبـواب المسـاجد يـوم الجمعـة، فيكتبـون الأول والثـاني والثـالث، حـتى إذا خـرج الإمام رفعت الصحف خصلتان من كانتـا فيـه كتبـه اللـه شـاكرا صابرا، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله لا شاكرا ولا صـابرا: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنيـاه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه، كتبه الله شـاكرا صابرا. ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه، لم يكتبه اللـه شـاكرا ولا صابرا خمس من عملهن في يوم كتبه الله من أهـل الجنـة: من صام يوم الجمعة، وراح إلى الجمعة، وعاد مريضا، وشهد جنازة، وأعتق رقبة) (3)

ومنه قوله ﷺ:(من ترك ثلاث جمعات من غـير عـذر، كتب من المنافقين) (4)

وهكذا كل الأحاديث، بل الآيات الدالة على خروج الإنسان من صنف ودخوله في صنف آخر، فيسـتحق برحمـة اللـه مـا يسـتحقه الصنف الذي انتمى إليه، فيكون عمله سبب سعادته، وسـبب محـو شقاوته.

ويدل على هذا إخبار الله تعالى عن دعاء الملائكـة للمؤمـنين، ولو علموا مصـيرهم النهـائي مـا تجـرأوا على أن ينـازعوا اللـه في أقداره، يقول تعالى: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ

---

1) رواه الترمذي.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه أبو نعيم.
4) رواه الطبراني في الكبير، ومثله قوله ﷺ:(من سمع النداء فلم يجب ثلاثـا كتب من المنافقين) رواه البغوي.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ (الشورى:5)، ويقول تعالى:﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿ (غافر:7)

فلو علم الملائكة المصير النهائي لهؤلاء ما دعوا لهم هذه الأدعية الدالة على الشفقة الشديدة، ولكان حالهم في ذلك حال نوح ﷺ عندما قال لربه تعالى:﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴿ (هود: 45)

فنهي عن مثل هذا السؤال لأنه جاء بعد القرار النهائي لله تعالى بموته كافرا، قال تعالى:﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿ (هود: 46)

واستجاب نوح ﷺ لعتاب ربه، واستغفره من سؤاله ما ليس له به علم، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿ (هود:47)

* * *

انطلاقا من كل هذا، فالكتابة القدرية هي السؤال، والكتابة التشريعية هي القانون الذي يحدد طريقة الإجابة، واحتمالات إجابة العبد هي التي تجعله موضوعا في التصنيفات المختلفة، وتنفيذ العبد هو الإجابة التي تحدد تصنيفه النهائي أو الوقتي.

ولذلك، فإنا نرى أن هذه المقادير المحتملة كما تتضمن الامتحانات المختلفة التي يتعرض لها العبد، والتي اصطلح الشرع على تسميتها بالفتن والبلاء تتضمن كذلك الاحتمالات المختلفة لإجابته، وبالتالي يصنف العبد قبل إجابته في الأصناف المختلفة حتى إذا ما حدد وجهته ثبت في التصنيف الخاص بها.

ومما قد يشير إلى هذا القول ما ورد في النصوص من أن الله تعالى ـ من تمام عدله ـ أنه أعد لجميع الخلق منازل في الجنة ومنازل في النار، تقديرا لاحتمال العبد الجنة أو النار، مع أن علمه ـ كما ذكرنا سابقا ـ قد حدد أهل الجنة وأهل النار.

ويشير إلى ذلك قوله تعالى عن أهل الجنة بعد دخولها:﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿ (لأعراف: 43)

وقد ورد في تفسيرها عن رسول الله ﷺ:(كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكراً،

وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن اللّه هداني فيكون له حسرة)(1)

ومثل ذلك يحصل في القبر حيث يرى الميت منزله من الجنة ومنزله من النار، كما في حديث أبي قتادة في قوله تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (ابراهيم:27)، قال:(إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: اللّه، فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد اللّه، فيقال له: ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك من النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك إذا ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذا زغت)(2)

فهذه النصوص تدل على أن كل إنسان قد أعدت له منازل السعداء والأشقياء، وسجل ذلك في مقاديره المحتملة ليحدد باختياره المنزل الذي ينسجم مع طبيعته وعقله.

ويشير إلى هذا قوله ﷺ:(الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك)(3)، فهو يشير إلى قرب المنزلين كليهما من العبد.

ويشير إلى هذا ـ كذلك ـ قوله تعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (آل عمران: 185) أي من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز.

ومثله قوله ﷺ:(من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وليأت إلى الناس بما يحب أن يؤتي إليه)(4)

فالتعبير بـ (زحزح) يشير إلى قرب كل شخص من النار كقربه من الجنة سواء بسواء، وأنه لن يزحزح إلى أحدهما إلا برغبته.

---

1) رواه ابن مردويه والنسائي.

2) رواه أحمد وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبي عاصم في السنة وابن جرير في عذاب القبر.

3) رواه أحمد والبخاري.

4) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق.

مقادير مؤجلة:

وهو الوصف الثاني لهذا النوع من المقادير.. ومعنى ذلك أنها مقادير مؤجلة بآجال معينة محددة لا تتجاوزها، بخلاف المقادير المسجلة في أم الكتاب فهي مقادير شاملة أبدية نهائية.

وكون هذه المقادير محتملة دليل على كونها مقادير مؤجلة، لأن كونها محتملة قد يرجح فيها جانبا دون جانب، وبالتالي يعرضها ذلك للنسخ كل مرة، فهي مؤجلة بهذا الاعتبار، كما أن النص المنسوخ قد حددت فترة تنفيذه، فلا يتعداها.

ولذلك، فإن كل ما استدللنا به سابقا على احتمالية هذا النوع من المقادير يمكن الاستدلال به هنا.

وقد بينت النصوص الكثيرة المواقيت المحددة لهذه المقادير، وقد أثار ذلك إشكالات كثيرة، ولكن القول بانقسام الكتب إلى ما ذكرنا من الأنواع يزيل الإشكال.

ونحب هنا ـ قبل أن نبين ما دلت عليه النصوص من أوقات المقادير ـ أن نخاطب العقل المعاصر بما يعلمه من قوانين المادة ليعبر منها إلى قوانين الكون ومقاديره.

ونستفيد هذا الخطاب التشبيهي التقريبي البديع من بديع الزمان النورسي، الذي يستدل بكتابات الكون على كتابات المقادير، فيقول:(نعم، إن كتابات كتاب الكائنات المنظومة وموزونات آياتها تشهد على أن كل شئ مكتوب)(1)

ثم استدل على أن كل شئ مكتوب ومقدّر قبل وجوده وكونه بجميع المبادىء والبذور وجميع المقادير والصور.

فما البذور الاّ صناديق لطيفة أبدعها الله تعالى، وأودع فيها القدر فهيرس رسمه، وتبني القدرة ــ حسب هندسة القدر ـ معجزاتها العظيمة على تلك البذيرات، مستخدمة الذرات، أي أن كل ما سيجري على الشجرة من أمور مع جميع وقائعها، في حكم المكتوب في بذرتها، لأن البذور بسيطة ومتشابهة مادةً، فلا اختلاف بينها.

ثم ان المقدار المنظم لكل شئ يبين القدر بوضوح، فلو دقق النظر الى كائن حي لتبين أن له شكلاً ومقداراً، كأنه قد خرج من قالب في غاية الحكمة والاتقان، بحيث أن اتخاذ ذلك المقدار والشكل والصورة، اما انه يتأتى من وجود قالب مادي خارق في منتهى الانثناءات والانحناءات.. أو أن القدرة الإلهية تفصّل تلك

1) انظر: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، رسالة القدر، لبديع الزمان النورسي.

الصـورة وذلـك الشـكل وتُلبسـها الشـجرة بقـالب معنـوي علمي موزون أتى من القدر.

وهكذا الأمر في الشـجرة، والحيـوان، فالـذرات الصـم العمي الجامدة التي لا شـعور لهـا والمتشـابهة بعضـها ببعض، تتحـرك في نمو الأشياء، ثم تتوقف عند حدود معينة توقف عارف عالم بمظـان الفوائد والثمرات، ثم تبدل مواضعها وكأنها تستهدف غاية كبرى.

اي أن الذرات تتحرك على وفـق المقـدار المعنـوي الآتي من القدر، وحسب الامر المعنوي لذلك المقدار.

فمـا دامت تجليـات القـدر موجـودة في الاشـياء الماديـة المشـهودة الى هـذه الدرجـة، فلابـد أن أوضـاع الاشـياء الحاصـلة والصور التي تلبسها والحركـات الـتي تؤديهـا بمـرور الزمـان تابعـة ايضاً لانتظام القدر.

ويستنتج من هـذا التشـبيه التقـريب قولـه:(فلئن كـان للقـدر تجلٍ كهذا في الاشياء الاعتيادية والبسـيطة، فلابـد أن هـذا يفيـد ان الاشياء كلها قبل كونها ووجودها مكتوبة في كتاب، ويمكن ان يفهم ذلك بشئ من التدبر، أما الدليل على أن تأريخ حياة كل شـئ، بعـد وجوده وكونه، مكتوب؛ فهو جميع الثمرات الـتي تخـبر عن الكتـاب المبين والامام المبين. والقـوة الحافظـة للانسـان الـتي تشـير الى اللوح المحفوظ وتخبر عنه، كل منها شاهد صادق، وأمـارة وعلامـة على ذلك) (1)

فكـل ثمـرة تُكتب في نواتهـا - الـتي هي في حكم قلبهـا - مقدّرات حياة الشجرة ومستقبلها ايضاً.

والقوة الحافظة للانسان - التي هي كحبة خردل في الصغر - تَكتب فيها يدُ القدرة بقلم القـدر تـاريخ حيـاة الانسـان وقسـماً من حوادث العالم الماضية كتابةً دقيقة.

وكما أن القطرات تُخبر عن السحاب، والرشـحات تـدل على نبع الماء والمسـتندات والوثـائق تشـير الى وجـود السـجل الكبـير، كذلك الثمرات والنطف والبذور والنوى والصـور والاشـكال الماثلـة امامنا وهي في حكم رشحات القدر البديهي - اي الانتظام المـادي في الاحيـاء - وقطـرات القـدر النظـري - اي الانتظـام المعنـوي والحيـاتي - وبمثابـة مسـتنداتهما ووثائقهمـا.. تـدل بالبداهـة على الكتاب المبين، وهو سجل الارادة والاوامـر التكوينيـة، وعلى اللـوح المحفوظ، الذي هو ديوان العلم الإلهي، الامام المبين.

---

1) انظر: الكلمات، الكلمة السادسة والعشرون، رسالة القدر، لبديع الزمان النورسي.

التقدير العمري:

انطلاقـا من هـذا الفهم الـراقي لحقيقـة القـدر، والقـراءة الإيمانيـة للكـون، والخطـاب الرفيـع للعقـل، نـرى أن هـذه البـذور والنوايا الـتي جمعت في جزئياتهـا البسـيطة كـل تفاصـيل الوجـود الذي تحمله هي جزء من كتاب المقادير المؤجلة.

فالملك الموكل بالجنين يسأل ربه عن جنس الجنين، هل هـو ذكر أم أنثى، ثم يعتـبر ذلـك من المقـادير، وقـد عرفنـا ـ بمعارفنـا البسيطة ـ أن هذا التحديد موجود في صبغيات الجنين، بـل هـو في صبغيات البييضة الملقحة.

فلذلك يمكن الاستئناس بهذا على أن سائر الأمور التي سـأل عنهـا الملـك، والمؤقتـة بعمـر الإنسـان قـد يكـون لهـا وجـود في الصبغيات الوراثية، ولكنا لم نكتشفها، أو لن نكتشفها.

وقد يعارض هذا بكتابة الملك لأمور معنويـة يسـتبعد تسـجيلها في تلك الصبغيات كعمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد.

ونرى أن هذا ـ ببعض التأمل ـ ليس مستبعدا.

أمـا أجـل الإنسـان، فـإن أي صـانع الآن قـد يـدرك العمـر الافتراضي لصناعته، فلا يستبعد أن يسجل هذا العمـر في مورثـات الإنسان، ويكون الأجل الذي سأل عنه هنا هو هذا العمر الافتراضي بدليل ما ذكرنا سابقا من كون هذه المقادير افتراضية لا نهائية.

وأما رزقه، فإن في كل إنسانا شعورا يجتذبه لحرفة معينـة أو لطعام معين، فيكون رزقه من تلك الحرفة أو من ذلك الطعام، ولا يستبعد أن يكون مسجلا ضمن مورثاته.

وأما عمله، فلعل المراد منه هو الوظيفة التي ندب لها، ونـوع الأسئلة التي تطرح عليه، وليس المراد منها ما يعمله هـذا الجـنين، أو ما يجيب به.

أما الشقاوة والسعادة، فهي بناء على مـا ذكرنـا سـابقا يكتب كلاهما عليه بناء على عمله.

وربمـا يسـتأنس لهـذا بمـا ذكـره بعض العلمـاء من أن هنـاك جينات مخصوصـة تحـدد الإجـرام في شخصـية الإنسـان، ومـا إلى ذلك، ونسبةً لضخامة المسؤولية الملقاة على عاتق الجينـات، ازداد عـددها في جسـم الإنسـان والحيوانـات القريبـة منـه فبلـغ عـددها حوالي مائة ألف جين.

وربما نستأنس لهذا القـول أيضـا بمـا ورد من بقـاء جـزء من الإنسان لا يصيبه البلى ليعاد من خلاله جسده.

فالأجساد إذا أراد اللّـه تعـالى بعثهـا ونشـورها أنـزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعـاً، ونبتت الأجسـاد في قبورهـا كمـا تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جـاء في الحـديث:(مـا بين النفخـتين أربعـون ثم يـنزل اللـه من السـماء مـاء فينبتـون كمـا ينبت البقـل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الــذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة)(1).

ولهـذا قـال تعـالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَـلَ الرِّيَـاحَ فَتُثِـيرُ سَـحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا كَـذَلِكَ النُّشُـورُ (فاطر:9)

وقـد ورد في الحـديث عن أبي رزين، قلت:(يـا رسـول اللّـه كيف يحيي اللّه الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟)، فقال ﷺ:(يا أبـا رزين أما مررت بوادي قومـك ممحلاً ثم مـررت بـه يهـتز خضـراً)، قلت:(بلى)، فقال ﷺ:(فكذلك يحيي اللّه الموتى) (2)

ونحن نعلم اليـوم أن النبـات يحتفـظ بـالحب الــذي يحمـل صبغياته الوراثية لتنبت من جديد عندما يتوفر الجو المناسب.

وهذا القول لا نقوله جازمين، بل هو مجرد رأي نحمد اللـه إن أصبنا فيه، ونستغفره إن أخطأنا، وفي نفس الوقت نقـول بـأن مـا يمكن أن يكون مسجلا في مورثات الإنسان لا يعني كون ذلـك هـو التسجيل الوحيد، بـل هنـاك تسـجيلات أخـرى سـواء في المرحلـة الجنينية أو في مناسبات مختلفة.

التقدير السنوي

ومما وردت به النصوص من ذلـك مـا يمكن تسـميته التقـدير السنوي، وذلك ما خصت به (ليلة القدر)، كما قال الله تعـالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (القدر:1)، وقال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (الدخان:4)

وقد فسر أكثر العلماء المراد بالتقدير في هذه الليلـة مـا نص عليه الـرازي في قولـه:(واعلم أن تقـدير اللـه لا يحـدث في تلـك الليلة، فإنه تعالى قدر المقـادير قبـل أن يخلـق السـموات والأرض في الأزل، بل المراد إظهار تلك الليلـة المقـادير للملائكـة في تلـك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ)، ثم قال:(وهذا القول اختيـار عامة العلماء)(3)

وهذا القول يحمل بعضا من الصحة، باعتبـار أن من المقـادير

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه أحمد والطبراني في الكبير.
3) التفسير الكبير.

ما هو من النوع الأول، وهو النوع الذي لا يغير ولا يبدل.

وأما ما هو من النوع الثاني، فهو خاضع للتبديل والتغيير، وإلى هذا يشير قول ابن عباس في تفسيرها: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت.

ونرى أن كتاب السعادة المراد هنا ليس كون الشخص سعيدا لأن ذلك خاضع لكسبه، وإنما المراد منه نوع الأسئلة التي قد تطرح عليه، فتحدد سعادته وشقاوته، كما ذكرنا ذلك سابقا.

التقدير اليومي:

ومن التقديرات التي نصت عليها النصوص، التقدير اليومي، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن:29)

وهو يدل على حضور الله الدائم مع العبد أثناء كل تصرف يقوم به، وقد ورد في الحديث عن منيب الأزدي قال: تلا رسول اللّه ﷺهذه الآية: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: 29)، فقلنا: يا رسول اللّه وما ذاك الشأن؟ قال: (أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين)

وفي هذا ما ينفي الوهم الذي قد يعرض للبعض من أن الله اكتفى بتقديراته الأزلية، ثم ترك الخلق لينشغل بكماله كما نص على ذلك الكثير من الفلاسفة.

بل الله ــ حسبما تدل عليه النصوص الكثيرة ــ حاضر حضورا مطلقا في كل حركة وسكنة، فلا يحرك شيء ولا يسكن إلا بإذنه، بل بتحريكه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: 65)

وهو معنى اسم الله تعالى (القيوم) فالقيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، بل لا يمكن لشيء أن يقوم إلا به.

وإليه الإشارة كذلك بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر:15)

فكل شيء.. في كل لحظة من اللحظات.. مفتقر في وجوده واستمرار وجوده لله تعالى افتقارا لا يغنيه منه إلا الله.

3 ـ سنن المقادير:

وهي الكتب التي كتب فيها القوانين والسنن التي تنظم

الكون وعلاقاته، ويشير إلى هذا النوع من الكتب قوله ﷺ:(إن اللّه كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي)(1)، وهذا يدل على أن بناء الكون قائم على الرحمة الإلهية، وأنها المقدمة على الغضب.

وقد ورد ما يدل على أن هذه السنن مكتوبة في أم الكتاب، وربما يستدل على ذلك بما ورد من كون القرآن الكريم ــ وهو الحاوي لكثير من سنن الله ـ في أم الكتاب، كما قال تعالى: وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (الزخرف:4)، ومثله ما ورد من كونه في اللوح المحفوظ، قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج:21 ـ 22)، أي هو في الملأ الأعلى، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل، وقد أخبر تعالى أن القرآن الكريم الذي بين أيدينا موجود في هذا الكتاب، وقال تعالى عن كونه موجود في تلك الصحف المكرمة: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ

ولذلك كان نزول القرآن الكريم الأول هو نزوله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، قال ابن عباس :(أنزل اللّه القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول اللّه ﷺ)(2)

ومما يدل على ذلك من السنة قوله ﷺ:(إن الله تعالى كتب في أم الكتاب قبل أن يخلق السموات والأرض: إنني أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته إن الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه: إن رحمتي تغلب غضبي)(3)

ومن ذلك ما يروى في الحديث:(إن أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: بسم الله الرحمن الرحيم إني أنا الله لا إله إلا أنا لا شريك لي إنه من استسلم لقضائي وصبر على بلائي ورضي لحكمي كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين يوم القيامة)(4)

ولهذا النوع من الكتب أهمية كبرى لا يمكن تصورها.. فإنه وإن كان البحث عن أسرار الكتب السالفة نوعا من الفضول، فإن البحث في هذا النوع من الكتب مرغب فيه بصنوف كثيرة من

1) روي هذا الحديث بألفاظ كثيرة، رواه الترمذي وغيره.
2) رواه البزار والطبراني وغيرهما.
3) رواه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير.
4) رواه ابن النجار.

الـترغيب، وذلـك لأنـه لا يمكن للإنسـان أن ينتظم في سـلك هـذا الكون انتظاما صحيحا إلا بوعيه التام بهذا النوع من الكتب.

ولهذا سنتحدث في هذا المبحث عما ييسر التعـرف على هـذا النوع من الكتب.

صيغ السنن:

أول ما ينبغي للباحث في هـذا النـوع من الكتب هـو التعـرف على الصـيغ الـتي يسـتطيع من خلالهـا أن يتعـرف على السـنن والقوانين التي نظم الله بها كونه.

وهذه الصيغ بمثابة أصول الفقه بالنسـبة للفقـه، فالفقيـه في الأحكام العملية لا يستطيع أن يصير فقيها إلا بوعيـه بتلـك المبـادئ الأصولية التي يتأسس عليها الفقه.

وكذلك هذا الباب فهو أصول فقه السنن الإلهية.

فإن كان الفقيه يرى الأمر يفيد الوجوب على المكلفين، فـإن فقيه السنن يرى في أن النصوص التي تحوي هذا النوع من الصـيغ مفيدا للوجوب، لا بمعنى أن الفقيه هو الذي يوجب على الله، وإنما بمعنى أن الله ـ برحمته وحكمته ـ أوجب على نفسه.

ولن نذكر هنا كل تلك الصيغ، فهي تستدعي بحثا خاصا، ولكنـا سنقتصر على بعض الصيغ الواردة فيها باعتبارها القـوانين الكـبرى التي تعرف بالله من جهة، وتعرف بالتعامل الصحيح مع أكوان اللـه من جهة أخرى:

حقا:

فمن هذه الصيغ.. مـا عـبر عنـه اللـه تعـالى أو رسـوله ﷺ بصيغة (حقا)، وما في معناها، فإن هذه الصيغة تفيـد بـأن اللـه تعالى يوجب فعل ذلك على نفسه رحمة منه وفضلا.

ومن النصـوص القرآنيـة الـواردة في ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَـذَلِكَ حَقّـاً عَلَيْنَـا نُنْجِ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ (يـونس: 103)، فالله تعالى أوجب على نفسه ـ حسب هـذه الآيـة ــ رحمـة منه وفضلا إنجاء المؤمنين من المهالك.

وأوجب تعالى على نفسه ـ رحمة منه وفضلا ـ نصر المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَـوْمِهِمْ فَجَـاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّـاً عَلَيْنَـا نَصْـرُ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ (الروم: 47)

وأوجب تعـالى على نفسـه ــ رحمـة منـه وفضـلا ــ إدخـال المجاهدين في سبيله الجنة، كما قال تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْـتَرَى مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة:111)

وأوجب تعالى على نفسه ـ رحمة منه وفضلا ـــ أن يبعث من يموت، كما قال تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (النحل: 38)

وقد ورد في السنة من هذه الصيغة الكثير من النصوص، منها قوله ﷺ لمعاذ:(أتدري ما حق الله على عباده) قال:(الله ورسوله أعلم) قال:(حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا)، قال ﷺ: (أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك)، قال:(الله ورسوله أعلم) قال:(حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار)(1)

ومنها وضع ما ارتفع من أمور الدنيا، كما قال ﷺ:(إن حقا على الله تعالى أن لا يرتفع شيء من أمر الدنيا إلا وضعه) (2)

ومنها وعده بالإعانة والبركة لمن فعل أمورا معينة، كما قال ﷺ:(ثلاث من فعلهن ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له: من سعى في فكاك رقبة ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له، ومن تزوج ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له، ومن أحيا أرضا ميتة ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له)(3)

ومنها وعده بإجابة من رفع كفه إليه سائلا، قال ﷺ:(ما رفع قوم أكفهم إلى الله تعالى يسألونه شيئا إلا كان حقا على الله أن يضع في أيديهم الذي سألوا)(4)

ومنها المغفرة لمن عرف ربه غافرا ومعذبا، قال ﷺ:(من أذنب ذنبا فعلم أن له ربا إن شاء أن يغفر له غفر له، وإن شاء أن يعذبه عذبه؛ كان حقا على الله أن يغفر له)(5)

ومنها وقاية من ذب عن عرض أخيه من النار، قال ﷺ:(من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يقيه من النار)(6)

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي.
3) رواه الطبراني في الكبير والأوسط.
4) رواه الطبراني.
5) رواه الطبراني في الأوسط.
6) رواه أحمد والطبراني.

ومنهـا تبشـير المؤمـنين بالجنـة، قـال ﷺ:(من آمن باللّـه ورسوله، وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضـان، كـان حقـاً على اللّه أن يدخله الجنة هاجر في سبيل اللّه أو جلس في أرضـه الـتي ولد فيها)، قالوا:(يا رسول اللّه أفلا نبشر الناس بذلك؟)، فقال ﷺ: (إن في الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين في سبيل اللّه بين كل درجتين كمـا بين السـماء والأرض؛ فـإذا سـألتم اللّـه فاسـألوه الفردوس فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة؛ وفوقه عـرش الـرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)(1)

ومن ذلك ما علمنـا رسـول اللـه ﷺ من التوسـل إلى اللـه بهذا الحق الذي أوحبه على نفسـه، قـال ﷺ في فضـل المشـي إلى الصلاة:(من خـرج من بيتـه إلى الصـلاة فقـال (اللهم! إني أسألك بحـق السـائلين، وأسـألك بحـق ممشـاي هـذا، فـاني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، وخرجت اتقاء سـخطك وابتغاء مرضـاتك، فأسـألك أن تعيـذني من النـار، وأن تغفـر لي ذنـوبي، إنـه لا يغفـر الـذنوب إلا أنت) أقبـل اللـه عليـه بوجهـه، ويستغفر له سبعون ألف ملك حتى تنقضي صلاته)(2)

ومنها ما نص عليه قوله ﷺ:(من أخاف مؤمنا كـان حقـا على الله أن لا يؤمنه من افزاع يوم القيامة)(3)

ومنها ما نص عليـه قولـه ﷺ:(أيمـا رجـل حـالت شـفاعته دون حد من حدود الله لم يزل في سخط الله حتى ينزع، وأيمـا رجل شد غضبا على مسلم في خصومة لا علم له بها فقد عانـد الله حقه وحرص على سخطه وعليه لعنة اللـه التابعـة إلى يـوم القيامة، وأيمـا رجـل أشـاع على رجـل بكلمـة وهـو منهـا بـريء يشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يدنيه يوم القيامة في النار حتى يأتي بإنفاذ ما قال)(4)

ومنها ما نص عليه قوله ﷺ:(من آمن باللهِ ورسولِه، وأقام الصـلاةَ، وصـام رمضـانَ، كـان حقًّا على اللـهِ أن يُدخلَـه الجنـةَ، هاجر في سبيلِ اللهِ، أو جلس في أرضِه التي وُلِدَ فيها) قالوا : يا رسولَ اللهِ، أفلا نُبَشِّئُ الناس بذلك ؟ قال: إنَّ في الجنةِ مائـةَ درجةٍ، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِه، كلُّ درجـتيْنِ مـا بينهمـا كما بين السماءِ والأرضِ، فـإذا سـألتم اللـهَ فسـلُوهُ الفـردوسَ،

1) رواه أحمد والبخاري.
2) رواه سمويه وابن السني.
3) رواه الطبراني في الأوسط.
4) رواه الطبراني في الكبير.

فإنَّهُ أوسطُ الجنةِ، وأعلى الجنةِ، وفوقَه عرشُ الرحمنِ، ومنه تَفجَّرُ أنهارُ الجنةِ)(1)

ومنها ما نص عليه قوله ﷺ:(من قرأ القرآن كان حقا على الله أن لا يطعمه النار ما لم يغل به ما لم يأكل به ما لم يراء به ما لم يدعه إلى غيره)(2)

ومنها ما نص عليه قوله ﷺ:(ما من عبد مؤمن يبسط كفيه في دبر كل صلاة ثم يقول: اللهم إلهي وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإله جبريل وميكائيل وإسرافيل أسألك: أن تستجيب دعوتي فإني مضطر وأن تعصمني في ديني فإني مبتلى وتنالني برحمتك فإني مذنب وتنفي عني الفقر فإني مسكين إلا كان حقا على الله أن لا يرد يديه خائبتين)(3)

ومنها ما نص عليه قوله ﷺ:(من قال حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة)(4)

قد يقال بعد هذا..

أليس الإيجاب يقتضي موجبا يأمر غيره وينهاه ويستفهمه؟

والله العلي الأعلى واحد لا شريك له، فكيف نقول بوجوب شيء عليه أو تحريمه، وكيف نلزمه، وهو الله العلي الأعلى الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون؟

أوليس ذلك جناية عظيمة في حق الألوهية، وتطاولا عظيما على الله؟

أوليس من الأدب أن نلزم قدرنا، فننزه الله عن هذا التشبيه الذي تتقزز منه العقول المؤمنة؟

وللجواب عن هذا نقول:

جل جناب الحق أن يأمره آمر، أو يوجب عليه موجب، فهو الحاكم وغيره المحكوم، وهو الرب وغيره العبد، وهو السائل وغيره المسول.

فمن زعم أنه يوجب على الله بعقله وهواه، فقد تصور نفسه ربا على ربه، وحكم هواه في إلهه.

وللأسف وجد من يقول بعض هذا، فحجروا على الله أن يفعل إلا ما ظنوا بعقلهم أنه الجائز له، وحرموا عليه بعقولهم ما رأوا

---

1) رواه البخاري.
2) رواه الديلمي.
3) رواه ابن السني وأبو الشيخ والديلمي وابن عساكر وابن النجار.
4) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي والحاكم.

حرمته.

وفي مقابل هؤلاء أيضا من غالوا في الرد عليهم إلى أن أداهم غلوهم إلى نفي القوانين الكبرى التي انبنى عليها الكون.

والرد على هذين الطرفين المتناقضين هو الطرف الوسط الذي أمرنا بالتزامه، وهو أنا أقل من أن نوجب على الله، أو نلزمه شيئا، وفي نفس الوقت نحن أقل شأنا من أن نبدل معاني كلام الله بما لا يحتمله.

ومعني الكلمات السابقة تدل على أن الله وعد عباده أو أقسم أو كتب على نفسه أمورا معينة، ثم أخبر أن وعده لا يتخلف وأن كلماته لا تتبدل، فمن التحريف بعد هذا أن نقول بأن المراد من ذلك جميعا الإخبار عن نفسه بأن ذلك فعله أو صفته.

ولهذا لو قال القائل:(أوجبت على نفسي صوما)، فإن ذلك يدل على أنه ألزم نفسه بالصوم، فإذا قال:(إن معناه أخبرت بأني أصوم) كان ذلك إلغاء وإبطالا لقوله.

ولو كان الأمر كما ذكروا فإنه لا مزية لإخباره ﷺ بأن رحمة الله سبقت غضبه أو أنه حرم الظلم على نفسه، وذكر ذلك في معرض المدح، وموجبات الحمد.

ثم إنه إذا كان معقولا من الإنسان أنه يوجب على نفسه ويحرم ويأمرها وينهاها مع كونه تحت أمر غيره ونهيه، فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناه، كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ويكتب على نفسه؟

وإذا عرف هذا عرف سر سلامه تعالى على أنبيائه ورسله، ولماذا طلب من نفسه لهم السلامة،وعرف بذلك سر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب:56)، وسر قوله تعالى:﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ (يّس:58)

وأسرار كثيرة لا يكشفها إلا أن تحمل النصوص على ظواهرها دون تعطيلها بالتأويل أو تحريفها بالتشبيه.

وننبه هنا إلى الفرق بين ما يحبه من أفعال عباده ويكرهه، وبين ما كتب على نفسه تعالى، فإن ما كتبه على عباده لا يتستلزم وقوعه، كما أن ما يكرهه منهم لا يمنع وقوعه، بينما أخبر تعالى بأن ما كتب على نفسه لا يتخلف، وأن كلماته لا تتبدل.

علينا:

ومن هذه الصيغ (علينا) ومشتقاتها:

ومن ذلك قولـه تعـالى:﴿ إِنَّ عَلَيْنَـا لَلْهُـدَى﴾ (الليـل:12) فقـد أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعا، وهو تعريفهم بالسبل كلهـا، ومنحهم الإدراك، وحرية الاختيار ليكتسب كل أحد ما قدر له.

وليس المراد بالهداية هنـا هدايـة الارشـاد إلى الإيمـان، وإنمـا المراد منها هداية الدلالة، وقد يراد بها الهدايـة العامـة كمـا سـنرى في سر الرحمة.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ (النحـل: 9)، وقوله تعـالى:﴿ قَـالَ هَـذَا صِـرَاطٌ عَلَيَّ مُسْـتَقِيمٌ﴾ (الحجـر:41) فمن معانيها أن عليه بيان الطريق المستقيم.

ومثله قوله تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِـهِ الرَّحْمَـةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِـلَ مِنْكُمْ سُـوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:54)

ومثله قوله تعالى:﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْـتَقَرَّهَا وَمُسْـتَوْدَعَهَا كُـلٌّ فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ﴾ (هـود:6)، فقـد أوجب تعالى ـ رحمة منه وفضـلا ــ على نفسـه رزق كـل دابـة في الأرض.

كلمتنا:

ومن هذه الصيغ صيغة (كلمة) ومشتقاتها:

ومن ذلك وعده لعباده المرسلين بالنصر، كمـا قـال تعـالى:﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَـا لِعِبَادِنَـا الْمُرْسَـلِينَ﴾ (الصـافات:171) أي تقـدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتبـاعهم في الـدنيا والآخـرة، وقيل: إن المراد منها قوله تعالى:﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَـا وَرُسُـلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة:21) وكلا القولين سواء.

ومن ذلك ما أوجب تعالى على نفسـه ــ رحمـة منـه وفضـلا ـ من تـأخير العـذاب كمـا قـال تعـالى:﴿ وَلَقَـدْ آتَيْنَـا مُوسَـى الْكِتَـابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُـرِيبٍ﴾ (هـود:110) أي لـو لا كلمـة سـبقت من ربـك بتـأخير الحساب إلى يوم المعاد لعجل لهم العذاب.

ومثـل ذلـك مـا أوجب على تعـالى على نفسـه ــ رحمـة منـه وفضلا ــ من تـأخير القضـاء، قـال تعـالى:﴿ وَمَـا كَـانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَـةٌ سَـبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ فِيمَـا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس:19)

ومثل ذلك قولـه تعـالى:﴿ وَلَـوْلا كَلِمَـةٌ سَـبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَـانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمّىً﴾ (طـه:129)، وقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (فصلت:45)، وقوله تعالى: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (الشورى:14)، وقوله تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (الشورى:21)

ومثل ذلك وعده بملأ جهنم من مستحقيها من الجنة والناس، قال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (هود:119)، أي ثبت ذلك كما أخبر وقدر في أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل.

وعلى عكس ذلك تحقيقه النصر على من صبر من بني إسرائيل، قال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا (لأعراف: 137)، والكلمة التامة هنا هو ما عبر عنه قول تعالى: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (القصص:5)

القسم:

ومن النصوص الورادة بصيغة القسمة قسم الله تعالى على سؤال خلقه على أعمالهم، قال تعالى: فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر:92)، وقال تعالى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (لأعراف:6)، قال ابن مسعود في معاني هذه الآيات:(والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟)

ومنها قسم الله تعالى على حشر جيمع عباده، ثم محاسبتهم بحسب جرائمهم، قال تعالى: فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً (مريم:68 ـ 70)، قال ابن مسعود في تفسيرها:(يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً)

ومنها قسم الله تعالى على إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم،قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي

وَخَافَ وَعِيدِ (ابراهيم:13 ـ 14)

ومنها قوله تعالى لإبليس: فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (صّ:84 ـ 85)

ومنها قسمه تعالى بتكفير سيئات المؤمنين وإدخالهم الجنة، قال تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (آل عمران:195)

الوعد:

ومن هذه الصيغ صيغة (الوعد)، فوعد الله واجب التحقيق، كما قال تعالى: وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الروم:6)، وقال تعالى: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (يونس:55)

وأخبر تعالى عن مقالة بعض أهل الكتاب عند إيمانهم: وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (الاسراء:108) أي إن كان ما وعدنا اللّه على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد عليه السلام لمفعولاً أي لكائناً لا محالة ولا بد

وحض تعالى على الصبر انتظارا لوعد الله الذي لا يتخلف، قال تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (الروم:60)

وأخبر عن مقالة صالح عليه السلام لقومه بعد وعد الله بإهلاكهم: فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (هود:65)

وأخبر تعالى عن مقالة الشيطان في الآخرة مصدقا بوعد الله الذي كان يحض على تكذيبه: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (ابراهيم:22)

وأخبر تعالى عن اكتشاف أهل النار بصدق وعد الله الذي كانوا يكذبون به، وبسبب تكذيبهم حل بهم ما حل من العذاب، قال تعالى: وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (لأعراف:44)

وأخبر تعالى عن الندم الشديد الذي يبديه الغافلون عندما يكتشفون صدق الوعد الإلهي، قال تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (يّس:52)

ولهذا يحض الله تعالى أصحاب العقول على الصبر والتبصر وإدراك حقانية الوعد الإلهي في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (لقمان:33)، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (فاطر:5)، وقال تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِبْكَارِ (غافر:55)

ولأهمية التصديق بالوعد الإلهي، فإن الله تعالى يتلطف بعباده الصالحين ليدركوا حقانية هذا الوعد، كما قال تعالى عن أم موسى عليه السلام: فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (القصص:13)، وقال تعالى عن أصحاب الكهف: وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَق (الكهف: 21)

ولهذا كان رسول اللّه ﷺ يقول:(لا إله إلا اللّه وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده)(1)

وقد ورد في القرآن الكريم من هذه الصيغة الدالة على سنن الله في مقاديره الكثير من النصوص:

منها وعد المؤمنين بالمغفرة والفضل، كما قال تعالى: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:268)

ومنها وعدهم بالنصر، كما قال تعالى: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (لأنفال:7)

ومنها وعدهم بالتمكين في الأرض، قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ

1) رواه مسلم وغيره.

كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور:55)

ومنها وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم والجنة ورضوان الله، كما قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (المائدة:9)، وقال تعالى: لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (النساء:95)، وقال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (النساء:122)، وقال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة:72)، وقال تعالى: جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً (مريم:61)، وقال تعالى: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (الزمر:20)

ومنها وعد المؤمنين والكافرين بالجزاء في الآخرة على الأعمال، قال تعالى: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (يونس:4)

ومنها وعد الكافرين والمنافقين بالعذاب، قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (التوبة:68)

التحريم:

ومن هذه الصيغ صيغة (التحريم) الدالة على الامتناع، ولا نعلم منها إلا قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى:(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي)(1) أي أنه تعالى منع نفسه من ظلم عباده.

وهو ما دلت عليه الآيات الكثيرة التي تنص على امتناع الظلم عن الله، كما قال تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (آل عمران:182)، وقال تعالى: وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (غافر: 31)، وقال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (فصلت:46)، وقال تعالى: إِنَّ

1) رواه مسلم.

اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس:44)، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (النساء:40)، وقال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (طه: 112)، والهضم أن ينقص من جزاء حسناته والظلم أن يعاقب بذنوب غيره.

ومثل هذا كثير في القرآن، وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكن لا يفعله فضلا منه وجودا وكرما وإحسانا إلى عباده.

وهذا يبين أن الظلم هو وضع الأشياء في غير مواضعها، وليس كما فسره بعضهم من أنه (التصرف في ملك الغير بغير إذنه)، وبذلك يعتبرون أن الظلم مستحيل عليه، أو غير متصور في حقه، لأن كل ما يفعله فهو تصرف في ملكه.

والقائلون بهذا لا يكتفون بهذا، بل يتجاوزونه إلى تعابير تجعل من قوانين الكون التي تنظمه قوانين تفتقر للثبات الذي تبنى عليه سنن الله.

* * *

هذه بعض الصيغ الدالة على سنن الله التي نرى أنها موجودة في أم الكتاب أو في غيره من الكتب مما يتأسس عليه الكون.

وكل هذه السنن الواردة بتلك الصيغ مما تقتضيه أسماء الله الحسنى، ولذلك تختم أكثر حقائق القرآن الكريم باسم مفرد أو اسمين مركبين للدلالة على أصل تلك الحقيقة ومنبعها.

ولهذا علمنا رسول الله ﷺ أن نتوجه إلى الله بأسمائه الحسنى لقضاء حاجاتنا، فتلك الأسماء هي الحاوية لكلمات الله وسننه في خلقه.

ومن ذلك قوله ﷺ:(ما أصاب مسلما قط هم، أو حزن، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسالك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله تعالى همه وأبدل مكان حزنه فرحا)، قالوا:(يا رسول الله أفلا نتعلم هذه الكلمات؟) قال:(بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)[1]

1) رواه الطبراني في الكبير وابن السنى في عمل اليوم والليلة.

وفي هذا الحديث إشارة جليلة في قوله ﷺ:(أو استأثرت بـه في علم الغيب عندك) إلى أن من أسماء الله وسننه وكلماته مـا لا يزال مستأثرا في علم الغيب.

وهو أكثر بكثير مما علمناه، بل لا مقارنة بين ما علمنا ومـا لم نعلم، فالله هو الواسع الذي لا يحد، والمحيط الذي لا يحاط به.

ولذلك فإن أكثر مما علمنا من أسماء الله وسننه هو ممـا لـه علاقة بنـا، ولربوبيـة اللـه علاقـة بكـل الأشـياء، ولكـل شـيء منهـا معرفته وسننه وكلماته.

* * *

وهذه الكلمات الـتي رضـيها اللـه تعـالى لنفسـه هي الأصـول التي بنيت عليها الشرائع، كما أنها الأصول التي بني عليها الكون.

ولذلك عبر الشرع عن تصرفات البشر الموافقة لهذه السـنن بأن الله يرضى عنهـا، كمـا قـال تعـالى:﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَـانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطـاً﴾ (النسـاء: 108)، وقـال تعـالى:﴿ يَحْلِفُـونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَـإِنْ تَرْضَـوْا عَنْهُمْ فَـإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَـى عَنِ الْقَـوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبـة:96)، وقـال تعـالى:﴿ إِنْ تَكْفُـرُوا فَـإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَـهُ لَكُمْ وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَـرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الزمر:7)

وفرق كبير بين رضى الله تعالى وإرادته، فإن الله أراد كل ما في الكون، لكنه أخبر عن مراضيه، وعبر عن هذا الرضـى بـالحب، وهو كما ذكرنا في مناسـبات مختلفـة ينبغي تفسـيره على ظـاهره مع تنزيه الله عن مشابهة البشر.

ومن ذلك حب تعالى للمحسنين والمتقين والمتطهـرين، كمـا قال تعالى:﴿ وَأَنْفِقُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:195)، وقال تعـالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(البقرة: 222)، وقال تعـالى:﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَـإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمـران: 76)

وعلى عكس ذلـك أخـبر اللـه تعـالى أنـه لا يحب الظـالمين والمفسدين والكفار والآثمين، كما قـال تعـالى:﴿ وَإِذَا تَـوَلَّى سَـعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَـادَ﴾ (البقرة:205)، وقـال تعـالى:﴿ يَمْحَـقُ اللَّهُ الرِّبـا وَيُـرْبِي الصَّـدَقَاتِ

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (البقرة: 276)، وقال تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (آل عمران:32)، وقال تعالى: وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران: 57)، وقال تعالى: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة:190)

وبذلك تنتقل هذه الأصول من كونها أمرا تشريعيا إلى أمر عقلي لا تختلف العقول السليمة في القول بموجبه.

ولذلك فإنا نرى ـ والله أعلم ـ أن هذه الأصول مما يتعلق به الجزاء في الآخرة، فالظالم ـ ولو لم تبلغه الشريعة ـ محاسب على ظلمه، لأن الجبلة التي جبل عليها، كما جبل عليها الكون جميعا هي اعتبار الظلم انحرافا كبيرا.

ثبات السنن:

قد يقال بعد هذا بأن هذه أمور اعتبارية قد تتخلف، أو أن هذه سنن وقتية قد تتبدل(1)، والله تعالى يرد على هذا القول الشنيع، ويخبر أن قوله لا يرد، وأن كلماته لا تتبدل، وأن وعده أو وعيده لا يتخلف، وقد مرت النصوص الكثيرة الدالة على ذلك، وعلى أن هذه سنن حقيقية لا اعتبارية.

ومن ذلك التعبير بكون كلمات الله تامات، فالتمام هنا هو التحقق، فالشيء لا يتم إلا بعد تحققه، كما قال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الأنعام:115) أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

ومن ذلك التعبير بعدم لحوق التبديل لكلمات الله، كما قال تعالى تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (الأنعام:34) أي أن الله لا يبدل الكلمات التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين.

تبصر السنن :

لقد ذكرنا في بداية هذا المبحث أن هذا النوع من الكتب هو النوع الوحيد الذي طولبنا بالتعرف عليه، والبحث فيه، ذلك أنه لا يستطيع الإنسان أن ينتظم في سلك الكون إلا به.

---

1) وللأسف فإن هذا ما تكاد تصرح به كثير من كتب الكلام، وخاصة عند حديثها عن مسألة (الحسن والقبح)، فهي عند اعتبارها أمرا اعتباريا لا حقيقيا تجعل من حقائق الكون حقائق وهمية يمكن أن تتخلف في أي لحظة.

ومثل ذلك مثل تعرف الرعية على القوانين التي تحكمهـا، فلا يمكن للقوانين أن تؤتي ثمارها إلا بمعرفة الرعية لهـا، ثم وقـوفهم عندها.

والخطـأ في التعـرف على القـوانين لـه تـأثيره الخطـير في السلوك وفي جميع المواقف.

وكمثال على ذلك ما تتصـور بـه بعض الـديانات من الاقتصـار على مجـرد التبشـير، فتتصـور أن فلانـا من النـاس جـاء للخلاص، فخلص البشرية، وأنه لا عذاب ولا عقاب، ثم تنظر بعد ذلك باحتقار إلى القرآن وهو يتحدث عن الجنة والنار.

فهؤلاء يصادمون سنن الله.. فالكون ـ كما نراه ــ يحـوي كـل شـيء.. يحـوي الجنـان والحقـول والأزهـار.. وهي بـذور من أزهـار الجنة.

ويحــوي كــذلك الــزلازل والــبراكين والنــيران والعواصــف والزوابع.. وكل ذلك بذور من بذور جهنم.

وبما أن كل هذه البـذور لهـا قوانينهـا الخاصـة، فـإن لأصـولها قوانيه الخاصة.

واحتقــار هــذه القــوانين والاســتخفاف بهــا لا يختلــف عن اسـتخفاف المجـرمين بقـوانين العقوبـات إلى أن تطبـق عليهم، والقاضي حينهـا لا يقـول لهم ــ إذا اعتـذروا بجهلهم للقـوانين ــ إلا كلمة واحدة، هي أن القانون لا يحمي المغفلين.

ولهذا، فإن القرآن الكـريم يـدعونا إلى التعـرف على قـوانين الله وسننه لنسير في الكون وفق إرادة وأمر مسيره، فلا نشـذ ولا ننحرف، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران:137)

ولهذا، فإن الـدور الأكـبر للقـرآن الكـريم هـو أن يعرفنـا على سنن الله، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء:26)

ومن هذه السنن التي أخبرنا عنها القرآن الكريم إخبـاره بـأن الغاية من خلق العباد هي العبـادة، والعبـادة بمفهومهـا الغـائي هي المعرفة.. معرفة الله تعالى.. فالله خلق عباده، بل خلق كل الكون ليعرفــه، قــال تعــالى: ﴿ وَمَــا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُــدُونِ ﴾ (الذريات:56)

ثم عقب على هـذه السـنة الكـبرى الـتي تنتظم فيهـا جميـع السـنن بقولـه ﴿ مَـا أُرِيـدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَـا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُـونِ﴾

(الذريات:57)

ولذلك، فإن انشغال الإنسان عن هذه الغاية بانشغاله بأي شيء آخر يجعله ينحرف بحياته انحرافا خطيرا.

ومن السنن التي انتظم بها هذا الكون، ودعي المؤمن لتبصرها، وسلوك مقتضياتها أن الله تعالى جعل هذه الحياة الدنيا مقدمة للحياة الآخرة.. وأن الغرض منها هو أن يميز بين الطيب والخبيث، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)﴾ (الأنفال)

وتبصر هذه السنة، والتعايش وفق هذا القانون يجعل المؤمن يوجه حياته جميعا وفق ما تقتضيه الطيبة، لأنه لا يدخل دار الطيبين إلا الطيبون، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر:73)

ومن هذه السنن أن الله تعالى يجازي الناس على أعمالهم لا حسب ما تقتضيه أمانيهم، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (النساء:123)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:18)، وقال تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة:39)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الفتح:16)

وتبصر هذه السنة يجعل المؤمن إنسانا جادا نشيطا ليس له من هم في حياته إلا أن يتحقق بمرضاة الله التي هي السبيل لتحقيق مراضيه.

ومن هذه السنن أن الله تعالى لا ينصر إلا من ينصره.. والنصر هنا هو النصر الحقيقي لا النصر الوهمي، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:40)

وتبصر هذه السنة يجعل المؤمن يبحث عن حقائق نصر الله وشروطه ليحقق لنفسه النصر الذي يريده.

ومن هذه السنن أن من لم ينصره الله لن ينصره أحد قال تعالى:﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (الحج:15)

وتبصر هذه السنة يخلص المؤمن من ربقة العبودية لغير الله.

ومن هذه السنن أن الله تعالى خلق عباده ليتعارفوا.. ويسيروا بهمة واحدة إلى الله، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13)

وتبصر هذه السنة يخلص المؤمن من كل العصبيات الجاهلية التي تحول الحياة صراعا خلف زعامات لا أساس لها.

ومن هذه السنن أن من تتوجه همته لشيء ناله من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، قال تعالى:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى:20)

وهكذا تختزن كل آية من القرآن الكريم سنة من سنن الله.. وقانونا من قوانينه.. والعاقل هو الذي يبحث في هذه القوانين ويمزج بينها، ليستخلص منها حياة منتظمة موزونة بميزان الله..

وحينذاك لن يعيش إلا السعادة.. قال تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:97)

لكنه إن خالف السنن أو اصطدم بها صدمته، ومن صدمته السنن غلبته، قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:124)

* * *

بعد هذا..

قـد يقـول قائـل: مـا علاقـة هـذا الكتـاب بـالكتب الـتي تـذكر الأحداث أو تصفها؟

وهـل يمكن لمن تبصـر هـذا الكتـاب أن يتنبـأ بمـا في تلـك الكتب؟

أو ـ بعبارة أصرح ـ هـل يمكن التنبـأ بالمسـتقبل، ومعرفـة مـا يكنه الغيب، انطلاقا من هذه القوانين الإلهية،كما نستكنه الكثير من الحقائق المادية انطلاقا من قوانين المادة التي عرفناها؟

والجواب عن ذلك: هو أن هذا الكتاب في أصله هـو الأسـاس لتلك الكتب.

فاللـه تعـالى عنـدما كتب على نفسـه الرحمـة، وأن رحمتـه تسبق غضبه، صمم الكون على هذا الأساس.. ولـذلك كـان الكـون متوجها بكليته نحو ما تتطلبه الرحمة الإلهية، كما سنرى في الفصل الأخير.

والله تعالى عندما أراد أن يقوم الكـون على مـوازين العـدل، فقد بنى الكون كله على ذلك، فلذلك لا ترى فيها ظلما ولا فطورا.

هذا عن علاقة هذا الكتاب بسائر الكتب.

أما عن الاستفادة من هذا الكتاب للتعرف على مـا في سـائر الكتب.. فـذلك ممكن أيضـا.. بـل هـذه هي الوسـيلة المشـروعة الوحيدة التي يستكنه بها المؤمن المستقبل.

لأن الله عرفنا بقوانين الكون والقوانين الرابطة لعلاقتنا بـه لا لنستكنه المستقبل ونكشف حجابه فقط، وإنما لنغيره ونبدله وفـق مصالحنا.

وهـل الاسـتعداد للآخـرة، والعمـل لهـا، وطلب رضـوان اللـه بتحقيق مراضيه، وطلب الجنة بغراسها سـوى اسـتكناه للمسـتقبل أو تغيير للمستقبل ليتوافق مع المصالح الشخصية.

وهكـذا في كـل الأعمـال يعيش المـؤمن بصـحبة سـنن اللـه، ليهتدي بها إلى الله، بل ليهتدي بها كذلك في شؤون حياته جميعا.

وهذا سر قول علي بن أبي طالب في عبـد اللـه بن عبـاس : (إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق) تنبيها لعقله وفطنته بالأمور.

ويروى عن سعيد بن المسيب قـال:(رأيت عليـا على المنـبر وهو يقول:(لتخضبن هذه من هذه)، وأشار بيده إلى لحيته وجبينـه، فما حبس أشـقاها، فقلت:(لقـد ادعى علي بـه علم الغيب)، فلمـا قتل علمت أنه قد كان عهد إليه.

ولهـذا، فـإن المـؤمن كلمـا تعمـق في إيمانـه، وازداد تبصـره

بسنن الله لم يكـد يخطئ في إشـارته، وإلى ذلـك الإشـارة بقولـه تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (الحجـر:75)، وبقولـه ﷺ: (اتقوا فِرَاسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله)، ثم قرأ النبي ﷺ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (1)

بـل أخـبر ﷺ أن من المؤمـنين من يمكن أن يطلـق عليـه اسـم (المتوسـمين)، فقـال:(إن للـه عبـادًا يعرفـون النـاس بالتوسم)(2)

وهذا من النوع من الناس هم الذين يطلق عليهم الصـوفية (المكاشـفون)، ومـا يذكرونـه من أخبـار كراماـتهم يبلـغ مبلـغ التواتر، وهو بذلك من أدلة هذا النوع من التبصر.

1) رواه الترمذي.
2) رواه الطبري ورواه القضاعي في مسند الشهاب والطبراني في المعجم الأوسط.

رابعا ـ التنفيذ

السـر الرابـع من أسـرار التوحيـد في القـدر هـو أن يعلم المؤمن أن لله تعالى الذي له العلم المطلق والاختيـار المطلـق هو المنفذ لكل ما أراده واختاره، لأنه له القدرة المطلقة.

وهذا ما يرقى به المؤمن إلى آفـاق عظيمـة من العرفـان، تجعله لا يرى في الكون إلا يد الله، وهي تحرك كل شيء.

وهنا يسقط في تلـك الغيبوبـة الجميلـة الـتي يعيشـها أهـل الله، حين يرون الانسجام التام في الكون، لأنه لا تصرف فيه إلا تصرف واحد.. وليس ذلك التصرف إلا تصرف الله.

وقد عبر سيد قطب ـ رحمه الله ـ بلسانه البليـغ على تلـك الحال التي يحدها العارفون في هـذا المقـام، فقـال في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ (الاخلاص:1):(إنهـا أحديـة الوجـود..فليس هنـاك حقيقـة إلا حقيقتـه، وليس هنـاك وجـود حقيقي إلا وجوده، وكل موجـود آخـر فإنمـا يسـتمد وجـوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي من ثم أحدية الفاعلية.. فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فـاعلاً في شـيء، في هـذا أصـلاً.. وهـذه عقيـدة في الضـمير وتفسير للوجود أيضاً.

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصـور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه اللـذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلـق بشـيء من أشـياء هـذا الوجـود إن لم يخلص من الشعور بوجـود شـيء من الأشـياء أصـلاً! فلا حقيقـة لوجـود إلا ذلـك الوجـود الإلهي، ولا حقيقـة لفاعليـة إلا فاعليـة الإرادة الإلهيـة، فعلام يتعلـق القلب بمـا لا حقيقـة لوجـوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشـعور بغـير الحقيقـة الواحـدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة.. فعندئذ يتحرر من جميع القيـود، وينطلق من كل الاوهاق.. يتحـرر من الرغبـة، وهي أصـل قيـود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة.

وفيم يـرغب وهـو لا يفقـد شـيئاً مـتى وجـد اللـه؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها، وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه.

ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله، لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب، ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت.

وما ذكره سيد ـ رحمه الله ـ وما ذكره مثله كل العارفين.. ليس شطحات صوفية.. وليس ناتجا عن تأثر بهنود أو روم أو فرس.. وليس خيالا جامحا.. وليس وحيا شيطانيا..

بل هو كلام مقدس تنزيل من حكيم حميد.. فالله تعالى أخبر في القرآن أنه الفاعل الوحيد في الكون.. كما أنه المريد الوحيد.. حتى ما نحسبه أفعالا لنا هو في حقيقته تنفيذ إلهي، قال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (لأنفال:17)

بعد هذه المقدمة التي استعجلنا فيها بذكر أثر هذا السر من أسرار التوحيد في القدر.. سنتحدث في هذا المبحث عن كلا القدرتين.. قدرة الله.. وقدرة العبد.. لنميز محل كل منهما.. فلا يمكن أن يفهم سر التوحيد في القدر بغير هذا.

1 ـ قدرة الله:

لله تعالى أسماء الله كثيرة تقتضي انفراده التام بالخلق.. وقد مر معنا منها أسماء (الخالق البارئ المصور)، وما في معناها.

وهذه الأسماء جميعا تدل على أن كل ما في الكون من شيء هو من خلق الله سواء كان ذواتا أو أعيانا قائمة بذاتها، أو كان أحداثا تقوم بها تلك الأعيان.

وقد يستدل لهذا الجمع بين خلق الخلق وخلق الأعمال التي يقوم بها الخلق بقوله تعالى حكاية عن خليله عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات:95 ـ 96)

فالآية تدل باحتمالاتها المختلفة على أن الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد، فإن (ما) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ إن كانت مصدرية، أي خلقكم وأعمالكم فالاستدلال ظاهر، وإن لم يكن قويا إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين

إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك(1).

وإن كانت ما موصولة أي (والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم)، فهي مخلوقة له لا آلهة شركاء معه، فأخبر تعالى أنه خلق معمولهم، ولا يقال بأن المراد مادته، لأن مادته غير معمولة لهم، وإنما يصير معمولا بعد عملهم.

ومن الأدلة على ذلك ـ والتي قد تحتاج بعض التأمل ـ قوله تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك:13 ـ 14)، فـ (من) تحتمل أن تدل للخالق تعالى، ويكون المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه، ويحتمل أن تدل على المخلوق، والمعنى حينئذ: ألا يعلم الله من خلق.

وفي كلا المعنيين لها دلالة على خلق الله أفعال العباد، فذات الصدور التي أخبر الله تعالى بأنه عليم بها تدل على ما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض.

---

1) هذه أشهر آية استدل بها على خلق أفعال العباد، ولكنها مع ذلك فيها من وجوه المعارضة ما يمنع الاستدلال بها، حتى قال الفخر الرازي بعد ذكر وجوه المعارضة: (واعلم أن هذه السؤالات قوية وفي دلائلنا كثيرة، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم)

ومن وجوه الاعتراض:

1. أنه تعالى أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل، ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد.

2. أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق، فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا اوصنام لا جرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال: قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) (الصافات)، ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توخبيهم.

3. أن اعتبار لفظة ما مع ما بعدها في تقدير المصدر ممنوع، وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني ما قمت أي قيامك فجوزه سيبويه، ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لا يجوز إلا في الفعل المتعدي، وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها في تقدير المفعول عند الأخفش.

4. أن المراد بقوله: (ما تنحتون) المنحوت لا النحت لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله: (ما تعملون) المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر،وذلك مثل قوله تعالى: فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (الشعراء: 45)، فليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصي والجبال التي هي متعلقات ذلك الإفك.

5. أن العرب تسمي محل العمل عملاً يقال في الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله.

6. أن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام، لا بيان أنهم لا يوجدون إفعال أنفسهم، لأن الذي جرى ذكره في أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال.

ووجه الاستدلال هنا هو أن الله أخبر على كلا التقديرين بأنه خلق ما في الصدور، كما هي على علمه سبحانه به، فالآية على هذا تقول:(كيف يخفى عليه تعالى ما في الصدور، وهو الذي خلقه)، فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الإستدلال به على العلم، فخلقه تعالى للشيء من أعظم الأدلة على علمه به.

ومن الأدلة على ذلك أيضا قوله تعالى في ذكر بعض نعمه على عباده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (النحل:80)،ـ فأخبر تعالى أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له وهو الذي خلقها مع أنها لم تصر بيوتا إلا ببناء البشر.

ومثله في الدلالة قوله تعالى في الآية التالية لهذه الآية في ذكر نعم الظلال واللباس: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (النحل:81)، فأخبر تعالى أنه هو الذي جعل السرابيل وهي الدروع والثياب المصنوعة، مع أنها لا تسمى سرابيل إلا أن بعد تدخل البشر فيها بالصناعة.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى في ذكر بعض نعمه على خلقه: وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (يّس:41) فأخبر تعالى أنه خالق السفن مع أنها صناعة العباد.

ومثله في الدلالة قوله تعالى: إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (الحاقة:11) أي حملنكم في السفن التي تتصورون أنها من صناعتكم.

فهذه الآيات وغيرها تشير إلى أن جميع ما نتصوره اختراعات أو صناعات أو تقدما مذهلا هو صناعة ربانية قبل أن تكون صناعة بشرية، ولذلك ورد في الآية التي تشير إلى الصناعات المتطورة من وسائل النقل بقوله تعالى: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (النحل:8)

وكأن هذه الآية الكريمة تخاطب المستعبدين للمخترعات الحديثة بأن ما ترونه وتذهلون به عن أنفسكم صناعة ربانية كسائر الصناعات لا يختلف عن صناعة الخيل والبغال والحمير.

* * *

والقرآن الكريم يخبر بأن الخير والشر الذي تكنه النفوس أو

تبرزه الجوارح هو خلق من خلق الله المتفرد بالخلق والإيجاد.

قال تعالى عن خلق الخير الذي يملأ صدور أتباع المسيح عليه السلام: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:27)

وقال تعالى عن أئمة الهدى:﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الانبياء:73)، فأخبر تعالى أن كونهم أئمة للهدى هو جعل من الله تعالى.

وقال في الطرف المقابل عن تقسية قلوب بني إسرائيل:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: 13)

وقال تعالى عن جعل الأكنة في قلوبهم والوقر في آذانهم لئلا يؤمنوا:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام:25)، وقال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ (الاسراء:46)

فهذه الأكنة والوقر الذي حجبهم عن الاستماع للحق هي شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعا ولا عقلا، وهي مع كونها كسبا وفعلا لهم إلا أن الله تعالى أخبر بأنه هو الجاعل لها.

وأخبر تعالى أنه هو الذي أغفل القلوب عن ذكره، قال عز وجل:﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف:28)،ـ فمع أن الغفلة عمل العبد وكسبه إلا أن الله تعالى نسبها لنفسه، فالغفلة من العبد والإغفال من الرب.

أما تأويل هذا النص بأن المراد بالإغفال وما هو من جنسه التسمية والعلم، بأن يكون المراد من (أغفلنا قلبه) سميناه غافلا أو وجدناه غافلا أي علمناه كذلك، فهو مخالف للغة العربية، بل هو مثل (أقمته وأقعدته وأغنيته وأفقرته أي جعلته كذلك وأما أفعلته

أو أوجدته كذلك، كأحمدته وأبخلته وأعجزته فلا يقع في أفعال اللـه البتـة إنمـا يقـع في أفعـال العـاجز أن يجعـل جبانـا وبخيلا وعـاجزا فيكـون معنـاه صـادفته كـذلك وهـل يخطـر بقلب الـداعي اللهم أقدرني أو أوزعني وألهمني أي سمني وأعلمني كذلك وهل هـذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه والعقلاء يعلمون علما ضروريا أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك ويشاءه له ويقدره عليه)(1)

بل إن لفظ الإغفال نفسـه يـدل على اسـتحالة أن يكـون من العبد، لأنه (لا يمكن أن يكون العبد هو المغفل لنفسه عن الشيء، فإن إغفاله لنفسه عنه مشروط بشعوره بـه، وذلـك مضـاد لغفلتـه عنه، بخلاف إغفال الرب تعالى له فإنه لا يضاد علمه بما يغفل عنه العبـد وبخلاف غفلـة العبـد فإنهـا لا تكـون إلا مـع عـدم شـعوره بالمغفول عنه) (2)

وأخبر تعالى أنه هو الذي جعل آل فرعون أئمة للضـلال، قـال تعالى: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ لا يُنْصَـرُونَ (القصص:41)

وقد ورد في السنة الكثير من النصوص الـتي تـدل على هـذه المعـاني، والـتي جمعهـا بعض المحـدثين كالبخـاري وغـيره في مؤلفات خاصة.

ومن هذه الأحاديث قولـه ﷺ لمن سـأله أن يدلـه على عمـل يـدخل بـه الجنـة:(لقـد سـألتني عن عظيم! وإنـه ليسـير على من يسـره اللـه عليـه، تعبـد اللـه ولا تشـرك بـه شـيئا، وتقيم الصـلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضـان، وتحج الـبيت، ألا أدلك على أبواب الخير! الصوم جنـة، والصـدقة تطفئ الخطيئـة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجـل في جـوف الليـل، ألا أخـبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه! رأس الامر الاسلام، من أسـلم سلم وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهـاد، لا أخـبرك بملاك ذلـك كله! كف عليك هذا وأشار إلى لسانه)(3)

وليس المـراد التيسـير ــ في هـذا الحـديث ــ التمكين وخلـق الفعـل وإزاحـة الأعـذار وسـلامة الأعضـاء فقـط، لأن ذلـك حاصـل للمؤمن والكافر، وإنما المراد منه ما يوجب اليسر في العمل.

* * *

ومن آثـار هـذه المعرفـة التوحيديـة الرجـوع إلى اللـه طلبـا

1) شفاء العليل:64.
2) شفاء العليل:64.
3) رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

للتوفيق وهربا من الخذلان، وقد فهم الربانيون هذه المعاني، فلذلك كانوا يسألون الله تعالى أن يوفقهم لمراضيه، والتي يتصورها الغافلون أفعالا محضة لهم تقع باختيارهم وبتنفيذهم ولا دخل لله فيها.

ومن ذلك قول الخليل عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:128)،ـ فأخبر الخليل عليه السلام أنه تعالى هو الذي يجعل المسلم مسلما، فلذلك طلب منه أن يجعله مسلما وذريته.

ومثل ذلك دعاءه عليه السلام بأن يجعله الله تعالى مقيما للصلاة هو وذريته، قال تعالى:﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (ابراهيم:40)، وقال تعالى:﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (ابراهيم:37)

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام أنه قال عن ولده: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ (مريم: 6)

وأخبر تعالى عن مقالة الثابتين مع طالوت، وكيف رجعوا إلى الله في طلب الصبر والتثبيت، فقال تعالى:﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:250)

وقد ذكر العلماء في الآية أربعة أدلة على أن الله تعالى هو خالق الأفعال:

1. أن الصبر فعلهم الاختياري، ومع ذلك سألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.
2. ثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.
3. أنهم سألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب فيحصل النصر.
4. أنه أخبر أن هزيمته لأعدائهم كانت بإذن الله، وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي بمشيئته وقضائه وقدره، وليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر، فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه أبدا.

بل إن سورة الفاتحة التي تحمل الحقائق الإيمانية الكبرى تدل على هذه المعاني، قال ابن القيم:(وإذا أعطيت الفاتحة حقها وجدتها من أولها إلى آخرها منادية على ذلك دالة عليه صريحة فيه)(1)

وقد ورد في السنة الكثير من الأذكار التي يرجع فيها المؤمن إلى الله تعالى متبرئا من حوله وقوته ملتجئا إلى حول الله وقوته.

ولعل أجمعها ما عبر عنه ﷺ بقوله لأبي موسى :(ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة (لا حول ولا قوة إلا بالله)(2)

وهذا الكنز من كنوز الجنة هو ما يشير إليه قوله تعالى في حوار المؤمن مع صاحب الجنتين: وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ (الكهف: 39) أي هلا إذا أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت اللّه على ما أنعم به عليك، واعتبرته من مشيئة الله وقوته لا من مشيئتك وقوتك.

وفي هذا دليل على ما تكسبه هذه الكلمة من تواضع في نفس قائلها وتأدبه مع ربه تعالى.

ومن الأذكار الواردة في السنة، والتي يتبرأ فيها المؤمن من حوله وقوته إلى حول الله وقته ما ورد في دعاء الاستخارة، فهو كله تفويض ورجوع إلى الله، وتبرؤ من حول العبد وقوته إلى حول الله وقوته.

قال جابر بن عبد الله : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول ﷺ:(إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه باسمه خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه، واصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به)(3)

وغيرها من النصوص الكثيرة..

بل إن تأمل كل ما ورد عن رسول الله ﷺ من الأدعية يوصل إلى هذه الحقيقة العظيمة.. حقيقة البراءة من حول العبد وقوته إلى حول الله وقوته..

---

1) شفاء العليل:52.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه البخاري.

ففي دعاء النوم علمنا رسول الله ﷺ أن نقول:(اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت)(1)، وأخبر أن من مات على هذا مات على الفطرة، والفطرة تعني انسجام الإنسان مع السنن الإلهية، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:30)

بل إن اسم الفطرة ينطبق على جميع السنن الإلهية التي انتظم بها الكون جميعا، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى على لسان الخليل عليه السلام: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:79)

وبقوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (الانبياء:56)

وكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثم قال: (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك)

وإذا ركع قال: (اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي)

وإذا رفع قال:(اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد)

وإذا سجد قال:(اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

ثم يكون من آخره ما يقول بين التشـهد والتسـليم:(اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت ومـا أعلنت ومـا أنت اعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت)(2)

فهـذه الأدعيـة جميعـا تـبين الشـفافية والسـمو الـروحي والاستسلام اللذيذ الذي يعيشه من يرى الله هو الفاعل الوحيـد في الكون، وأنه لا شيء إلا بيد الله، وبتنفيذ الله.

2 ـ قدرة العبد:

تخـبر النصـوص القرآنيـة الكثـيرة على أن للعبـد قـدرة على الفعل مستمدة من قدرة الله تعالى، فهي خاضعة لتحريكها وفعلها وتأثيرها، ومن هذا الباب صحت نسبة الأفعال للقـائمين بهـا، نسـبة التأثر لا التأثير، والانفعال لا الفعل.

والنصوص الدالة على ذلك أكـثر من أن تحصـر، ومنهـا قولـه تعالى:﴿ هُـوَ الَّذِي يُسَـيِّرُكُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ ﴾ (يـونس: 22)، فقـد أخبر تعالى أن التسيير فعله، والسير فعل العباد، وهو أثر التسيير.

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قـال:﴿ رَبِّ اجْعَـلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (ابراهيم: 35)، فقـد سـأل الخليل عليه السلام ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ليحصل منهم إجتنابها، فالاجتنـاب فعـل العبـد، والتجـنيب فعـل اللـه تعـالى، ولا يمكن أن يتحقق فعل العبد لولا فعل الرب.

ومثـل ذلـك قـول يوسـف عليه السلام:﴿ رَبِّ السِّـجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ وَإِلَّا تَصْـرِفْ عَنِّي كَيْـدَهُنَّ أَصْـبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: 33) ثم قوله بعدها:﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف:34) فصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكـرهن، وهي أفعـال إختياريـة لهم، فاللـه تعالى هو الصارف، والصرف فعله، والانصراف أثر فعله، وهو فعل النسوة.

ومثله قوله تعالى لنبيه محمـد :﴿ وَلَـوْلا أَنْ ثَبَّتْنَـاكَ لَقَـدْ كِـدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (الاسراء:74)، فالتثبيت فعله والثبات فعـل رسوله فهو سبحانه المثبت وعبده الثابت.

ومثلـه قولـه تعـالى عن المؤمـنين:﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا بِـالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الْآخِـرَةِ وَيُضِـلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَـلُ اللَّهُ مَـا يَشَـاءُ﴾ (ابـراهيم:27)، فـأخبر تعـالى أن تثـبيت المؤمنين وإضلال الظـالمين فعلـه، وأمـا الثبـات والضـلال فمحض

2) رواه مسلم وغيره.

أفعالهم.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:13)، فأخبر تعالى أنه هو الذي قسى قلوبهم حتى صارت قاسية فالقساوة وصفها وفعلها وهي أثر فعله وهو جعلها قاسية وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم وتركهم بعض ما ذكروا به فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

وهذا يتوافق مع ما ذكرناه من أن الله هو الفاعل الوحيد في الكون.

ولكن هذا قد يثير تساؤلات كثيرة، ربما يجيب عنها البعض إجابات خاطئة توقع صاحبها في الجبر شعر أو لم يشعر.

ونحن لن نجيب عليها في هذا المحل (1).. لأنه محل مختص بالتوحيد.. والتوحيد يجعلنا لا نرى إلا الله.. أما كل ما في الكون فلا نراه إلا خاضعا خضوعا مطلقا لله، لا يملك من أمره شيئا.

ولكن ذلك لا يعني ـ بحال من الأحوال ـ الجبر..

فالجبر يعني القيود التي توضع على صاحبها.. ولا يملك معها إلا أن ينفذ ما يجبر عليه.. وليس هناك من يشعر في نفسه بهذا الشعور.

فقد عرفنا أن الله تعالى أعطى الإنسان القدرة على منازعة أقدار الله، وأعطاه من القوى ما يشعره شعورا لا يجادله فيه أحد بأن له الحرية في كل عمل يقوم به.

ولهذا فإن الشرع رتب على هذا مسؤولية الإنسان على عمله، وهو ترتيب لا يخالف العقل، فإن البشر جميعا يتعاملون في جميع المستويات على اعتبار مسؤولية الإنسان على أعماله، ولا يخرجون من هذا القانون إلا من ارتفع عنه التكليف بزوال العقل، أو بعدم بلوغ سن التميز.

والقرآن الكريم يؤيد هذا المعنى العقلي المتفق عليه ويخبر عن مسؤولية الإنسان عن أعماله، باعتبارها كسبا حقيقيا له، قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ (الصافات:24)، وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (لأعراف:6)، وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:92)، وقال تعالى: ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 93)، وقال تعالى: ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ

1) سنجيب عن هذا بتفصيل في فصل (العدل) من هذه الرسالة.

عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (النحـل: 93)، وقـال تعـالى: ثُمَّ لَتُسْـأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (التكاثر:8)

وهذا السؤال يقتضي نسبة الأفعال لفاعليها، وإلا كان سؤالهم عن أمر لا كسب لهم فيـه، ولهـذا رتب اللـه تعـالى حصـول الخـير والشر قي الدنيا والآخرة على الأعمال ترتيب الجزاء على الشـرط والعلة على المعلول والمسبب على السبب:

فالله تعالى يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَـلْ لَكُمْ فُرْقَانـاً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ (لأنفال:29)

وهو يقول: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (النساء: 31)

ويقول وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَـكَرْتُمْ لَأَزِيـدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَـرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (ابراهيم: 7)

ويقول: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُـوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (النساء: 123)

ويقول: وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَـا نُذِقْـهُ مِنْ عَـذَابِ السَّـعِيرِ (سـبأ: 12)

ويقول: فَلَوْلَا أَنَّهُ كَـانَ مِنَ الْمُسَـبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِـهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) (الصافات)

فهذه الآيات جميعا وغيرها.. بـل القـرآن الكـريم جميعـا يثبت مسؤلية الإنسان على عمله، وهذا يدل على أن للإنسان قدرة مـا.. ولكن هـذه القـدرة تطيش.. وتـؤول إلى الصـفر عنـدما نتكلم عن قدرة الله..

فكيف ينسجم هذا مع عدالة الله التي نص عليها قوله تعـالى: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ (هـود: 56)، وقولـه: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَـكُ حَسَـنَةً يُضَـاعِفْهَا وَيُـؤْتِ مِنْ لَدُنْـهُ أَجْـراً عَظِيماً (النساء: 40)؟

هذا ما سنحاول معرفته في الفصل الثاني من هذه الرسالة.

الفصل الثاني

سر العدل

السر الثاني من أسرار الأقدار هو سر العـدل الإلهي، فجميـع الأقدار الإلهية تحمل معاني العدل المطلق الذي لا تشـوبه شـوائب الظلم.

وهذا السر مقترن بالتوحيد اقترانا ضروريا لا انفصال لأحدهما عن الآخر، فالعدل يقتضي التوحيد، والتوحيد يقتضي العدل.

أما اقتضاء العـدل للتوحيـد، فـإن الشـخص إن كلـف تكـاليف مختلفة من جهات متعددة، ثم حوكم في محاكم مختلفة من قضاة متناقضين كان ذلك منتهى الجور، ولكن العـدل الإلهي مسـتند إلى التوحيد الإلهي، فالعبد لا يكلف إلا من رب واحد، وهو الـذي يتـولى جزاءه، فلا يخاف ظلما ولا هضما.

أما اقتضاء التوحيد للعدل، فإن من أعظم أسباب الجور فقـر الجائر لمن جار له بـأي نـوع من أنـواع الافتقـار، أو بغضـه للمجـور لعلة من العلل، والله تعالى الغني عن عباده، لا يفتقـر لأحـد منهم، وينزه عن العلل التي يقع بسببها الجور والظلم.

ولهذا ورد في النصوص الجمع بين التوحيد والعدل، ومن ذلك قوله تعالى حاكيا قول هود عليه السلام لقومـه: ﴿ إِنِّي تَـوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (هود:56)

فهذه الآية الكريمة تجمع بين سري العدل والتوحيد، بل تسـند أحدهما للآخر:

أما سـر التوحيـد الـذي هـو أسـاس التوكـل كمـا أنـه أسـاس العدل، فقد عبر عنه بقوله: ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِـذٌ بِنَاصِـيَتِهَا ﴾ أي لا يخرج أي شيء عن قهره وسلطانه.

وأما سر العدل، والذي جاء مستدركا لمـا قـد يفهم خطـأ من التوحيد، فقد عبر عنه بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ ﴾ أي هـو الحـاكم العـادل الـذي لا يجـور في حكمـه، فإنـه على صـراط مستقيم.

ومثل ذلك قوله ﷺ في الجمع بين العدل والتوحيد:(ما أصاب أحـدا قـط هم ولا حـزن فقـال: اللهم إني عبـدك، ابن عبـدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضـاؤك، أسـألك

بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمتـه أحـدًا من خلقـك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عنـدك، أن تجعـل القرآن ربيـع قلـبي، ونـور صـدري، وجلاء حـزني، وذهـاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا)، فقيل: يـا رسـول اللـه، أفلا نتعلمها؟ فقال:(بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها)(1)

ففي هذا الحديث جمع بين التوحيد والعدل..

التوحيد الذي يقتضيه قوله ﷺ:(: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك)

والعدل الذي يقتضيه قوله ﷺ:(عدل في قضاؤك)

وفي كون هذا الـدعاء سـببا لجلاء الهم أسـرار كثـيرة.. ومما يتعلـق منهـا هنـا هـو أن السـبب في الهم في أكـثر الأحيـان هـو الجور(2).. وعـدم انتظـام المـوازين بالنسـبة للمهمـوم، فكـان في تذكيره بالعدل علاجا روحيا وتربويا يعيد إلى سواء السبيل.

وهذا الدعاء يشبه قوله تعالى: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (هود: 56)

فقوله تعالى: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا مثل قوله ﷺ :(ناصيتي بيدك، مـاض في حكمـك) وقولـه تعـالى: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ مثل قوله ﷺ:(عدل في قضائك)، أي لا يتصرف في تلك النواصي إلا بالعدل والحكمة والمصلحة والرحمة.

وقد وردت النصوص الكثيرة المخبرة عن عدل اللـه، ومثلهـا النصوص الـتي تنفي الظلم عن اللـه، وقـد ذكرنـا الكثـير منهـا في محاله في الفصل الأول، ومنها قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى:(يا عبـادي إني حـرمت الظلم على نفسـي) (3) أي أنـه تعـالى منـع نفسه من ظلم عباده.

ومنها الآيات الكثـيرة الـتي تنص على امتنـاع الظلم عن اللـه، كمـا قـال تعـالى: ذَلِـكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ (آل عمـران:182)، وقـال تعـالى: وَمَـا اللَّهُ يُرِيـدُ ظُلْمـاً لِلْعِبَادِ (غافر: 31)، وقال تعالى: مَنْ عَمِـلَ صَـالِحاً فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (فصلت:46)، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يـونس:44)، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَـاعِفْهَا

1) رواه أحمد وابن حبان.

2) انظر علاقة العدل بالصحة الحسدية والنفسية في سلسلة (ابتسامة الأنين)، بـل إن بعض الأطباء اعتبر حديث النصوص عن الموازين إعجازا طبيا.

3) رواه مسلم.

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (النساء: 40)، وقال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (طه: 112)، والهضم أن ينقص من جزاء حسناته، والظلم أن يعاقب بذنوب غيره، وكلاهما مما يتنافى مع العدل.

ومما يمكن الاستدلال له على هذا النصوص الكثيرة التي تمجد العدل وتأمر به وتخبر عن محبة الله تعالى للعادلين، بل تخبر عن الله أنه لا يحكم إلا بالعدل.

قال تعالى في تمجيد العدل: وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ (النساء: 58)، ففي قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ دليل على محبة الله للعدل، وهي محبة تدل على أنه من صفات الكمال.

ومثل ذلك قوله تعالى: فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (الحجرات: 9)، وقد ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بمحبة الله من اتصف بصفاته.

وقد جمع الله تعالى بين أمره بالعدل وإخباره عن اتصافه به في قوله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (النحل: 76)

فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام المعبودة من دون الله، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل ويتصف به هو الله تعالى.

زيادة على هذا فإن من أسماء الله تعالى التي تتطلب وجود مقتضياتها اسم (العدل) وقد قرن في الحديث الجامع للأسماء الحسنى باسم (الحكم)، وهو جمع بين التوحيد والعدل، فالحكم يقتضي الوحدانية المطلقة.

وللغزالي في تحقيق معنى اسم العدل، وانطباقه على الله وحده، كلام طيب ننقله هنا مع بعض التصرف، قال:(العدل هو الذي يصدر منه فعل العدل المضاد للجور والظلم، ولن يعرف العادل من لم يعرف عدله، ولا يعرف عدله من لم يعرف فعله، فمن أراد أن يفهم هذا الوصف فينبغي أن يحيط علما بأفعال الله تعالى من ملكوت السموات إلى منتهى الثرى حتى إذا لم ير في خلق الرحمن من تفاوت، ثم رجع البصر فما رأى من فطور، ثم رجع مرة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير، وقد بهره جمال الحضرة الربوبية وحيره اعتدالها

وانتظامها، فعند ذلك يعبق بفهمه شيء من معاني عدلـه تعـالى وتقدس)[1]

وانطلاقا من هذا المنهج العلمي الـذي وصـفه للتعـرف من خلاله على كمال العدل الإلهي، أخـذ يطبقـه من خلال اسـتقراء المجردات ودلالتها على العدل الإلهي، فقال:(وقد خلق أقسـام الموجودات جسمانيها وروحانيهـا كاملهـا وناقصـها، وأعطى كـل شيء خلقه، وهو بذلك جـواد، ورتبهـا في مواضـعها اللائقـة بهـا وهو بذلك عدل، فمن الأجسام العظام في العالم الأرض والماء والهواء والسموات والكواكب، وقد خلقهـا ورتبهـا فوضـع الأرض في أسفل السافلين، وجعـل المـاء فوقهـا، والهـواء فـوق المـاء والسموات فوق الهواء، ولو عكس هذا الترتيب لبطل النظام)

ثم قرب هذه المعاني العميقة بـذكره لبعض مظـاهر خلـق الله، والتي رسمت فيها حقائق عدل الله، فقـال:(ولعـل شـرح وجه استحقاق هذا الترتيب في العدل والنظام مما يصـعب على أكثر الأفهام فلننزل إلى درجة العـوام، ونقـول: لينظـر الإنسـان إلى بدنه، فإنه مركب من أعضاء مختلفة، كما أن العالم مـركب من أجسام مختلفة، فأول اختلافـه أنـه ركبـه من العظم واللحم والجلد وجعل العظم عمادا مسـتبطنا واللحم صـوانا لـه مكتنفـا إياه والجلد صوانا للحم فلو عكس هذا الترتيب وأظهر مـا أبطن لبطل النظام، وإن خفي عليك هـذا فقـد خلـق للإنسـان أعضـاء مختلفة مثل اليد والرجل والعين والأنف والأذن فهو بخلـق هـذه الأعضاء جواد وبوضعها مواضعها الخاصة عـدل لأنـه وضـع العين في أولى المواضع بها من البدن إذ لو خلقها على القفـا أو على الرجل أو على اليد أو على قمة الرأس لم يخف ما يتطرق إليـه من النقصــان والتعــرض للآفــات، وكــذلك علــق اليــدين من المنكبين، ولو علقهما من الرأس أو من الحقـو أو من الركبـتين لم يخف ما يتولد منه من الخلل وكذلك وضع جميع الحواس في الرأس فإنها جواسـيس لتكـون مشـرفة على جميـع البـدن فلـو وضعها في الرجل اختل نظامها قطعا وشرح ذلك في كل عضـو يطول

وبالجملة فينبغي أن تعلم أنه لم يخلق شيء في موضـع إلا لأنه متعين له ولو تيامن عنه أو تياسـر أو تسـفل أو تعلى لكـان ناقصـا أو بـاطلا أو قبيحـا أو خارجـا عن المتناسـب كريهـا في

1) المقصد الأسنى:98.

المنظر وكما أن الأنف خلق على وسط الوجه ولو خلق على الجبهة أو على الخد لتطرق نقصان إلى فوائده)

وهذا المنهج الذي ذكره الغزالي.. وهو قبل ذلك منهج القرآن في التعريف بالله (1).. هو الذي نحاول أن نستعمله هنا للاستدلال العقلي به على عدل الله.

وهو استدلال تجمع عليه العقول.. فنحن في جميع أحكامنا على الأشياء أو الأشخاص ننطلق من الثمرات.. فالثمرة تدل على من غارسها.

ولهذا.. فإن النظر في الكون.. وفي الحياة.. وفي الإنسان.. يدلنا على أعماق كبيرة من عدالة الله يقصر اللسان عن التعبير عنها.

وسنقتبس من مشكاة العلم الحديث الذي كشفه الله للبشرية لتتعرف عليه بعض هذه الدلائل، ونحسبها كافية للعقل المسالم.. أما العقل المجادل، فلا يمكن أن يقتنع بشيء.

فالعلم الحديث(2) ينص ــ بالأدلة القطعية التي لا يمكن تخلفها ـ على أنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات.

ولو كان الهواء أرفع كثيرا مما هو عليه، فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروعة، أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره.

وينص على أن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع، والتي

---

1) فالله تعالى استدل ـ مثلا ـ على رحمته بآثارها، حيث قال: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:50)

ونحسب أن الغزالي استنبط كلامه في تحقيق معنى العدل من قوله تعالى في تحقيق معنى الرحمة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ (القصص:71)

2) انظر: كتاب العلم يدعو إلى الإيمان أ. كريسي مورسون رئيس أكاديمية العلوم في واشنطن

تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضـر بالإنسـان، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم.

وينص على أن الأوكسجين لـو كـان بنسـبة 50 في المائـة مثلا أو أكثر في الهواء بدلا من 21 في المائة فإن جميـع المـواد القابلة للاحتراق في العالم تصـبح عرضـة للاشـتعال، لدرجـة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابـة حـتى لتكاد تنفجر.

ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى 10 في المائة أو أقل، فإن الحياة ربمـا طـابقت نفسـها عليهـا في خلال الدهور، ولكن في هذه الحالة كـان القليـل من عناصـر المدنيـة التي ألفها الإنسان - كالنار مثلا - تتوافر له.

وكمثـال على التـوازن الـذي ضـبط اللـه بـه الحيـاة على الأرض، والذي نص عليه قوله تعالى: وَالْأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَـا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (الحجـر:19) مـا حصـل قبـل سـنوات عديـدة في اسـتراليا حيث زرع نـوع من الصبار كسياج وقائي، ولكن هذا الـزرع مضـى في سـبيله حـتى غطى مساحة تقـرب من مسـاحة انجلـترا، وزاحم أهـل المـدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة.

ولم يجـد الأهـالي وسـيلة تصـده عن الانتشـار ؛ وصـارت أسـتراليا في خطـر من اكتسـاحها بجيش من الـزرع صـامت، يتقدم في سبيله دون عائق.

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجـدوا أخـيرا حشـرة لا تعيش إلا على ذلـك الصـبار، ولا تتغـذى بغـيره، وهي سريعة الانتشار، وليس لها عدو يعوقها في استراليا.

ومـا لبثت هـذه الحشـرة حـتى تغلبت على الصـبار، ثم تراجعت، ولم يبق منهـا سـوى بقيـة قليلـة للوقايـة، تكفي لصـد الصبار عن الانتشار إلى الأبد.

وكمثال على التوازن الذي ضبط الله به السـماء، والـذي نص عليه قوله تعالى: وَالسَّـمَاءَ رَفَعَهَـا وَوَضَـعَ الْمِيزَانَ (الـرحمن:7)هذا النظام الشمسي العجيب.. فالنظام الشـمس واحـد من أروع الأمثلة للتناسق الجميل الذي يمكن مشاهدته.. ففيه تسعة كـواكب مـع أربعـة وخمسـين تابعـاً، وعـددا غـير معـروف من الأجسـام الصغيرة.

وفي تـركيب المجموعـة الشمسـية نواجـه مثـالاً جميلاً من

التوازن، وهو التـوازن بين القـوى النابـذة، والـتي يقابلهـا التجـاذب الثقالي من أوليتها(1)، وبدون ذلك التوازن فسوف يقذف كل شيء في هذا النظام بعيداً في الأعماق الباردة للفضاء الخارجي.

والمدارات هي المسارات التي ترسمها الكواكب أو الأجسـام أثناء دورانها حول أوليتهـا، فـإذا تحـرك جسـم بسـرعة بطيئـة جـداً فسوف يسقط على الأولية ويغـوص فيهـا، أمـا إذا تحـرك بسـرعة أكبر، فالأولية سوف لن تتمكن من الإمساك به، وسوف يطير ذلك الجسم بعيداً في الفضاء، وبدلاً من ذلك لابد أن يتحـرك كـل جسـم بالسرعة الصحيحة تماماً كي يحتفظ بمداره، والأكـثر من ذلـك هـو أن التوازن يجب أن يختلف من جسم إلى آخر بسبب أن المسـافة للكوكب مختلفة بحيث لا تغوص في الشمس ولا تقذف بعيداً عنهـا وتطير في أعماق الفضاء.

ويعتبر الفلكيون من أمثـال (كبلـر وغـاليليو) من أوائـل الـذين اهتمـوا باكتشـاف ذلـك التـوازن الأمثـل، وقـد اعـترف هـؤلاء أن تصميمه تم بتأن وتؤدة،و أن هنـاك إشـارة للتـدخل الإلهي في كـل الكون.

وقد قال (إسحاق نيوتن) يـذكر هـذا التـوازن (النظـام الرائـع للشموس والكواكب والمذنبات يمكن أن تشرق من هذف وغرض لسلطة عليا لكائن قدير وعبقري.. وهو يحكمها كلها ليس كروح بل كسيد مالك لكل الأشياء وبسبب سلطته العليا الغالبـة فهـو يـدعى بالسيد الإله القدير »

بالإضافة إلى ذلك التوازن الرائع فإن موقع الأرض في النظام الشمسي وفي الكون هو أيضاً آية أخرى على كمال العمــل الإلهي في الخلق.

فقـد بينت آخـر الاكتشـافات أهميـة وجـود الكـواكب الأخـرى للأرض، فحجم المشـتري وموضـعه مثلاً أتيـا على نحـو كانـا فيـه حـديان، كمـا بينت الحسـابات الفلكيـة ذلـك، فـأكبر كـوكب في المجموعة الشمسية، وهو المشتري يقدم الثبات لمـدارات الأرض، وكل الكواكب الأخرى.

وقـد قـال (جـورج ويـذرك)يفسـر دور المشـتري في حمايـة الأرض في كتابه (كيف يكون المشتري المميز:(بدون وجود كوكب ضـخم متوقـع بدقـة حيث المشـتري موجـود، فـإن الأرض كـانت

---

1) يقصد بالأولية في علم الفلك بأنه شيء يدور حول جسم آخـر، فالأوليـة للأرض هي الشمس، والأولية للقمر هي الأرض.

ستصطدم في الماضي ألوف المرات وبشكل تكراري بالمذنبات والشهب وغيرها من الحطام بين الكوكبية، فإذا لم يكن المشتري موجوداً فلن نكون موجودين لندرس أصل النظام الشمسي »

وكمثال على الدقة التي رسمت بها أبعاد الكون ما اكتشفه العلماء من أن أبعاد كواكب المجموعة الشمسة(1) عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (9) منازل أولها (الصفر) ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (3) ثم تتدرج متضاعفة هكذا: (3ـ 6 ـ 12ـ 24 ـ48ـ 96ـ 192 ـ 384ـ).فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد (4) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس. أي أنه بإضافة (4) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا ك (4ـ 7ـ10 ـ28ـ100ـ196ـ388).

فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العدد عن الشمس.فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس(36) مليون ميل كما سبق القول.و بما أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمها (4) فإذا ضربنا 4*9 ملايين يكون حاصل الضرب (36) مليون ميل. وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة.

ولكنهم رأوا كيف تكون المنازل التي اكتشفوها في تفاوت الأبعاد تسع منازل في حين أن الكواكب المعروفة ثمانية.

فقد وجدوا أن منزلة العدد (28) ليس فيها كوكب، بل يأتي ن بعد المريخ صاحب العدد(16)، كوكب المشتري الذي هو صاحب العدد (52).

فما هو السر في هذا الفراغ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة وإما أن يكون هنالك كوكب غير منظور

---

1) نعلم أن في المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس: أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة، فالأرض فارونوس فنبتون فزحل فالمشتري، ثم بلوتوا الذي كشفوه منذ ثلاثين سنة (وهو كوكب شاذ في صغر حجمه و في بعد عن الشمس فلا يصلح أن يكون سببا قاطعاً لابطال النسبة العجيبة التي سأذكرها عن بعد الكواكب من الشمس).هذا في ترتيب أحجامها، و أما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتي على ترتيب آخر: فأقربها عطارد الذي يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل، ثم الزهرة و متوسط بعدها 67 مليوناً، فالأرض و متوسط بعدها 93 مليواناً، فالمريخ و بعده مليوناً، فالمشتري و بعده 484 مليوناً، فزحل 887 مليوناً، فأورانوس و بعده 1782 مليوناً، و نبتون و متوسط بعده عن الشمس 2792 مليوناً من الأميال.

في مرتبة العدد (28) على 252 مليون ميـل عن الشـمس، أي بين المريخ والمشتري.

ومن عجـائب النظـام البـاهر أنهم وجـدوا أخـيراً في هـذا الفـراغ الشـيء الـذي قـدّروا أنـه لابـد من وجـوده. ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً بل وجدوا كويكبات صغيرة كثـيرة تـدور كلهـا في الفراغ المذكور الـذي بين المـريخ والمشـتري أي في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة.

وكل هذه الحقائق التي ظفر العلم ـ بفضل ما أتيح لـه من وسائل ـ ببعض تجلياتهـا ممـا نص القـرآن الكـريم على اعتبـاره من تصـريف اللـه لكونـه وضـبطه لـه بـالموازين الـتي يقتضـيها العدل، وكلها مما ينص على قوانينها قولـه تعـالى: وَخَلَـقَ كُـلَّ شَـيْءٍ فَقَـدَّرَهُ تَقْـدِيراً (الفرقـان: 2)، وقولـه تعـالى: فَـالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (الأنعام: 96)، وقوله تعـالى: وَالشَّـمْسُ تَجْـرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (يّـس: 38)

وبهـذا النظـام الـدقيق والمـوازين المضـبوطة قـدر اللـه السموات جميعا منذ ابتداء خلقها، قـال تعـالى: فَقَضَـاهُنَّ سَـبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَـمَاءٍ أَمْرَهَـا وَزَيَّنَّا السَّـمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (فصلت: 12)

* * *

وكما أن كل شيء من الكائنات ينطق متحدثا بلسان بليغ عن عدل الله، فإن هناك عالما آخر، لا يقل شأنا له دلالته الكـبرى على عدالة الله المطلقة، وهي عدالة الأمر الإلهي، فللـه الخلـق والأمـر جميعا.

فالشريعة الربانية تفيض بمعاني عدالة الله، بل إن الله تعالى أخبر بأن من الأغراض الكبرى لإرسال الرسل إقامـة العـدل، قـال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَـا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ وَالْمِـيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيـهِ بَـأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَـوِيٌّ عَزِيـزٌ (الحديـد: 25)

بل إن الله تعالى قرن الـدعاة إلى العدالـة بالرسـل ــ عليهم السلام ــ واعتبر قتلهم كقتـل الرسـل، فقـال: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُـرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُـونَ الَّذِينَ يَـأْمُرُونَ بِالْقِسْـطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (آل عمران: 21)

وأخبر أن كل ما ورد به القرآن الكريم من الأحكام أحكام تقوم على القسط، بل هي القسط عينه، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (لأعراف:29)

ودعا البشر الواعين لحقائق القرآن الكريم أن يكونوا دعاة للعدالة بمفهومها الواسع، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:135)

بل إن القرآن يدعو المؤمنين إلى ممارسة ما تقتضيه العدالة، ولو كان ذلك في مصلحة الأعداء.. فالمؤمن لا تصرفه عداوته لأحد من الناس عن التعامل معه وفق ما تقتضيه شريعة العدل التي تتفق عليها العقول، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:8)

والقرآن الكريم ــ كشأنه في الانتقال من المجمل إلى المفصل، ومن الأحكام النظرية إلى التطبيقات العملية ــ يذكر نماذج عملية كثيرة يتحقق فيها العدل:

تبدأ بالخلافة التي هي حكم الرعية.. فالخليفة هو الذي يتخلق بوصف العدالة، ولا يجره الهوى إلى الجور، قال تعالى مخاطبا داود عليه السلام: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (صّ:26)

والله تعالى يأمر نبيه ﷺ باعتباره الولي الأول لأمر المؤمنين بأن يحكم بالعدل.. لا الرعية البسيطة المطيعة.. وإنما السماعين للكذب الأكالين للسحت، قال تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة:42)

وفي هذه الآية رد بليغ على أولئك الذين يريدون فرض شريعة الاستبداد، ويجدون من بائعي دينهم من يفتيهم بذلك بحجة أن من الرعية من لا يفيدهم إلا سيف الحجاج.

والعدل ليس قاصرا على هذا.. وليس قاصرا على هؤلاء..

إنه يشمل الكل.. فالمؤمن الباحث عن الكمال الإنساني لن

يصل إليه إلا بتحقيق العدل في كل الشؤون.. فالأخلاق الإسلامية كلها تقوم على العدل، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (الإسراء:29)، فالله تعالى يأمرنا في هذه الآية بالتوسط الذي يقتضيه العدل.

وعلى ضوء هذه الآية وغيرها اعتبر علماء الأخلاق المسلمين العدل من أمهات أصول الأخلاق.. بل لا يمكن أن يتحقق أي تصرف بوصف الحسن ما لم يكس بوصف العدل.

يقول الغزالي ـ مبينا علاقة العدل بالأخلاق ـ:(فالعقل مثاله مثال الناصح المشير. وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل. والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروّضاً مؤدّباً وتارة يكون جموحاً، فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض)(1)

ولذلك، فإن هذا الأصل هو الضابط لسائر الأوصاف والقوى الإنسانية، بل هو الأصل في اعتبارها أخلاقا، فـ (حسن القوّة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة، وحسن قوّة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة، فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبناً وخوراً. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمى جموداً، والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور، وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة، ويسمى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة)

وانطلاقا من هذه الأصول النظرية يبني المؤمن حياته على رعاية موازين العدل التي لا يمكن أن يتحقق بالاستقامة بدونها.

والقرآن الكريم يذكر التفريعات الكثيرة في هذا الباب.. يل

1) الإحياء:3/58.

يحث عليها بكل صنوف الحث:

ففي العدل مع اليتامى الذي يصرف عن استغلالهم أو الإساءة إليهم يقول تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ (النساء:127)

وفي إقامة الموازين يقول تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:9)، وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) ﴾ (المطففين)

بل إن الله تعالى أرسل رسولا من الرسل ــ عليهم السلام ـ انحصرت دعوته ـ بعد توحيد الله ــ في الأمر بإقامة العدل، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87) ﴾ (هود)

وفي المعاملة العادلة مع النفس، يقول رسول الله ﷺ لبعض الصحابة، حين جار على حق نفسه بمداومة صيام النهار وقيام الليل: (إن لبدنك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً)(1)

وفي المعاملة العادلة مع الزوجة، أو الزوجات، يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء:3)

وفي المعاملة العادلة مع الأبناء والبنات يقول رسول الله ﷺ:(اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم) (2)

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه أبو داود.

وروي أن رجلا جاءه ابنه فقبله وأجلسه في حجره ثم جاءته ابنته فأجلسها إلى جانبه فقال النبي ﷺ:(فما عدلت)(1)

وفي المعاملة العادلة مع من نحب يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (النساء: 135)

وفي المعاملة العادلة مع من نكره يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة:8)

هذه بعض النماذج عن اهتمام الإسلام الذي هو شريعة الله بالعدل(2).. ويستحيل على من يحض كل هذا الحض على العدل أن لا يتصف به.

* * *

والعدل والظلم كما يفهم من التعابير القرآنية لا يراد منه إلا ما نفهمه في تعابيرنا العادية من معانيهما.

فالعدل أن توضع الأشياء في مواضعها المناسبة لها، والظلم أن توضع في غير مواضعها.

أما من حرف هذا المعنى، ففسر العدل بالممكن، واعتبر أن كل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل.

وفسروا الظلم بأنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه، وأحالوا بذلك ـ عقلا ـ إمكانية الظلم على الله تعالى باعتباره ممتنعا لذاته، فلا يدخل تحت القدرة، فلا يقدر الرب تعالى على ما يسمى (ظلما) حتى يقال ترك الظلم وفعل العدل.

فهذا، وإن كان يحمل بعض بذور الحقيقة إلا أنه لا يتناسب مع ما يفهم من ظواهر النصوص القرآنية والنبوية السابق ذكرها.

فلهذا لا معنى عندهم لقوله ﷺ:(عدل في قضائك)، بل هو بمنزلة أن يقال:(نافذ في قضائك)، أو هو نفس معنى (ماض في حكمك) فيكون تكريرا لا فائدة فيه (3).

وعلى هذا القول أيضا لا يمدح الله بالعدل، ولا يحمد على ترك الظلم، لأنه لا يحمد على ترك المستحيل لذاته.

---

1) رواه البيهقي وإسناده حسن.
2) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بالعدل في الإسلام في رسالة (عدالة للعالمين)
3) شفاء العليل:275.

بل إن القول بهذا، وخاصة ما يشاع ترددده بأن من عدالة اللـه أن يدخل التقي المؤمن جهنم، ويدخل العاصـي الكـافر الجنـة نـوع من أنواع الجراءة على الله والمناقضة لما ورد في النصوص، زيادة على الآثار العملية الخطيرة لهذا القول، والتي سنشـير إلى بعضـها في هذه المقدمة.

وفي مقابل هؤلاء من وضعوا قانونا للعدالة أرادوا فرضه على الله، واعتقدوا التعارض بين عدل الله وتوحيده، فنفوا التوحيد لأجل العدل، كما نفى من قبلهم العدل لأجل التوحيد.

فكلا الطـرفين ابتعـد عن الحـق بقـدر ابتعـاده عن النصـوص المعصومة أو تغليب بعضها على بعضها، أو إعمـال بعضـها وإهمـال الآخر.

والحق لا يمكن أن يعرف إلا بالنظر من جميع الزوايا ولجميـع الحقائق، فالحقائق من الدقة والكمال والتوازن والتناسق ما يحيـل تنافر بعضها عن بعض.

* * *

وقـد نتج عن الانحرافـات السـابقة من تغليب التوحيـد على العدل اعتقاد جبر الإنسان على أفعاله، فهو كالسجين الذي لا حرية له، بل إن السجين عند هؤلاء أكثر حرية من الإنسان.

وهـؤلاء الـذين تصـوروا أنهم غلبـوا التوحيـد ــ معرفـة باللـه ـ شوهوا التوحيد بما تصوروه من ظلمه لعباده وجوره عليهم.

ولذلك ورث هـذا القـول من تجـرأ على اللـه يحتج عليـه بأنـه سبب كل البلايا، وأصل كل فساد.

وقـد ذكـر ابن القيم وغـيره الكثـير من المتجـرئين على اللـه بسبب عدم إدراكهم لحقيقة العدالة الإلهية (1):

ومما ذكـروه عن بعضـهم قولـه - وقـد عـوتب على ارتكابـه معاصى الله ـ:(إن كنت عاصياً لأمره فأنا مطيع لإرادته)

وجـرى عنـد بعض هـؤلاء ذكـر إبليس وإبائـه وامتناعـه من السجود لآدم، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه، فقال:(إلى متى هذا اللوم؟)، ولو خلي لسجد، ولكن منع، وأخذ يقيم عـذره فقـال بعض الحاضـرين:(تبـاً لـك سـائر اليـوم، أتـذب عن الشـيطان وتلـوم الرحمن؟)

وقد وقع بعض أدعياء المعرفة بالله في هذا المنزلق الخطير، فتصوروا أن من مقتضيات المعرفة بالله جحود عدالة الله وحكمته

1) انظر: طريق الهجرتين: 152، فما بعدها.

في خلقــه، فتعرفــوا إلى اللــه من زاويــة محــددة أملتهــا عليهم مواجيدهم، وغفلوا عن الزوايا الكثيرة التي تمليها عليهم النصوص.

وقد ذكر مرعي بن يوسـف الحنبلي المقدسـي دوافـع تأليفـه لرسـالة (رفـع الشـبهة والغـرر عمن يحتج على فعـل المعاصـي بالقدر) فقال:(إن بعض دراويش متصوفة الفقراء الذين وقعوا في الإباحـة والآثـام، وطـووا بسـاط الشـرع، ورفعـوا قواعـد الأحكـام، وسووا بعقولهم بين الحلال والحرام كان لا يصوم ولا يصلي منهمكا على المحرمات كالخمور ونحوها من اللـذات، فـاعترض عليـه في ذلك،فأجاب بمـا مضـمونه أنـه قـد رفعت الأقلام وجفت الصـحف، وأن هذا مقدر علي، وأنا لا أقدر على رفع ما قدره الله علي)(1)

وتصور بعضهم أن العارف لا تضره الذنوب كما تضر الجاهـل، وربما سول له الشيطان بأن ذنوبه خير من طاعات الجهال.

مع أن النصوص تخبر بأنه يحتمل من الجاهل مالا يحتمـل من العارف، بل إذا عوقب الجاهل ضعفا عوقب العارف ضعفين، ولهذا قال تعالى في نساء النبي: يَا نِسَـاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَـأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَـةٍ مُبَيِّنَـةٍ يُضَـاعَفْ لَهَـا الْعَـذَابُ ضِـعْفَيْنِ وَكَـانَ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيراً (الأحزاب:30)

وعـادة مثـل هـؤلاء كعـادة من غلبت عليـه الأهـواء، فهـو لا يسـتجيب للمخـالف بسـبب، وهـو أن المتكلم لم يـرق درجـات الكمال، أو أن علم الأوراق حجبـه عن علم الأذواق، قـال ابن القيم بعد الإنكـار على مثـل هـذه الأقـوال:(فـإن قيـل هـذا كلام بلسـان الحال بالشرع، ولو نطقت بلسان الحقيقة لعـذرت الخليقـة، إذ هم صائرون إلى مشيئة الله فيهم وما قضاه وقدره عليهم ولا بـد، فهم مجار لأقداره، وسهامها نافذة فيهم، وهم أغراض لسهام الأقـدار لا تخطئهم ألبتـة،ولكن من غلب عليـه مشـاهدة الحكم الشـرعي لم يمكنـه طلب العـذر لهم، ومن غلب عليـه مشـاهدة الحكم الكـوني عـذرهم فـأنت معـذور في الإنكـار علينـا بحقيقـة الشـرع، ونحن معذورون في طلب العذر بحقيقة الحكم وكلانا مصيب)(2)

* * *

والعلة الكبرى التي يستند لها المغلبون للتوحيـد على العـدل، هو تغليب ما ورد في النصـوص من توحيـد اللـه المقتضـي لتوحيـد علمه ومشيئته وقدرتـه على مـا ورد في النصـوص من عـدل اللـه

1) رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر: 15.
2) مدارج السالكين:1/189.

الذي يقتضي التعامل مع كل أحد بحسب عمله.

والـذي غلب أحـد النظـرين على الآخـر ليس حجم النصـوص الواردة في التوحيد، بل إن ما ورد في العدل الإلهي أكثر بكثير مما ورد في التوحيد المرتبط بالقدر، فالقرآن الكريم كله أوامر تكليفية وبيان للعدل الإلهي في الأمر بها أو المجازاة عليها.

وليس كذلك بسبب النظرة العرفانية، فالعارف ـ كما ذكرنـا ـ هـو من عـرف اللـه بجميـع أسـمائه الحسـنى وصـفاته العليـا، فلم يطفئ ـ لذلك ـ نور توحيده نـور ورعـه، وقـد قـال ﷺ وهـو أعـرف العارفين بالله، بل هو سراج المعرفـة باللـه الـذي تشـع من خلالـه جميع كواكب المعرفة وأقمارها:(إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنـا)(1)، فجمع ﷺ بين العلم بالله وتقوى الله.

وإنما السبب هو سوء الفهم للنصوص، أو النظر للنصوص من زاوية واحدة، ولذلك سنتحدث في هذا الباب عن وجوه الجمـع بين التوحيـد والعدالـة مقـدمين النصـوص على غيرهـا محـاولين فهم النصوص على ظواهرها البسيطة الفطريـة الـتي لا تعقيـد فيهـا ولا إلغاز.

وسـنرى المـدى الـذي عـبرت بـه النصـوص عن عدالـة اللـه المطلقة في جميع النواحي المرتبطة بالقدر.

وقـد حاولنـا حصـر الحـديث في الجـوانب الأساسـية الثلاثـة للعدل، بحسب ما تقتضيه القسمة العقلية، وهي: عدالـة التكليـف، وعدالة الهداية، وعدالة الجزاء.

فعدالـة التكليـف تقتضـي أن لا يكلـف المكلـف إلا بحسـب استطاعته، وبعد توفر كل ما يتعلق بالتكليف من أسباب ووسائل.

وعدالة الهدايـة تقتضـي أن لا يهـدى إلا الـراغب في الهدايـة، ولايضل إلا الراغب في الضلالة.

وعدالة الجزاء تقتضي أن يجازى كل مكلف بحسب عمله، إن خيرا فخـير، وإن شـرا فشـر، فلا يتسـاوى القاعـد مـع العامـل، ولا الطائع مع العاصي.

---

1) رواه البخاري.

أولا ـ عدالة التكليف

المراد بالتكليف في المصطلح الإسلامي هو الوظيفة التي ندب لها البشر على هذه الأرض، وقد عبر عن هذه الوظيفة في القرآن الكريم تعابير مختلفة، لكل منها دلالته الخاصة، ولكل منها علاقته بالعدل الإلهي في التكليف.

فقد عبر عن التكليف بكونه أمانة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب: 72)، ثم قال بعدها: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (الأحزاب:73)

فهاتان الآيتان تجمعان جميع دلائل العدالة الإلهية في تكليف الإنسان:

وأول ذلك أن الإنسان خير في قبول التكليف، فقبله عن طواعية تامة ورضى خالص، بل إنه تعالى ــ من باب العدالة المطلقة ــ قدم عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ليكون للإنسان أسوة في حال الامتناع، ولكنه رضي عن طواعية تامة بهذا التكليف.

قال ابن عباس مصورا هذه الحقيقة الضخمة التي انطلق منها التكليف:(يعني بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم:(إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟)، قال:(يا رب وما فيها؟) قال:(إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت)، فأخذها آدم فحملها)(1)

فهذا النص الذي يبعد أن يقوله ابن عباس بمجرد الرأي يذكر أن الإنسان عرف كل ما يتعلق بالأمانة والجزاء المرتبط بها حتى قبل التكليف عن بينة.

زيادة على هذا جاء في الآية الثانية الإخبار بالجزاء الذي يرتبط بالقدر الذي تؤدى به الأمانة لا بأي ارتباط آخر، وهو ما يقتضيه العدل.

أما إخباره تعالى بأن الإنسان ظلوم جهول، ففيه دلالة قوية على السر الذي جعله مستعدا لتحمل الأمانة، فظلمه يحمل بذور

---

1) رواه العوفي.

العدل، وجهله يحمل طاقة التعلم، فكانت طاقاته التي وهبها تؤهله لهذا التكليف.

***

وعبر عن التكليف بالخلافة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)

وليس المراد بالخلافة التي تتحدث عنها الآية الكريمة الخلافة الممثلة في شخص آدم ﷺ، بل هي شاملة للجنس البشري كله، بدليل أن ما تخوف منه الملائكة من الإفساد في الأرض وسفك الدماء لم يتحقق في آدم ﷺ، وإنما تحقق في البشرية على امتدادها التاريخي.

وقد أشارت آيات كريمة أخرى إلى هذا الاستخلاف العام، ومنها قوله تعالى على لسان هود ﷺ لقومه: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (لأعراف: 69)، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ (فاطر:39)

وقد ورد في النصوص التعبير عن الخلافة التي تعني الحكم، كما قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص:26)، وهي فرع من الخلافة التي أسندت لكل إنسان، أو هي فرع متقدم عليها.

وهذه النصوص جميعا، والتي ورد التعبير فيها عن التكليف بالخلافة تشير إلى عدالة الله المطلقة:

فالتعبير بالخليفة، أو اصطلاح (الخلافة) نفسه يقتضي حرية المكلف فيما استخلف فيه وعدم تقيده إلا بالموازين التي أمره مستخلفه بإقامتها.

فالخلافة مسؤولية، والمسؤولية لا يقوم بها إلا الكائن الحر، فبدون الاختيار والحرية لا تتحقق المسؤولية.

ولهذا استنتجت الملائكة من إخبار الله لها بأنه سيجعل خليفة على الأرض أنه سيجعل الكائن الحر المختار، ومثل هذا يمكن أن يصلح في الأرض، ويمكن أن يفسد فيها، لأن الاختيار والإرادة

تسويان بين الجهتين.

وفي قولـه تعـال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْـدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:14)، وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَـدُوَّكُمْ وَيَسْـتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (لأعراف: 129) إشارة إلى هذه الحرية الـتي أوتيها الإنسان ليستقيم تكليفه، فقد عـبر تعـالى عن غايـة التكليـف بأنهـا مجـرد النظـر إلى أعمـالهم لا حملهم على أعمـالهم أو إجبـارهم عليها، كما قال ﷺ:(إن الدنيا حلـوة خضـرة، وإن اللّـه مسـتخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء)(1)

والله تعالى مع إخباره عن علمه بحقيقة هـذا الخليفـة والـذي رد به على الملائكة، لم يحاسب الخلق على علمـه فيهم، بـل تـرك لأعمالهم المجال لذلك.

ثم إن اللــه تعــالى أشــار في هــذه الآيــات إلى أن نتيجــة الاستخلاف هي التي تحدد مصير الإنسان، فتجعله من الكـافرين أو من المؤمنين قال تعالى: ﴿ هُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتـاً وَلاَ يَزِيـدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ (فاطر: 39)

* * *

وعبر عن التكليف بالعبادة،كما قال تعالى: ﴿ وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ﴾ (الـذريات:56)، فقـد حصـر اللـه تعـالى غايـة الخلق في هذه الآية في العبادة.

وقد وردت النصوص الكثيرة في القرآن الكريم تخبر عن هذه الغاية التي هي تفسير للأمانة والخلافة السابق ذكرهما، ومن ذلــك قوله تعالى في إخباره عن الغاية من إرسال الرسـل: ﴿ وَلَقَـدْ بَعَثْنَـا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحــل: 36)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا نُـوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُـدُونِ﴾ (الانبيـاء:25)، وقـال تعـالى: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبيـاء:25)

فالتكليف الذي كلف البشر بأدائه إذا هـو العبـادة، فمـا معـنى العبادة؟

وهل للتكليف بالعبادة علاقة بالعدل الإلهي؟

---

1) رواه مسلم.

اتفق المعرفون للعبادة بأنها اسـم جـامع لكـل مـا يحبـه اللـه ويرضاه من الأقوال والاعمال الباطنة والظاهرة.. فالصلاة والزكـاة والصيام والحج وصدق الحـديث وأداء الامانـة وبـر الوالـدين وصـلة الأرحــام والوفــاء بــالعهود والامــر بــالمعروف والنهي عن المنكــر وغيرها من ألوان العبادات.

وتشمل كذلك مـا لـه علاقـة بـالأحوال والمعـارف كحب اللـه ورسوله وخشية الله والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضـائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وغيرها.

وهـذه الألـوان جميعـا، والـتي تتلـون بهـا عبـادة اللـه تعـالى، تستلزم ركنين:

الركن الأول هو الذلة المطلقة لله، كما يقال: طريق معبد اذا كان مذللا قد وطئته الاقدام.

والركن الثاني هو كون ذلك الخضوع ناشئا عن طواعيـة تامـة لله تعالى، وهذا هو الجانب الذي أبته السموات والأرض من تحمـل الأمانــة، لأن الــركن الأول من العبــادة، وهــو الخضــوع المطلــق لله،والذي لا سلطة للخاضع فيه ولا اختيار هو عمل الكـون جميعـا، كمـا قـال تعـالى: وَلَـهُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْـدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (الانبياء:19)، وقال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُــدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد:15)، وقال تعالى: وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (آل عمران: 83)

وقَــد اختلــف في التعبــير عن علــة الخضــوع الناشــئ عن الطواعية، فذهب الأكثر إلى العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية التذلل لله تعالى مع غايـة المحبـة له.

وسر ذلك أن من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له، لم يكن عابدا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهـذا لا يكفي أحـدهما في عبـادة اللـه تعـالى، بـل يجب أن يكون الله أحب إلي العبد من كل شيء.

وعبر فريق آخر عن هذه العلة بأنها المعرفة، كما قال محمــد عبده: (تدل الأساليب الصحيحة، والاستعمال العربي الصـراح، على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشـئ عن استشـعار القلب عظمة للمعبود، لا يعـرف منشـأها، واعتقـاده بسـلطة لـه لا يدرك تفهمها وماهيتها، وقصارى مـا يعرفـه منهـا أنهـا محيطـة بـه،

ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملـوك لا يقال (إنه عبده) وإن قبل مـوطئ أقدامـه، مـا دام سـبب الـذل والخضوع معروفا، وهو الخوف من ظلمـه المعهـود، أو الرجـاء في كرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبيـة سـماوية أفيضـت على الملـوك من الملأ الأعلى، واختـارتهم للاسـتعلاء على سـائر أهـل الـدنيا، لأنهم أطيب النـاس عنصـرا، وأكرمهم جوهرا، هؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية)

وهذه العلة الثانية هي التي أشار إليهـا من فسـر من السـلف العبادة في الآية السابقة بأنها المعرفة.

ولا تنافر بين الرأيين، فالحب حصاد المعرفة، والمعرفـة بـذور الحب، فلا يمكن للإنسان أن يحب من لا يعرف.

أما علاقة العبادة بعدالة التكليف، فظاهرة، لأن الله تعـالى لم يكلف خلقه أن يعبدوه أو يعرفـوه أويحبـوه رغم أنـوفهم، بـل تـرك ذلك لعقولهم وقلوبهم لتعبد الله عن طواعية تامة واختيـار تـام، ثم تتحمل بعد ذلك نتيجة اختيارها.

* * *

انطلاقا من هذه المعاني التي يتأسس عليها التكليف، وتتجلى فيها عدالـة التكليـف في أوج قمتهـا، نتحـدث في هـذا الفصـل عن ثلاثة جوانب نراها أساسية قد لا تقـوم العدالـة في هـذا الجـانب إلا بها:

أما الأول، فهو أن يكون المكلف في أصل خلقته نقيـا طـاهرا بحيث لا تؤثر فيه الجبلة التي ولد عليها في نوع اختياره، لأنه لو ولد شريرا مفسدا، فإنه قد لا يفطن حال بلوغه سن التمييز إلى حقيقة الخير الذي أودع فيه.

وأما الثاني، فهو أن يكون للمكلف من الأدوات والوسـائل مـا يستطيع به أن يقاوم العقبات التي تعـترض طريـق تكليفـه، فيلس من العدالــة أن يــرمى بالجنــدي الأعــزل في ســاحات المعــارك الهوجاء.

وأما الثالث، فهو أن يتناسب الاختبـار مـع الطاقـات المعطـاة والمـؤهلات المختلفـة لكـل مكلـف، فليس من العـدل أن يكلـف المكلف فوق ما تحتمله طبيعته التي طبـع عليهـا أو الظـرف الـذي وجد فيه.

وسنتحدث عن كل جانب من هذه الجوانب في مبحث خاص:

1 ـ الفطرة الأصلية:

كما أن الممتحن في أي امتحان نزيه يحضر أوراقا بيضاء نقية ليجيب عليها، لأنه لا يمكنه أن يجيب على أوراق مملوءة قد لا يجد مكانا فيها لوضع إجابته، أو قد تختلط فيها إجابته بما كتب سابقا في تلك الأوراق.

فكذلك ــ ولله المثل الأعلى ــ خلق الله البشر في أصل جبلتهم صفحات بيضاء، مستعدة لكل أعباء التكليف ومهماته، ليملؤوا بعد ذلك هذه الصفحات البيضاء بما يختارونه من إجابات.

وكون البشر على هذه الصورة من القضايا المسلمة عقلا، فلا خلاف بين شعوب الأرض في براءة الطفولة، وفي استعدادها لكل أنواع التلقي، ولذلك اتفقت هذه الشعوب على اختيار عمر الطفولة للتوجيه العلمي والتربوي الذي تبنى عليه جميع حياة الصبي.

وقد دلت النصوص على ما دل عليه العقل، بل اعتبرت النصوص ذلك من مظاهر عدل الله ورحمته بعباده.

وقد سمى الله تعالى هذه الجبلة الأصلية الطيبة البسيطة التي جبل عليها الإنسان باسم الفطرة، وهي تدل على ما جبل عليه الإنسان من استعداد للخير، والذي قد يتحول بالتحريف إلى الشر، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الروم:30)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن الفطرة الأصلية مستعدة للخير استعدادا جبليا، وأن التغيير الطارئ عليها ليس ناشئا من طبيعتها الخلقية، وإنما نشأ من مؤثرات خارجية اقتضاها التكليف.

وفطرة الإنسان في ذلك تشبه فطر الأشياء المختلفة، فالله تعالى ـ مثلا ـ خلق الماء طاهراً مطهراً، فلو ترك على حالته التى خلقه الله عليها ولم يخالطه ما يزيل طهارته لم يزل طاهراً، ولكنه بمخالطة المؤثرات الخارجية من الأنجاس والأقذار تتغير أوصافه ويخرج عن الخلقة التى خلق عليها.

وقد بينت النصوص الكثيرة هذه المؤثرات الخارجية لتفاديها، أو لإصلاح ما أفسدته هذه المؤثرات من الفطرة الأصلة.

وأول هذه المؤثرات كما يخبر رسول الله ﷺ هي المهد الذي ربي فيه الإنسان، كما قال ﷺ:(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة

جمعاء هل تجدون بها من جدعاء؟)[1]

ومن هذه المؤثرات الشياطين، وهي أخطر المؤثرات، ولذلك اشتد التحذير منه في القرآن الكريم، وإلى هذا المؤثر يشير قوله تعالى حكاية لقول الشيطان: ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (النساء: 118 ـ 119)

فالشيطان في هاتين الآيتين يتوعد بتغيير الفطرة الأصلية التي فطر عليها البشر، والتي تشمل كل شيء حتى ما يتعلق منها بالجانب الخلقي.

وإلى هذا المؤثر ـ أيضا ـ يشير قوله ﷺ في الحديث القدسي: (قال الله عزّ وجلّ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم)[2]

وليس من المؤثرات الخارجية ـ كما قد يتوهم ـ أن الله تعالى يملي عليه الشر، ويزينه له، فذلك محال على الله تعالى.. أما النصوص التي قد توهم ذلك، فسنتحدث عنها في محلها من الفصل المتعلق بعدالة الهداية.

وقد تحدث العلماء هنا على الجمع بين قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (التغابن:2) وبين خلق الإنسان على الفطرة الأصلية، وكأن هناك تناقضا بين الأمرين.

ونرى أن الجمع بينهما لا يحتاج إلى كل ذلك التكلف، فالآية الكريمة لا تخبر عن كون الفطرة الأصلية للكافر فطرة كافرة بدليل النصوص السابقة، وإنما تخبر عن المواقف التي يتخذها الإنسان ليختار على أساسها طريق الكفر أو طريق الإيمان.

ومثل هذا ما ورد في الحديث الشريف من قوله ﷺ:(كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)[3]، فهذه الأحوال التي يختلف بموجبها الغادون إنما هي نتيجة لسلوكاتهم لا لأمر فرض عليهم.

* * *

بل إن الله تعالى ــ رحمة بعباده، وتغليبا لأوصاف الرحمة السابقة لأوصاف الغضب ــ أودع في فطرهم الأصلية توحيده ومعرفته، بل نبههم إلى المؤثرات التي يمكن أن تبعدهم عن

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه الطبراني في الكبير.
3) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

فطرتهم الأصلية، وإلى ذلك كله الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:172) والعذر الثاني الذي نبهوا إليه هو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (لأعراف:173)

وقد وردت النصوص الكثيرة الشارحة للمراد بهذا الميثاق الذي تحمله الفطر الأصلية، ومنها قوله ﷺ:(إن اللّه أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾، قالوا: ﴿ بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾)(1)

وهذا النص يدل على أن تتمة الميثاق ـ تشتمل زيادة على حقائق التوحيد ــ تنبيههم إلى العقبات التي تعترض سبيل الفطرة الأصلية.

فهاتان الآيتان الكريمتان والنصوص المفسرة لها تشير إلى الحقائق الأساسية المودعة في الفطرة الأصلية، والتي هي التربة الطيبة التي ينبت من طيبتها كل الثمار الطيبة.

فالله تعالى أودع ـ كما نتص هاتان الآيتان الكريمتان ـ معرفته في فطرة الإنسان، فلذلك كانت معرفة الله معرفة عقلية، فيمكن أن يعرف الإنسان المجرد من الأهواء والآثار الخارجية الله تعالى ويستدل على توحيده، بل على الكثير من صفات كماله من دون حاجة إلى الوحي في كل ذلك فالوحي السابق يغني عن الوحي اللاحق في هذا المجال.

ولذلك أخبر القرآن الكريم عن أن الفطرة الأصلية للمشركين تنطوي عل حقائق الإيمان التي لم يطمع الشيطان في إزالتها، فاكتفى بتحريفها، كما قال تعالى مخبرا عن المعارف الإيمانية للمشركين: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت: 61)، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان:25)

بل إن الله تعالى يخبر عن معرفتهم ببعض أوصاف كمال الله

1) رواه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم في المستدرك.

وأسمائه الحسنى، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف:9)

ولذلك ينطلق القرآن الكريم من هذه المعارف الأصلية التي هي بقايا من فطرهم الأصلية ليصلح ما أفسدته المؤثرات الخارجية، وبذلك يعتمد الوحي اللاحق على الوحي السابق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر:38)

وبذلك أمكن أن يحاسب الإنسان على ما أودع في فطرته الأصلية من معارف الإيمان، كما ورد في الحديث الصحيح من قوله ﷺ:(يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال، فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي)(1)

ومراعاة لهذه الفطرة الأصلية المؤمنة نهى النبي ﷺ عن قتل الذرية في الحروب، فقد ورد في الحديث عن الأسود بن سريع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال:(ما بال أقوام يتناولون الذرية؟)، فقال رجل:(يا رسول الله ألبسوا أبناء المشركين؟)، فقال: (إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها)(2)

بل ورد في رواية أخرى من روايات حديث المولود:(ما من مولود إلا يولد على هذه الملة)(3)، وفي ذلك دليل صريح على نوع المعرفة التي يحملها الذرية.

قد يقال هنا: فلماذا قتل الخضر عليه السلام ذلك الغلام بتلك الحجة التي ذكرها، وهي قوله: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ (الكهف:80)،ـ ويؤيد هذا ما ورد في الروايات من كونه كان صبيا صغيرا؟

والرد عل هذا أنه لم يرد في القرآن الكريم ولا في الأحاديث

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه أحمد والنسائي.
3) رواه أحمد.

الصحيحة أنه لم يكن مميزا حال قتله، بل قد ورد ما يـدل على أنـه كان كافرا في الحال.

أمـا تسـميته غلامـا، فلا تمنـع من كونـه مكلفـا قـريب العهـد بالصبى، ولهذا لم ينكر عليه موسى ﷺ قتله بسبب صـغره، وإنمـا أنكر عليه قتله لكونه زاكيا طاهرا لم يستوجب القتل.

2 ـ مؤهلات التكليف:

كما يقتضي التكليـف الـذي هـو نـوع من أنـواع الاختبـار أن لا يكون الإنسان مشحونا في أصل الخلقة بما يعوقـه من تحقيـق مـا أنيط به من التكاليف، وذلك بأن يولـد على الفطـرة الأصـلية، فإنـه يقتضي كذلك أن يكون المكلـف مـؤهلا لأداء ذلـك التكليـف، وذلـك بتوفير كـل مـا يحتاجـه من طاقـات ومعـارف من جهـة، وبتفريغـه للاختبار من جهة أخرى.

طاقات التكليف:

أما الشق الأول، فيشير إليه قوله تعالى بعد ذكره إرادتـه في جعـل الإنسـان خليفـة على الأرض، فقـد قـال بعـدها: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة:31)

وفي هـذه الآيـة الكريمـة نستشـف الكثـير من الحقـائق المرتبطة بمؤهلات التكليف، ومنها أن اللـه تعـالى ــ جعـل آدم ﷺ خليفة ـ ووفر له من العلم ما يستطيع أن يؤدي به مهمة الخلافة.

وقد عبر الله تعالى عن هذا العلم الذي أوتيه الإنسان في بدء الخلق بأنه علم الأسماء كلها، وقد وردت الأقوال الكثيرة في معنى الأسـماء كلهـا الـتي تعلمهـا آدم ﷺ، ثم تمـيز بهـا بعـد ذلـك على الملائكة.

وبما أن المسألة تكاد تكون معروضة للاجتهاد، فليس فيها من النصوص الصريحة ما يحيلها مسألة توقيفية، فإنـا نـرى واللـه أعلم أن آدم ﷺ علم من الأسماء ما تقتضيه خلافتـه على الأرض، وهـذا يشمل نوعين من الأسماء:

الأسماء المتعلقة بالمستخلف فيه: وهو كل مـا يتعلـق بحياتـه على الأرض من معـارف أساسـية، ومن لغـة يسـتطيع بواسطتها بناء علاقاته وإنماء معارفه.

وإلى هـذا النـوع الإشـارة بالروايـات الـواردة عن ابن عبـاس وغيره من أنه:(علمه أسماء جميع الأشياء كلهـا جليلهـا وحقيرهـا)،

وقال ابن عباس :(علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب) (1)

وهذه الروايات وغيرها تدل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله تعالى علمها آدم ﷺ جملة وتفصيلا، ولم يرد في النصوص ما يحدد هذه اللغة التي علمها آدم ﷺ، لعدم الحاجة إلى ذلك.

وروي من جهة أخرى ما يدل على أن آدم ﷺ عرف بخصائص الأشياء التي يتعامل معها ومنافعها ومضارها، وفي هذا روي عن بعضهم قوله: علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة، وسمي كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه. قال النحاس: وهذا أحسن ما روي في هذا.

وهذا يدل ـ كذلك ـ على ان المعارف الأساسية للإنسان في جميع المجالات معارف توقيفية لا اجتهادية.

الأسماء المتعلقة بالمستخلف عليه: وهو أيضا من المعارف الأساسية التي يحتاج إليها في أداء وظيفة الخلافة، لأنه ـ كما ذكرنا ـ في مناسبات مختلفة ـ بأن جميع الكون، دقيقه وجليله يستند إلى أسماء الله التي تمده بمعاني الوجود التي هو عليها.

ويدل على هذا أن القرآن الكريم لم يذكر كلمة (الأسماء) معرفة إلا وأراد بها الأسماء الحسنى، كما قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (لأعراف:180)، وقال تعالى:﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الاسراء:110)، وقال تعالى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (طه:8)، وقال تعالى:﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر:24)

أما الأسماء الورادة نكرة، فلها بعض الدلالة، لأنها وردت في التسميات الخاطئة للأوثان التي عبدت من دون الله، وكأن أسماء الله بذلك أعيرت ـ من باب الشرك ـ لتلك الأوثان، قال تعالى عن يوسف ﷺ:﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف: 40)، وقال تعالى:﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (لنجم: 23)

1) انظر في هذه الروايات: الدر المنثور:1/120.

ويدل على هذا أيضا ـ من باب الرواية ـ ما ورد من أنه عـرض على الملائكة ـ عليهم السلام ـ الأسماء لا المسميات، كما قـال ابن عباس وغيره:(عرض الأسماء) وفي قراءة ابن مسعود التفسـيرية: (عرضهن)، فأعاد على الأسماء دون الأشخاص، لأن الهـاء والنـون أخص بالمؤنث. وفي قراءة أبي:(عرضها)

وهذه الروايات تتكامل مع الروايـات الأخـرى الدالـة على أنـه عرض على الملائكة ــ عليهم السـلام ــ الأشـياء ليسـميها الملائكـة بأسمائها، كما قال ابن مسعود وغيره:(عـرض الأشـخاص)، ويـدل عليه قوله تعالى:(عرضهم)، وقوله:(أنبئوني بأسماء هؤلاء)

فدل كلا القولين على أن آدم عليه السلام تعلم أمورا حسـية عرضـت على الملائكة بأعيانها، وتعلم أمورا معنوية لهـا علاقـة بأسـماء اللـه كما ذكرنا، وبذلك يجتمع كلا القولين، والله أعلم.

وقد يقال هنـا: فكيـف جهـل الملائكـة ــ عليهم السـلام ــ مـع قربهم من الله تعالى هذه الأسماء؟

والجواب على ذلك يرجع إلى ما ذكرنـا سـابقا من أن أسـماء الله التي لا يحصرها الحاصر، والتي لها تعلق بكل الأشياء لا يعـرف كل شيء منها إلا ما له علاقة به.

فالملائكـة ــ عليهم السـلام ــ مفطـورون على الطاعـة، وتستحيل في حقهم المعصية، فلذلك قد لا يدركون من أسماء الله التي يعرفونها ما يتعلق بالمغفرة والتوبة، فذلك لمـا عرضـت هـذه السماء أخبروا عن جهلهم بها وردوا العلم فيها إلى الله.

ولعلـه لأجـل هـذا أسـرع آدم عليه السلام بالتوبـة بمجـرد اقـتراف المعصية لما علمه من أسماء الله المقتضية لذلك.

* * *

قد يقال هنا: إن كل ما ذكر من مـؤهلات التكليـف يخص آدم عليه السلام، فكيف يكون العدل في تكليف البشرية جميعا بمؤهلات وهبت لفرد منها؟

والجواب عن هـذا أنـه مـع أن المعـارف الـتي تلقاهـا آدم عليه السلام ورثها لذريته، إلا أن رحمة الله تعالى لم تكتف بهـذا التـوريث الـذي قد يدخل فيه من التحريف ما ينحرف به مسار الإنسان، بـل زودت الإنسان بمعلمين دائمين للأسماء والحقائق، ولهذا قـال تعـالى لآدم عليه السلام بعد نزولـه إلى الأرض: اهْبِطُـوا مِنْهَـا جَمِيعـاً فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: 38)

ولذلك أخبر الله تعالى أنه لَم يخل القرى من الأنبياء والرسل

المقـومين لأقـوامهم والمعـرفين بـالفطرة الأصـلية، والمعلمين للأسماء، والهادين إلى الإجابات الصحيحة على اختبـارات التكليـف، قال تعـالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:24)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:36)

فهاتان الآيتـان الكريمتـان تـدلاَّن على أن كـل الأمم السـابقة أرسل اللـه لهـا من ينـذرها، ويعرفهـا بوظيفتهـا، وبمقتضـيات هـذه الوظيفة، ولذلك نبه من قد يتصـور أن الأنبيـاء مقصـورون على مـا ورد ذكرهم في القـرآن الكـريم إلى وجـود غـيرهم، فقـال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: 78)

ولـذلك من الأخطـاء الشـائعة اعتقـاد النبـوة خاصـة بمنـاطق معينة كالشام والحجـاز ونحوهـا، بـل على سـلالات معينـة كسـلالة إبراهيم عليه السلام، بل إن النبـوة تشـمل الأرض جميعـا، ولكن القـرى لم تلق بـالا لهـؤلاء الأنبيـاء، فلـذلك نسـوا، وأهمـل ذكـرهم،أو حـرفت تعاليمهم (1).

ولذلك كان من عدل اللـه ورحمتـه بخلقـه أن لا يحاسـبهم إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿ ذَلِـكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـافِلُونَ﴾ (الأنعـام:131) أي إنمـا أعـذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنـزال الكتب لئلا يؤاخـذ أحـد بظلمـه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عـذبنا أحـد إلا بعـد إرسال الرسل إليهم.

ولهذا تستفهم الملائكة ـ عليهم السلام ـ المعذبين عن إرسال الرسل إليهم بمجرد إلقائهم في العـذاب، كمـا قـال تعـالى: ﴿ كُلَّمَـا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَـذِيرٌ

---

1) للأسف، فإن المؤرخين المسـلمين ــ ابتـداء من الطـبري وغـيره ــ تـأثروا بالتـاريخ الإسرائيلي، فراحوا ينقلونه حرفيا معتبرين أنه حقائق ثابتة، وقد نقله عنهم كثير من كتاب قصص الأنبياء.

والناظر في هذا التاريخ يكاد يحصر الخير والنبوة في محـل معين من العـالم.. وأن مـا عداه كأنه لا علاقة له باللّه، ولا بالتكاليف.

وقد ورد في الحديث عن أبي ذر قال: قلت: يا رسـول اللـه، كم الأنبيـاء؟ قـال: (مائـة ألف وأربعة وعشرون ألفًا). قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: (ثلاثمائـة وثلاثـة عشر جَمّ غَفِير) قلت: يا رسول الله، من كـان أولهم؟ قـال: (آدم) قلت: يـا رسـول اللـه، نبي مرسل؟ قال: (نعم، خلقـه اللـه بيـده، ونفخ فيـه من روحـه، ثم سَـوَّاه قِبَلا) رواه ابن مردويه وغيره.

فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (الملك:8 ـ 9)، وقال تعالى: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (الزمر:71)، وقال تعالى: وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (فاطر:37)

وقد بين الله تعالى سنته في ذلك ـ والتي لا تبديل لها ـ فقال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (الاسراء: 15)

جو التكليف:

أما الشق الثاني، وهو تفريغه للاختبار بتيسير حياته على الأرض، بحيث لا يستهلك وقته في رعاية جسده وحفظ وجوده، فيشير إليه قوله تعالى عقب الآية المخبرة عن غاية الخلق: مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (الذريات:57)، ثم تعقيبها بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذريات:58)

ففي ذلك كله إشارة إلى تفريغ الإنسان إلى ما طلب منه من مزاولة الخلافة، وأداء ما أمر به من عبادة، قال النورسي في بيان هذا المعنى:(الإنسان مغرم بالرزق كثيراً، ويتوهم أن السعي إلى الرزق يمنعه عن العبودية، فلأجل دفع هذا التوهم، ولكي لا يُتخذ ذريعة لترك العبادة تقول الآية الكريمة: وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ اِلاَّ لِيَعْبُدون ، وتحصر الغاية من الخلق في العبودية لله، وأن السعي الى الرزق - من حيث الامر الإلهي - عبودية لله ايضاً.

أما إحضار الرزق لمخلوقاتي ولأنفسكم وإهليكم وحتى رزق حيواناتكم فأنا الكفيل به، فأنتم لم تخلقوا له، فكل ما يخص الرزق والاطعام يخصني أنا وأنا الرزاق ذو القوة المتين.. فلا تحتجوا بهذا فتتركوا العبادة، فانا الذي ارسل رزق مَن يتعلق بكم من عبادي)(1)

وهذا المعنى الجميل الذي أشار إليه النورسي هو الذي يدل عليه ذكر هذا الاسم هنا، يقول النورسي:(ولو لم يكن هذا المعنى هو المراد، لكان من قبيل اعلام المعلوم، لأن رزق الله سبحانه وتعالى واطعامه محال بديهي ومعلوم واضح، وهناك

1) النورسي، اللمعة الثامنة عشر.

قاعدة مقررة في علم البلاغة تفيد: إن كـان معـنى الكلام معلومـاً وبديهياً، فلا يكون هذا الـمعنى مراداً، بل الــمراد لازمـهُ او تـابع من توابعه)

ومن هذا الباب فإن في ذكر اسمي (ذو القوة المتين) اللذين يشتركان في الدلالة على القوة(1) تنبيها إلى جانب آخر قـد يشـغل الإنسان عن وظيفته التي ندب لها، وهو الجانب الأمني، فلذلك نبهه الله تعالى أنه محمي بقوة الله ومتانته، فلا يضره شيء إلا بإذنه.

وقد ورد في القرآن الكريم الكثـير من النصـوص الدالـة على تيسير الحياة على الأرض وتوفـير مـا يحتاجـه الإنسـان من مرافـق ليتفرغ للتكليف.

وهذا سر من أسـرار تسـخير الأشـياء للإنسـان ليتنـاول منهـا باسم الله ما يحتاجه وجوده على هذه الأرض، وليكـون اختبـارا من جهة أخرى، ولذلك يعرض القرآن الكريم أنواع المسـخرات لتشـير إلى مدى التفرغ الذي أوتيه الإنسان لمزاول التكليف:

ومن المسخرات المذكورة في القـرآن الكـريم تمهيـد الأرض وتيسير الحياة عليها حتى صارت كالدابة الذلول، كما قال تعـالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُـوا مِنْ رِزْقِـهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (الملك:15)

ومنها تسخير الوسط والأجواء التي يعيش فيهـا الإنسـان كمـا قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ دَائِبَيْنِ وَسَـخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ (ابـراهيم:33)، وقـال تعـالى: وَسَـخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُونَ (النحل:12)، وقال تعـالى: أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ سَـخَّرَ لَكُمْ مَـا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِـأَمْرِهِ وَيُمْسِـكُ السَّـمَاءَ أَنْ تَقَـعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (الحج:65)

ومنها تسخير جميع الكائنات الحية التي على الأرض للإنسـان، كما قال تعالى: لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُـهُ التَّقْـوَى مِنْكُمْ كَـذَلِكَ سَـخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَـا هَـدَاكُمْ وَبَشِّـرِ الْمُحْسِنِينَ (الحج:37)، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُـونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَـوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل:14)

بل إن القـرآن الكـريم يخبرنـا عن تسـخير مـا في السـموات

---

1) فذو القوة يدل على القدرة التامة، والمتين يدل على شدة القوة، والله تعـالى من حيث إنه بالغ القدرة تامها قوي، ومن حيث إنه شديدة القوة متين.

كتسخيره ما في الأرض للإنسان، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (لقمان:20)، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:13)

ومن خلال ما ورد في النصوص، فإن الغرض من هذا التسخير ليس هو تفريغ الإنسان لعبودية الله فقط، بل هناك غرض آخر يرتبط بالتكليف، وهو اختبار سلوك الإنسان مع هذه المسخرات، هل يتعامل معها باسم الله، أم باسمه هو، وهل ينسبها إلى الله أم ينسبها إلى نفسه، ولذلك عقب تعالى على تسخير الحيوانات المركوبة بقوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (الزخرف:13)

وقد ورد في النصوص ما يدل على أن المقصد من تفريغ الإنسان عبادته لله، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ (الشرح:7)، أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمل:8)، أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته.

وقد ورد في الحديث القدسي:(يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك)(1)

وإلى هذا المعنى أشار الأثر الإلهي المشهور:(ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)

ولذلك يشير العارفون إلى هذا المعنى في تربية السالكين حتى لا ينشغلوا بما ضمن لهم عما طلب منهم، كما قال ابن عطاء الله معبرا عن ذلك:(اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ، وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ، دليلٌ على انْطماسِ البصيرةِ منْكَ)

3 ـ اختبارات التكليف:

1) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

قد يقال: كيف يكـون العـدل في التكليـف والبشـر يتعرضـون لاختبارات مختلفة متناقضة؟

فهذا يختبر بـالفقر وهـذا يختـبر بـالغنى، وهـذا يبتلى بالصـحة، وهذا يبتلى بالمرض.

وهذا يعيش في الصحارى القاحلة أو في الأراضي المتجمـدة، والآخر يعيش في السهول اليانعة، والجنان الوارفة.

وهذا يعمر إلى أن تمل الأيام مرآه، والآخر يختطـف، فلا يكـاد تبصره الحياة، ولا يكاد يبصرها.

وهذا يقبل عليه الخلق، بل يتفانون فيه، وهذا يعرضـون عنـه، بل يسارعون في أذاه.

ألا تحمل هذه الاختبارات المتناقضة علامات الجور والظلم؟

فكيف يستوي في الامتحان كل هؤلاء وحياتهم لم تستو؟

والجواب عن هذا له تفاصيله الخاصة في الفصل الثالث الذي نتعرف فيه على سر الحكم الإلهية في الأقدار المختلفة والـتي قـد تبدو متناقضة.

أما الجواب المرتبط بسر العدل، فنقول فيه بأن ما نراه ممـا نتوهمه تناقضا هو في الحقيقـة منتهى العدالـة والحكمـة والرحمـة الإلهية.

ولتقريب هذا المعنى نحاول أن نخرج لرؤيـة المباريـات الـتي تقام للرياضات المختلفة، فتلك المباريات هي عبارة عن امتحانـات لكفاءات القوى الجسدية.

فهل يعقل أن يكلف في تلـك المباريـات العـداء الـذي يبـاري الضباء في عدوه بملاكمة بطـل العـالم في الملاكمـة، بـل من هـو دونه بكثير؟

وهل من العدل أن يكلف السباح الماهر بمسـايفة من تمـرن على المسايفة حتى صارت رياضته التي اختص فيها؟

لا يعقل هذا كما لا يعقـل أن يختـبر الطـبيب في الهندسـة، أو يختبر المهندس في التشريح.

ومثل هذا يقال في كل اختبارات الدنيا، فيستحيل أن يتساوى الخلق جميعا في اختبار واحد لتعدد مواهبهم وطاقاتهم.

وهكـذا يقـال في اختبـارات اللـه تعـالى لخلقـه، فطاقـاتهم مختلفة ومواهبهم مختلفة، فلذلك يعامل كل شخص بحسب حاله.

وهذه المعاملة ترجع كمـا ذكرنـا في الفصـل الأول إلى خـبرة اللـه بخلقـه، كمـا قـال تعـالى عنـد ذكـر التنـوع في بسـط الـرزق

وقبضه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (الشورى:27) أي لو أعطاهم فوق حاجتهم التي تختلف باختلاف طبائعهم وأحوالهم لحملهم ذلك على البغي والطغيان.

والشاهد هنا هو ختمه الآية بإرجاع علة ذلك إلى خبرة الله وبصره بخلقه، كما ورد في الحديث القدسي:(إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر)(1)

ويدل على هذا ما ورد في الحديث من اختبار الله لثلاثة نفر في بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى، ليخرجوا ما يخفيه جوهرهم من صفات، فبعث ملكا فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب هذا عني، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، فقال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال، يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، فقال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والدا.

وبعد مدة أنتجت تلك الأنعام التي اختبروا بها، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من غنم.

وعندما اكتملت لهم النعمة عاد الملك ليختبرهم من جديد، فأتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين، تقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا؛ فأعطاك الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

---

1) رواه الخطيب.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له: مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال له: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته، فقال رجل مسكين، وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك(1).

فهذا الحديث يدل على أسرار تنوع البلاء سواء للشخص الواحد أو للمجتمع ككل، ولهذا يوجد في كل مجتمع من المجتمعات، بل في حياة كل شخص الاختبارات المختلفة المتناقضة التي قد يتصورها عشوائية بينما هي تسيير من الله ليظهر الإنسان ما يخفيه جوهره من صفات.

زيادة على هذا، فإن الله تعالى يختبر عباده بعضهم ببعض، فيختبر القوي بضعف الضعيف ليرى هل يعينه أم يتسلط عليه، ويختبر الغني بالفقير، هل ينفق عليه أم يستسخره، ويختبر الصحيح بالمريض هل تطغيه نعمة الصحة أم تجعله متواضعا لربه.

وإلى هذا الإشارة بالآيات القرآنية التي تذكر سر اختلاف البشر في المتاع الدنيوي كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:165)

فقد ربطت الآية الكريمة بين التكليف الذي هو الخلافة في الأرض والاختبار باختلاف الدرجات الذي يعني التفاوت في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وكأنه يشير بذلك إلى ان الخلافة تقتضي هذا التفاوت.

وتشير إلى ذلك آية أخرى تبين أثر هذا التفاوت في العلاقات بين البشر والتي يتمحض عنها جوهر الإنسان وحقيقته التي تؤهله للثواب او العقاب، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: 32)

أي أن العلة في ذلك التفاوت هي أن يسخّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج بعضهم لبعض.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

وفي نفس الوقت، فإن الله تعالى بحكمته جعل هذه الدار مثالا مصغرا عن الدار الآخرة، فلذلك ينبه القرآن الكريم الضمائر إلى أن هذا التفاوت المحدود سيعقبه في الآخرة تفاوت لا محدود، فلذلك يقترن ذكر المتاع الدنيوي بالمتاع الأخروي، كما قال تعالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء: 21)

وقال تعالى بعد ذكر المتاع الدنيوي الذي يحرص على جمعه المترفون: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:15)، وقال تعالى:﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:32)

وأعطى مثالا لهذا التفاوت المحدود في الدنيا بالمقارنة مع ما ينتظر الإنسان في الآخرة من نعيم أو عقاب، كما قال تعالى:﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:20)

ثم إن الله تعالى بعد كل هذا أخبر أنه لا يختبر الإنسان إلا في حدود ما آتاه من أشياء، كما قال تعالى:﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (المائدة: 48)، وقال في الآية السابقة جامعا بين الخلافة والبلاء: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:165)

ولهذا تقترن العبادات بالاستطاعة، بل إن الله تعالى برحمته نوع التكاليف لينال كل امرئ ما يتناسب مع وضعه وطبيعته وحاله، فلا يميز الإنسان إلا بحسب عمله.

بل إن الله تعالى عوض من لا يستطيع عملا من الأعمال بأعمال أخرى يمكنه من خلالها أن يتدارك ما فاته، ومما يقرب هذا المعنى ما روي في الحديث أن ناسا من الفقراء قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور(1) بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صدقة،

1)الدثور بالثاء المثلثة: الأموال، واحدها: دثر.

وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة(1).. فالنبي ﷺ في هذا الحديث أرشد الفقراء إلى ما يكنهم فعلهم ليعوضهم عن الصدقات التي لا يملكون إخراجا.

ومما يقربه كذلك قوله ﷺ:(من صلى الصبح في مسجد جماعة، ثم مكث حتى يسبح سبحة الضحى، كان له كأجر حاج، ومعتمر تام له حجته وعمرته)(2)، ففي هذا الحديث أرشد رسول الله ﷺ من لا يستطيع الحج بشيء سهل يمكنه أن ينال من خلاله ثواب الحج.

بل إن الله تعالى برحمته يكتب للإنسان نية الخير التي ينويها، وإن لم يفعلها في الواقع، وقد ورد في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول:(الحسنة بعشر والسيئة بواحده أو اغفرها ومن لقيني بقراب الارض خطيئه لا يشرك بى لقيته بقراب الارض مغفرة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شئ ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا) (3)

بل إن الرسول ﷺ في تقسيمه لأصناف الناس اعتبر هذه الناحية، فقال:(مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما، فهو يعمل بعلمه في ماله، ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا، وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ولا مالا وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، فهما في الوزر سواء) (4)

ولهذا ورد في الحديث اعتبار النية من أهم أصول الجزاء، قال رسول الله ﷺ:(يا أيها الناس إنما الاعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) (5)

وبذلك.. فإن أي شخص حتى ولو كان مقعدا يمكنه أن ينال من الفضل والجزاء ما ينال أي عامل مهما أوتي من قوة،

---

1) رواه مسلم.
2) رواه الطبراني في الكبير وغيره.
3) رواه الطبراني في الكبير وغيره.
4) رواه أحمد وهناد وابن ماجة والبيهقي والطبراني في الكبير.
5) رواه البخاري ومسلم.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات:(لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرًا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه)

فتعجبوا، وقالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟

فقال رسول الله ﷺ مبينا أن السير إلى الله قد لا يحتاج أي جارحة من الحوارح:(حبسهم العذر)(1)

وقد قال الشاعر معبرا عن هذا المعنى الجليل:

يـــا راحلين إلى البَيت سِـرْتُم جُسُـوما وسِـرْنا
إنَّا أقَمنا على عُـذْرٍ وعَنْ ومَنْ أقامَ على عذْرٍ فقد

* * *

قد يقال بعد هذا: فلماذا اختلفت الشرائع التي هي الإجابات الصحيحة على اختبارات الله تعالى، فكان في الشرائع ما يميل إلى التشديد، ومنها ما يتطلع إلى رفع الحرج، بل يجعل ذلك قاعدته العامة؟

أليس البشر كلهم عبيدا لرب واحد، ويقعون تحت اختبار واحد؟

فلماذا تختلف الإجابات؟

ولماذا يفضل بعضهم على بعض؟

والإجابة على هذا كالإجابة على ما سبق، فالله تعالى العالم بأحوال عباده وما يختزنه خلقهم من مواصفات هو الذي شرع لهم ما يتناسب مع تلك الأحوال.

وكمثال بسيط يقرب هذا المعنى أن موسى عليه السلام أمر قومه بأمر واضح بسيط هو أن يذبحوا بقرة، كما قال تعالى على لسانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة: 67) وقد جاء بها منكرة لتدخل أي بقرة في هذا الأمر كما روي عن بعضهم قوله:(لو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال:(واللّه لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً)(2)

وكان أول جواب لهم ينم عن سوء أدبهم أن قالوا:﴿ أَتَتَّخِذُنَا

1) رواه أبو داود وغيره.

2) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

هُـزُواً ، فـرد عليهم عليه السلام: أَعُـوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْجَـاهِلِينَ (البقرة: 67)

فعـادوا إلى جـدالهم ليقولـوا: ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَـا مَـا هِيَ (البقرة: 68)

فقال موسى عليه السلام: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَـوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (البقرة: 68)

فلم يكفهم هذا، بل عـادوا ليسـألوا: ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَـا مَـا لَوْنُهَا (البقرة: 69)

فقال موسى عليه السلام: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُـرُّ النَّاظِرِينَ (البقرة: 69)

فلم يكفهم هذا، فالأمر في تصورهم لا زال مشتبها يحتاج إلى تفصيل وتوضيح، فقالوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (البقرة: 70)

فقال موسى عليه السلام: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُـولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا (البقرة: 71)

وبعد هذا التردد الطويـل، وتكليـف موسـى عليه السلام أن يرجـع إلى ربه من أجل الاستفسار عن بقرة، قـالوا بسـوء أدبهم: الْآنَ جِئْتَ بِـالْحَقِّ (البقـرة: 71) وكـأنهم كـانوا يعرفـون البقـرة من قبـل، واكتفى القرآن الكريم بـأن عقب عليهم بقولـه تعـالى: فَـذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (البقرة: 71)

فمثل هذا النموذج الذي يكاد يملي اختياره على اللـه كيـف لا يشدد عليه، بل إنهم هم الذين شددوا على أنفسهم، والله الـرحمن الـرحيم تعامـل معهم كتعاملـه مـع الخلـق جميعـا برحمتـه التامـة الشاملة.

ومن الأمثلة على هذا مما يتعلق بشريعة بني إسـرائيل أن مـا طبعــوا عليهم من عصــيان وتمــرد اقتضــى أن تكــون شــريعتهم متناسبة مع هذه الطبيعة حتى أنهم بمجرد مجاوزتهم البحـر طلبـوا أن يجعل لهم موسى عليه السلام شريكا مع الله، كما قال تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَـا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (لأعراف: 138)

ولذلك فإنهم لم يقبلـوا شـريعة اللـه إلا بعـد أن رفـع فـوقهم الطور، كما قال تعالى: وَرَفَعْنَـا فَـوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَـاقِهِمْ وَقُلْنَـا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً

غَلِيظاً (النساء: 154)، وقال تعالى: وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (لأعراف:171)

وكان سر هذه المعاصي أن طبيعتهم المتأبية كانت تأبى الخضوع لغير هواها، ولذلك قالوا لموسى ﷺ في قصة البقرة بعد الأخذ والرد: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ (البقرة: 71)، وكأنهم هم الذين يحددون الحق، أو كأنهم هم الذين يحددون لله ما يأمرهم به.

وهذا ما فعلوه مع رسول الله ﷺ حين أبوا على الله أن يغير القبلة، فسماهم الله لذلك سفهاء، فقال تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (البقرة: 142)، ثم رد عليهم بقوله تعالى: قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (البقرة: 142)

انطلاقا من هذا أخبر الله تعالى أن هذه الطبيعة القاسية المتأبية هي السر فيما لحق شريعتهم من التشديد، كما قال تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (النساء: 160ـ 161)، أي بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله وغير ذلك من الآثام شدد عليهم فحرمت عليهم الطيبات كان أصلها حلالا.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض النماذج عن هذه الطيبات المحرمة، كما قال تعالى: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (الأنعام:146)

فعلة هذا التحريم كما نصت الآية الكريمة هو أنه جزاء يتناسب مع بغيهم وعدوانهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (النحل:118)

والقرآن الكريم ينص على أن هذه المحرمات كان أصلها حلالا لبني إسرائيل لولا أن تدخلوا بأهوائهم أو ألحوا في السؤال فحرم عليهم ما أحل لهم، كما قال تعالى: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (آل عمران:93)

هذا نموذج عن أثر الطبيعة في نوع الأحكام والشرائع..

وهو أمر غـير مسـتغرب عقلا ولا واقعـا، فـالقوانين المنظمـة لحياة المساجين ليست نفس القوانين المنظمة لحياة الطلبـة، لأن طبيعة كل واحد تحتم أن يوضع لها قانون خاص يتناسب معها.

ومن رحمة الله أن الشـريعة الخاتمـة، والـتي لم تكن معلقـة بطائفة معينة أو زمن معين كـان من خصائصـها رفـع الإصـر الـذي وجد في الشرائع السابقة، كما قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ (الأعـراف: 157)

ولذلك عبر عنها بأنها شريعة الفطرة، أي تتناسب مع الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالمؤثرات الخاجية، كما قال تعـالى: فَـأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ (الـروم:30) بخلاف شـريعة بـني إسـرائيل الـتي شَـرعت لفطـرة انتكسـت وانحرفت عن مسارها.

ولهذا عندما عرض على رسول اللـه ﷺ ليلـة الإسـراء الخمـر واللبن، فتناول رسول اللّه ﷺ اللبن، فقال له جبريـل عليه السلام:(أصـبت الفطرة) (1)فاللبن باق على أصل خلقته، بخلاف الخمر الذي تحول بالتخمر عن طبيعته.

ولهذا كان ﷺ حريصا على ألا تشـدد هـذه الأمـة على نفسـها، فيشدد الله عليها، ولهذا نهى عن الوصال، وهو أن يصل يومـاً بيـوم آخر ولا يأكل بينهما شيئاً، وعنـدما تشـددوا، ولم ينتهـو عن الوصـال واصـل بهم النـبي ﷺ يـومين وليلـتين رعايـة لمـا اشـتدوا بـه على أنفسهم، ثم رأوا الهلال فقال:(لـو تـأخر الهلال لـزدتكم) كالمنكـل لهم (2).

وقـريب من هـذا مـا روي أن رسـول اللّـه ﷺ، خطب فقـال: (أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا)، فقال رجل: أكـل عـام يا رسول اللّه؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسـول اللّـه ﷺ: (لـو قلت نعم لوجبت، ولمـا اسـتطعتم)، ثم قـال: (ذروني مـا تـركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سـؤالهم واختلافهم على أنبيـائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه مـا اسـتطعتم، وإذا نهيتكم عن شـيء

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فدعوه) (3)

3) رواه أحمد ومسلم.

ثانيا ـ عدالة الهداية

قد يقال بعد هذا: نعم إن العدالة قد بلغت قمتها في تكليف الخلق، وفي وضعهم جميعا تحت المحك لتختبر جواهرهم، ولكن القلب الذي هو محور التكاليف، وعلى صفحاته تتم الإجابة، ليس بيد صاحبه، بل هو بيد الله يقلبه كيف يشاء، فكيف تستقيم العدالة مع هذا؟

ألم يقل الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: 272) وقال له: ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (النحل:37)، وقال له: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:56)

بل إن الله تعالى خص المؤمنين بالهداية، وحرم غيرهم، فقال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 213)

وأخبر عن سنته في ذلك، فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (الحج:16)، وقال: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النور: 46)

وبعد ذلك كله اعتبر أنه يستحيل على شخص أن يهتدي إن لم يفتح الله له أبواب الهداية، فقال تعالى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (الروم:29)

ولهذا كان النبي ﷺ وهو أعرف الخلق بالله يكثر أن يقول: (يا مُقَلِّب القلوب، ثبت قلبي على دينك)، فقال له أصحابه: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: (نعم، إن القلوب بين إصبعين(1) من أصابع الله تعالى يقلبها) (2)

---

1) طبعا.. هذا جار على أسلوب العرب في تعبيرها، فالله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

2) رواه الترمذي وقال: حسن.

وعن بلال أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول: (يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك)(1)

والجواب عن هذا يقتضي دراسة النصوص التي استنبطت منها هذه الأحكام، ومقارنتها بكل ما ورد في سائر النصوص، لنعرف حقيقة المراد منها.

وذلك ما يقتضيه المنهج العلمي حتى لا ننحجب بنص عن نص، وبفهم عن فهم.. فكلام الله المحكم يهدي بعضه إلى بعضه، ويعرف بعضه ببعض، ويستحيل على من قصر فهمه على البعض أن يحيط بالكل.

ولهذا، فسنتاول في هذا المبحث ما وفر الله لعباده من حجب الغفلة والتي هي من مقتضيات اسمه (المضل).. وما وفر لهم من أنوار الهداية، وهو من مقتضيات اسمه (الهادي)

1 ـ حجب الغفلة:

قد يقال بعد هذا كيف تكون العدالة والقرآن الكريم يخبر بأنواع كثيرة من السدود تمنع الضال من الهداية والكافر من الإيمان!؟

فكيف يحطم الضال أو العاصي حصون الختم والطبع والأكنة والغطاء والغلاف والحجاب والوقرة والغشاوه والران والغل والسد والقفل والصمم والبكم والعمي والصد والصرف والضلال والإغفال والمرض والخذلان والأركاس والتثبيط والتزيين التي يحدثنا القرآن الكريم أنها حواجز منيعة تحول بين الكافر والإيمان!؟

وكيف يحطم الضال ما ورد في القرآن الكريم من (عدم إرادة هداهم، وتطهيرهم وإماتة قلوبهم بعد خلق الحياة فيها فتبقى على الموت الأصلي، وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعل القلب قاسيا لا ينطبع فيه مثال الهدى وصورته، وجعل الصدر ضيفا حرجا لا يقبل الإيمان) (2)!؟

هذه الشبهات وغيرها، والتي قد تطرح بسبب النظرة القاصرة لمعاني القرآن الكريم دون محاولة الولوج إلى أعماقه مع الجمع بينها وبين غيرها من النصوص كانت سبب خلاف شديد في

---

1) قال ابن كثير: هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعا وهو -مع ذلك -على شرط أهل السنن ولم يخرجوه، ابن كثير:4/36.

2) شفاء العليل:92.. وقد ذكر أن هذه الأمور منها ما يرجع إلى القلب كالختم والطبع والقفل والأكنة والإغفال والمرض ونحوها، ومنها ما يرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى كالصمم والوقر، ومنها ما يرجع إلى طليعته ورائده كالعمى والغشا، ومنها ما يرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه كالبكم النطقي وهو نتيجة البكم القلبي فإذا بكم القلب بكم اللسان.

تفسيرها.

فالبعض ممن يغلب العـدل على التوحيـد حرفهـا عن معانيهـا وغيرها تغييرا كليا بحيث صار معناها ركيكا لا يليق بـالقرآن الكـريم بحجة تنزيه الله عن الظلم.

وآخرون فهموها بحروفها مقتصرين عليها غير محاولين الجمع بينها وبين غيرهـا من النصـوص، أو على الأقـل فهم السـياق الـذي وردت فيه، والطريقة التي طرحت بها.

ولذلك، فإن الحـديث عن عدالـة الهدايـة يقتضـي فهم معـني هــذه الســدود وعللهــا، وذلــك يقتضــي البحث عن موارادهــا في النصوص لتفهم من خلال السياق الذي وردت فيـه والسـبب الـذي دعت له.

وقبل العـروج في معـارج النصـوص نحب أن نقـرب الصـورة الواقعية لهذه السدود بمثال واقعي، وهو أن المجرم في أي قانون من قوانين الـدنيا يحاسـب ويعـاقب بحسـب جرائمـه، فقـد يكتفى بحجزه أياما معـدودة، قـد يتلقى فيهـا بعض التوجيهـات، ثم يطلـق لحال سبيله.

وقد تزيد جريمته، فيشتد عليه بحسبها، بل قد يحكم عليه بأن يقضي حياته محجوبا في السجن، أو يقضى عليه بالإعدام.

وهــذه المصــطلحات الحســية لهــذا العقــاب الحســي لتلــك الجرائم الحسية هو نفسه الذي استعاره القرآن الكـريم للعقوبـات المعنوية لجريمة المعصية لله.

وقد تقرب الصـورة أكـثر إذا عـدنا إلى مثـال الامتحـان الـذي ذكرناه سابقا، والذي يوهب للمتحنين فيه ورقة بيضاء نقيـة كنقـاوة الفطرة الإنسانية، فإذا ما اشتغل الطالب بتلطيخ تلـك الورقــة إلى أن تصبح ورقة سوداء لا محل فيهـا لأي إجابـة صـحيحة أو خاطئـة، فهل يقال بأن مراقب الامتحان إن أخبره بأن ورقته قد طبع عليهـا أو ختم عليهـا، فليس فيهـا محـل لأي جـواب يكـون المـراقب قـد أجبره على ذلك الطبع والختم.

ومثل ذلك تماما ورقة الفطـرة الإنسـانية، وصـفحة القلب إن ملأها صاحبها بصنوف المعاصي.

انطلاقا من هذين المثـالين نعـود إلى القـرآن الكـريم لنطبـق حقـائق القــرآن الكــريم الــتي يجــادل فيهــا المجــادلون على مــا يتصورونه منتهى عدلهم.

ونقـرأ لـذلك جـزءا من سـورة المطففين الـتي تتحـدث عن

شخصية المطفف المحتال الذي يتعامل مع الحقائق الكبرى انطلاقا من مصالحة الضيقة المحدودة، فتختصر الدنيا والآخرة عنده في تلك المكاييل التي يكيل بها، وفي تلك الفوائد التي يجنيها.

وأول ذلك الإخبار بمصيرهم الأخروي الذي ينتهي بهم إلى سجين، وهي السجن الضيق، وهو سجن يتناسب مع قلوبهم التي ضاقت عن الحقائق واكتفت بالمكاييل.

وهي في المثال الأول تنطبق على ذلك المجرم الذي حكم عليه بالمؤبد، إشارة إلى أنه قد بلغ درجة من العتو لا يستقيم بعدها، قال تعالى: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9) (المطففين)

والآيات الكريمة لا تقتصر على عادة القرآن الكريم في ذكر العقوبة دون ذكر التهم الموجهة لأصحابها، فلذلك جاء بعد هذه الآيات ما يبين انسجام العقوبة مع نفسية وسلوك صاحبها، فقال تعالى: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) (المطففين)

فالآيات الكريمة تتحدث عن علة تلك العقوبة العظيمة، وهو أن هؤلاء الذين يتعرضون لصنوف الهداية من المرسلين أو من ورثتهم ينحجبون بالغفلة التي أفرزتها الأهواء في قلوبهم عن رؤية الحق أو الاستماع له، فلذلك ينسبون تلك الآيات التي يتلوها المؤمنون إلى أساطير الأولين.

وهم في ذلك يشبهون ذلك الممتحن الذي يلطخ صفحته البيضاء الطاهرة بصنوف العبث والعشوائية.

ثم بينت الآيات السبب لذلك، وهو لا يختلف عن السبب الذي جعل الممتحن يلطخ ورقة إجابته، وهو ما نص عليه قوله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (المطففين:14)، أي أن كسبه وعمله وحركة قلمه هي التي ملأت فطرته بقعا منحرفة حالت بينها وبين التعرف على الحق أو سلوكه.

وقد فسر ﷺ الآية بقوله:(إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك

قول اللّه تعالى:﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(1)

وإن أردنا تمثيلا واقعيا آخر على هذا، وهو ما يكاد ينطق به هذا الحديث الشريف هو ما نعرفه في الواقع من تأثير الإدمان على الجسد، بحيث لا يملك صاحبه دفع آثاره، فالمدمن هو الذي أقبل على ما أدمن عليه باختياره، ولكنه نتيجة للمبالغة فيه وصل إلى حالة المتحكم فيه بعد أن كان متحكما في نفسه.

وعلى ذلك يدل قول الشاعر:

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

ولذلك لم ترد هذه التعابير في القرآن الكريم ـ كما سنرى ـ إلا مع من اشتد في كفره وبالغ فيه إلى درجة محقت من قلبه كل استعداد للخير.

ومثلما ذكرنا في تفسير الران وعلاقة العبد به وردت في القرآن الكريم مصطلحات أخرى تدل على ما يفعل الله بالقلوب ووسائلها الإدراكية إن هي أمعنت في معصية الله تعالى، وقبل أن نتعرف على تلك الحجب التي نص عليها القرآن الكريم نشير إلى أن الفهم المثالي لهذه الإخبارات الإلهية هو اعتبارها إخبارات حقيقية لا رمزية.

والذي جر إلى توهم أنها إخبارات رمزية، وأنها مجرد استعارات لا حقيقة وجودية لها، هو أن القرآن الكريم يصورها بصورة مجانسة لما نراه أو نستعمله في التعبير عن المحسوسات.

والذي يقول بهذا يضطر إلى تأويل كل النصوص التي وردت في اعتبار الأشياء المعنوية أمورا حسية، كإخباره ﷺ أن الموت يأتي يوم القيامة في صورة كبش(2)، وأن الدنيا تأتي بصورة معينة، وهكذا.

وهذا التأويل ناتج من عدم القدرة على تعدية معاني الحس إلى عوالم المعنى، ولكن المؤمن الذي يحترم عقله وقدراته من جهة ويعظم ربه وكلامه وكلام نبيه من جهة أخرى لا يقع في هذا الوهم.

---

1) رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

2) وذلك في قوله ﷺ:(إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جئ بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة! خلود لا موت، يا أهل النار، خلود لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم) رواه البخاري ومسلم.

ولذلك لا يستبعد أن يكون للقلب قفل كقفل أبواب الدنيا، وختم كختمها، وأن يحصل لعين القلب من العمى ما حصل لعين الحس، فكل ذلك من المعقول الذي لم تدركه الحواس، وفي قدرة الله أن يريها ذلك كما يريها يوم القيامة هذه المعاني في قوالب الحس.

بل إن تصورها معاني حقيقية يضفي على القلب من الإحساس بمعناها وخطره أكثر من تصورها مجرد أمور معنوية قد لا تجد من بعض القلوب القدرة على فهمها.

ولذلك يستعمل القرآن الكريم كل ما يستعمل من أساليب الحس لمنع إدراك من طبع على قلبه، بل قد يجمع الله له مجموعة أمور علامة على بلوغه مرحلة اليأس التي لا إمكانية فيها لإيمانه.

ومن ذلك قوله تعالى في أوائل سورة يس في عقوبة الذين حق القول عليهم بعد أن مورست معهم كل أساليب الدعوة، فقابلوها بكل أساليب الإنكار: إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (يّس:9) ثم ذكر نتيجة هذه السدود بقوله تعالى: وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (يّس:10)

ولا حاجة بنا إلى ذكر ما سلف ذكره من أن هذه العقوبة النازلة بقلوبهم هي من صنع أيديهم، فالآيات السابقة واللاحقة تدل على ذلك، وإنما المراد هنا الصورة الحسية التي يضربها الله لحجب هؤلاء عن الإيمان بعد أن بلغوا قمة العتو والطغيان.

فالله تعالى يخبر بأنه جعل على هؤلاء المحتوم عليهم بالاستمرارية في الكفر الأغلال في أعناقهم بل يحدد مواضع هذه الأغلال، وهي كونها إلى أذقانهم، ثم يخبر عن وضع السدود من بين أيديهم ومن خلفهم، ثم عن وضع الغشاوة على عيونهم.

وهي إخبارات عن أمور وضعت حقيقة، ونرى أنه من التأويل البعيد الذي لا حاجة له تفسيرها بأمور معنوية، كما فسرها ابن القيم في الإجابة على إشكال طرحه، وهو أن (الغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟)[1]

وقد أجاب على ذلك بقوله:(لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محله والمراد به القلب، فإن الغل إذا كان في

1) شفاء العليل:94.

العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضا قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة)

ثم عقب على ذلك بقوله:(فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها، وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينمها وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئا)

ثم قال:(وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقا له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف)

ونرى أن ما ذكره ابن القيم من اعتبار هذه الأغلال والسدود مجرد أمثلة غير صحيح، فالقرآن الكريم يفرق بين المثال والحقيقة، فيذكر في المثال لفظ المثال أو ما يدل عليه، بينما يذكر الحقيقة مطلقة، فقوله تعالى مثلا: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ (البقرة:17) صريح في كونه مثلا، اما في هذه الآيات، فالله تعالى يقول: إِنَّا جَعَلْنَا ، ويستبعد أن يقال بأن جعله المخبر به مجرد مثال(1).

ثم إن العقل بعد ذلك لا يمنع هذا، فقدرة الله تعالى التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء لا يستحيل عليها أن تضع هذه الأغلال والسدود التي يتألم لها الموضوعة عليه، ويصرف بها من غير ان تكون لنا القدرة على إدراكها، ويكون في وضعها عقوبة عاجلة له على ذنوبه.

وقد ورد في السيرة ما يشير إلى ظاهرية هذا النص، قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب قال، قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن، وإنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم ناراً تعذبون بها، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه، فجعل يذرها على رؤوسهم ويقرأ أوائل سورة يس، وانطلق رسول

1) انظر الرد على أمثال هذه الأنواع من التأويلات في رسالة (أكوان الله)

اللّه ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً، قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب.

وهذا الذي حصل مع هؤلاء لا يستحيل أن يحصل مع غيرهم إن عملوا مثل عملهم، فسنة الله في خلقه واحدة.

ومثل هذه الأغلال التي نراها أغلالا حسية وإن كنا لا نراها بأبصارنا القاصرة لا لعدم وجودها بل لضعف أبصارنا ما أخبر عنه القرآن الكريم من طمس الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ (النساء: 47)

فالقرآن الكريم ينذر هؤلاء الجاحدين بأن يسارعوا إلى الإيمان قبل أن يطمس الله وجوههم، فلا يبقي لها سمعاً ولا بصراً ولا أنفاً، ثم يردها إلى ناحية الأدبار.

ومما يدل على حسية هذا كذلك قرنه بأصحاب السبت الذين مسخوا قردة وخنازير.

بل إن القرآن الكريم يخبر أن هؤلاء الغافلين يشعرون بهذه الحجب التي تحول بينهم وبين الاستماع إلى الحق أو اتباعه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة:88)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (فصلت:5)

والقرآن الكريم أقرهم على ذلك الشعور، ولكنه صححه لهم نسبته، فقد تصوروا أنهم هم الذين وضعوا تلك الحجب، فأخبرهم الله تعالى أنه هو الذي وضعها لما سلف منهم من الآثام، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (النساء: 155)

قد يقال بعد هذا: كيف يصح أن يكن هذا أمرا محسوسا، والقرآن الكريم قد ينكر عمى الأبصار ثم يثبته للبصائر مع أن عمى الأبصار محسوس، أفلا يدل ذلك على أن الأمر مقصور على المعنى، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج:46)

والجواب عن هذا هو أن القرآن الكريم لا ينكر عمى الأبصار، وإنما يخبر عن ضآلة تأثيره مقارنة بعمى البصائر.

ومثل هذا التعبير ورد كثيرا في النصوص، كقوله تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة:177)

فالقرآن الكريم لا ينفي برية التولي جهة القبلة، وإنما ينفي الغلو فيها وإهمال ما عداها، وكأنه ينبهنا إلى مراعاة الأولويات لا إهمال غيرها.

ومثل ذلك في السنة كثير كقوله ﷺ:(الحج عرفة) (1) أي أنها أعظم أركانه، وقوله ﷺ:(ليس الغنى عن كثرة العرض(2)، إنما الغنى غنى النفس) (3)، وقوله ﷺ:(ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي لا يجد ما يعنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه) (4)، وقوله ﷺ:(ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) (5) وغيرها من الأحاديث.

***

قد يقال بعد هذا: سلمت بأن قلبي بيدي.. وأنه يمكنني أن أقفله أو أفتحه، ويمكنني أن أبيضه أو أسوده.. ولكن كيف يمكن أن أنجح في ذلك.. والعصابات تحيط بي من كل جانب، تريد أن تلتهمني التهاما؟

بل إن القرآن الكريم يخبر بأن الله تعالى هو الذي يقيض هؤلاء الشياطين لغوايتي، فماذا أعمل، وهل للأعزل أن يقاوم أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها هذه العصابات؟

أوليس مناقضا للعدل أن أمتحن في هذه الأجواء؟

---

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
2)) العرض: بفتح العين وسكون الراء وتحرك: هو المتاع وكل شئ سوى النقدين
3) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
4) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
5) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

أوليس مناقضـــا للعـــدل أن يخص المنحرفـــون بتقـــييض الشياطين، بينما ينعم المؤمنون بصحبة الملائكة؟

والجـواب عن ذلـك في شـقه الأول هـو أن امتحـان جـوهر الإنسان يقتضي كل ما صرفته يد الحكمة الإلهية من وسائل الخـير والشـر، فكيـف يمـيز الخـبيث من الطيب في جـو لا تفـوح منـه إلا روائح الطيبة؟

أمـا الشـق الثـاني في تعليـل تسـليط اللـه تعـالى هـؤلاء الشياطين على بعض الخلق دون غيرهم، فقد أخبر القرآن الكـريم بأن الإنسان بسلوكه الحر الاختيـاري هـو الـذي يحـدد نـوع الرفيـق والمستشار الذي يرجع إليه في شؤونه، هل الشيطان، أم الملاك؟

وبحسب تحديـده يكـون التعامـل معـه، ولـذلك قـال تعـالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ﴾ (الأنعـام: 129) وقد ورد في تفسـيرها:(إنمـا يـولي اللّـه النـاس بأعمـالهم، فالمؤمن ولي المؤمن أين كـان وحيث كـان، والكـافر ولي الكـافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي)(1)

هذا في الجانب الظاهر المتعلق بشياطين الإنس، أما الجانب الباطن، أو المستشـار النفسـي، فـإن هـذا الـذي فتح لنفسـه بـاب الإدمان على معصية الله يسخر له ما هـو من جنسـه، فـالمرء مـع من أحب، قـال تعـالى:﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْـرِ الـرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَـهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:36)

فالآيـة الكريمـة عـبرت عن الغفلـة عن اللـه، أو تصـور هـذا الغافل لله بأنه أعشى البصر يرى الحقائق، وكأنه مغمض العيـنين، فلا يكاد يبصرها، لـذلك فتح لشـيطانه طريـق قلبـه ليملي فيـه من وساوسه ما يعمي بصره عمى كليا.

وهكذا تفسـر جميـع الآيـات الـتي تتحـدث عن توفـير أسـباب الضلال ووسائله، فوسائل الضلال وأسبابه كوسائل الهدى وأسـبابه لا يمنع منها أي مكلف، وهي بيد الله جميعا يرسلها لمن شاء، ومن عدلـه أنـه لا يشـاء إرسـالها إلا لمن اسـتحق لهـا باسـتعداده لنـوع موجاتها.

فالتوحيد يقتضي أن يتفـرد اللـه تعـالى بـالتقييض والإمسـاك، والعدل يقتضي أن لا تقيض أو تمسك إلا للمستحقين.

ولهذا أخبر ﷺ بأن لكل شخص شيطانا، فلا فرق في ذلك بين الفاسـق والمـؤمن، ولكن الفـرق هـو في مـدى الاسـتعداد لتلقي

1) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ.

وساوسه، قال ﷺ:(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه)، قالوا: (وأنت يا رسول الله؟) قال:(نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير)(1)

وفي حديث آخر تقريب أكثر للشيطان بحيث أخبر أنه يجري من الإنسان في كل محل، قال ﷺ في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف:(إن الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال – شراً) (2)

وفي حديث آخر أخبر ﷺ أن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس(3).

فالشيطان إذا باعتباره وسيلة الشر الكبرى يستوي في تلقي وساوسه المؤمن وغيره، ولكن الفرق هو أن المؤمن يعرض عنه بخلاف الغافل والكافر.

والشيطان في ذلك يشبه الموجات التلفزيونية المنتشرة في كل مكان، ولكل شخص بعدها الاختيار في تحديد نوع الموجات التي تتناسب مع طبيعته ورغباته.

ولذلك يخبر القرآن الكريم بأن سلطان الشيطان مقصور على من أطاعه دون من لم يطعه، قال تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل:99)، ثم قال عقبها: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (النحل:100)

وأخبر القرآن الكريم عن قول الله تعالى للشيطان عندما أجيز له أن يقوم بإضلال بني آدم: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر:42)، وقال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (الاسراء: 65)

وأخبر عن مقالة الشيطان في الخطبة التي يختم بها وظيفته التي تعهد أن يقوم بها خير قيام: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (ابراهيم:22)

---

1) رواه أحمد ومسلم.

2) رواه النسائي.

3) نص الحديث:(إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فان ذكر الله خنس وإن نسى التقم قلبه) رواه ابن ابى الدنيا والبيهقي.

وقد شرح القرآن الكريم الطريقة التي يتعامل بها الشيطان مع قلوب بني آدم، وهي طريقة تعتمد على اختيار الإنسان وسلوكه ورغبته، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)﴾ (الحج)

فقد أخبر تعالى في هذه الآيات الكريمات أن إلقاءات الشيطان واحدة، ولكن القلب المتلقي، والذي يمثل اختيار الإنسان وإرادته الحرة هو الذي يحدد كيف يتعامل مع إلقاءات الشيطان.

فالقلب الصحيح السليم الذي ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، يردّ وساوس الشيطان وإملاءاته، ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق فى خلافه، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له.

بينما القلب الميت القاسى الذي لا يقبل الحق ولا ينقاد له، ومثله القلب المريض إن غلب عليه مرضه التحق لا يزال مفتونا فى مرية من إلقاء الشيطان.

فالقلب إذا متجاذب حسب اختيار صاحبه بين الشيطان والملك، وميله لأحدهما يبعده عن الآخر، كما قال ﷺ:(إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الآخرى فليتعوذ بالله من الشيطان) (1)

والذي يحدد هاتين اللمتين هو الإنسان، كما قال بعضهم:(إنما هما همان يجولان في القلب همٌّ من الله تعالى وهمّ من العدوّ، فرحم الله عبداً وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده)

ولعل قوله ﷺ:(ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع

1) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان.

رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه) (1) ودعاءه المعروف:(يا مقلب القلوب ثبتنا على دينك) (2) يشير إلى هذه المؤثرات التي تريد ان تجذب الإنسان إليها.

أما عن كيفية تسلط الشيطان على قلب ابن آدم حتى يصير سلطانا عليه، فهو كتسلط العصابات، فهي إنما تتسلط على من وجدت فيه ما تبحث عنه مما يتناسب مع طبيعتها، وفي نفس الوقت سهل عليها اختراقه لعدم التجائه لأي حصن أو احتمائه بأي جهة.

يقول الغزالي:(والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة) (3)

ولهذا نبهت الشريعة الإرادة الإنسانية إلى اتخاذ كلا الوسيلتين اللتين تحميانه من هجمات عصابات الضلال، فحثت على كثرة ذكر الله والتزام أوامره، (فلا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال) (4)

ولذلك أخبر الله تعالى عن نجاة الذاكرين من وساوس الشيطان، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (لأعراف:201)

وللتضاد بين ذكر الله ووسوسة الشيطان قال تعالى: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا

1) رواه أحمد وابن ماجة والطبراني في الكبير.
2) رواه النسائي والحاكم.
3) الإحياء.
4) الإحياء.

إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (المجادلة:19)

* * *

قد يقال: سلمنا بأن إرادة الإنسان هي التي تحدد باختيارها نوع مستشاريها، أو تحدد سلطة الشيطان عليها، ولكن الفتن التي وردت النصوص بالإخبار عنها وعن نزولها ليست إلا فتنا مجعولة لله، وهو الذي يرسلها على القلوب لتحولها عن الطريق الصحيح، أليس في ذلك إبعادا عن الحق وإضلالا لا يتناسب مع العدل الإلهي؟

والجواب عن هذا أن الفتن هي نار الله الحارقة التي يتميز بها الخبيث من الطيب، بل هي أسئلة الاختبار التي يفلح المكلف على أساسها أو يخسر، وهي التي تحدد نوع القلوب وطبائعها.

والذي ينكر نزول الفتن كالذي ينكر الامتحان نفسه، لأنه لا امتحان بدون أسئلة، ولهذا قال تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (العنكبوت:2 ـ 3)

ولهذا كانت الفتن هي المحددة لحقيقة الإنسان كما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ (لأعراف: 155)

فالفتن حسب هذه الآية، وحسب ما ورد في النصوص ليست شرا محضا، بل هي خير محض لمن عرف كيف يتعامل معها، كما أن أسئلة الامتحان خير محض لمن أتقن الإجابة عليها.

ومن هذا الباب ما روي عن أم سلمة قالت: استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة، فقال:(سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فتح من الخزائن؟ أيقظوا صواحب الحجر فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة)(1)

ففي هذا الحديث جمع ﷺ بين الفتن والخزائن، ولم يحدد الحديث نوع الخزائن المفتوحة لتشمل جميع ما يتصور من خزائن الثواب والعقاب، ولهذا دعا رسول الله ﷺ إلى إيقاظ أصحاب الحجر اغتناما لفرصة هذه الفتن لنيل أكبر نصيب من الثواب.

والأمر في ذلك يشبه إعلان جهة ما عن فتح مسابقة ترفع الناجح فيها إلى ما تهفو إليه نفسه من مناصب ودرجات، فإن ذلك لا يدعو إلى القلق بقدر ما يدعو إلى الاستبشار والاجتهاد.

ولذلك لا نرى صحة ما فسر به الحديث من أن المراد

1) رواه البخاري.

بـالخزائن خـزائن المـال، وأنـه ينشـأ من فتحهـا فتنـة المـال، بـأن يتنافس فيه فيقع القتال بسببه، وأن يبخل به فيمنع الحق، أو يبطـر فيسرف.

فليس في الحـديث الشـريف مـا يـدل على هـذا، بـل إن في القرآن الكريم ما ينفي إرادة هذا، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَـدَرٍ مَعْلُـومٍ ﴾ (الحجـر:21) فـأخبر أن خزائنه تعالى تشمل كل شيء.

وأخبر تعالى أن: ﴿ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (المنافقون: 7)، ومن خزائنـه خـزائن الرحمـة: ﴿ أَمْ عِنْـدَهُمْ خَـزَائِنُ رَحْمَـةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (صّ:9)

ولـذلك فـإن الحـديث الشـريف يـدل على ارتبـاط الفتن بالخزائن، ثم إن جواب المكلف على أسئلة الفتن هـو الـذي يحـدد نوع الخزانة التي سيستمد منها درجته.

وهـذه الآثـار الـتي تعقب نـزول الفتن لا تتعلـق فقـط بالآثـار الخارجية من الثواب والعقاب، بل ترتبط ـ قبل ذلك ـ بتأثيرهـا على حقيقة الإنسان وجوهره، ثم إن حقيقته وجوهره هو الذي يحدد بعد ذلك نوع الثواب والعقاب ـ عدلا من الله وحكمة ـ

وقد شبه ﷺ عـرض الفتن على القلـوب شـيئا فشـيئا بعـرض عيدان الحصير، فقال:(تعرض الفتن على القلوب عـرض الحصـير عـودا عـودا، فـأي قلب أشـربها نكت فيـه نكتـة سـوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى يصير القلب أبيض مثـل الصـفا لا تضره فتنـة مـا دامت السـموات والأرض، والآخـر أسـود مربـدا(1) كالكوز مجخيا(2)، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشـرب من هواه) (3)

فقد قسم رسول الله ﷺ في هذا الحـديث القلـوب الـتي هي محال نظر الله تعالى، ومحال امتحان المكلفين عنـد عـرض الفتن عليها إلى قسمين:

أما أولهمها، فهو القلب الذي إذا عرضت عليـه فتنـة أشـربها، كمـا يشـرب الإسـفنج المـاء، فتنكت فيـه نكتـة سـوداء، فلا يـزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وحينذاك يعـرض له مرضان خطران:

---

1)الربدة: لون بين السواد والغبرة.

2)المجخي: المائل عن الاستقامة والاعتـدال، فشـبه القلب الـذي لا يعي خـيرا بـالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء.

3) رواه أحمد.

أحدهما اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعـروف منكرا والمنكر معروفا.

والثانى تحكيمه لهواه على ما جاء به الشرع، وانقياده للهــوى واتباعه له.

وأما القلب الثـاني، فهـو الـذي قـاوم الفتن، وتملـك الحصـانة والمناعة ضدها قلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

وبــذلك تصــبح الفتن وســيلة من وســائل صــقل القلــوب وإصـلاحها، وبالتـالي تجعلهـا أهلا لأداء وظيفـة التعـرف على ربهـا وعبادته،كما قال ابن عطاء الله:(لـولا ميـادين النفـوس مـا تحقـق سير السائرين، إذ لا مسافة بينـك وبينـه حـتى تطويهـا رحلتـك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)

ومن النمـاذج الـتي ذكرهـا القـرآن الكـريم للتـأثير المـزدوج للفتن، أو للتعامل المختلـف مـع الفتن، الفتنـة المنجـرة عن إخبـار الله تعالى عن عدة الملائكة، كما قال تعالى: وَمَـا جَعَلْنَـا أَصْـحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَـرُوا لِيَسْـتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَـابَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَـاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَـاءُ وَمَـا يَعْلَمُ جُنُـودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (المدثر:31)

فقد أخبر تعالى أن في إخبـار اللـه تعـالى عن عـدد الملائكـة الموكلين بجهنم كان فتنة للخلق، وكـان تـأثير هـذه الفتنـة مختلفـا على حسب قابلية كل شخص وتعامله مع إخبارات الله.

أما المؤمنون فزادتهم إيمانـا إلى إيمـانهم، وعرفـوا أن قـدرة الله التي لا يعجزها شيء لا تعجز عن مثل هذا، بل اعتبروا هذا من دلائل القدرة التي تزيدهم إيمانا إلى إيمانهم.

أما السطحيون البسطاء في تفكـيرهم الغـارقون في أوحـال التشبيه، فاعتبروا ذلك سندا شرعيا لكفرهم.

وقد ورد في السيرة ذكر بعض آثار هذه الفتنة على الكافرين، قـال ابن عبـاس:(لمـا نـزل قولـه تعـالى: عَلَيْهَـا تِسْـعَةَ عَشَـرَ (المدثر:30) قال أبو جهـل لقـريش:(ثكلتكم أمهـاتكم! أسـمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسـعة عشـر، وأنتم الـدهم - أي العـدد - والشـجعان، فيعجـز كـل عشـرة منكم أن يبطشـوا بواحـد

منهم!) (1)

وقال أبو الأسود بن كلدة الجمحي:(لا يهولنكم التسعة عشر، أنـا أدفـع بمنكـبي الأيمن عشـرة من الملائكـة، وبمنكـبي الأيسـر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة) ؛ يقولها مستهزئا(2).

وقال آخر:(أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين) (3)

وقال آخر:(أفيعجز كل مائـة منكم أن يبطشـوا بواحـد منهم، ثم تخرجون من النار؟)

ومثل هذا النموذج من تأثير الفتن ما ورد في القـرآن الكـريم من ذكر شجرة الزقوم، فقـد كـان الإخبـار عنهـا بالنسـبة للغـافلين فتنة تصرفهم عن الحـق، قـال تعـالى: أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَـجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْـلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (الصافات:62 ــ65)، وقـال تعـالى: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَـةَ فِي الْقُرْآنِ (الاسراء: 60)

فمع أن هذا الإخبار لا يحـوي أي غرابـة بالنسـبة للعقـل الـذي يعلم قدرة الله التي لا تحدها الحدود إلا أنه كان فتنة كبيرة للعقـول البسيطة المحدودة، وقد روي في السيرة أنه لما لمـا نـزلت الآيـة التي ذكـرت شـجرة الزقـوم قـال كفـار قـريش:(مـا نعـرف هـذه الشجرة. فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه)، فقال:(هو عندنا الزُبد والتمر)، فقال ابن الزبعـري:(أكـثر اللـه في بيوتنـا الزقـوم)، فقـال أبـو جهـل لجاريتـه:(زقمينـا) ؛ فأتتـه بزبـد وتمـر. ثم قـال لأصحابه:(تزقموا ؛ هذا الذي يخوفنا به محمد؛ يزعم أن النـار تنبت الشجر، والنار تحرق الشجر) (4)

ومثـل هـذا الفتن الكثـيرة الـتي تجعـل من الحقـائق شـبهات عظيمة ينظر إليها الغافلون بأعينهم المحجوبة عن الحق، فلا يـرون إلا الظلمات.

ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن يجعل في هذا الـدين كمـا في كـل الأديـان مـا يمـيز المؤمـنين من غـيرهم حـتى يسـتبين الصادقون من الجاحدين، قال تعـالى عن فتنـة ثمـود: إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (القمر:27)

ولهذا لا يسأل المؤمن عن تعدد زوجات رسول الله ﷺ، وعن

---

1) رواه عبد بن حميد وابن جرير.
2) رواه ابن أبي حاتم.
3) انظر: القرطبي:19/81.
4) انظر: القرطبي:15/85.

سر الأمر بالحجاب، وعن قص يد السارق، وإنما يسأل الغافلون الذين تعشش الشبهات في قلوبهم وعقولهم.

وقد شبه الله تعالى هؤلاء الذين يميد دينهم بالفتن، بمن يعبد الله على حرف، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج:11)

بل إن فتنة مثل هؤلاء تمتد لكل شيء حتى النعم الدنيوية البسيطة التي تنزل عليها، فيتعتقد أنها ناتجة عن حوله وقوته: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:49)

وقد أخبر الله تعالى عن المدى الذي وصل إليه تفكيرهم، فحجبهم عن الحق، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) ﴾ (الإسراء)

وقد علل الله هذا النوع من التفكير، فقال: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) ﴾ (الإسراء)

أي أن هؤلاء الجاحدين أرادوا أن يتخلصوا من العبودية لله، والتي طولبوا بها، ليفرضوا على الله نوع الأسئلة التي يريد طرحها عليهم.

ومع ذلك، فإن الله برحمته، يجيبهم معللا سر كون النبي بشرا، فيقول: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) ﴾ (الإسراء)

2 ـ أنوار الهداية:

قد يقال بعد هذا: نعم إن حجب الغفلة حجب أسدلها المكلف على عينيه ليعمى عن رؤية الحقائق، وإن من نتصورهم عصابات تقطع الطرق عن الله ليس لها من الأمر شيء، بل إن أمرها بيد المكلف الذي يستطيع أن يبعدها عن نفسه بالقرب من الحق، فبقدر اقترابه من الحق يكون بعده عن الباطل.

ولكن..

الطريق مظلم مشوك، والجزاء خطير شديد، وأيام الدنيا معدودة محدودة، وأنوار الهداية كشمعة في وسط تلك الظلمات الداكنة.. و.. و

فكيف السبيل لقطع تلك المهامه؟

وهل يمكن لشمعة أن تضيئ كل ظلمات الكون؟

وهل يمكن لناقة مهزولة أن تقطع كل تلك الصحارى؟

الله جل جلاله:

والجواب عن هذا، هو أن من عرف الله تعالى رأى كل ما في الكون أنوارا من أنوار الهداية، فكل شيء يدل على الله، وكل شيء يعرف بالله، حتى ما نتصوره من حجب تحجب عن الله هي في حقيقتها أدلة على الله وهادية إليه.

فإن من أسمائه تعالى النور والظاهر والهادي، فهو النور الذي استمدت منه جميع الأشياء وجودها، قال تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (النور: 35)

وهو الهادي الذي دل على نفسه بكل شيء سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (فصلت:53)

فكيف بعد هذا يتصور أن يحتاج إلى ما يدل عليه و هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحديد:3)

وكيف يتصور أن يحتاج إلى ما يدل عليه، و(جميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته) (1)

فإن كان البشر يستدلون بعقولهم التي يتيهون بها على الكون على حياة الكاتب وليس لها من شاهد إلا ما أحسسنا به من حركة يده، (فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك)

ولهذا لا يرى العارف الذي أعمل ما أعطاه الله من طاقات ومواهب (إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهى تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال

1) الإحياء:6/382.

كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويـرى فيـه الفاعـل، ويـذهل عن الفعـل من حيث إنـه سـماء وأرض وحيـوان وشجر،بـل ينظـر فيـه من حيث أنـه صـنع الواحـد الحـق فلا يكـون نظره مجاوزا له إلى غيره)(1)

ولهذا، فإن أول نور من أنوار الهداية هو الله، فاللـه هـو النـور الذي يستدل به، ولا يحتاج للاستدلال عليه.

ولهذا يقـول العـارفون في مناجـاتهم:(إلــهي! كيـف يسـتدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور مـا ليس لك حتى يكون هو المظهـر لـك؟ مـتى غبت حـتى تحتـاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حـتى تكـون الآثـار هي الـتي توصـل إليك؟)

ويرددون مع أبي الحسن الشـاذلي:(كيـف يعـرف بالمعـارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشـيء من سـبق وجـوده وجود كل شيء)

والله هو الظاهر الذي لا تحجبـه الأشـياء، و(كيـف يتصـور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كـل شـيء؟ كيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهو الذي ظهر بكل شـيء؟ كيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبـه شـيء وهـو الذي ظهر لكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شـيء وهـو الظـاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهـو أظهـر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبـه شـيء وهـو الواحـد الـذي ليس معه شيء؟)

فهذا النور من أنوار الهداية كاف واحده لإضاءة جميع ظلمات الكـون، وكـاف وحـده لخـرق جميـع حجب الغفلـة، ولحـرق جميـع عصابات الغواية.

أكوان الله:

ولـذلك يجعـل القـرآن الكـريم الكـون جميعـا هاديـا إلى اللـه ومعرفا بالله، ويدعو الخلق الغارقين في أو حال الجـدل إلى إغلاق أسـفارهم الـتي تبحث عن وجـود اللـه لينظـروا: إِلَى الْإِبِـلِ كَيْـفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّـمَاء كَيْـفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَـالِ كَيْـفَ نُصِـبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (الغاشية:17ـ 20)

والله تعالى يخاطب العقول جميعا الـتي يتفـق البشـر جميعـا على أن لهم منها النصيب الأوفر، بل إن أكبر مسبة لهم أن يتهمهم

---

1)الإحياء:6/382.

أحـد في عقـولهم ليقـول لهم: ﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْـرِ بِمَـا يَنْفَـعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:164)

ويعـرفهم بـ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَـأَخْرَجَ بِـهِ مِنَ الثَّمَـرَاتِ رِزْقـاً لَكُمْ وَسَـخَّرَ لَكُمُ الْفُلْـكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (ابراهيم:32)

ويسأل عقولهم التي تشق الشعر بـذكائها، ليقـول لهـا: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَـدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُـوا شَـجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل:60)

ويقول لها: ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَـلَ لَهَا رَوَاسِـيَ وَجَعَـلَ بَيْنَ الْبَحْـرَيْنِ حَـاجِزاً أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:61)

ويقـول لهـا: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّـوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل:62)

ويقول لها: ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَنْ يُرْسِـلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَـعَ اللَّهِ تَعَـالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْـرِكُونَ﴾ (النمل:63)

ويقول لها: ﴿ أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل:64)

بعد هذا، وهو رشحة من محيط الدلائل على اللـه، هـل يمكن لعاقل أن يقول بأن الكون حجاب عن الله، وهـو كتـاب اللـه الـذي تجلى لعباده من خلاله.

وهل يمكن أن نجعـل أولئـك المسـدلين حجب الغفلـة أصـلا، ونجعـل كـل هـذه الـدلائل أنـوارا كاسـفة؟.. أم نتصـور أن شـمس الكون تحجبها تلك الأكف الهزيلـة الـتي تريـد أن تحـول بين الخلـق وإبصارها؟

فلذلك كان (الله) هو أكبر حجة يقيمها الله على عباده، فهـل يخفى الله حتى يغفل عنه؟ وهل يهون الله حتى يقدم عليه غيره؟

وإن عدنا إلى ما كنا فيه من دلائل العدل في الهداية، فنقـول: لـو أن أولئـك الممتحـنين سـئلوا عن وصـف مـا يرونـه في غرفـة

الامتحان، أو سئلوا عن وصف نفوسهم، أو سئلوا عن بديهية من البديهيات، أكان يعجزهم ذلك؟ فكيف يتصورون الحوائل تحول بينهم وبين ذلك الوصف الذي لا يتطلب منهم سوى فتح أعينهم والنظر إلى أنفسهم وإلى ما حولهم.

كلمات الله:

وفوق ذلك كله، فإن الله تعالى ــ برحمته وفضله ــ من على عباده، فأنزل عليهم كتبا فيها كلامه لهم.. ليعرفهم فيها بنفسه، وبحقيقتهم، ووظيفتهم، ويدعوهم بكل الأساليب ليتخلصوا من كل الحجب، ويقضوا على كل العصابات التي تحول بينهم وبين الامتحان العظيم الذي أعده لهم.

وكتب الله لا تعد ولا تحصى، وكلمات الله إلى خلقه لا تنفذ، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (الكهف: 109)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان:27)

والله تعالى ـ برحمته ـ أمد عباده في أول لحظة احتاجوا فيها إلى كلماته ليضمدوا بها الجراح التي أحدثتها فيهم عصابات الغفلة، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:37)

وظلت هذه الكلمات هي السيف الأعظم الذي يحطم حجب الغفلة، ويقضي على عصاباتها، قال تعالى: ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس:82)

وسر ذلك يرجع إلى التأثير العظيم الذي جعله الله في هذه الكلمات، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:21)

والبشرية التي تاهت عن الله، فاستحقت بذلك أن تطبق عليها قوانين العدالة الإلهية لم تته لأن الله حرمها من كلماته، وإنما تاهت لأنها احتقرت كلمات الله، أو تدخلت فيها كما يتدخل المجرمون، فيحولون من القوانين وسائل إجرام، قال تعالى عن المبدلين الذي تدخلوا في كتب ربهم ينسخونها بما ينسجم مع أهوائهم: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78) (آل عمران)

وقال تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) (البقرة)

ولو أن هذه البشرية تخلصت من أهوائها، وراحت تقرأ رسائل ربها بصدق، فإنها تجد الحق أمامها أقرب إليها من كل شيء، قال تعالى: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) (المائدة)

وقال تعالى: وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) (المائدة)

وفي تلك اللحظات ستنزل عليهم جميع بركات الله التي حجبتها عنهم عصابات الغفلة، قال تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66) (المائدة)[1]

أهل الله:

والله تعالى برحمته وفضله لم يترك عباده هملا لتتحكم فيهم هذه العصابات، فلذلك أرسل لهم من يبلغونهم كلماته، ويشرحونها لهم، ويسيرون في حياتهم وفق مراضي الله ليكونوا نماذج صالحة للإجابة الصحيحة التي يريدها الله.

---

1)يسيء كثير من المبشرين فهم مثل هذه النصوص، فيتصورون بذلك أن القرآن الكريم الذي نص على تحريف كتبهم هو الذي دعاهم إلى الرجوع إليها، وأنهم بذلك على الحق، وقد رددنا على هذه الشبهات بتفصيل في رسالتي (أنبياء يبشرون بمحمد)، و(الكلمات المقدسة)

ولهذا يدعو الله عباده لأن يشكروه على هذه النعمة، قال تعالى: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) (البقرة)

وهؤلاء الرسل اختزنوا كل معاني الرحمة والهداية.. وكان لهم من الكمال ما يمكنه أن يفيض على جميع البشر، ويقضي على جميع العصابات، فالرسول ﷺ الذي هو الجامع لما فتح الله به عليهم، اعتبره الله رحمة للعالمين.. لا رحمة للبشر وحدهم، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (الانبياء:107)

وهؤلاء الرسل الذين زودهم الله بمعين من الرحمة لم ينبض استعملوا كل الوسائل، ومارسوا كل الأساليب لبث الهداية، قال تعالى يحكي عن نوح عليه السلام وعن الجهود العظيمة التي بذلها من أجل هداية قومه: إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) (نوح)

وبعد أن استعمل كل هذه الأساليب.. ووضعوا هم كل ما أمكنهم من حجب الغفلة واقفين مع زمر الإضلال حينها طبق عليهم الله تعالى حكم العدالة بعد أن رفضوا حكم الرحمة، قال تعالى: قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ

آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)﴾ (نوح)

والله تعالى ــ برحمته ــ زود هؤلاء الرسل بكل البينات المعجزة التي لا يملك البشر معها إلا التسليم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (لأعراف:101)، وقال تعالى:﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة:70)

وتلك المعجزات مما لا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، قال تعالى حاكيا عن معجزات المسيح عليه السلام:﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة:110)

وقال عن معجزة موسى عليه السلام:﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103)﴾ (الإسراء)

وهكذا سائر المعجزات التي هي توقيعات ربانية تخبر البشر بأن الله تعالى هو الذي أرسل لهم من يملؤهم بالهداية.

والله تعالى برحمته جعل الرسل في منتهى العفاف والزهد والكمال حتى يملأ البشر محبة لهم ورغبة فيهم وعلما

بصدقهم وإخلاصهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان: 57)، وقال على ألسنة رسله: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:109)

والله تعالى برجمته وعدله لا يحاسب عباده إلا بعد أن يأتيهم هؤلاء الرسل، قال تعالى: ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الاسراء: 15)

وهو برحمته وعدله جعل في البشر خلفاء للرسل يحفظون هديهم.. ولا يخلو منهم زمان. لتقوم بهم الحجة على عباده، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:32)

وقال رسول الله ﷺ:(لا نزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)(1)

وقال رسول الله ﷺ:(لن تخلو الارض من ثلاثين مثل ابراهيم خليل الرحمن، بهم تغاثون، وبهم ترزقون، وبهم تمطرون)(2)

وقال رسول الله ﷺ:(إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالاعمال ولكن إنما دخولها برحمة الله، وسخاوة الانفس، وسلامة الصدر، ورحمة لجميع المسلمين)(3)

فهذه الأحاديث وغيرها كثير يثبت لطف الله بعباده.. فكل من احتاج الوصول في أي لحظة وجد من يدله عليه(4).

ولهذا، فإن الله تعالى لا يقيم الساعة إلا بعد أن تنفذ الأرض من أوليائه، قال ﷺ:(لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض: الله الله)(5)، وقال ﷺ:(لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس)(6)

---

1) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.
2) رواه ابن حبان في تاريخه.
3) رواه البيهقي في الشعب.
4) انظر تفاصيل ذلك في رسالة (أهل الله) من هذه المجموعة.
5) رواه أحمد ومسلم والترمذي.
6) رواه أحمد.

ثالثا ـ عدالة الجزاء

نصت النصوص القرآنية الكثيرة على أن كل جزاء يناله الإنسان خيرا أو شرا، في الدنيا أو الآخرة هو ثمرة من ثمار كسبه، وحصاد من نبت زرعه، فلا ينال الإنسان إلا ما كسبت يداه، قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران:25)

ونرى من خلال استقراء النصوص أربعة أوصاف للجزاء الإلهي، وكلها تنطلق من العدالة وتنتهي إليها(1):

أما الأول، فهو أن هذا الجزاء يتساوى فيه الجميع، فلا يفضل فلان من الناس على غيره.. ولا تفضل فيه أمة على غيرها.. فالخلق كلهم خلق الله.. والعدل يقتضي أن يعاملوا كلهم معاملة واحدة.

وأما الثاني، فهو أن هذا الجزاء موزون بموازين دقيقة تسجل كل شيء، ولا يغيب عنها شيء.

وأما الثالث، فهو أن هذا الجزاء، لا يناله صاحبه إلا بعد أن يحاكم محاكمة عادلة، يتاح له فيها أن يستشهد من يشاء من الشهود، ويدافع عن نفسه بما استطاع أن يدافع.

وأما الرابع، فهو أن هذا الجزاء متوافق تماما مع الأعمال، وكأنه حصاد لبذور الأعمال، فمن زرع شوكا لن يجني إلا شوكا.

ونحسب أن هذه الأربع كافية لبيان عدالة الجزاء الإلهي.. وسنحاول أن نرى أدلتها والمدى الذي بلغته في المطالب التالية.

ونقدم لذلك بقوله تعالى في الآية المحكمة التي تفسر على ضوئها جميع آي القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الانبياء:47)

وقوله تعالى عند ذكر دقة الموازين الإلهية: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾ (الزلزلة)

1 ـ المساواة:

1) سنرى علاقة الجزاء الإلهي بالرحمة في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

الوصف الأول للجزاء الإلهي هو المساواة، فالله تعالى يعامل عباده معاملة واحدة، والمعاملة الواحدة تقتضي أن يجازى كل شخص بحسب عمله، لا بحسب هواه.

ولهذا كانت آخر آية من القرآن الكريم، أو آخر وصية من الله لعباده هي قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:281)

وهو المعنى الذي أكدته بتعابير مختلفة كثير من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: 286)، وهذه الآية الكريمة جمعت بين العدالتين: عدالة التكليف وعدالة الجزاء.

المكلفون:

وبهذا، فإن كسب الإنسان وحده هو الذي يحدد مصيره، والعدل يقتضي تفرد الكسب بتحديد المصير حتى لا ينجح في هذا الامتحان إلا الجادون المجتهدون الصادقون، كما قال ﷺ:(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله) (1)

والمراد بالهوى هنا هو كل ما يتصوره الإنسان فكرا سليما أو ذوقا رفيعا أو كشفا صادقا يحول بينه وبين ممارسة العمل الذي كلف به الخلق جميعا، أو يجعل له من المزية ما ليس لغيره مما يتناقض مع نظام العدل الذي بني على أساسه الكون.

ولهذا ما ذكر الهوى في القرآن الكريم إلا مذموما، وقد قال ابن عباس :(ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه، قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ (لأعراف: 176)، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف: 28)، وقال تعالى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ (الروم: 29)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ﴾ (القصص: 50)، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (صّ: 26)) (2)

ولهذا نفى القرآن الكريم كل ما يتوهمه الإنسان من الأهواء والعلل التي يتصور أنها قد تلغي عدالة الله:

---

1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.
2) القرطبي:16/167.

ومنهـا تصـوره ارتبـاط مصـيره بمجـرد أمانيـه وأحلامـه وأوهامـه، وكـأن أوهامـه هي الـتي تملي على اللـه مـا يطلبـه، أوكأنه يريد أن يساوي لذات أمانيه بعرق ودماء وجهـد العـاملين المخلصـين، قـال تعـالى نافيـا هـذا الـوهم: لَيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِـهِ وَلا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِـيراً وَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّـالِحَاتِ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُـونَ نَقِـيراً (النسـاء: 123 ـ 124)

وقال منكرا على من غرته الأماني: أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (النجم:24)أي ليس كل من تمـنى خـيراً حصـل لـه، وقـد عقبت هـذه الآيـة بقولـه تعـالى: فَلِلَّهِ الْآخِـرَةُ وَالْأُولَى (النجم:25)، وكأنها تشير إلى أن عجز الأماني وقصورها عن تحقيق مطـالب الإنسـان في الـدنيا هـو نفسـه عجزهـا وقصـورها عن تحقيـق مطالبه في الآخرة.

ومنهـا الفهم الخـاطئ لحقيقـة الشـفاعة، حيث حولتهـا الأماني القاصرة إلى وسـاطة كوسـاطات الـدنيا تعمـق الجـور، وتولـد الظلم، فلـذلك عقبت الآيـات السـابقة من سـورة النجم بقولـه تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَـكٍ فِي السَّـمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَـفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (النجم:26)

والشفاعة في حقيقتها ـ والتي تدل عليهـا النصـوص ــ هي جزاء كسائر أنواع الجزاء التي ينالها الخلق في الآخـرة لأعمـال عملوهـا أو صـفات اتصـفوا بهـا، وليسـت كمـا يتـوهم من أنهـا وساطة ينجو على أساسـها قـوم في الـوقت الـذي يحـرم منهـا غيرهم مع تساوي الاسـتحقاق، لأن ذلـك لا يتناسـب مـع العـدل المطلق الذي بنيت عليه قوانين الآخرة ـ كما سنرى ـ

ولذلك أخبر ﷺ أنه لا ينتفع من لا يستحق من أمته من هذه الشفاعة، فقال ﷺ في موعظة جمع لها الصحابة :(أيهـا النـاس إنكم محشورون إلى اللّه عزَّ وجلَّ حفاة عراة غرلا كَمَـا بَـدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (الانبياء: 104)، وإن أول الخلائق يكسى يـوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمـتي فيؤخـذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري مـا أحـدثوا بعـدك فأقول كما قـال العبـد الصـالح: وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيدًا مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَـوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الـرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)﴾ (المائدة)، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم) (1)

ونرى بناء على هذا، وبناء على أدلة كثيرة لا يمكن ذكرها هنا أن الشفاعة خاصة بالمقصرين من محبي رسول الله ﷺ أو محبي غيره من الأنبياء والأولياء والملائكة أو غيرهم الذين قعدت بهم أعمالهم عن النجاة، فرفعتهم محبتهم إلى محل الشفاعة.

ومن الأهواء التي تصورها الخلق بديلا عن الكسب الاغترارا بالأنساب، وتوهم أنها من القوة بحيث تحول بين الله وعقوبة من يستحق العقوبة، فيتساوى في منطقها الصائم القائم بالسكير الفاجر لأن نسب الفاجر ــ على حسب هذا الوهم ـ من القوة ما يلغي عدالة الله بين عباده.

ولهذا أنكر تعالى على الأمم قبلنا هذا الوهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:18)

وأخبر تعالى أن لكل أمة ما كسبت، فلا يسأل إلا المكتسب، قال تعالى:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:134)، أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم.

وقد أشار تعالى إلى هذا عدم جدوى هذا الوهم بقوله على لسان يعقوب عليه السلام:﴿ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: 67)

وإلى هذا أيضا يشير قوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ من أن الأمر لله وحده، قال تعالى:﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران:128)

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(ما من رجل يسلك طريقا يطلب فيه علما إلا سهل الله له طريق الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

وفي هذا الحديث جمع لطيف بين المجتهد الذي يسلك طريق العلم، فيسلك بسلوكه طريق الجنة، وبين من يكتفي بالقعود مع التغني بأمجاد سلفه التي لا تغني عنه شيئا.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يشتد في نفي هذه الأنواع من الأوهام، وقد قرأ مرة قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13)

ثم قال:(فليس لعربى على عجمى فضل، ولا لعجمي على عربي فضل، ولا لاسود على أبيض فضل، ولا لابيض على أسود فضل، الا بالتقوى، يا معشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على أعناقكم، ويجئ الناس بالاخرة، فانى لا أغني عنكم من الله شيئا)(1)

وكان يخاطب قبيلته وأهل بيته قائلا:(يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف اشتروا انفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا)(2)

وهذا القانون الإسلامي هو الفاصل بين فهم الإسلام لدور الكسب، وبين فهم المسيحية التي تربط مصير الخلق جميعا بخطيئة أبيهم آدم عليه السلام، ثم تربط تكفير الخطيئة بمن لم يعملها.

ومنها وهم الانتساب إلى مذاهب أو أديان مع الخلو من الأعمال، فيتصور المتوهم أن انتسابه وحده كاف في نجاته، ولذلك قال تعالى رادا على بني إسرائيل في قولهم: ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ (البقرة: 111)

وقد رد الله تعالى على هذا الوهم بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 111)

ويدخل في هذا الوهم هذه التصنيفات الكثيرة التي امتلأت بها أسماع الأمة من تقسيمها إلى سنة وشيعة وغيرها.. فيحسب كل سني أنه قد ظفر بالفردوس الأعلى ما دام قد احتكر سوق السنة.

---

1) رواه الطبراني في الكبير.
2) رواه البخاري ومسلم.

ويحسب الشيعي أن غيره عامة لن يرقى إلى رتبته ما دام قد احتكر سوق أهل البيت..

وهذه كلها أوهام..

فالله تعالى قسم عباده أقساما كثيرة.. وليس منها واحد من هذه الأقسام، فقد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:32)

فكل صنف من هذه الأصناف قد يكون سنيا، وقد يكون شيعيا، وقد يكون من غيرهما.

ونحسب أن أي عاقل يدرك هذا.. فالشيعي العامي البسيط الذي ولد لا يعرف إلا مذهبه.. وكان له من الصلاح ما جعله يقوم الليل ويصوم النهار ويجاهد في سبيل الله، وتدمع عيناه خشية لله، وشوقا لآل بيت رسول الله، أو حزنا على ما أصابهم.. هل يستوي مع ذلك الخامل السني الذي يترفع بسنيته التي يتوهمها، ويحتقر بها غيره، ويتجهم بها في وجه غيره؟

وهكذا يقال للشيعي الخامل الذي يحتقر السني العامل.

والله تعالى بعدله لن يسأل الناس يوم القيامة عن متون العقائد، وهل حفظوها، وإنما يسألهم عما انطوت عليه جوانحهم من الإيمان، وعما كسبته جوارحهم من السلوك(1).

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(إن رجلا كان قبلكم رغسه(2) الله مالا وولدا، فقال لبنيه لما أحتضر: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: إني لم أعمل خيرا قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، قم اذروني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله فقال: ما حملك؟ قال مخافتك فتلقاه برحمته)(3)

فهذا الرجل ــ على حسب هذا الحديث الصحيح ــ كان يحمل عقيدة منحرفة في قدرة الله تعالى (4).. فهو تصور أنه

---

1) للمؤلف رسالة مهمة في هذا، وهي مصاغة بشكل روائي جذاب، سماها (الفرق الإسلامية ـ إعادة تصنيف)

2)رغس: أي أكثر له منهما ويبارك له فيهما، والرغس: السعة في النعمة والبركة والنما (النهاية:2 / 283).

3) رواه البخاري ومسلم.

4) وقد ورد في طرق أخرى ما يؤكد هذا، فقد روى أحمد والحكيم والطبراني في الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده يرفعه قال: كان عبد من عباد الله آتاه الله مالا وولدا، فذهب من عمره عمر وبقي عمر، فقال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: إني والله ما أنا بتارك عند أحد مالا كان مني إليه إلا أخذته أو تفعلون بي ما أقول لكم، فأخذ منهم ميثاقا قال: أما الاول فانظروا إذا أنا مت فأحرقوني بالنار، ثم اسحقوني، ثم انظروا يوما ذا ريح فأذروني لعلي أضل الله، فدعي واجتمع، فقيل: ما

إن فعل به ما فعل لن يقدر الله على جمعه، ومع أن هذه العقيدة عقيدة كفر إلا أن الله تعالى برحمته نظر إلى قصده ونيته، فغفر له.

ومنها وهم من ألفوا الرشوة في الدنيا، فيتصورون أن بإمكانهم رشوة الملائكة، أو ربما رشوة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد:15) أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه.

ومنها أوهام كثيرة تخالف سنة الله في التعامل مع خلقه، والذي أثبته في الكتب السالفة كما أثبته في القرآن الكريم، قال تعالى في آخر سورة النجم التي جمعت أوهام القاعدين عن الكسب:﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)﴾ (النجم)

فهذه سنة الله التي لا تحتمل التغيير ولا التبديل، وكل ما يتوهم أنه شذوذ عنها، فسببه اختلاط المفاهيم أو تدخل الأهواء فيها.

وبناء على هذا فإن الخلق في الدنيا والآخرة يصنفون بحسب أعمالهم، ويجازون بحسب أصنافهم، فلا يدخل في كل صنف إلا من وفر من دلائل انتسابه ما يؤهله لذلك.

ولهذا نفت الآيات القرآنية الكثيرة أي مساواة بين العامل والمتكاسل، أو بين المصلح والمفسد، قال تعالى:﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (صّ:28)

وفي آية أخرى يستفهم مستنكرا:﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (القلم:35)

وقد شبه الله تعالى ــ لتقريب الصورة للأذهان، ولإقناع العقل المجادل بصحة هذا التصنيف ـ بعدم تساوي التعامل مع ما نراه من المحسوسات، فقال تعالى:﴿ قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (المائدة: 100)

حملك على ما صنعت؟ قال: خشية عذابك، قال: استقل ذاهبا فتيب عليه.

وشبه ذلك بالبحار المختلفة الطعوم والمنافع، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر:12)

وشبه ذلك بالتمايز الذي نراه بين الحي والميت، فقال تعالى:﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:22)

وشبه الفريقين من المؤمنين وغيرهم بالمنعم عليهم بالحواس والفاقدين لها، قال تعالى:﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: 24)، وقال تعالى:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد: 16)

وشبه الفريقين بالأحرار والعبيد، فقال تعالى:﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: 76)، وقال تعالى:﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:29)

ولهذا، فإنه لا يستوي ــ في ميزان العقل ــ المجتهد بالمتكاسل والعامل بالمقعد والقائم بالنائم، قال تعالى:﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:9)

ولا يستوي المجاهدون المضحون بأنفسهم في سبيل الله بالراكنين إل مخادع الرخاء، قال تعالى:﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:95)

وهذا التفريق شامل لأجزية الدنيا والآخرة، قال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية:21)

فحكمة اللـه وعدالتـه الـتي قـام عليهـا السـموات والآرض تأبى المساواة بين المسيء والمحسـن، قـال تعـالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَـاءُوا بِمَـا عَمِلُـوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم:31)

* * *

بعد هذه النصـوص الكثـيرة المحكمـة نرجـع إلى النصـوص المتشابهة لنحاول فهمها على ضوء ما سبق، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَـبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْـنَى أُولَئِكَ عَنْهَـا مُبْعَـدُونَ﴾ (الأنبياء:101)

ومنها قوله ﷺ:(لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنـةَ)، قـالوا: (ولا أنت يا رسـول اللّـه؟)، قـال:(ولا أنـا إلا أن يتغمـدني اللّـه تعالى برحمة منه وفضل)[1]

ومنهـا مـا يـروى عن على بن أبي طـالب قـال:(كنـا مـع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد في جنازة فقال:(مـا منكم أحـد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنـة) فقـالوا:(يارسـول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل) فقال ﷺ:(اعملوا فكل ميسر لما خلـق لـه، أمـا من كـان من أهـل السـعادة فسييسـر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهـل الشـقاوة، فسييسـر لعمـل أهـل الشـقاوة) ثم قـرأ قولـه تعـالى:﴿ فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَـدَّقَ بِالْحُسْـنَى فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْيُسْـرَى وَأَمَّا مَن بَخِـلَ وَاسْتَغْنَى وَكَـذَّبَ بِالْحُسْـنَى فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْعُسْـرَى ﴾ (الليـل:5 ـ 10) [2]

ومنها ما ورد في تفسـير قولـه تعـالى:﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف: 172) قال: سمعت رسول اللّـه ﷺ سئل عنها، فقال:(إن اللّه خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منـه ذريـة، قـال:(خلقت هـؤلاء للجنـة، وبعمـل أهـل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قـال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون)، فقال رجـل:(يـا رسـول اللّـه ففيم العمـل؟)، فقـال ﷺ:(إذا خلـق اللّـه العبـد للجنـة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يمـوت على عمـل من أعمـال أهل الجنـة فيدخلـه بـه الجنـة، وإذا خلـق العبـد للنـار اسـتعمله

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه البخاري ومسلم.

بأعمال أهل النار حتى يموت على عمـل من أعمـال أهـل النـار فيدخله به النار) (1)

وهذه الأحاديث وأمثالها تشـتبه على من لم يجمـع بين فهم سر التوحيد والعدل، فالتوحيد يقتضي أن يعلم الله ما كـان ومـا يكون، بل ما لا يكون لو كان كيف كـان يكـون، ويكـون الحاضـر والمستقل بالنسبة إليه سواء، لأن ذلك ما تقتضيه الألوهية، وقد قال ﷺ عن نفسه:(إنى عند الله مكتوب بخاتم النبيين، وإن آدم لمنجـدل في طينتـه، وسـأنبئكم بـأول ذلـك دعـوة أبى إبـراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي رأت حين ولدتني أنه خـرج منهـا نـور أضاءت له قصور الشام)(2)

فعلم الله تعالى هو العلم الذي تقتضيه الألوهية، وهو العلم في قمة كماله، وخطـأ الـذين يعترضـون بمثـل هـذه الشـبه هـو قياسهم علم الله على علم البشر، وهو قيـاس ناشـئ من خلـل في فهم التوحيد.

وهو خلل ناشئ كذلك من سـوء فهم للعـدل، فالعـادل هـو الذي يوفر لك كل الأسباب، ويمنح لك كل الفرص، ثم يحاسـبك بعد ذلك لا على علمه فيك، بل على مقتضى تصرفاتك، بل فوق ذلـك يـتيح لـك فـرص الـدفاع عن نفسـك واسـتئناف الحكم أو الطعن في الشهود في حال الحاجة إلى ذلك.

وكل هذه النواحي ـ والـتي يتخلـف أكثرهـا في كـل أقضـية الدنيا وحكوماتها ـ سنرى الشواهد الدالة عليها.

فاللـه تعـالى منحنـا حريـة الاختيـار الـتي نستشـعرها، ولا يجادلنا أحد في استشعارنا لها، ومنحنا من القوى ما نؤدي به ما أمرنا به، وأخبرنا عن القانون الذي يتم على أساسـه محاسـبتنا، ووفر لنا من الـدلائل مـا يقتنـع بـه العقـل بصـحة كـل ذلـك، ثم أخبرنـا بأنـه لا يحاسـبنا على علمـه فينـا، بـل يحاسـبنا على مـا كسبت أيدينا.

فأي عدل فوق هذا؟

زيادة على ذلك، فإن الله تعالى الـذي يعلم الأمـورعلى مـا هي عليه قد جعل للأشياء أسـبابا تكـون بهـا، فلـذلك يـدخل في علمه الأسباب ونتائجها.

---

1) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن.
2) رواه أحمد والطبراني والحاكم وأبو نعيم وغيرهم.

فلـذلك يخطئ من يقـول:(إن كنت من أهـل الجنـة فأنـا أدخلها بلا عمل صالح)، بل إن قوله متناقض باطل لأنه علم أنـه لن يدخل الجنة إلا بعمله الصالح، فلو دخلهـا بلا عمـل كـان هـذا مناقضا لما علمه الله وقدره.

أما الوهم الذي سبب هذه الأخطاء في الفهم، فهـو سـؤال (كيف)، وهو سؤال لا يسأله العقل، فالعقل لا يسأل عما يخرج عن اختصاصه، وإنما هو سـؤال يطرحـه الخيـال ليعـرف حقيقـة علم الله، فيحاول بمحدوديته أن يحد المطلق.

ولهـذا يتـنزه عن هـذا السـؤال من ذاقـوا حلاوة الإيمـان، وأدركوا بالبصيرة من نـور المعرفـة باللـه مـا وقـاهم من شـؤم التشبيه الذي يطرح مثل هذا السؤال.

أما الذي يجعل هذه الشبهة سـببا في قعـوده، فـإن وهمـه هـذا هـو الـذي يكـون سـببا في دخولـه جهنم، ولهـذا قـال ﷺ: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السـعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كـان من أهـل الشـقاوة، فسييسر لعمل أهل الشقاوة)(1)

والجمع بين فهم سر التوحيد مع سر العدل هو الـذي يزيـد المجتهد اجتهادا، بل يخلـط اجتهـاده بلـذة عظيمـة حين يعلم أن الله اختاره من بين الكثيرين من خلقه ليعبـده وييسـره لطريـق أهـل الجنـة،ويقيـه في نفس الـوقت من الغـرور الـذي يجعلـه متعاظما بعمله متكبرا به.

أما الواقع في بـراثن التشـبيه فقـد يستسـلم لهـذه الشـبه والأوهام، وتكون سببا لقعوده عن كل عمل، ويكون ذلك الـوهم سرا من أسراره تيسـيره لأعمـال أهـل الشـقاوة، ولهـذا سـبق آيات سورة الليل التي فسرها رسول الله ﷺ بقوله تعالى: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (الليل:4)

غير المكلفين:

قد عرفنا أن أمـر المكلـف بيـده، فـإن أحسـن فلنفسـه، وإن أساء فعليها، ولا حجة له بعد أن قامت عليه كل الحجج.

ولكن..

كيف يتحق العدل مع غير المكلف؟

مع ذلك الصبي الـذي مـات وهـو يحمـل بـذور الخـير والشـر، والتي لم تسق بعد فتنبت.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

أو مع ذلك الفلاح الذي عاش في أقاصي الأرض منهمكا مع محراثه لا يعلم بإله، ولا يعرف نبيا.

أو مع ذلك المعتوه الذي يرمى بالحجارة، ولو كان عاقلا لتبين معدنه، وتحقق خبثه أو طيبه.

إن قلنا بأنهم يدخلون الجنة، فبأي عمل عملوه؟

وإن قلنا بأنهم يدخلون النار، فبأي جناية جنوها؟

وإن قلنا: إن أمرهم للمشيئة، أو لعلم الله فيهم، فلماذا لم يكن أمر الخلق جميعا للمشيئة، فلم تقم محكمة القيامة، ولم يكن هناك حساب ولا كتب ولا موازين؟

وإن قلنا: إن أمرهم للرحمة، فقد يقول البالغ: لماذا يارب لم تتوفني صبيا لتشملني رحمتك التي شملت الصبي؟

ويقول العاقل: لم يارب لم تذهب عقلي لأبصر من الرحمة ما يبصره المجنون؟

ويقول الفيلسوف: لم يا رب لم تجعلني في غياهب الجهل التي حميت بها ذلك الفلاح البسيط من التعرض لمقتك وعقابك؟

إن هذه المسألة من أعقد المسائل التي خيض فيها بعلم وبغير علم، والحديث عن عدالة الله في الجزاء يقتضي المرور بها والحديث عما نراه متناسبا مع ما حاولنا فهمه من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة في هذا المجال.

والذي دعانا إلى هذا هو ما أخبر به ﷺ من دخول الشبه من هذا الباب، كما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:(لا يزال أمر هذه الأمة موائما أو مقاربا ما لم يتكلموا في الولدان والقدر) وفسر الراري (الولدان) بأنه أراد بهم أطفال المشركين) (1)

ففهم القدر، وعدالة الله فيه يقتضي التعريج على هذه المسألة لنفي الشبه الكثيرة التي تحرف كمالات عدالة الله.

* * *

وبداية ننبه إلى أن جزاء الله كما نص عليه القرآن الكريم مرتبط بالقدرة على تحمل التكليف، ولذلك قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام:131) أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، فلم نعذب أحدا إلا بعد إرسال الرسل إليهم.

---

1)رواه أبو بكر البزار.

وتحتمل الآية كذلك: إن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر فيظلمهم بذلك، واللّه غير ظلام لعبيده.

وهذا الوجه الثاني هو الذي يبين علاقة العدالة بالجزاء في هذا الصنف من الخلق.

وهو ما دلت عليه النصوص الكثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ (الحجر:4)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ (الشعراء:208)، وقوله تعالى: ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الاسراء: 15)

ولهذا كان من جملة الأسئلة التي يواجه بها أهل جهنم تبكيتا وإظهارا لعدالة الجزاء ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك:8)

* * *

ومثل ارتباط التكليف ببلوغ الدعوة يرتبط ببلوغ سن القدرة على التمييز واستعمال العقل، لأن أحكام الله تعالى مرتبطة بالعقل.

فالعقل هو المدرك لأحكام الله، والنافذة التي يطل منها الإنسان على مراده، ولهذا قال ﷺ:(رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحلم - أي يستكمل خمس عشرة سنة وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق) (1)

وهؤلاء الثلاثة رفع عنهم القلم بسبب العقل، فالأول لم يكتمل عقله، والثاني غفل عقله، والثالث غاب عقله.

* * *

بعد هذه الأدلة القطعية على ارتباط التكليف بالعقل وبلوغ الدعوة، مع ارتباط الجزاء بالتكليف نحاول التعرف على مصير هذه الفئة التي لم تمنح أدوات التكليف.

وهذا يدعونا إلى دراسة الآراء الواردة في المسألة مع محاولة الجمع بين النصوص الواردة فيها، لنرى من خلالها كيف تتحقق العدالة مع هذا الصنف من الخلق.

القول الأول:

وأول قول نبدأ باستبعاده هو القول بأنهم في النار.. فهذا القول يتنافى مع الحكمة والعدل والرحمة التي بنيت عليها أقدار

---

1) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم.

الله.

وللأسف، فقد قال بهذا القول قـوم، مسـتندين في ذلـك إلى أحاديث ضعيفة أو موضـوعة يريـدون بهـا تحطيم الأسـس اليقينيـة التي وردت بها النصوص المحكمة.

ومن هذه النصوص ما روي أن رسول الله ﷺ سـئل عن أولاد المسلمين أين هم؟، فقال:(في الجنة) وسئل عن أولاد المشركين أين هم يـوم القيامـة؟، فقـال:(في النـار)، فقيـل لـه:(لم يـدركوا الأعمال ولم تجر عليهم الأقلام) قال:(ربك أعلم بما كانوا عـاملين، والذي نفسي بيده لئن شئت أسمعتك تضاغيهم(1) في النار) (2)

وهذا الحديث الضعيف لا يصح أن يستدل به على مثل هذا، زيادة على معارضته النصوص المحكمة والأحاديث الصحيحة.

ومن الأحـاديث الموضـوعة الخطـيرة الـتي تـروى في هـذا المجال من دون تحقيق أو تمحيص، ومن دون عرضـها على محكم القرآن الكريم والسنة المطهرة، فيغتر بها، ما يروى عن سـلمة بن يزيد الجعفي: قال: أتيت أنا وأخي رسول الله ﷺ، فقلنـا:(إن أمنـا ماتت في الجاهليـة، وكـانت تقـري الضـيف، وتصـل الـرحم، فهـل ينفعها من عملها ذلك شيء؟)، قال:(لا) قلنا لـه:(فـإن أمنـا وأدت أختا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث) فقال:(الموؤودة والوائـدة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم)(3)

وهذا الحـديث زيـادة على تناقضـه مـع عدالـة اللـه المطلقـة والتي قد تدرك بالعقل يتناقض مع القـرآن الكـريم الـذي نص على أن المؤودة تسـأل عن أي ذنب قُتلت ليكـون ذلـك تهديـداً لقاتلهـا، فإنــه إذا سـئل المظلــوم فمـا ظن الظــالم، قـال تعـالى: وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (التكوير:8 ـ 9)

زيادة على ذلك تصريح النصوص الصحيحة بعكس ذلك، وأنهـا في الجنة، وقد يكون ذلك رحمة خاصة بها، ولذلك قـرنت بالشـهيد في قوله ﷺ:(النبي في الجنة، والشـهيد في الجنـة، والمولـود في

---

1) أي صياحهم وبكاءهم. يقال ضغا يضغو ضغوا وضغاء إذا صاح وضج (النهاية:3/92)

2) الحديث أورده ابن حجر في الإصابة (174 ـ 175) قال البيهقي: هـذا منكـر وقـد خبط فيه يوسف بن عطيـة الصـفار وهـو ضـعيف جـدا. وهكـذا ذكـره الهيثمي في مجمـع الزوائد (1 / 57) وقال رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به، وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح قال احمد بن حنبل يحيى بن المتوكل يـروي عن بهيـة احـاديث منكـرة وهو واهي الحديث وقال يحيى ليس بشيء وقال علي والفلاس والنسائي هو ضعيف قال ابن حبان ينفرد باشياء ليس لها اصول وقال السعدي سألت عن بهية كي اعرفها فأعيانـا، انظر: العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي: 2/924.

3) رواه أحمد والنسائي.

الجنة، والموءُدة في الجنة)[1]

وفي حديث آخر:(قيل: يا رسول اللّه مَن في الجنة؟)، فقال ﷺ:(الموؤودة في الجنة)[2]

فهذه الأحاديث تتعارض مع الأحاديث السابقة، ويتجلى فيها نور الحديث الصحيح، وتتناسب مع عدالة الله تعالى ورحمته:

أما عدالته، فإن الأذى الشديد الذي تعرضت له يشبه الشهادة، فلذلك قرنها ﷺ في الحديث السابق بالشهيد.

أما رحمته، فبأن تدخل الجنة من غير تعرضها للامتحان.

ومن الأدلة التي استدلوا بها كذلك على دخول غير المكلفين النار، ما روي من احتجاج الجنة والنار، وأن الله تعالى ينشئ للنار خلقا يسكنهم إياها.

وهذا الحديث غير محفوظ به الصيغة، بل لفظه الصحيح، هو قوله ﷺ:(تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والتمجبرين؛ وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال اللّه عزَّ وجلَّ، للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فلا تمتليء حتى يضع رجله فيها فتقول: قط قط فهنالك تمتليء وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم اللّه عزَّ وجلَّ من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن اللّه عزَّ وجلَّ ينشيء لها خلقاً آخر)[3]

ولو فرضنا صحة ما استدلوا به،أو فرضنا أن المراد بالرجل في الحديث خلق من خلق الله، فقد يكون لهذا الخلق خاصية التنعم بالنار، فتكون جهنم نعيما لهم، أو أن لا يكون لها أي تأثير عليهم، كما أنه ليس لها أي تأثير على خزنة جهنم وزبانية النار.

ومما استدلوا به كذلك قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور:21)

فقاسوا ذرية الكافرين بذرية المؤمنين، وهو قياس غير صحيح، فليست هناك أي علة يمكن الرجوع إليها في هذا، والقياس لا يصح في الغيبيات.

بل ذكر ابن القيم أن الآية حجة على نقيض ما ادعوه من

---

1) رواه أحمد وأبو داود.
2) رواه الطبراني.
3) رواه البخاري ومسلم.

وجهين [1]:
الأول: إخباره أنـه لم ينقص الآبـاء بهـذا الإلحـاق من أعمـالهم شيئا، فكيف يعذب هذه الذرية بلا ذنب؟
والثاني: أنه سـبحانه نبـه على أن هـذا الإلحـاق مختص بأهـل الإيمان وأما الكفار فلا يؤاخذون إلا بكسبهم كما قـال تعـالى: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: 21) رهين.
ومما استدلوا به كذلك قوله تعالى إخبارا عن نـوح عليه السلام أنـه قال: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِـلُّوا عِبَـادَكَ وَلا يَلِـدُوا إِلَّا فَـاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح:27)
وهذا ـ كذلك ـ لا حجة فيه لأنه إنما أراد به كفار أهل زمانـه لا عموم الكفار، ثم إن قوله: ﴿ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ حـال مقـدرة، أي من إذا عاش كـان فـاجرا كفـارا، ولم يـرد أنهم حـال طفـولتهم يكونون فجرة كفرة.

* * *

ومما تنهـد بـه الجبـال، ويرتبـط بهـذا، مـا يشـيعه بعضـهم ويدافع عنه بكل صنوف الـدفاع من كـون أبـوي رسـول اللـه ﷺ في النار.
ومن العجب أن الذي يقول هذا، أو يحكم بهذا يقصره على أبـوي رسـول اللـه ﷺ دون سـائر المشـركين، وكـأن التهمـة الموجهة لأبوي رسول الله ﷺ، وهما من أهل الفـترة، هي أنهمـا أبوا رسول الله ﷺ.
ومـا كـان لنـا أن نجـرؤ، فنتحـدث عن هـذا، لـولا أن هـؤلاء جعلوا من علامات السنة هذا الاعتقاد..
ومما استدل به هؤلاء على هذا المعتقد الشـنيع[2]، مـا ورد في الحديث عن أبي هريـرة مرفوعـا: أن رسـول اللـه ﷺ قـال: (استأذنت ربي أن اسـتغفر لأمي، فلم يـأذن لي، واسـتأذنته أن أزور قبرها، فأذن لي)[3]
ومنها ما وري أن رجلا قال: يا رسـول اللـه أين أبي؟ قـال: في النار، فلما قضى دعاه فقال:(إن أبي وأباك في النار) [4]

---

1) أحكام أهل الذمة: 2/1109.
2) من المراجع التي رجعنا إليهـا في الـرد على هـذه الشـبهة الخطـيرة رسـالة مهمـة بعنوان (إظهار الحق بوجوب الدفاع عن سيد الخلق)، لأبي الفضل الفلسـطيني.
3) رواه مسلم.
4) رواه مسلم.

وأول نقد يتوجه إلى هـذين الحـديثين هـو أنهمـا معلـولان.. وانتفاء العلة من شروط الحديث الصحيح.

وأول علـة في هـذين الحـديثين، وأخطـر علـة معارضـتهما لصـريح القـرآن الكـريم كقولـه تعـالى: ﴿ وَمَـا كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الاسراء: 15)

وقـال تعـالى: ﴿ ذَلِـكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِـكَ الْقُـرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـافِلُونَ ﴾ (الأنعـام:131)، فقـد اعتـبر اللـه تعـالى إهلاك القرى من غير نذير ظلما.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَـالُوا رَبَّنَـا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَـذِلَّ وَنَخْـزَى ﴾ (طــه:134)، أي أن الحامـل على إرسـال الرسـل تعللهم بهـذا القول واحتجاجهم به.

واعتبر القرآن ذلك من العدل الإلهي، فقـال تعـالى: ﴿ وَمَـا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَـا كُنَّا ظَـالِمِينَ (209) ﴾ (الشعراء)، فقولـه ﴿ وَمَـا كُنَّا ظَـالِمِينَ ﴾ دليـل على أن إهلاك القرى من غير أن يرسل إليهم النـذر ظلم يسـتحيل على الله تعالى.

وذكر الله سنته مع القرى في هذا، فقال: ﴿ وَمَـا كَـانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (القصص:59)

وغيرها من الآيات التي تخبر بأن الله لا يعذب أحدا إلا بعد أن يقيم الحجة عليه.

وبناء على هذا، فقد أخبر القرآن الكريم بـأن القـوم الـذين بعث فيهم رسـول اللـه ﷺ، والـذين منهم أبـواه لم يـأتهم نـذير قبله، لصريح قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُـونَهَا وَمَـا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَـذِيرٍ ﴾ (سـبأ:44)، وقولـه تعـالى: ﴿ وَمَـا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمـاً مَـا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص:46)، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَوْمـاً مَـا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (السجدة:3)

فهـذه الآيـات صـريحة بأنـه لم يكن هنـاك رسـول في بلاد العـرب قبـل رسـول اللـه ﷺ.. وذلـك ــ مـع الآيـات الـتي تنفي التكليف عمن لم يرسل إليه رسـول ــ دال على أن المشـركين الذي كانوا قبل إرسال رسول الله ﷺ هم من أهل الفترة.

وقد يعترض هنا بأن هناك رسالة المسيح، والجواب على ذلك من القرآن نفسه، فقد اعتبر الله رسالة المسيح خاصة ببني إسرائيل، قال تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)﴾ (آل عمران)

وفي الإنجيل، يقول المسيح:(لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) (متى 15 / 24)؟

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفًّى مهذَّبا لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما)(1)، فوصف رسول الله ﷺ أصوله بالطاهرة والطيبة، وهما صفتان منافيتان للكفر والشرك، كما قال تعالى يصف المشركين:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة: 28)

وما نقل من سيرتهم يدل على ذلك، وقد عقد علماء السيرة لذلك فصولا خصوها بالحديث عن أجداد رسول الله ﷺ وسمو أخلاقهم.

أما أمه، فإن ما يروى عنها لا يدل إلا على أن لها مكانة من الولاية والاصطفاء لا يمكن لنا تصورها، وقد روي عن أم سماعة بنت أبي رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة بنت وهب في علتها التي ماتت فيها ومحمد غلام يفع له خمس سنين عند رأسها، فنظرت إلى وجهه، ثم رددت أبياتا، ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيرا وولدت طهرا)، ثم ماتت(2).

بل إن النبي ﷺ ـ فوق ذلك كله قرنها بأنبياء كرام، فقال، عندما سئل: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، فقال:(أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام)(3)

1) رواه أبو نعيم.
2) رواه أبو نعيم.
3) رواه الحاكم وصححه والبيهقي، وقد ذكرت بعض النسوة الحاضرات مولده - صلى الله عليه وسلم - هذه الأنوار، فعن عثمان بن أبى العاص، قال: حدثتني أمي، أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته، قالت: فما شئ أنظره في البيت إلا نور، وإنى أنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول: لتقعن على(رواه البيهقى)

وبذلك.. فإن الحديث الذي نهي فيه ﷺ عن الاستغفار لها، ولو صح، فإن مثل هذه المرأة لا يستغفر لها، بل يترضى عنها، ويسلم، ويصلى عليها، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ (النمل: 59)

زيادة على أنه ليس لها من الأدب.. ولا من تعظيم آل رسول الله ﷺ أن يقال (آمنة) غفر الله لها.. فهذه الكلمة قد يستشعر بعض مرضى النفوس من معناها أنها كانت ذات خطايا(1).. وهو مما يسيء إلى هذه المرأة الشريفة الفاضلة التي شرفت بخير مولود على هذه الأرض.

أما ما يروى عن أب رسول الله ﷺ من أن رجلا قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: (في النار)، فلما قفى دعاه فقال: (إن أبي وأباك في النار)، فلهذا الحديث ثلاثة طرق:

أما السند الأول، فروي عن طريق حماد بن سلمة عن ثابت وهي التي جاء فيها: (إن أبي وأباك في النار)

وأما السند الثاني، فهو عن طريق معمر عن ثابت وهي خالية من ذكر (إن أبي وأباك في النار)

وأما السند الثالث، فعن طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص وهي خالية أيضا من ذكر (إن أبي وأباك في النار)، غير أنها تنتهي بقوله ﷺ:(حيث ما مررت بقبر كافر فبشره بالنار)

فالطريق الأولى في سندها ثابت وحماد بن سلمة، أما ثابت فهو عند بعضهم ثقة، ولكن ذكره ابن عدي في الضعفاء وعلل الحديث فقال:(إنه وقع في أحاديثه ما ينكر، وهذا الحديث منها، وأمَّا حماد فقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في مقدمة (فتح الباري): حماد بن سلمة بن دينار البصري أحد الأئمة الأثبات إلا أنه ساء حفظه في الآخر. وقال السيوطي عن حماد بن سلمة في كتابه (مسالك الحنفا في نجاة والدي المصطفى): إن حماد تكلم في حفظه ووقع في أحاديثه مناكير ذكروا أن ربيبه دسها في كتبه، وكان حماد في آخر حياته لا يحفظ فحدث بها فوهم فيها ومن ثم لم يخرج له البخاري شيئا، ولا خرَّج له مسلم في اصول الدين إلا من روايته عن ثابت. قال الحاكم في المدخل:(ما خرج مسلم لحماد إلا من حديثه عن ثابت)

1) ومما يزيد الطين بلة أن الخطايا عند بعض النفوس المريضة لا تعني إلا الفواحش.

أما السندان الثاني والثالث، ففي سند الرواية الثانية معمر عن ثابت عن أنس عوضاً عن حماد عن ثابت.

والروايـة الثالثـة جـاءت بالسـند الآتي فقـد أخـرج الـبزار والطبراني والبيهقي من طريـق إبـراهيم بن سـعد عن الزهـري عن عامر بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص أن أعرابياً قـال لرسول الله ﷺ: أين أبي؟ قال: في النار قال: فأين أبوك؟ قال: حيث ما مررت بقبر كافر فبشره بالنار.

ويُلاحظ أن السند الأول ذكر فيه حمـاد عن ثـابت، والسـند الثاني ذكر فيه معمر عن ثابت، ومن المعـروف أن معمـرا أثبت من حماد بدليل أن حماداً تُكلِّم في حفظه كما سلف، ولم يتكلم أحد في معمر.

قال السيوطي في نفس المرجـع المـذكور:(وأمـا معمـر، فلم يتكلم في حفظه ولا اسْتُنكر شيءٌ من حديثـه، واتفـق على التخريج له الشيخان، فكان لفظه أثبت أي فتكون روايتـه أوثـق وأثبت وأقرب الى الصحة)

وأمـا سـند الروايـة الثالثـه فقـد قـال السـيوطي في نفس المرجع:(وهذا إسناد على شرط الشـيخين فتعين المصـير اليـه والاعتماد على هذا اللفظ وتقديمه على غيره)

القول الثاني:

وأما القول الثاني في المسألة، فهو عكس القول الأول، وهـو أنهم في الجنة، وقد ذهب إلى هذا القول الكثير من العلمـاء، ودلت عليه بعض النصوص، ومنها ما روي في الحـديث أن رسـول اللهﷺ قال يحكي رؤيا رآها:(فأتينا على روضة معتمـة فيهـا من كـل لـون الربيع وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طـولا وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط) ثم قال:(وأما الولدان حوله فكل مولود مات على الفطـرة) فقـال بعض المسـلمين:(يـا رسـول اللـه وأولاد المشـركين)، فقـال رسـول اللـه ﷺ:(وأولاد المشركين)(1)

واستدلوا بالأحاديث الدالة على كـون المـوؤودة في الجنـة السابق ذكرها.

وهذا القول يدل على غلبة الرحمة في يوم القيامة، ولكنـه مـع ذلـك معـارض بالنصـوص الدالـة على العـدل المطلـق في الآخرة، كما سنرى.

---

1) رواه أحمد والطبراني في الكبير.

القول الثالث:

ومن الأقـوال الـتي تتنـافى مـع مـا نصـت عليـه النصـوص القطعية من عدالة الله تعالى أن حكمهم حكم آبائهم في الـدنيا والآخرة، فلا يفردون عنهم بحكم في الـدارين، فكمـا أنهم منهم في الدنيا فهم منهم في الآخرة.

واالرد على هذا المـذهب كـالرد على القـول الأول، بـل إن المذهب أبشع مما قبله، لأن القائلين بـه يجعلـون مصـير الأبنـاء في الآخرة مرهونا بأعمـال الآبـاء، فلـذلك قـالوا بأنـه لـو أسـلم الأبوان بعد موت أطفالهما لم يحكم لأفراطهما بالنار.

وقد استدل هـؤلاء بالإضـافة لمـا سـبق بمـا ورد في الحـديث الصـحيح أن رسـول اللـه ﷺ سـئل عن الـذراري من المشـركين يبيتون فيصيرون من نسائهم وذراريهم فقال ﷺ:(هم منهم)(1)

والمراد من هذا الحديث ما يتعلق بالأحكام الدنيوية، لأن ذلـك هو محل السؤال، قال النـووي:(هم من آبـائهم أي لا بـأس بـذلك، لأن أحكـام آبـائهم جاريـة عليهم في المـيراث وفي النكـاح وفي القصـاص والـديات وغـير ذلـك، والمـراد إذا لم يتعمـدوا من غـير ضرورة)

ومن القياس استدلوا بأن إتباع ذرية المؤمنين بآبائهم كـان إكراما لهم وزيادة في ثوابهم، وأن الإتبـاع إنمـا اسـتحق بإيمـان الآباء، فكذلك إذا انتفى إيمان الآباء انتفى الإتباع الذي تحصل به النجاة.

وهذا قياس خطير لا يلجأ لمثله في احكام الدنيا الفانية من أجل حظوظ بسيطة، فكيف يلجأ إليه في أحكـام الآخـرة، واللـه تعالى يقول: وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَـا وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (الأنعام: 164)

القول الرابع:

ومن الأقوال التي لا تستند إلا على مجرد الوهم والكلام بلا علم مـا ذكـره بعضـهم من أنهم يكونـون يـوم القيامـة ترابـا، وهوقول لا مستند له من نقل أو عقل.

ومن الأقوال في المسـألة والـتي تخـالف الأدلـة القطعيـة، القول بأنهم خدم أهل الجنة، واستدل هؤلاء بحديث ضعيف روي عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال:(سألت ربي عن

---

1) وهذا الحديث معارض بالأحاديث الناهية عن قتل الصـبيان، ولكنـه في حالـة خاصـة وهي عدم التمكن من التميز.

اللاهين من ذرية البشر ألا يعـذبهم فأعطـانيهم، فهم خـدم أهـل الجنة يعني الصبيان)(1)

وهذا القول مـع ضـعف دليلـه يتنـافى مـع مـا نصـت عليـه النصوص المحكمة من أن أمر الخلـق بيـد اللـه، لا بيـد أحـد من خلقه، ثم كيـف يصـور رسـول اللـه ﷺ الرحمـة المهـداة، وكأنـه أرحم بالخلق من خالقهم.

القول الخامس:

وهو أكثر الأقوال شهرة، والقول بـه يلغي البحث في هـذه المسألة، ويلغي ما ورد فيها من النصـوص هـو القـول بــ (أنهم مردودون إلى محض مشيئة الله بلا سبب ولا عمل)

أي أنه يجوز أن يعمهم الله تعالى جميعا برحمته، ويجوز أن يدخل بعضهم الجنة وبعضهم النار، فكلها جائزة بالنسبة إلى الله تعالى وإنما يترجح بعضها على بعض بمجرد المشيئة.

وهو بذلك يرى التوقف في أمرهم، فلا يحكم لهم بجنـة ولا نار، وقد يعبر عن هـذا القـول بمـذهب الوقـف، وقـد يعـبر عنـه بمذهب المشيئة، وأنهم تحت مشيئة الله يحكم فيهم بما يشـاء، ولا يدرى حكمه فيهم ما هو.

ومما استدل به على هذا القول قوله ﷺ:(ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتج البهيمـة من بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء قـالوا يـا رسـول اللـه أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بمـا كـانوا عـاملين) (2)

عن ابن عبـاس أن النـبي ﷺ سـئل عن أولاد المشـركين، فقال:(الله أعلم بما كانوا عاملين) (3)

وهذا القول يتنافى مع مـا ذكرنـا سـابقا من أن اللـه تعـالى لا يحاكم عباده إلى علمه فيهم، بل يحاكمهم إلى أعمالهم، بل يضيف إلى ذلك الشهود إقامة للحجة عليهم.

فكيـف يقبـل العقـل أن يعامـل اللـه أولئـك بهـذه المعاملـة، ويعامل غيرهم معاملة أخرى، مع أن عدالة الله تسـوي بين الخلـق جميعا؟

---

1) البيهقي في الشعب، والدارقطني في الأفراد والضياء.
2) أحكام أهل الذمة: 2/1126.
3) أحكام أهل الذمة: 2/1126.

ومنشأ هذا القول هو الفهم الخاطئ لجوابه ﷺ حين سئل عنهم، فقال:(الله أعلم بما كانوا عاملين)(4)

القول السادس:

بعد هذه الأقوال جميعا، والتي تكاد تحصي كل الاحتمالات الممكنة للمسألة فإن القول الذين نراه، والذي ينسجم مع عدالة الجزاء، وقد تجمع على أساسه النصوص المختلفة هو ما وردت به النصوص من أن هؤلاء الذين لم تتح لهم فرصة التكليف في الدنيا تتاح لهم هذه الفرصة في الآخرة.

فيرسل إليهم الله تعالى رسولا، وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وبناء على ذلك يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار.

وقد وردت بعض النصوص تدل على هذا القول:

ومنها ما روي أن النبي ﷺ قال:(أربعة يمتحنون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، أما الأصم فيقول:(يا رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئا) وأما الأحمق فيقول:(يا رب قد جاء الإسلام والصبيان يرمونني بالبعر) وأما الهرم فيقول:(يا رب قد جاء الإسلام وما أعقل شيئا) وأما الذي مات في الفترة فيقول:(ما أتاني لك رسول)، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار)، قال ﷺ:(فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما، ومن لم يدخلها سحب إليها)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيرا، فيقول الممسوخ عقلا: يا رب لو آتيتني عقلا ما كان ما آتيته عقلا بأسعد بعقله مني، ويقول الهالك في الفترة: لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهدك مني، ويقول الهالك صغيرا: يا رب لو آتيتني عمرا ما كان من آتيته عمرا بأسعد بعمره مني، فيقول الرب سبحانه: إني آمركم بأمر أفتطيعوني؟ فيقولون: نعم وعزتك فيقول: اذهبوا فادخلوا النار، ولو دخلوها ما ضرهم، فتخرج عليهم قوابس (3) يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله عز وجل من شيء، فيأمرهم فيرجعون سراعا يقولون: خرجنا يا رب وعزتك نريد دخولها، فخرجت علينا قوابس ظننا أنها قد

---

4) رواه ابن عساكر.

2) رواه النسائي والحاكم وابن مردويه.

3) قوابس: القبس: الشعلة من النار. النهاية 4/4.

أهلكت ما خلق الله عز وجل من شيء، فيأمرهم الثانية، فيرجعون كذلك فيقولون مثل قولهم فيقول الله عز وجل سبحانه: قبل أن تخلقوا علمت ما أنتم عاملون وعلى علمي خلقتكم وإلى علمي تصيرون ضميهم، فتأخذهم النار.

ومنها قوله ﷺ:(إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم، فيسألهم ربهم عز وجل فيقولون: لم ترسل إلينا رسولا ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكنا أطوع عبادك، فيقول ربهم: أرايتم إن أمرتكم بأمر تطيعونه؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعبروا جهنم فيدخلونها فينطلقون حتى إذا دنوا منها سمعوا لها تغيظا وزفيرا فيرجعون إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا منها، فيقول: ألم تزعموا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني، فيأخذ على ذلك من مواثيقهم فيقول: اعمدوا لها فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا فقالوا: ربنا! فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها، فيقول: ادخلوها داخرين)، قال رسول الله ﷺ:(فلو دخلوها أول مرة كانت عليهم بردا وسلاما)(1)

وقد تكلم العلماء بالإنكار على هذه الأحاديث واعتبارها من الضعف بحيث لا تنهض للاستدلال بها، وقد رد ابن كثير على ذلك بقوله:(إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها)(2)

وأيدها ابن القيم بجملة وجوه، لا بأس من إيراد بعضها هنا(3):

1. منها أن هذه الأحاديث كثرت بحيث يشد بعضها بعضا، وقد صحح الحفاظ بعضها.
2. ومنها أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.
3. ومنها أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضا فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة

1) رواه البزار بإسنادين ضعيفين.
2) تفسير ابن كثير: 5/58.
3) أحكام أهل الذمة: 2/1147.

على رسـول الله ﷺ، زيـادة على أنه قد رواها أئمة الإسـلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

4. ومنها أنه وإن أنكرها بعض المحـدثين، فقد قبلها الأكـثرون، والـذين قبلوها أكـثر من الـذين أنكروها وأعلم بالسـنة والحـديث، وقد حكى الأشـعري اتفـاق أهل السـنة والحـديث على القول بها.

ويضاف إلى هذا التأييد الروائي، ما يـدل على توافقهـا مـع العدالة والرحمة الإلهية، وما يجمـع على أساسـه كـل النصـوص السابقة، وكل الأقوال المبنية عليها.

أما اتفاقها مع العدالة، فحتى لا يتأسف العاقل على أنه لم يكن مجنونا، أويتأسف البالغ على انه لم يمت صبيا.

وهذا ما نطق به القرآن الكريم ودلت عليه قواعد الشـرع، قال ابن القيم:(فهي تفصيل لما أخبر بـه القـرآن أنـه لا يعـذب أحد إلا بعد قيام الحجـة عليـه، وهـؤلاء لم تقم عليهم حجـة اللـه في الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحق المواطن أن تقـام فيه الحجة يوم يقـوم الأشـهاد وتسـمع الـدعاوى وتقـام البينـات ويختصم الناس بين يدي الرب وينطق كل أحد بحجتـه ومعذرتـه فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم)[1]

أما اتفاقها مع الرحمة، فإن اللـه تعـالى يكلـف هـؤلاء بعـد معاينتهم لأمر الآخرة، ويكون التكليف حينها مع شدته هينا.

أمـا اجتمـاع النصـوص على أساسـها، فلأن من هـؤلاء من يطيع الله، فيدخل الجنة، ومنهم من يعصيه، فيدخل النار، وبذلك كلـه وردت النصـوص، قـال ابن كثـير:(وهـذا القـول يجمـع بين الأدلـة كلهـا. وقـد صـرحت بـه الأحـاديث المتقدمـة المتعاضـدة الشاهد بعضها لبعض)[2]

والاعتراض الثاني الذي قد يوجه لهـذا القـول هـو مـا سـاد اعتقاده من أن الدار الآخرة دار الجـزاء لا دار التكليـف، فكيـف يكلف هؤلاء بالعمل؟

ومع أن لهؤلاء أحوالهم الخاصة التي قـد لا يشـاركهم فيهـا غيرهم إلا أن الأدلة متظافرة على أن هذا الاعتقاد السـائد ليس على عمومه.

---

1) أحكام أهل الذمة: 2/1149.
2) تفسير ابن كثير: 5/58.

وقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم:42)، وقد ثبت في الحديث أن المؤمنين يسجدون للّه يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خر لقفاه(1).

وفي الحديث الآخر في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن اللّه يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول اللّه تعالى:(يا ابن آدم ما أغدرك!) ثم يأذن له في دخول الجنة(2).

زيادة على ذلك ما ثبت في النصوص الكثيرة من الامتحانات والأسئلة التي يتعرض لها أهل القبور.

أما الاعتراض الثالث، فهو تصور استحالة أن يكلفهم اللّه دخول النار، لأن ذلك ليس في وسعهم.

وهذا الاعتراض أيضا غير صحيح لأن ذلك في وسعهم من جهة، وهو مع مشقته لا يختلف كثيرا عن الكثير من التكاليف التي يطلب بها الفوز بسعادة الأبد:

ومنها أن اللّه تعالى يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم.

ومنها ما ثبت في السنّة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر ﷺ المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً(3)، وهذا يشبه إلى حد كبير هذا الامتحان الذي تعرض له هؤلاء.

ومنها أن الله تعالى أمر بني إسرئيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها اللّه عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل (4)، وهو لا يقل مشقة على

1) رواه البخاري.

2) الحديث طويل رواه البخاري ومسلم.

3) الحديث طويل، وهو مروي في أكثر أصول السنة، وبهذا اللفظ راه أبو داود وابن ماجه.

4) كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ

النفوس مما تعرض له هؤلاء.

ومنها أن الكثير من الأوامر التي أمر الله تعالى بها في الدنيا نظير الأمر بدخول النار (فإن الأمر بإلقاء نفوسهم بين سيوف أعدائهم ورماحهم وتعريضهم لأسرهم لهم وتعذيبهم واسترقاقهم لعله أعظم من الأمر بدخول النار)(1)

زيادة على ذلك كله، فإن أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ (وإنما هو امتحان واختبار لهم هل يطيعونه أو يعصونه فلو أطاعوه ودخلوها لم تضرهم وكانت عليهم بردا وسلاما، فلما عصوه وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفة أمره، والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليها بباطنه فيأمرونه بأمر شاق عليه في الظاهر، هل يوطن نفسه عليه أم لا؟فإن أقدم عليه ووطن نفسه على فعله أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزموه به أو عاقبوه بما هو أشد منه)(2)

ومن هذا الباب أمر الله تعالى الخليل ﷺ بذبح ولده، ولم يكن مراده تعالى من ذلك سوى امتحانه على مدى امتثاله وتسليمه وتقديمه محبة الله على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمر بالذبح.

بل إن عباد النار ــ مع كفرهم ــ يتهافتون فيها ويلقون أنفسهم فيها طاعة للشيطان، ولا يقولون: ليس ذلك في وسعنا مع تألمهم بها غاية الألم، (فعباد الرحمن إذا أمرهم أرحم الراحمين بطاعته باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم وهو إنما يأمرهم بذلك لمصلحتهم ومنفعتهم)(3)

بل إن اقتحامهم النار المفضية بهم إلى النجاة لا تختلف عن الكي الذي يحسم الداء، أو هي بمنزلة تناول الداء الكريه الذي يعقب العافية.

فليس أمرهم بدخول النار من باب العقوبة في شيء، لأن (الله تعالى اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمته ألا يعذب من لا ذنب له، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك كما يتعالى عما يناقض صفات كماله، فالأمر باقتحام النار للخلاص منها هو عين الحكمة والرحمة والمصلحة، حتى لو أنهم بادروا إليها طوعا واختيارا

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة:54)

1) أحكام أهل الذمة:2/1154.

2) أحكام أهل الذمة:2/1152.

3) أحكام أهل الذمة:2/1155.

ورضي حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يـأمرهم بـه لكـان ذلـك عين صـلاحهم وسـبب نجـاتهم، فلم يفعلـوا ذلـك ولم يمتثلـوا أمره، وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضـاه وصـلاحهم، بـل هـان عليهم أمره وعـزت عليهم أنفسـهم أن يبـذلوا لـه منهـا هـذا القـدر الـذي أمرهم به رحمة وإحسانا لا عقوبة)(1)

2 ـ الميزان:

كما أن العدل سار في جميع المكلفين، فلا يقدم أحدهم على غيره إلا بما كسبت يداه، فإن العدل كذلك سار في الموازين الـتي توزن بها الأعمال، فلا يظلم أحد مثقـال ذرة، قـال تعـالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَإِنْ كَـانَ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:47)

وهـذه المـوازين تعتمـد على الأعمـال الـتي أحصـاها اللـه تعالى على عباده، فلم يغادر صغيرة ولا كبـيرة، قـال تعـالى في موعظة لقمـان عليه السلام لابنـه: ﴿ يَـا بُنَيَّ إِنَّهَـا إِنْ تَـكُ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:16)

وقـد أخـبر تعـالى عن مقالـة المكلفين حين يبصـرون دقـة موازين الله، فقال: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَـرَى الْمُجْـرِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـذَا الْكِتَـابِ لا يُغَـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَـداً﴾ (الكهف:49)

ولذلك فإن الإنسان يرى في القيامة كـل مـا كسـبت يـداه ابتـداء من مثاقيـل الـذر، وهـذا من العـدل الـذي يجعـل المتهم مبصرا لجرائمه وذنوبه التي يحاكم على أساسها، قـال تعـالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْـراً يَـرَهُ وَمَنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7 ـ 8)

وقد أخبر تعالى أن ثقل هذه الموازين بالأعمال الطيبة هـو الكفيل بالنجـاة، قـال تعـالى: ﴿ وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ (الأعـراف:8)، وقـال تعـالى: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المؤمنون:102)

وبخلافـه من خفت موازينـه، قـال تعـالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

---

1) أحكام أهل الذمة:2/1156.

(لأعراف:9)، وقال تعالى: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (المؤمنون:103)

ومن مظاهر العدل الإلهي التي لا يمكن وصفها أن الله تعالى لا يزن الأعمال فقط، كما نفعل في الدنيا حين نكتفي بتقييم الأعمال دون نظر إلى ما يحيط بها من ملابسات، فنقع بذلك في أخطاء كثيرة وجور عظيم.

لكن الله ـ بعدله ـ يزن العمل، وكل ما يرتبط بالعمل من قريب أو من بعيد، ولهذ ورد التعبير عن الميزان في القرآن الكريم بلفظ الجمع.

وسنحاول ـ من باب التعرف على عدل الله ــ أن نرى ما ورد في النصوص المقدسة من هذه الموازين:

وزن العمل:

فمن موازين الله العادلة ميزان الأعمال، وهو ميزان مختص بوزن الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فلكل عمل عند الله تعالى وزنه الخاص، وقيمته الخاصة.

وإلى هذا الميزان الإشارة بقوله ﷺ:(إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فقال: لا يا رب فيقول: بل إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم.. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء)(1)

ففي هذا الحديث إخبار من رسول الله ﷺ عن هذا النوع من الموازين، وفيه تركيز واضح على العدل ونفي الظلم في هذا الميزان.. وفيه أنه لا يترك شيئا إلا ويزنه.. وفيه أن كل عمل يوزن على حدة.. وفيه أن العمل بقيمته لا بحجمه.. وفيه تطمين عظيم لصاحب العمل.. وفيه حضور صاحب العمل للجلسة التي يوزن فيها عمله بخلاف المتهم عندنا، فهو يحرم من حضور جلسة القضاة التي يحكمون فيها عليه.

1) الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه.

وكل هذه وغيرها من المعاني التي ينطوي عليها الحديث تدل على مدى العدل الذي تنظم به موازين الله في الآخرة.

وقد ورد في النصوص أن هذا الميزان يزن كل شيء.. الصغير والكبير.. الجليل والحقير.. ذلك أن الملائكة الكتبة يكتبون كل شيء.. كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)﴾ (ق)

وقد روي في الحديث قال رسول الله ﷺ:(إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها، سخطه إلى يوم يلقاه)(1)

ومن الأحاديث التي رويت فيما يوزن في هذا الميزان ويثقله قوله ﷺ:(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)(2)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن)(3)

وروي أن رسول الله ﷺ لقي أبا ذر فقال:(ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله، قال:(عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما)(4)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء)(5)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن)(6)

---

1) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن.
2) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة واللالكائي.
3) رواه الطبراني.
4) رواه ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني والبيهقي.
5) رواه المرهبي في فضل العلم.
6) رواه ابن أبي شيبة.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خلق حسن)(1)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(خمس ما أثقلهن في الميزان سبحان الله ولا إله إلا الله والحمد لله والله أكبر وفرط صالح يفرطه المسلم)(2)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله)(3)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(ما أنفقت عن خادمك من عمله كان لك أجره في موازينك)(4)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(من توضأ فمسح بثوب نظيف فلا بأس به ومن لم يفعل فهو أفضل لأن الوضوء يوزن يوم القيامة مع سائر الأعمال)(5)

وقد اختلف العلماء هنا: هل يكتب الملك كل شيء، أم يكتب ما فيه ثواب وعقاب فقط على القولين، والأرجح من خلال النصوص أنه يكتب كل شيء، لأن كل شيء، وإن ظهر ـ بادئ الرأي ـ لغوا إلا أن فيه نوع من أنواع العمل.

فالنكتة ـ مثلا ـ والتي لم تختلط بحرام، قد تبدو نوعا من اللغو، ولكنها ـ في الحقيقة ـ وعند تحليلها، قد تحوي خيرا كثيرا أو شرا كثيرا.. وبالتالي تكون محلا للجزاء.. ومحلا قبل ذلك للحساب.

ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: 8)

وبهذا يحل الإشكال الوارد في الحديث المعروف، والذي قال ﷺ في آخره: (لتسألن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم)(6)

فربما يتوهم أن هذا الحديث يخالف قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (لأعراف:32)

---

1) رواه أبو داود والترمذي وصحح وابن حبان واللالكائي.
2) رواه البزار والنسائي والبيهقي والحاكم وأحمد.
3) رواه الطبراني في الأوسط.
4) رواه أبو يعلى وابن حبان.
5) رواه ابن عساكر.
6) رواه مسلم وأهل السنن الأربعة.

ولكنه ـ في الحقيقة ــ لا يخالفه، فالله تعالى الذي أباح الطيبات وأحلها، هو الذي أمر بالواجبات وحض عليها، والمنطق السليم يفرض على من تمتع بالحقوق، أن يسأل عن الواجبات، فإذا قصر فيها كان تناوله للحقوق غير صحيح.

وكمثال مقرب لذلك أن بعض المؤسسات تمنح عمالها امتيازات معينة، فإذا ما قصر العامل في واجباته حاسبته على تلك الامتيازات، وربما طلبت منه تعويضا عنها.

وهذا ما يكون في الآخرة.. وبهذا تفهم أسرار كثيرة من قسمة الله العادلة في الدنيا.. فالغني الذي يتمتع بماله من غير قيام بالواجبات سيكون ذلك المال وبالا عليه في الآخرة، ولهذا قد يود أنه لم يكن له.

ومثل ذلك الفقير.. فسيحاسب عن مدى صبره على ما قسمه الله له من الفاقة، فإن صبر كان له أجر الصابرين، وإن سخط كان عليه وزر الساخطين.

وانطلاقا من هذا، فإن الله تعالى بعدله يزن أعمال المؤمنين وغيرهم، سواء ما تعلق منها بالدين، أو ما تعلق منها بالدنيا، لينال كل شخص ثوابه العادل منها، يستوي في ذلك الكافر والمؤمن.

فالعدل الإلهي يجازي الكافر المحسن على إحسانه، كما يجازي المؤمن المسيء على إساءته.

فقد ورد في الحديث أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ قائلين: يا رسول الله إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، فقال: هي في النار، فقالوا: يا رسول الله إن فلانة تصلي المكتوبة وتصدق بالاثوار من الاقط ولا تؤذي جيرانها، فقال: هي في الجنة(1).

وهذا يدل على ما تحتله العلاقات الاجتماعية من أهمية في موازين الله تعالى، ولهذا فإن من يسارع في تقديم الخدمات الاجتماعية سيكون حاله أفضل بكثير من الذي يقتصر على العبادة المجردة (2).

---

1) رواه ابن النجار.

2) ومما يروى في أن راهبا تعبد في صومعة ستين سنة فنظر يوما في غب السماء فقال: لو نزلت فإني لا أرى أحدا فشربت من الماء وتوضأت ثم رجعت إلى مكاني فتعرضت له امرأة فتكشفت له فلم يملك نفسه أن وقع عليها فدخل بعض تلك الغدران يغتسل فيه وأدركه الموت وهو على تلك الحال ومر به سائل فأومأ إليه أن خذ الرغيف رغيفا كان في كسائه فأخذ المسكين الرغيف ومات فجيء بعمل ستين سنة فوضع في كفة وجيء بخطيئته فوضعت في كفة فرجحت بعمله حتى جيء بالرغيف فوضع مع عمله

ولهذا، فإن الكـافر الـذي يكـون منـه هـذا السـلوك الطيب سيناله جـزاءه عليـه في الآخـرة، وقـد ذكـر العلمـاء هـذا، قـال القرطبي:(فإن قيل: أما وزن أعمال المؤمـنين فظـاهر وجهـه، فتقابـل الحسـنات بالسـيئات، فتوجـد حقيقـة الـوزن والكـافر لا يكون له حسنات، فما الذي يقابـل بكفـره وسـيئاته وأن يتحقـق في أعماله الوزن؟)

ثم أجاب على ذلك بوجهين:

أما الوجه الأول، فهو أن الكافر يحضر له ميزان يوضع فيـه كفره أو كفره وسيئاته في إحدى كفتيـه، ثم يقـال لـه: هـل لـك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى؟ فلا يجدها، فيشال المـيزان فـترتفع الكفـة الفارغـة، وتقـع الكفـة المشـغولة، فـذلك خفـة ميزانه، لأن الله تعالى وصف المـيزان بالخفـة لا المـوزون، وإذا كان فارغاً فهو خفيف.

وهذا الوجه ـ الذي ذكره القرطبي ـ قـد ينطبـق على كـافر لم يعمل في حياته ما يمكن تسميته طاعة، أما الكافر الذي قـد يكون منه هذا.. فلا شك أن العدل الإلهي لا يساويه مع غيره.

وهو ما ذكره القرطبي في الوجه الثـاني من جوابـه، حيث قال:(والوجه الآخر: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومؤاساة الناس وعتق المملوك ونحوهما مما لو كانت من المسلم لكانت قربة وطاعة، فمن كان له مثل هذه الخـيرات من الكفـار فإنهـا تجمع وتوضع في ميزانه، غير أن الكفـر إذا قابلهـا رجح بهـا ولم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه الخيرات من ميزانـه خفيفـاً ولو لم يكن له إلا خيراً واحد أو حسنة واحـدة لأحضـرت ووزنت كما ذكرنا)

وهـذا ينبـني على أصـل مهم، سـنتحدث عنـه في فصـل (الحكمة)، وهو أن الحسن والقبح ذاتيان لا اعتباريان، وحقيقيان لا وهميان.. فالكذب قبيح مطلق(1)، والصدق حسن مطلقا.

ولهـذا، فـإن من كـذب من المؤمـنين عـوقب على كذبـه.. ومن صدق من غيرهم جوزي على صدقه.

قد يقال: بأن الكـافر لم يقصـد بعملـه الطيب وجـه اللـه.. وهو شرط من شروط الطاعة.

فرجح بخطيئته) رواه ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد.

1) قد يعتبرض على هذا بأن الكـذب يحسـن في بعض الأحيـان، فيجـوز، والجـواب عن ذلك أن جوازه لا يعني حسنه، ولكنه يعني أنه في ذلك الحين يستعمل من باب الضرورة، ولو كان قبيحا، لا أنه حسن في ذاته.

والجواب عن ذلك: أن الجزاء نوعان:

جزاء إيجابي.. وذلك بدخول الجنة، ونيل درجاتها، ولا شك أن هذا خاص بأن كان لهم حدا معينة من الطيبة يستحقون به هذا الدخول، كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر:73)

والجزاء الثاني.. جزاء سلبي، ويعني أن ترفع العقوبات عن الذنوب التي ثبت عدم ارتكاب الجاني لها.. وبذلك يختلف عذاب هذا الكافر عن غيره ممن وقع في تلك الذنوب.

وهذا الجزاء ــ من باب العدل (1) ــ لا يكون إلا من باب التخفيف..

أو بتعبير آخر أليق، وأيسر لفهم العدل في هذه المسألة الخطيرة، نقول: بأن الله تعالى وضع عقوبة لكل ذنب من الذنوب دق أو جل.. فكان للكفر عقوبته، وكان لقطع الرحم عقوبتها، وكان للبخل عقوبته.. وهكذا الكذب والفجور وغيرها من الجرائم التي تتفق العقول على أنها جرائم.

فإذا لم يقع الكافر في جريمة الكفر، فإنه لن يعاقب إلا بالعقوبة المرتبطة بها، ولا يعاقب بغيرها.. بينما تنزل بالكافر الذي ارتكب جميع الجرائم جميع العقوبات.

وهذا ما يفهم به قوله ﷺ عندما سئل عن عبد الله بن جدعان، وقيل له: إنه كان يقري الضيف، ويصل الرحم ويعين في النوائب، فهل ينفعه ذلك؟ فقال: لا لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

فهذا الحديث ينص على أن هذا الكافر لا يدخله عمله الجنة، لأن الشرط الأول من شروط الجنة هو الإيمان، ولكن هذا لا يعني أن عقوبته ستكون متساوية مع غيره من المجرمين.

ويدل لهذا، أن الله تعالى ــ بعدله ــ قسم النار دركات يختلف فيها عذاب المجرمين، ومدة عذابهم بحسب جرائمهم، قال تعالى عن المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (النساء:145)

بعد هذا.. فإن من رحمة الله بعباده أن أجاب خيالهم عن أسئلة الكيفية إما من باب الحقيقة المطلقة، وإما من باب

1) سنرى ما يتعلق بهذا الجزاء من باب الرحمة في فصل (الرحمة)

التقريب، فبعض النـاس لا يقتنـع عقلـه إلا بعـد أن يمتلئ خيالـه بالصور.

ومما ورد في ذلـك، وقـد نقلـه العلمـاء من بـاب الخلاف، وننقلـه من بـاب تعـدد الصـور مـا ذكـر من أن أعمـال المـؤمن تتصور بصورة حسنة، وأعمال الكافر بصورة قبيحة، فتوزن تلـك الصورة، وله دليله من النصوص المرفوعة:

فمن الأحاديث الـتي تصـف مـا يحصـل في القـبر من نعيم وعذاب يقـول رسـول اللـه ﷺ:(وينـادي منـادي السـماء أن قـد صـدق عبـدي فأفرشـوه من الجنـة وألبسـوه من الجنـة وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره ويمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول: أبشر بمـا أعـد الله لك ابشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم فينقـول: بشـرك اللـه بخـير من أنت فوجهـك الوجـه الـذي جـاء بـالخير؟ فيقول: هذا يومك الذي كنت توعد أو الأمر الذي كنت توعـد أنـا عملك الصالح فو الله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعـة اللـه بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا)

وقال عن تمثل العمل الخبيث:(ويمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقـول: أبشـر بعـذاب الله وسخطه فيقول: من أنت فوجهك الذي جاء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث فو اللـه مـا عملتـك إلا كنت بطيئـا عن طاعـة الله سريعا إلى معصية الله)(1)

ومنها ما روي أن رسول الله ﷺ خـرج على أصـحابه يومـا، فقـال: إني رأيت البارحـة عجبـا! رأيت رجلا من أمـتي قـد احتوشـته ملائكـة العـذاب فجـاءه وضـوؤء فاسـتنقذه من ذلـك، ورأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءته صـلاته فاسـتنقذته من ذلـك، ورأيت رجلا من أمـتي قـد احتوشـته اشياطين فجاءه ذكر اللـه فخلصـه منهم، ورأيت رجلا من أمـتي يلهث عطشـا فجـاءه صـيام رمضـان فسـقاه، ورأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمـة ومن خلفـه ظلمـة وعن يمينـه ظلمـة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمـة ومن تحتـه ظلمـة فجاءتـه حجتـه وعمرتـه فاسـتخرجاه من الظلمـة ورأيت رجلا من أمـتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بـره بوالديـه فـرده عنـه، ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونـه فجاءتـه صـلة

1) رواه أبو داود الطيالسي وعبد بن حميد في مسنديهما.

الرحم فقالت: إن هذا كان واصلا لرحمه فكلمهم وكلموه وصار معهم، ورأيت رجلا من أمتي يأتي النبيين وهم حلق حلق، كلما مر على حلقة طرد، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيادة فأجلسه إلى جنبي، ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهج النار بيديه عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ظلا على رأسه وسترا على وجهه، ورأيت رجلا من أمتي جاءته زبانية العذاب فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه اللاتي بكى بها في الدنيا من خشية الله تعالى فأخرجته من النار، ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته إلى شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه، ورأيت رجلا من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلا من أمتي على شفير جهنم فجاءه وجله من الله تعالى فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتي يرعد كما ترعد السعفة(1) فجاءه حسن ظنه بالله تعالى فسكن رعدته، ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط مرة ويحبو مرة فجاءته صلاته على فأخذت بيده فأقامته على الصراط حتى جاز، ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الابواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله فأخذت بيده فأدخلته الجنة)(2)

هذه هي الصورة الأولى، وهي صورة تنتظم معنى العدالة في أكمل جوانبها، فالعذاب ــ حسب هذه النصوص ــ ليس إلا العمل المتمثل في صورته الحقيقية، فيتعذب صاحبه به إلى أن تكتمل تربيته.

أما الصورة الثانية التي وردت في النصوص، فهي أن الوزن يعود إلى الصحف التي تكون فيها أعمال العباد مكتوبة.

ومما ورد في هذا من النصوص أن رسول الله ﷺ سئل عما يوزن يوم القيامة فقال: (الصحف)(3)

ومما يؤيد هذا ما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:(يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان، ويؤتى له بتسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مد البصر فيها خطاياه وذنوبه فتوضع في

1) السعفة: هي أغصان النخيل.
2) رواه الطبراني والحكيم الترمذي، والبيهقي.
3) ذكره الفخر الرازي في تفسيره، ولم أجده.

كفة الميزان، ثم يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله يوضع في الأخرى، فترجح)[1]

وزن أثر العمل:

ومن موازين الله العادلة التي تقام في يوم المحاكمة الأكبر ميزان آثار الأعمال، وهو ميزان مختص بوزن آثار الأعمال التي يقوم بها الإنسان، وهو من دلائل العدل المطلق، وأنه لا يظلم أحد.

وهذا الميزان يستحيل أن تقيم مثله أي محكمة من محاكم الدنيا، ذلك أن محاكم الدنيا ـ في جزائها الإيجابي أو السلبي ـ لا تستطيع أن تمد من تريد أن تجازيه بالعمر الذي يكفي لذلك الجزاء.

ويشير إلى هذا الميزان قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (يّس:12)

ويشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(العنكبوت: 13)، وقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل:25)

فهذه النصوص تخبر أن الله تعالى لا يحاسب على العمل فقط.. بل يحاسب على آثاره سواء كانت سلبية أو إيجابية، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، وَمَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه مِنَ الإثم مثل آثام مَنِ اتبعه إلى يوم من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)[2]

ويشير إلى هذا الميزان من الحديث من قول رسول الله ﷺ : (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[3]

وفي رواية أخرى، قال رسول الله ﷺ:(من سن سنة حسنة فله أجرها ما عمل بها في حياته وبعد مماته حتى تترك،

---

1) رواه عبد بن حميد.
2) رواه أحمد ومسلم.
3) رواه مسلم وغيره.

ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها حتى تترك، ومن مـات مرابطـا جرى عليه عمل المرابط حتى يبعث يوم القيامة)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطـوبى لعبـد جعلـه اللـه مفتاحـا للخـير مغلاقا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير)(1)

ففي هذا الأحاديث يخبر رسول الله ﷺ عن هـذا النـوع من الموازين، ذلك أن أثر العمل الصالح لا يقـل عن العمـل نفسـه، وأثر الجريمة لا يقل عن الجريمة نفسها.

وهذا من العدل الذي لا يمكن لبشر أن يطبقه.

فالجريمة عندنا جريمة ترتبط بحادثة معينة تبدأ بها، وتنتهي عندها، فالقاتل يتهم بجريمة واحدة هي قتل ضحيته فقط.. بينما آثـار تلـك الجريمـة قـد تكـون أخطـر بكثـير من تلـك الجريمـة الوحيدة.

وعن هذا عبر قوله ﷺ:(ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتـل)(2)

بل إنه ــ يـوم القيامـة ــ يـأتي بعض النـاس ممن لم يقتـل حشرة، فيحشر في خانـة كبـار المجـرمين.. لا لأنـه قتـل، ولكن لأنه كتب رواية ملأها بالدماء المسفوكة، أو أخـرج فيلمـا ضـمنه ما تختزن نفسه الشريرة من جرائم..

وهكذا بالنسبة للعامل الصالح.. فقـد يعمـل الرجـل العمـل الواحد، ويكون له جزاؤه لكن الله الشكور الكريم يشكر عبـده، فيجازيه بالآثار الإيجابية لذلك العمل.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى معبرا عن أدعيـة الصـالحين الممثلـة لأمـانيهم: وَالَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا هَبْ لَنَـا مِنْ أَزْوَاجِنَـا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (الفرقان: 74)

فهـؤلاء الصـالحون لم يقصـدوا بالإمامـة إلا هـذا.. فيكونـوا قـدوة صـالحة لغـيرهم.. ثم يجـيئون يـوم القيامـة في مـوازين حسناتهم.

ومن هذا الباب استحب علماء السـلوك المسـلمين إظهـار الأعمال الصالحة، ليكون الصلاح هو السلوك العـام الـذي يحكم المجتمع المسلم(3).

---

1) رواه ابن ماجه وغيره بسند فيه لين.

2) رواه البخاري ومسلم.

وقريب من هذا ما روي من الأعمال التي لا تنقطع بعد موت صاحبها، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)(1)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(سبع يجري أجرهن للعبد بعد موته وهو في قبره: من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته)(2)

وهذه الأحاديث وغيرها كانت سببا في ازدهار الحضارة الإسلامية.. فالحضارة الإسلامية لم يقمها الساسة(3)، وإنما أقامها أفراد المجتمع الذين امتلأوا بمثل هذه القيم.. فراحوا يقفون أموالهم كلها في سبيل الله مما نشط العلوم والصحة والنظام.. وقضى على الفقر والتخلف والمرض والجهل.

وزن العامل:

ومن الموازين التي ورد ذكرها في النصوص، والتي تبين عظم العدل الإلهي (وزن العامل).. فالموازين الإلهية لا تكتفي بوزن الأعمال، فقد تصدر مظاهر الخير من قلب مليء بالأمراض، أو قد تصدر بعض الذنوب من القلوب الطيبة، فلذلك يوزن الإنسان نفسه بمقاييس العدالة المطلقة.

---

3) وقد قيد الغزالي ذلك بقيدين عبر عنهما بقوله:(ولكن على من يظهر العمل وظيفتان: إحداهما أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدي به أو يظن ذلك ظنا، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة. فغير العالم إذا أظهر به الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به والثانية أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي، فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدي به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم مدة مديدة، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض)

1) رواه ابن ماجه.

2) رواه أبو نعيم.

3) بل شوهوها، انظر في هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

ولـذلك ورد في الحـديث قولـه ﷺ:(يـؤتى يـوم القيامـة بالرجل السمين فلا يزن عند اللّه جناح بعوضة)(1)، ثم قرأ قولـه تعالى: فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (الكهف: 105)

وبخلاف هـذا السـمين الهزيـل قـال ﷺ في عبـد اللـه بن مسعود عنـدما تعجب الصـحابة من دقـة سـاقيه:(أتعجبـون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقـل من أحـد)(2)

ويفهم بسر هـذا المـيزان مـا ورد من النصـوص في الـذين يدخلون الجنة بغير حساب، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ:(عرضت علي الأمم، فرأيت النـبي ومعـه الرهـط، والنـبي ومعـه الرجـل، والـرجلان، والنـبي ليس معـه أحـد، إذ رفـع لي سـواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومـه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الافق الآخـر، فـإذا سـواد عظيم، فقيـل لي: هـذه أمتـك ومعهم سبعون ألفا يـدخلون الجنـة بغـير حسـاب ولا عـذاب، قيـل: من هم؟ قال هم الذين: لا يرقون، ولا يسـترقون، ولا يتطـيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون)(3)

فهؤلاء الذين نالوا هذا الشرف لم ينـالوه إلا بتـوكلهم على الله، وثقتهم في الله، ولذلك جوزوا بأن لا يحاسبوا، كمـا جـوزي الصابرون بأن ينالوا من الأجور ما لا يمكن حسابه، قال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الـدُّنْيَا حَسَـنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِـعَةٌ إِنَّمَـا يُـوَفَّى الصَّـابِرُونَ أَجْـرَهُمْ بِغَيْـرِ حِسَابٍ (الزمر:10)

فالصابرون الذي ثبتوا في وجه البلاء وكل ما يصـرفهم عن الله ـ والذين جعلهم الله حجة على غيرهم ـ ينـالون من الأجـور ما لا يمكن تصوره.

وقد روي في الأحاديث التي تذكر موازين الآخرة قولـه ﷺ: (تنصب المـوازين يـوم القيامـة، فيـؤتى بأهـل الصـلاة فيوفـون أجـورهم بـالموازين، ويـؤتى بأهـل الصـيام فيوفـون أجـورهم بالموازين، ويـؤتى بأهـل الصـدقة فيوفـون أجـورهم بـالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء

1) رواه ابن عدي والبيهقي.
2) رواه ابن جرير.
3) رواه البخاري ومسلم.

فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب)[1]

وزن أجور العمل:

ومن الموازين العادلة التي تنصب في ذلك اليوم الميزان المختص بالأجور، ونحسب أنه آخر الموازين، أو هو نتيجة سائر الموازين، وانطلاقا من نتيجته تكون النجاة أو الهلاك.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) (المؤمنون)[2]

3 ـ المحاكمة

الصفة الثالثة من صفات الجزاء الإلهي أنه لا يتم إلا بعد محاكمة عادلة تتسم بكل ما تتسم به المحاكمة العادلة من أوصاف.. بل لا يمكن لأي محكمة أن تتسم بما تتسم به محكمة العدل الإلهي.

فمع أن الله تعالى يعلم ما فعله عباده من خير أو شر، إلا أنه تعالى ـ عدلا منه ـ لا يحاسبهم بمجرد علمه، بل يحاسبهم كما يحاسب الند نده.. وذلك من عدل الله ورحمته بعباده.

وسنرى في هذا المطلب بعض ما أقامه الله لهذه المحاكمة العادلة من أركان:

الكتابة:

أول ما تستند إليه هذه المحاكمة العادلة هي الكتب التي كتبها الملائكة ـ عليهم السلام ـ بتوكيل من الله تعالى..

فالله تعالى بحكمته وعدله جعل مع كل إنسان شهودا على أعماله، وجعل لهم سجلات خاصة تتناسب مع طبيعتهم يسجلون فيها حركات الإنسان، وأعماله، ولهذا سماهم الله تعالى (كراماً كاتبين)، فقال تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (الانفطار:10 ـ12)

وقد سمى الله تعالى هؤلاء الملكة الكتبة شهودا، فقال: وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (قّ:21)

---

1) رواه أبو نعيم.
2) رواه ابن المبارك.

وأخبر عن كلام الملاك الذي يقدم شهادته يوم القيامة بقوله:﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ (قّ:23)، قال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته.

وأخبر أن هؤلاء الكتبة يسجلون كل أعمال الإنسان، فقال تعالى:﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (قّ:18)

وقد ورد ما يدل على أن هذين الملكين يقفان في جانبي الإنسان، ليكون لهما من القرب ما يسجلان به كل شيء كما قفعله تماما رعاية للعدل، قال تعالى:﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (قّ:17)

وروي في الآثار ما يدل على أن ملك اليمين الذي يكتب الحسنات أمين على صاحب الشمال الذي يكتب السيئات رعاية للعدل والرحمة، قال الأحنف بن قيس:(صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر اللّه تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها)(1)

وقد اختلفت الآثار فيما يكتب من أعمال الإنسان، هل ما يتعلق منه بالجزاء فقط، أم كل أعماله، :

فذهب فريق من العلماء إلى أنه يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه، وقد ذكر عن بعضهم أنه كان يئن في مرضه، فقيل له: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين (2)، فلم يئن حتى مات.

وذهب آخرون إلى أنه لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه.

وذهب ابن عباس إلى قول وسط، وهو أنه يكتب كل شيء، ثم يمحى ما لا علاقة له بالتكليف، قال ابن عباس: (يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى أنه ليكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت. حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقّر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره، وذلك قوله ﷻ:﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:39)

---

1) رواه ابن أبي الدنيا وابن المنذر.

2) هذا بناء على كون الأنين شكوى، أما الأنين المجرد، والذي ينفس به المريض عن آلامه، فلا حرج فيه.

وقيل:(يكتب عليه كل ما يتكلم بـه، فـإذا كـان آخـر النهـار محي عنه ما كان مباحا، نحو أنطلق أقعد كـل ممـا لا يتعلـق بـه أجر ولا وزر)

ونرى ـ والله أعلم ـ انطلاقا من عموم النصـوص أن هـؤلاء الكتبة يكتبون كل شيء، لأن سيرة الإنسان بمجموعها هي التي تعــبر عن حقيقتــه، وتعــبر في نفس الــوقت عن الملابســات المرتبطة بأدائه للتكاليف.

ونرى ـ كذلك ـ والله أعلم، أن هـذه الكتابـة أشـبه بتصـوير الواقع منهـا إلى الكتابـة الوصـفية، وربمـا تكـون الكـاميرا الـتي تصور الظاهر والباطن بحيادية تامة أقرب تشـبيها من التسـجيل الوصفي التعبيري الذي قد تدخل الذاتية في تعبيراته.

وقد روي للدلالة على هذا المعـنى عن يحـيى بن أبي كثـير قال: ركب رجل الحمـار، فعـثر بـه فقـال: تعس الحمـار، فقـال صاحب اليمين: ما هي حسنة أكتبها، وقال صاحب الشـمال: مـا هي من السيئات فأكتبها، فأوحى الله إلى صـاحب الشـمال: مـا تــرك صــاحب اليمين من شــيء فاكتبــه، فــأثبت في الســيئات (تعس الحمار)

فهذا يدل على أن ما ليس بحسـنة هـو سـيئة، وإن كـان لا يعاقب عليها، لأن بعض السيئات قد لا يعـاقب عليهـا، وقـد تقـع مكفرة باجتناب الكبائر، ولكنه صاحبها مع ذلك يكـون قـد خسـر زمانه، حيث ذهبت باطلا، فيحصل له بـذلك حسـرة في القيامـة وأسف عليه، وهو عقوبة من العقوبات.

وقـد روي للدلالــة على هـذه الحسـرة الـتي هي نـوع من العقوبات النفسية قوله ﷺ:(ما من قوم يقومـون من مجلس لا يـذكرون اللــه فيــه إلا قــاموا عن مثـل جيفـة حمـار وكـان لهم حسرة)(1)، وفي رواية أخرى:(ما جلس قوم مجلسا لم يـذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم ﷺ إلا كان عليهم ترة، فإن شـاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم)، وفي رواية أخرى:) من قعد مقعــدا لم يـذكر اللــه فيــه إلا كـان عليــه من اللــه تــرة ومن اضـطجع مضطجعا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة)

وعلى هذا التسجيل الكامل لكـل أعمـال الإنسـان في كـل لحظة يدل قوله ﷺ:(ما من ساعة تمر بـابن آدم لم يـذكر اللــه

1) رواه أحمد والنسائي وابن حبان وغيرهم.

فيها بخير إلا حسر عندها يوم القيامة)[1]، فالتعبير بالساعة يدل على أن كل عمر الإنسان يعاد عرضه عليه يوم القيامة بتفاصيله.

وهذا التسجيل ـ كما تشير النصوص ــ لا يكتفي بظواهر الأعمال، بل يعبر منها إلى باطنها، والأحوال الصادرة عنها، ويدل على ذلك قوله ﷺ في الحديث القدسي:(قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسيئة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له سيئة، فإن تاب منها فامحوها عنه، وإن هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف)[2]

بل يدل عليه عموم قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:12)، فالفعل يطلق على عمل الظاهر والباطن، بل إن التكاليف الشرعية ألصق بالباطن منها بالظاهر.

بل إن الظاهر نفسه لا يصح إلا بالنية، وهي عمل الباطن، وقد ربط ﷺ أجور الأعمال بالنيات، فقال ﷺ:(إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[3]

أما ما روي من أن الملكين لا يسجلان إلا الأعمال الظاهرة استدلالا بحديث واه جدا لفظه:(قال الله تعالى: الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحب، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده)[4]، فهو لا يقوى لرد الحديث الصحيح الصريح.

الشهادة:

مع أن الكتابة تحصي كل ما فعله الإنسان من خير أو شر أو لغو.. ولكن الله تعالى بعدله لم يكتف بها في تلك المحاكمة العادلة، بل ضم إليها أنواع الشهود.

وقد ورد في النصوص الجمع بين الكتب المحصية للأعمال والشهود، أو التهم والدلائل، حتى لا يؤاخذ العبد إلا بعد إقامة

---

1) رواه الطبراني في الأوسط وفيه عمرو بن الحصين العقيلي وهو متروك.
2) رواه ابن حيان.
3) رواه البخاري ومسلم.
4) وقد روي مثل هذا عن حذيفة، سألت النبي ﷺ عن علم الباطن ما هو فقال سألت جبريل عنه فقال: سر بيني وبين أحبائي وأوليائي وأصفيائي أودعه في قلوبهم لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل) قال ابن حجر: هو موضوع.

الحجة الكاملة عليه، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر:69)

فالآية الكريمة ذكرت ثلاثة أركان للعدالة، وهي الكتاب الحاوي للتهم، والشهود المثبتة لها، ثم القضاء بينهم بالحق حتى لا يؤاخذ العبد إلا بمقدار جريمته.

والقرآن الكريم يخبرنا عن أنواع الشهود حتى نأخذ حذرنا:

وأولهم الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق:21)، وقال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:18)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)﴾ (الانفطار)

ومن الشهود الأنبياء، كما قال تعالى حاكياً عن عيسى ــ عليه السلام ـ: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: 117)

وقال في حق محمد ﷺ وأمته في هذه الآية: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: 143)، وقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (النساء: 41)

ومن الشهود كل ما يرتبط بالإنسان أو يمر به أو يعرفه، ويدخل في هذا قوله ﷺ مخبرا عن الشرف العظيم والمكانة السامية التي يحتلها الشهود يوم القيامة:(أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عزّ وجلّ)(1)

ويدخل في هذا الباب قوله تعالى عن الأرض: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزلة:4)، أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها.

وقد ورد في الحديث: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزلة:4) قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل

1) رواه ابن مردويه.

عبد وأمة بما عَمِل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)[1]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أو شرًا، إلا وهي مُخبرة)[2]

الدفاع:

بعد كل هذا، فإن الله تعالى ــ بعدله ــ يتيح كل الفرص للإنسان للدفاع عن نفسه، حتى أن له الحق في الطعن في الشهود أنفسهم، حتى لو كانوا ذوي مكانة عالية، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ:(يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلَّغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (البقرة: 143) قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم)[3]

وفي حديث آخر تصوير مفصل لمحاورات ذلك المشهد، قال ﷺ:(يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعي قومه فيقال: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول نعم: فيقال من يشهد لك، فيقول محمد وأمته فيدعى محمد وأمته: فيقال لهم هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون نعم. فيقال وما علمكم؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (البقرة: 143)، قال عدلاً ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة: 143))[4]

لكن بعض المتهمين من أهل جهنم يستغل هذه الفرصة المتاحة له ـ والتي لم يكن يظفر بمثلها في محاكم الدنيا ــ فلا يكتفي برفض كل الشهود، مع كونهم صفوة الله من عباده، بل يحتال بالكذب الذي كان يحتال به في الدنيا، بل يحتال بالقسم بالله الذي كان لا يعترف به، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:23)، وقد قال ابن عباس في تفسيرها:(إنهم لما رأووا

---

1) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.
2) رواه الطبراني من حديث ابن لَهِيعة.
3) رواه البخاري والترمذي والنسائي.
4) رواه أحمد.

يوم القيامة أن اللّه لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركاً، جحد المشركون فقالوا: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين ﴾(1)

وحينما يبلغ إنكارهم للشهود منتهاه، ويجادلون في الطعن فيهم كما كانوا يجادلون في الدنيا يأتيهم الله تعالى بما لا يطيقون دفعه، فيقيم عليهم الحجة من أنفسهم، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يّس:65)

فهذه الآية تشير إلى أن هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم اللّه على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت.

وقد صور لنا رسول الله ﷺ بعض مشاهد ذلك، وهي تدل على قمة العدالة التي تتيح للمجرم أن يناقش القاضي الأكبر ملك يوم الدين ويجادله وهو يعلم أنه لا يعزب عنه من مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فعن أنَس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ:(أتدرون مم أضحك؟) قلنا:(اللّه ورسوله أعلم)، فقال ﷺ:(من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل)(2)

فقول المتهم في الآخرة:(رب ألم تجرني من الظلم) يدل على الضمانات الكثيرة التي أخذها العباد لإقامة العدالة المطلقة في ذلك اليوم، وقوله:(فعنكن كنت أناضل) دليل على مدى الحرية التي أتيحت له للدفاع عن نفسه.

وقد ورد في بعض الأحاديث إشارة إلى هذا الصنف الذي تستنطق جوارحه، وهم المنافقون الذين حاولوا أن يحتالوا على قلب الحقائق في الدنيا، وخداع الخلق بها، فلذلك تبقى هذه الأحبولة في أيديهم يوم القيامة، ويتصورون أنهم سيخادعون الله كما خادعوا الخلق،، قال ﷺ في حديث القيامة الطويل:(ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك

1) رواه عبد الرزاق، ابن كثير:2/307.
2) رواه ابن أبي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

وصمت وصلّيت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع ـ قال ـ فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا؟ ـ قال: فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه، ويقال: لفخذه انطقي ـ قال ـ فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط اللّه تعالى عليه)(1)

وحينذاك يندم الجاحد على جحوده، ويود لو أنه اعترف في البدء لعل ذلك أن يخفف عنه، وهذا هو وجه الجمع بين قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (النساء: 42) والتي تفيد بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً، وبين ما رأيناه من صنوف الإنكار.

وقد روى سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال له:(سمعت اللّه عزّ وجل يقول ـ يعني أخباراً عن المشركين يوم القيامة ـ إنهم قالوا: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (الأنعام: 23)، وقال في الآية الأخرى: وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (النساء: 42)، فقال ابن عباس (أما قوله: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجحد، فقالوا:: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، فختم اللّه على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (النساء: 42)(2)

الشفاعة:

وكما أن المحاكمة العادلة تقتضي توفر المحامين الذين يدافعون عن المتهم، فإن اللّه تعالى بعدله نصب المحامين الكثيرين من عباده، والذين سماهم الشفعاء.

ولكن هؤلاء الشفعاء لا يشفعون إلا فيمن رضي اللّه أن يشفع فيه، فهناك من الجرائم ما لا يمكل معه هؤلاء الشفعاء شيئا، قال تعالى: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (طه: 109)، وقال: وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (سبأ: 23)، وقال: وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف:86)

ومع أن الشفاعة التي ورد ذكرها في النصوص من باب رحمة الله تعالى بعباده قد أسيء فهمها من كثير من العوام، إلا

---

1) رواه مسلم وأبو داود.
2) رواه ابن جرير.

أن فيها آثار نفسية طيبة لا يمكن تجاهلها، وقـد أشـار إلى بعض هذه الآثار العلامة الجليل ناصر مكارم الشيرازي.

فمن الآثـار الـتي ذكرهـا مكافحـة روح اليـأس في نفس المعتقدين بهـا، ذلـك أن مرتكـبي الجـرائم الكبـيرة يعـانون من وخزالضـمير، كمـا يشـعرون باليـأس من عفـو اللّـه، ولـذلك لا يفكرون بالعودة، ولا بإعـادة النظـر في طريقـة حيـاتهم الاثمـة، وقديــدفعهم المســتقبل المظلم الى التعنت والطغيــان، وإلى التحلل من كل قيد تماما، كـالمريض اليـائس من الشـفاء الـذي يتحلل من أي نظام غذائي، لاعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام.

ومنها أن قلق الضمير النـاتج عن هـذه الجـرائم قـد يـؤدي الى اختلالات نفسية، وإلى تحفيز الشعور بالانتقام من المجتمـع الباعث على تلوثه، وبذلك يتبدل المذنب الى عنصر خطر، وإلى مصدر قلق اجتمـاعي، والإيمـان بالشـفاعة يفتح أمـام الانسـان نافذة نحو النور، ويبعث فيه الامل بالعفو والصـفح، وهـذا الامـل يجعله يسيطر على نفسه، ويعيد النظـر في مسـيرة حياتـه، بـل ويشجعه على تلافي سيئات الماضي.

ومنها أن الايمان بالشفاعة يحافـظ على التعـادل النفسـي والـروحي للمـذنب، ويفسـح الطريـق أمامـه إلى أن يتبـدل إلى عنصر سالم صالح.

وختم هـذه الآثـار بقولـه:(من هنـا يمكن القـول أن الاهتمـام بالشفاعة بمعناها الصحيح عامل رادع بناء، قادر على أن يجعل من الفرد المجرم المذنب فردا صالحا، وانطلاقا من هذا الفهم نجـد أن مختلـف قـوانين العـالم وضـعت فسـحة أمـل أمـام المحكـومين بالسجن المؤبد باحتمال العفو بعد مدة إن أصلحوا انفسـهم، كي لا يتسـرب اليـأس إلى نفوسـهم بـذلك ويتبـدلوا الى عناصـر خطـرة داخل السجن أو يصابون باختلالات نفسية)(1)

4 ـ التوافق

الصفة الرابعة للجزاء الإلهي هي أنـه جـزاء متوافـق تمامـا مع نوع العمل، كما قال تعالى: جَزَاءً وِفَاقـاً (النبـأ:26)، أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبـة وَفـق أعمـالهم الفاسـدة التي كانوا يعملونها في الدنيا (2).

---

1) تفسير الأمثل.

2) قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد، ابن كثير:8/307.

بـل إن النصـوص الكثـيرة تـدل على أن الجـزاء المعـد في الآخرة هو الصورة المجسـدة للكسـب، كمـا قـال تعـالى: ﴿ قَـدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَـالُوا يَـا حَسْـرَتَنَا عَلَى مَـا فَرَّطْنَـا فِيهَـا وَهُمْ يَحْمِلُـونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام:31)

وقـد ورد في بعض الآثـار في تفسـير هـذه الآيـة:(يسـتقبل الكافر أو الفاجر عند خروجـه من قـبره كـأقبح صـورة رأيتهـا أنتنـه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا واللّه، إلاّ أنَّ اللّه قبح وجهك وأنتن ريحك، فيقول: أنـا عملـك الخـبيث، هكـذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، فطالما ركبتـني في الـدنيا، هلم أركبك)(1)

وإلى ذلك أيضا يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَـانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُـلَّ وَمَنْ يَغْلُـلْ يَـأْتِ بِمَـا غَـلَّ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ ثُمَّ تُـوَفَّى كُـلُّ نَفْسٍ مَـا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران:161)

وقد قـال ﷺ لرجـل اسـتعمله على الصـدقة، فجـاء فقـال: (هذا لكم وهذا أهـدي لي)، فقـام رسـول اللّـه ﷺ على المنـبر، فقال:(ما بال العامل نبعثه على عمـل فيقـول: هـذا لكم وهـذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحـدكم منهـا بشـيء إلا جـاء بـه يوم القيامة على رقبته، وإن كـان بعـيراً لـه رغـاء، أو بقـرة لهـا خوار، أو شاة تيعر؟؟، ثم رفع يديه حتى رأينـا عفـرة إبطيـه، ثم قال: اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً(2).

وأخبر ﷺ أن المتكـبرين يحشـرون يـوم القيامـة محتقـرين ممتلئين ذلـة، قـال ﷺ:(يحشـر المتكـبرون يـوم القيامـة أمثـال الذر، في صور الرجال يغشاهم الـذل من كـل مكـان، يسـاقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نـار الانيـار، يسـقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)(3)

ولذلك وردت آيات القرآن الكريم تربط بين أصناف الجزاء والأعمـال المتعلقـة بهـا، سـواء كـان ذلـك الجـزاء في الـدنيا أو الآخرة:

في الدنيا:

أما في الدنيا، فقد ورد في النصوص الكثيرة بيان بعض جـزاء

---

1) رواه ابن أبي حاتم.
2) رواه الطبراني في الكبير وغيره.
3) رواه أحمد والترمذي.

الله لعباده على أعمالهم ليكون ذلك إشارة إلى ما ينتظرهم في الآخرة من الجزاء الخالص.

أما أجزية المؤمنين، فقد ورد في القصص القرآني ما يشير إلى ما تعرض له الصالحون من فضل الله في الدنيا جزاء وفاقا على أعمالهم الصالحة:

فقال تعالى عن يوسف ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:56)، فقد ذكرت الآية الكريمة أن سبب استحقاقه للتمكين هو الإحسان الذي لا يضيع جزاؤه عند الله تعالى.

وقال تعالى عن نوح ﷺ: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (الاسراء:3) فقد عقب الجزاء بكونه عبدا شكورا.

وقال تعالى عن آل لوط ﷺ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (القمر:34) ثم قال بعدها: ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (القمر:35)

وقال تعالى عن الصابرين من بني إسرائيل: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (لأعراف:137)، فهذا الجزاء الكريم ثمرة من ثمار صبرهم.

وبمثل ذلك، وعلى ضده جاء الإخبار عن الكفار من السابقين من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم الذين أهلكوا بذنوبهم في الوقت الذي نجى الله فيه الأنبياء ومن اتبعهم بإيمانهم وتقواهم، كما قال تعالى مبينا تلك السنة: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (لأعراف: 165) فالجزاء الذي تعرضوا له هو نتيجة طبيعية لفسقهم.

أو هو نتيجة حتمية لظلمهم، كما قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:40)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:14)

أو هو نتيجة حتمية لبغيهم، كما قال تعالى: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (الأنعام:146)

أو هو نتيجة حتمية لكفرهم، كما قال تعالى: ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (سبأ:17)، وقال تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (لأنفال:52)، وقال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (غافر:22)

أو هو نتيجة حتمية لتكذيبهم، كما قال تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (آل عمران:11)، وقال تعالى: وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (النحل:113)، وقال تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (الشعراء: 189)

أو هو بعبارة جامعة نتيجة حتمية لذنوبهم، كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (غافر:21)، وقال تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (لأنفال:54)

وأول ذنوبهم وأخطرها هو معصية الرسل الذين كلفوا بتبليغهم رسالات الله، وقال تعالى: فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (الحاقة:10)، وقال تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (الشعراء:139)

وقد يعترض بعد هذا بأن من الكفار من يعيش مرغدا ويموت مترفا لا يصيبه جرائر ذنوبه ولا تهلكه كثرة معاصيه.

فهل لهذا المتمرد من الوجاهة ما جعله بمنأى من عدالة الجزاء الإلهي؟

وما السر في هذا التمييز الذي تحيرت له الألباب، بل صار فتنة تصد القلوب عن دين الله.

والجواب عن هذا الاعتراض هـو أن عدالـة اللـه المطلقـة، ورحمته التامة الشاملة، والتي سبقت غضبه تتيح لهـذا المتمـرد من الفـرص، وتبلغـه من الحجج مـا يكفي لعودتـه، فـإن اسـتمر على بغيه أخذ أخذ عزيز مقتدر بمجرد تسليم روحه.

ولـذلك علـل اللـه تعـالى عـدم تعجيلـه بالعقوبـة بمغفرتـه ورحمته، فقال تعالى: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَـذَابَ بَـلْ لَهُمْ مَوْعِـدٌ لَنْ يَجِـدُوا مِنْ دُونِـهِ مَوْئِلاً (الكهف:58)

وأخبر تعالى أن كل القرى التي نزل عليها العذاب لم ينزل عليها إلا بعد الإمهال الكافي لإقامة الحجة، قـال تعـالى: وَلَقَـدِ اسْـتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَـأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا ثُمَّ أَخَـذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (الرعد:32)، وقال تعالى: وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَـةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (الحج:48)

ويضـرب تعـالى الأمثلـة على ذلـك بـالأمم الـتي أصـابها العـذاب، ولم يصـبها إلا بعـد فـترة طويلـة من الإمهـال وإقامـة الحجـة، قـال تعـالى مسـلياً نبيـه ﷺ في تكـذيب من خالفـه من قومه: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَـدْ كَـذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَـوْمُ نُـوحٍ وَعَـادٌ وَثَمُـودُ وَأَصْـحَابُ مَـدْيَنَ وَكُـذِّبَ مُوسَـى فَـأَمْلَيْتُ لِلْكَـافِرِينَ ثُمَّ أَخَـذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (الحج:44)

وقد ذكر بعض السلف أنه كـان بين قـول فرعـون لقومـه: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (النازعـات: 24) وبين إهلاكه أربعون سنة)

بل قد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمهل قـوم نـوح عليه السلام كل تلك الآماد الطويلة، وبعد تلـك الفـرص الكثـيرة، قـال تعـالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْـفَ سَـنَةٍ إِلَّا خَمْسِـينَ عَامـاً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (العنكبوت:14)

فالإمهال إذن رحمـة من اللـه، أو هـو فرصـة ممنوحـة من الله للظالمين، قد يستغلونها بالرجوع إلى اللـه، وقـد ينتكسـون بأن يضاعف لهم العذاب، كما قـال ﷺ:(إن اللّـه ليملي للظـالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ قوله تعالى: وَكَـذَلِكَ أَخْـذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْـذَهُ أَلِيمٌ شَـدِيدٌ (هـود:102))[1]

والأمر الثاني أن امتحان الخلق يقتضي ستر أكثر مـا يتعـرض له الخلق من الجزاء، لأن تعجيل الجزاء قد يجعل الخلق جميعا في

1) رواه البخاري ومسلم.

صف واحد، صف الخير أو صف الشر بحسب الجزاء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف:33) أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية.

ولهذا ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بأن ما أعطي الكفار من النعيم لا يدل على مرضاة الله، بل قد يدل على سخطه،، قال تعالى مصححا فهوم الكفار الخاطئة: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:55 ـ 56)، وقال تعالى: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران: 178)

ولهذا ورد بعد هذه الآية الإخبار بأن هذا الابتلاء هو الذي يميز الخبيث من الطيب، ويميز بين الراغب في الله، والراغب في المتاع الأدنى، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:179)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن تعجيل الجزاء قد يؤثر في الابتلاء، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾

ولهذا يرد في القرآن الكريم الإخبار بأن الجزاء الحقيقي هو الجزاء المعد في الآخرة، قال تعالى مخبرا عن جزاء المؤمنين: ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: 35) وقد ورد هذا المعنى عقب ذكر زخارف الحياة الدنيا التي يتهافت عليها الغافلون.

وفي نفس الوقت ينهى تعالى المؤمنين من الإعجاب بما أوتي الكفار من النعيم، قال تعالى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة:55)

ولهذا كان ﷺ ينبه إلى عدم الاغترار بهذه المظاهر التي يغتر بها الغافلون، ويتصورون أنهم على أساسها بمكان من الله تعالى، فقد علل ﷺ تحريم الذهب والفضة بقوله:(لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في

الآخرة)[1]

فما أمهل به هؤلاء الغافلون ليس دليلا على أي تفضيل لهم، يقول ﷺ:(لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبدا)[2]

فهذا الإمهال ــ إذن ــ كما ينطوي على معاني الرحمة والعدل، وينطوي على معاني الانتقام ممن لم يعرف للنعمة حقها ولا للإمهال حقه، ينطوي كذلك على سر الامتحان الذي يقتضي ستر الجزاء حتى لا يكون الناس أمة واحدة في الخير أو في الشر.

في الآخرة:

أما في الآخرة، فإن الله تعالى يربط بين الجزاء المعد للكفار والعصاة، وبين أعمالهم، كما يربط بين الجزاء المعد للمؤمنين، وبين أنواع أعمالهم، فكلا من السعادة والشقاوة في الآخرة منوط بالأعمال:

أما ارتباط الجزاء المعد للمؤمنين بالعمل، فتنص عليه الآيات الكثيرة في معرض التهنئة للمؤمنين على أعمالهم، قال تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الطور:19) وقال تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (الحاقة:24) وقال تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (المرسلات:43)

ويذكر القرآن الكريم فرح المؤمنين بما قدموه من أعمال بعد أن رأوا أنواع الجزاء المعدة لهم، قال تعالى: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (لأعراف:43)

وعدل الله المرتبط برحمته، لا ينقص لهم أي جزاء يجازيهم به، ولو أضيف من ذلك الجزاء لأبنائهم، قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (الطور:21)

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه الترمذي وغيره.

ويربط الله تعالى بين صبرهم على تحقيق حكمة الله من خلقهم وبين جزائهم، فيقول تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون:111) ويقول تعالى: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ (الانسان: 12)

ولا يتعارض هذا مع ما ورد من النصوص من أن دخول الجنة هو بمحض الرحمة، كما قال ﷺ:(لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنةَ)، قالوا:(ولا أنت يا رسول اللّه؟)، قال:(ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه تعالى برحمة منه وفضل)(1)

بل كما أخبر تعالى عن مقالة المؤمنين بعد دخولهم الجنة من أنهم يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:34 ـ 35)

فإن أقل نعمة من نعم الله تعالى على عباده لا تكفئها جميع طاعات العبد، بل إن الطاعة نفسها نعيم من نعم الله، فكيف يكون النعيم جزاء على النعيم، وقد ورد في الحديث عن جابر قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: خرج من عندي خليلي جبريل آنفا فقال: يا محمد! والذي بعثك بالحق إن لله عبدا من عباده عبد الله تعالى خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا والبحر المحيط به بأربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله له عينا عذبة بعرض الاصبع تبيض بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج في كل ليلة رمانة فتغذيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته فسأل ربه عند وقت الاجل أن يقبضه ساجدا وأن لا يجعل للارض ولا لشئ يفسده سبيلا حتى يبعثه وهو ساجد، ففعل، فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا، فنجد له في العلم أنه يبعث يوم القيامة

فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول له الرب تبارك وتعالى: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: يا رب! بل بعملي، فيقول الله: حاسبوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه، فيقول: ادخلوا عبدي النار، فيجر إلى النار فينادي: رب! برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه فيقول: يا عبدي! من خلقك ولم تكن شيئا؟ فيقول: أنت يا رب! فيقول: من قواك

1) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

لعبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب! فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج في السنة مرة؟ وسألتني أن أقبضك ساجدا ففعلت ذلك بك؟ فيقول: أنت يا رب! فقال الله: فذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة، قال جبريل: إنما الاشياء برحمة الله يا محمد(1).

وهذه النظرة النافية للغرور هي التي تقي المؤمن من انحراف بعض الناس الذين جرهم فهمهم الخاطئ لمعنى العدل الإلهي إلى أن يطلبوا الجزاء من الله، كما يطلبه الأجير من المستأجر، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم.

وكأنهم يتصورون أن الجنة عوض حقيقي عن العبادة، أو كأن العبادة عوض حقيقي ينتفع به الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا، فالله تعالى غني عن العالمين إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساؤا فلها، لهم ماكسبوا وعليهم ما اكتسبوا، من عمل سالحا فلنفسه ومن أساء فعليها.

وقد ورد في الحديث القدسي الجليل قول الله تعالى لعباده: (ياعبادى أني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ياعبادى أنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفرالذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقي قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم إجتمعوا في صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك في ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(2)

فهذا الحديث الجامع لحقيقة علاقة الله بعباده هو الأساس الذي يفهم به المؤمن المراد من العدل الإلهي المزين بالرحمة

---

1) رواه الحكيم الترمذي، والحاكم، وابن حبان.
2) رواه مسلم.

الإلهية.

ولهذا دأب الصالحون إلى التنبيه إلى هذا المعنى، والتحذير من معاملة الله كمعاملة الأجير للمستأجر، وقد روي أن محمدا بن واسع اجتمع بمالك بن دينار، فقال ابن دينار: إما طاعة اللّه أو النار، فقال ابن واسع: إما رحمة اللّه أو النار، فقال ابن دينار:(ما أحوجني إلى معلم مثلك)، وقال البسطامي:(كابدت العبادة ثلاثين سنة فسمعت قائلاً يقول:(يا أبا يزيد خزائنه مملوءة من العبادة إن أردت الوصول إليه فعليك بالذلة والافتقار)

وإلى هذا المعنى تشير كثير من حكم ابن عطاء الله كقوله:(من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل)، وقوله:(لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من اللّه: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (يونس:58))

ولكن العدل الإلهي مع ذلك يقتضي اختلاف أصناف العاملين، ولو دخلوا جميعا برحمة الله إلى الجنة، فلا يستوي الطائع والمقصر، ولا القريب مع البعيد.

ولعله لأجل هذا خوطب المؤمنون في الجنة وهنئوا بأن أعمالهم هي التي أهلتهم لذلك، فقد ورد ذلك عند ذكر المقربين الطيبين، كما قال تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (النحل:32)

وفي سورة الرحمن بعد ذكر نعيم المقربين قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) (الرحمن) بينما لم يذكر ذلك عند نعيم غيرهم.

وفي سورة الواقعة بعد ذكر نعيم المقربين قال تعالى: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) (الواقعة)، وعندما ذكر نعيم غيرهم من أهل اليمين لم يذكر ذلك.

وبذلك، فإن الأعمال لم تؤهلهم لدخول الجنة، وإنما أهلتهم لدرجات الجنة، كما قال عبد الله بن مسعود :(تجوزون الصراط بعفو الله، وتدخلون الجنة برحمة الله، وتقتسمون المنازل بأعمالكم)(1)

وقد نص القرآن الكريم في مواضع كثيرة على استحقاق المؤمنين للدرجات بحسب أعمالهم، فقال تعالى: وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (الأنعام:132)

1) رواه هناد بن السري وعبد بن حميد في الزهد.

بل أخبر أن درجات الجنة أكثر بكثير من درجات التفاضل في الدنيا، قال تعالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء: 21)

وأخبر أن الدرجات العليا من استحقاق من تحققوا بحقيقة الإيمان، فقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (لأنفال:4)

وهذا القانون الذي يتقاسم المؤمنون على أساسه نعيم الجنة ودرجاتها هو نفس القانون الذي يتقاسم به أهل جهنم دركات النار، والذي عبر عنه قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الاحقاف:19)

فلا يتساوى أهل جهنم في العذاب كما لا يتساوى المؤمنون في النعيم، بل لكل حسب عمله وجهده ووسعه، قال تعالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء: 21)

هذا عن نعيم أهل الجنة.. وعلاقة عملهم بها..

أما ارتباط الجزاء المعد لأهل جهنم من الكفار والعصاة بالعمل، فتنص عليه الآيات القرآنية الكثيرة في مواضع مختلفة:

منها أن يعرض ذلك على صيغة الوعيد الإلهي الذي لا يتخلف، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس:8)

أو أن يعرض على صيغة التبكيت والسخرية، كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة:82)، أو قوله تعالى: ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الحجر:84)، أو قوله تعالى: ﴿ وقال تعالى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين:36)

أو على صورة إجابة أهل النار أنفسهم، كما في هذا المشهد القرآني، قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (المدثر:42 ـ 47)

وهذا يدل على قناعة أهل النار باستحقاقهم لها على مقتضى العدل الإلهي، فعدل الله تعالى الذي يقيم عليها أصناف الحجج، ويدع لهم فرص الدفاع عن أنفسهم بما شاءوا من الأساليب يضطرهم في الأخير إلى التسليم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا

أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (الكهف: 49)

فهذه الآية الكريمة تدل على ان الكفار يرون أعمالهم، وهي توزن، فيتعجبون من إحصاء الله لكل شيء مع إقرارهم بما عملوه.

ومن عدالة الله في أهل جهنم أن جعل لكل ذنب جزاءه الخاص وعقوبته التي تتناسب معه، فلا يعاقب العبد إلا بما عمل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي:(ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) (1)

ولذلك جعل الله تعالى جهنم دركات مختلفة بعضها فوق بعض، كما قال تعالى: وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (الاحقاف:19)

ومن الأخطاء التي تتداول بين العامة، وينشرها بعض الوعاظ، وتمتلئ بها بعض كتب الزهد والرقائق والتي لا تتناسب مع العدالة ما يذكر من ترتيب أهل الطبقات بحسب أديانهم، فيجعلون فى الدرك الأعلى المحمديون، وفى الثانى النصارى، وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخامس المجوس، وفى السادس مشركو العرب، وفى السابع المنافقون (2).

فهذا الترتيب يحصر أهل جهنم في أصناف محدودة، بالإضافة إلى أنه يسوي أصحاب كل دين في مرتبة واحدة، مع أن بعضهم قد يكون أفضل من بعض، وقد نطق القرآن الكريم بالتفريق بين أهل الدين الواحد، فقال تعالى: لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (آل عمران:113)

وقال في الفرق بين الطرق المختلفة لتعاملهم: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ (آل عمران: 75)

بل ورد في السنة ما يدل على أن أهل جهنم مقسمون بحسب نفسياتهم وأسباب إعراضهم عن الله، وذلك في قوله ﷺ:(المرء مع من أحب) (3)، وقوله ﷺ:(خمس صلوات من حافظ عليهن كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له نور يوم القيامة ولا برهان ولا نجاة وكان يوم

1) رواه مسلم.
2) انظر: التذكرة للقرطبي، وغيرها من كتب المواعظ.
3) رواه البخاري ومسلم.

القيامة مع فرعون وقارون وهامان وأبي بن خلف) (1)

ويدل على هذا ما روي من تقسيم أصناف علماء السوء على طبقات جهنم:(من علماء السوء من إذا وعظ عنف وإذا وعظ أنف فذاك فى أول درك من النار، ومن العلماء من يأخذ علمه مأخذ السلطان فذلك فى الدرك الثانى من النار، ومن العلماء من يحرز علمه فذلك فى الدرك الثالث من النار، ومن العلماء من يتخير الكلام والعلم لوجوه الناس ولا يرى سفلة الناس له موضعا فذلك فى الدرك الرابع من النار، ومن العلماء من يتعلم كلام اليهود والنصارى وأحاديثهم ليكثر حديثهم فذلك فى الدرك الخامس من النار، ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا يقول للناس سلونى فذلك الذى يكتب عند الله متكلفا والله لا يحب المتكلفين فذلك فى الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة وعقلا فذلك فى الدرك السابع من النار) (2)

فكل صنف من هذه الأصناف يدل على حال نفسية معينة تقتضي عذابا معينا، وإن كان صاحبها في الظاهر عالما جليلا، وقد كان يحيى بن معاذ يقول لعلماء الدنيا:(يا أصحاب القصور قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية وأبوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية ومآثمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين المحمدية)

ولذلك فإن الأعمال الصالحة للكفار، والتي لم تمكنهم من دخول الجنة بسبب كفرهم وعدم إرادتهم بها وجه الله قد تخفف عنهم بعض العذاب، فلا يستوي ـــ ولو في جهنم ـ المحسن والمسيء، وقد قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ (النساء: 40):(فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً)(3)

وروي من وجه آخر أن الأعمال الحسنة للكفار يجازون عليها في الدنيا، قال ﷺ:(إن اللّه لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة)(4)

ولكن هذا ـ كما ذكرنا سابقا ـ لا يلغي جزاء الآخرة، خاصة إن لم يجاز هذا الكافر في الدنيا على ما قدمه من خير.

---

1) رواه محمد بن نصر.
2) انظر: التذكرة للقرطبي، وغيرها من كتب المواعظ.
3) سنرى المواقف من هذا في الفصل الأخير.
4) رواه مسلم.

بعد هذا، فإن عدالة الله المطلقة ورحمته التامة الشاملة اقتضت أن لا يخلد في النار من كان في قلبه ولو مثقال حبة خردل من إيمان، قال ﷺ في حديث الشفاعة الطويل:(يقول اللّه عزَّ وجلَّ ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار)(1) ؛ وفي لفظ آخر:(أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيرا)، ثم يقول أبو سعيد: اقرأوا إن شئتم: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (النساء: 40)

ولكن هذه الرحمة التي ينالها هؤلاء لا تكون على حساب العدل الذي يقتضي أن ينال كل ذي حق حقه، فلذلك وردت النصوص بأن حقوق العباد لا يتسامح فيها، بل يأخذ المظلوم حقه كاملا غير منقوص.

وهذا مايشير إليه قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (الزمر:31)، فالله تعالى يتيح في ذلك اليوم لكل ذي حق أن يستقدم من يشاء ليطالبهم بحقه.

وقد ورد في الحديث تصوير لبعض مشاهد العدل في أداء الحقوق لمستحقيها، وذلك حين سأل رسول الله ﷺ الصحابة، فقال:(أتدرون من المفلس؟)، فقالوا:(المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع)، فقال ﷺ:(إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)(2)

فعدالة الله المطلقة تقتضي أن لا يضيع أي حق من الحقوق مهما كان، ولذلك قال ﷺ:(من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)(3)

بل إن النصوص أخبرت بعدالة الله الشاملة للحيوانات حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء (4)، وفي الحديث القدسي

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.
3) رواه البخاري.
4) نص الحديث:(لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

عن الجنة، يقول اللّه تعالى:(وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم)(1)، وهو ما ينص عليه قوله تعالى: وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (طه: 111)

* * *

قد يقال بعد هذا: كيف يكون الجزاء عادلا، والعباد يجازون على أعمال فانية بجزاء غير فان(2).

فكيف تتحكم الثواني المعدودة من عمر الزمن الممتد في جزاء لا ينتهي أمده؟

والجواب عن هذا، بأن جزاء المؤمنين لا إشكال فيه، لأن نفس دخولهم الجنة برحمة الله، وإنما العدل في تقاسمها بينهم على أساس أعمالهم، وقد أشرنا إلى هذا في محله.

والقرآن الكريم يخبرنا عن الارتباط الوثيق بين العدل بالرحمة في جميع أنواع الجزاء، فلذلك تضاعف الحسنات، ولا تجازى السيئات إلا بمثلها، قال تعالى عن جزاء الحسنات: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (النساء: 40)

وقال تعالى عن جزاء السيئات: وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (يونس:27)

وقال جامعا بينهما: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (الأنعام: 160)

زيادة على هذا، فإن النعيم الحقيقي الخالي من المنغصات يقتضي الخلود، فتذكر الفناء كاف في تنغيص أي نعيم، وفي تكدير أي لذة، فلذلك تقتضي رحمة الله، أن ينعم المؤمنون نعيما خاليا من الغصص، وهو لا يكون إلا مع الخلود.

يقول النورسي:(ان رحمة خالق الكون وهو الرحمن الرحيم تدل على السعادة الأبدية، نعم ان التي جعلت النعمة نعمة فعلاً وانقذتها من النقمة، ونجَّت الموجودات من نحيب الفراق الابدي.. هي السعادة الخالدة ودار الخلود، وهي من شأن تلك الرحمة التي لا تحرم البشر منها، اذ لو لم توهب تلك السعادة ودار الخلود التي

1) رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعة وقد ضعفه جماعة وقال ابن عدي أرجوا أنه لا بأس به، وبقية رجاله ثقات.

2) سنرى الخلاف في هذا في (سر الرحمة)

هي رأس كل نعمة وغايتها ونتيجتها الأساس، أي ان لم تبعث الدنيا بعد موتها بصورة (آخرة).. لتحولت جميع النِعَم الى نقم.. وهذا يستلزم إنكار الرحمة الإلهية المشهودة الظاهرة بداهة وبالضرورة في الكون، والثابتة بشهادة جميع الكائنات والتي هي الحقيقة الثابتة الواضحة وضوحاً أسطع من الشمس)[1]

أما الكافرون، فإن التصور الخطير الذي يحملونه عن الكون كاف في تخليدهم في العذاب، وإلا لتساوى الكافر مع المؤمن، وهو ما لا تقتضيه العدالة.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ (فاطر:36)، فقد علل تعالى خلودهم فيها بكفرهم سواء بذكر وصفهم، أو بذكر القانون الإلهي الذي حكم عليهم بذلك.

يقول النورسي معللا سر خلود الكفار في العذاب:(أيها الانسانُ! اِنّ فيك جهتين: جهةُ الايجاد والوجودِ والخير والايجابية والفعل، والاخرى جهةُ التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال.

فعلى اعتبار الجهة الاولى (جهة الايجاد) فانك أقلُّ شأناً من النحلة والعصفور وأضعفُ من الذبابة والعنكبوت. أما على اعتبار الجهة الثانية (جهة التخريب) فباستطاعتك ان تتجاوز الأرضَ والجبال والسموات، وبوسعِكَ إن تحمل على عاتقك ما أشفقن منه فتكسبَ دائرةً أوسعَ ومجالاً أفسح؛ لأنك عندما تقوم بالخير والايجاد فانك تعمل على سعةِ طاقتك وبقدر جهدك وبمدى قوتك، أما اذا قمتَ بالإساءةِ والتخريب، فإن اساءتكَ تتجاوز وتستشري، وان تخريبَك يعم وينتشر)[2]

ويضرب المثل على ذلك من الواقع بأن الانسان يستطيع هدمَ بيتٍ في يوم واحد الاّ أنه لا يستطيع أن يشيّده في مائة يوم.

ومثل ذلك الكفر، فهو سيئة واحدة، ولكنها (تُفضي الى تحقير جميع الكائنات وازدرائها واستهجانها، وتتضمن أيضاً تزييف جميع الاسماء الإلهية الحسنى وإنكارها. وتتمخّض كذلك عن إهانة الانسانية وترذيلها؛ ذلك لأن لهذه الموجودات مقاماً عالياً رفيعاً، ووظيفةً ذات مغزى، حيث انها مكاتيب ربانية، ومرايا سبحانية، وموظفات مأمورات إلهية. فالكفر فضلاً عن إسقاطهِ تلك الموجودات من مرتبة التوظيف ومنزلة التسخير ومهمة العبودية،

---

1) الكلمة التاسعة والعشرون، وهي كلمة تخص بقاء الروح والملائكة والحشر، النورسي.

2) الكلمة الثالثة والعشرون، النورسي.

فانه كـذلك يُرديهـا الى درك العَبَث والمصـادفة ولا يـرى لهـا قيمـةً ووزنـاً بمـا يعتريهـا من زوالٍ وفـراق يبـدّلان ويفسّـخان بتخريبهمـا وأضرارهما الموجودات الى مواد فـانيـة تافهـة عـقيـــمة لا أهميـة لها ولا جدوى منها)(1)

ولذلك كان هذا التخريب العظيم لكل حقـائق الكـون مقتضـيا للخلـود في العـذاب، يقــول النورســي:(فالــذين لايعرفــون هــذا الرحمن الرحيم ولايسعون بالعبودية لحبّه، بـل يضـلون الى الانكـار فيضمرون نوعاً من العـداء تجاهـه.. هـؤلاء ليسـوا الاّ شـياطين في صور أناسي، وفي حكم نماردة صغار وفراعنة صُـغر. ولاشـك أنهم يستحقون عذاباً خالداً لانهاية له)(2)

هذا ما تقتضيه العدالة أما ما تقتضيه الرحمة، فهو شأن آخــر، وسنعرض له في محله من الباب الرابع.

* * *

بعـد هـذه الجولـة في رحـاب النصـوص المقدسـة، فـإن المصير الذي ينتظر الخلق لا يكون إلا من صـنع أيـديهم، ولـذلك فإن المجتهد لا يقعد بسبب ما توهمـه خيالـه ممـا كتب لـه، بـل يحاول ان يملي على الكتبة من الملائكـة مـا يرضـاه من كتـاب، فالله تعالى لا يحاسبه على الكتـاب السـابق، بـل يحاسـبه على الكتاب الذي كتبه بعمله.

ولذلك فإن القرآن الكريم يرجع كل ما يحصـل من خـير او شر للبشر إلى أيديهم وأنفسهم، قال تعالى:﴿ ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَـا عَلَى قَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِأَنْفُسِـهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (لأنفال:53)

ويعلل ذلك بأنـه مقتضـى العـدل، قـال تعـالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يـونس:44)، ويقول تعـالى:﴿ ذَلِـكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران:182)

ويمثل جزاء الشر يكون جزاء الخير، يقول تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آَمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَـذْنَاهُمْ بِمَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ﴾ (لأعـراف: 96)

---

1) الكلمة الثالثة والعشرون، النورسي.
2) الكلمة الثالثة والعشرون، النورسي.

الفصل الثالث

سر الحكمة

السر الثالث من أسرار القدر هو سر الحكمة.. وبهذا السر يعيش المؤمن بصحبة الرضا عن الله في جميع أفعاله، فهو يعلم أن كل ما في الكون مؤسس على حكمة الله وقائم بها وقائم عليها، فلا ينكر فعلا من أفعال الله، بل يستدل بأفعال الله على الله.

وبهذا السر يعيش المؤمن بصحبة الله الحكيم الذي يضع الأمور دقيقها وجليلها في موضعه الذي يليق به، فلا فطور في الكون ولا نشاز، بل كل شيء ينطق بالحكمة، ويخبر عن دقة الصنع وإتقانه.

وبفهم هذا السر يقول المؤمن ما قالت الملائكة عندما أخبرها الله بأنه يعلم ما لا تعلم: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:32)

ولهذا نجد في القرآن الكريم اقتران اسم الله (الحكيم) بخلق الله وأمره، لينبهنا إلى أن مصدر هذا الخلق أو ذاك الأمر هو حكمة الله وتدبيره العجيب، لا العشوائية أو الصدفة:

فتصوير الإنسان في الأرحام، وتوفير كل ما يحتاجه صادر من حكمة الله، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:6)

وإحياء الموتى كبدء الحياة كلاهما صادران من حكمة الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:260)

ولهذا تقترن أسماء الله المرتبطة بالخلق بحكمة الله، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر:24)

ولهذا أيضا يقترن اسم الله (العزيز) باسم الله (الحكيم)، فالعزة تعني كمال القدرة والتصرف، والحكمة تعني وضع ذلك في موضعه المناسب.

ولهذا كان من أدب المسيح عليه السلام قوله في ختم إجابته لربه: ﴿ إِنْ تُعَـذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:118)، فلم يقل (فإنك أنت الغفـور الـرحيم) لأن المقام يقتضي عزة الرب وحكمته لا مغفرته ورحمته.

***

وكما استدللنا بمظاهر العدل الإلهي في الكـون على عـدل الله المطلق، فكذلك سنفعل هنـا.. وسـنقتبس بعض مـا توصـل إليـه العلم الحـديث من ذلـك، من بـاب التقـريب لا من بـاب الحقيقـة المطلقـة.. فالحقيقـة المطلقـة لا يمكن لجميـع أقلام الكون أن تعبر عنها.

ونبدأ ذلك بمقولة العالم المشـهور (إسـحاق نيـوتن) الـذي قال:(لاشك في الخالق، فإن هذا التفرع في الكائنات، وما فيها من ترتيب أجزاء ومقوماتهـا، وتناسـب مـع غيرهـا ومـع الأزمنـة والأمكنة، لا يعقل أن تصدر إلا من حكيم عليم)

وانطلاقـا من هـذا، فـإن ظـاهرة التناسـب والتناسـق في الكون من أكبر دلائل الحكمة الباهرة، وقد ذكر الأستاذ الفاضـل عبد الرزاق نوفل في كتابـه (اللـه والعلم الحـديث) انطلاقـا من المنهج الذي رسمه الله تعالى بقوله:﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَـرْمَدًا إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَـارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِلَيْـلٍ تَسْـكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72)﴾ (القصص) بعض دلائـل الحكمـة الإلهيـة في خلقه، فقال:(ترى لو كـان سـاقا الإنسـان أقصـر أو أطـول مما هما.. أو كانت قـدماه أكـثر تقعـراً أو اسـتدارة.. كيـف كـان يستطيع أن يقضي حاجته من سير أو عدو.

وترى لو كانت يداه بلا أصابع، كيف يلتقط ما يأكله؟ وكيـف يمسك ما يؤدي به أغراضه؟ أليس ذلك دليل على قصـد يوضـح قدرة القاصد وحكمته؟

إن دلائل ملاءمة الإنسان لبيئته، لأكثر من أن تعد، فحركات المفاصل والعضلات، وتكوين فقرات العظام.. بـل تتغلغـل أدلـة الرحمـة حـتى تشـمل العين، فوجـد لهـا الجفن الـذي يحميهـا والرمش الذي يقيها.. وإن تلاؤم الكائن مع بيئتـه، ليظهـر أوضـح في الحيوانات على اختلافها، ففيها آيات ناطقـات، تسـبح بحمـد

الموجود الـذي عمت رحمتـه الأرجـاء على أتسـاعها، والكائنـات على اختلافها.

وأقــرب مثــل يتجلى فيــه التلاؤم الــذي يختلــف بــاختلاف الظــروف الحربــاء، فهي تتلــون بعــدة ألــوان فهي صــفراء في الصحراء، فإذا صادفت خطراً أخذت لون سـاقها البـني الغـامق وقد يصادفها عشب أخضر، فتخضر فـورا،أمـا إذا وجـدت حجـرا أبيض أبيضت مثله، وإذا وجدت أحمر أحمرت، وتسود بجـوار مـا يكون أسود، ثم تعود لتأخذ زرقة الماء في شاطئه.

ولعل الأرنب القطبي، يعتبر صورة صادقة لمـا تجـود عليـه به الحيـاة من أسـاليب المواءمـة. فهـو حيـوان ضـئيل الجسـم، أبيض الشعر ن طويل الأذنين. يقطن أقاصي الشمال المتجمـد، وتكتسي قوائمه في الشتاء بخف كثيف، حتى لا تغوص في ذلك الثلج الناعم اللين، وحتى يستطيع الحركة في جو تعجز فيه عن الحركة كل الوحوش والطيور.

ومن عجيب ما حبتـه الحيـاة لهـذا الحيـوان، أنـه في سـني الرخـاء يتناسـل تناسـلا كبـيراً شـديدا، في سـني القحـط، فإنـه يصاب بالطاعون الذي يقضي على الجزء الأكبر منه.

وتغيير لون فرو هذا الأرنب من أعظم نعم الله عليـه، فهـو في الصــيف أغــبر اللــون فــإذا أنبطح على الأرض غــاب عن الأبصــار، وفي الشــتاء أبيض اللــون ن فلا تفرقــه عن الثلج المتساقط على الأرض.

وسيقان الحشرات الماشية.. والقافزة.. والطـائرة... كلهـا أعـدت بعنايـة ودقـة وتصـميم، لتـؤدي الأغـراض الـتي خلقت متناسبة مع بيئة الكائن.

والأجنحة التي تطير عنـدها تنفـرد في الجـو، هلا علمت أن طول كل جناح مساو تماماً للجناح الآخـر؟ وإلا لمـال الطـير في طيرانه... وهلا علمت أن ريش الجناح مع ريش الذيل قد حسب حسابا دقيقا يجعل الطائر يطير مستقيما، ويحلـق طـولا،و يأخـذ اتجاهاته، التي يسيره إليها الله.

***

ومثـل تجلي حكمـة اللـه في عـالم الخلـق تتجلى حكمتـه تعالى في عـالم الأمـر، ولهـذا تقـترن بعض تشـريعات اللـه في القرآن الكريم بالأسـماء المقتضـية لعلم اللـه وحكمتـه أو لعـزة الله وحكمته:

ومن ذلك أن المقادير العجيبة التي وضعها الله تعالى لتقسيم التركات لا تصدر إلا من حكيم عالم بحاجات العباد، فلذلك قال تعالى بعد ذكر أنصبة الورثة: لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (النساء: 11)

ومثل ذلك مقادير الكفارات والديات، فهي تستند لعلم الله وحكمته كما قال تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (النساء: 92)

ومثل ذلك تقدير الله تعالى بقطع يد السارق، كما قال تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (المائدة:38)، وقد اقترنت حكمته تعالى بعزته في هذه الآية لاقتضاء المقام ذلك، كما روي أنه سمع بعض الأعراب قارئا يقرأها وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (المائدة:38) بإبدال (غفور رحيم) بدل (عزيز حكيم) فقال: ليس هذا كلام الله، فقال: أتكذب بالقرآن فقال: لا ولكن لا يحسن هذا فرجع القارئ إلى خطئه فقال عزيز حكيم فقال صدقت.

وعدم فقه هذه الحكمة هو الذي جر بعض المعارضين لله أن يقول:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟

تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

وقد رد عليه بعض الفقهاء بقوله مبينا بعض أسرار الحكم الإلهية في هذا التشريع:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

ومثل تجلي حكمة الله في الخلق والأمر تتجلى في أفضاله المختلفة على عباده، فإن أساسها حكمة الله وعلمه

وخبرته بعباده، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:83)، وقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: 269)

ومثل ذلك ما يقبضه الله من علم عن عباده، فإنه لا يقبضه إلا عمن لا يستحقه أو لا يطيقه، كما قال تعالى عن الأعراب: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:97)

فالبداوة بما تبعثه من قسوة وغلظة لا تفهم من العلم إلا بما يتناسب مع طبيعتها، فلا تتصور اليد المقطوعة إلا يدا سارقة، كما قال الأعمش: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي:(واللّه إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني)، فقال زيد:(ما يريبك من يدي إنها الشمال؟)، فقال الأعرابي:(واللّه ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال!) فقال زيد:(صدق اللّه: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾

وهكذا سائر معاملات الله مع عباده بمختلف أصنافهم، قال تعالى عن الذين يعملون السوء بجهالة: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: 17)، وقال عن المرجون لأمر الله: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ_ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:106)

وهكذا الأمر في تدبير الله للأحداث والتواريخ، فهي تواريخ منظمة بحكمة الله لا مجال فيها للعشوائية أو الصدفة ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:62)

***

وبناء على هذا، فإن الغرض من الخلق ــ حسبما ورد في النصوص ــ هو التعرف على الله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:56)، فقمة العبادة المعرفة، فالعبادة وسيلة المعرفة، وثمرتها.

ومثلـه قولـه تعـالى عن الكـون: ﴿ ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ وَهِيَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهَـا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَـا طَوْعـاً أَوْ كَرْهـاً قَالَتَـا أَتَيْنَـا طَـائِعِينَ﴾ (فصـلت:11)، فليسَـت الطاعـة إلا عبـادة، وليسـت العبادة إلا معرفة.

وانطلاقا من هذا، سنحاول من خلال أسماء اللـه الحسـنى أن نستكشف الحكمة من خلق هذا الوجود على ما هو عليه.

وبما أن لكل اسـم حكمـه الخـاص، ولا يمكن الإحاطـة بـه، فسنركز هنا على مجامع هذه الأسماء.

وسنقتبس ذلك من ذكر كـثر الحث عليـه، نـرى أنـه أحـاط بأكثر المعاني التي وردت في الأسماء الحسنى، وهـو (لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، لـه الملـك، ولـه الحمـد، وهـو على كـل شيء قدير)

فقـد ورد في النصـوص مـا يجعـل هـذا الـذكر من أفضـل الأذكار وأجمعها:

فأحب الكلام إلى الله ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ (سـبحان الله لا شريك له له الملك وله الحمد وهـو على كـل شـئ قـدير ولا حول ولا قوة إلا بالله سبحان الله وبحمده)(1)

وهو ـ لأهميتـه من الأذكـار الـتي اهتم بهـا الأنبيـاء ــ عليهم السلام ـ، قال ﷺ:(ألا اعلمكم ما علم نوح ابنـه آمـرك بقـول لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كـل شئ قدير فان السـموات لـو كـانت في كفـة لـرجحت بهـا ولـو كانت حلقه قصمتها وآمرك بسـبحان اللـه وبحمـده فانهـا صـلاة الخلق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق)(2)

ومن حرص على هـذا الـذكر، وهـو يعيش معنـاه أدرك من سـبقه، ولم يدركـه أحـد، قـال ﷺ:(أبـا ذر ألا أعلمـك كلمـات؟ تقولهن تلحق من سبقك، ولا يـدركك الا من أخـذ بعملـك: تكـبر دبـر كـل صـلاة ثلاثـا وثلاثين، وتسـبح ثلاثـا وثلاثين، وتحمـد ثلاثـا وثلاثين، وتختم بلا إله الا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شئ قدير، من فعلهن غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر)(3)

وللـترغيب فيـه وردت النصـوص الكثـيرة مبينـة مـا أعـد لذاكريه من الأجر الجزيل، قال ﷺ:(من سبح الله دبر كل صلاة

1) رواه البخاري في الأدب.
2) رواه البيهقي في الشعب.
3) رواه أبو داود.

ثلاثا وثلاثين، وحمد اللـه ثلاثين وثلاثين، وكـبر اللـه ثلاثـا وثلاثين، فتلك تسع وتسعون، وقال تمام المائـة: لا إلـه الا اللـه وحـده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، غفـرت خطاياه، وان كانت مثل زبد البحر)[1]

وقال:(من قال إذا أصبح: لا إله الا الله وحده لا شريك لـه له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، كان له عدل رقبـة من ولد اسـماعيل عليـه السـلام، وكتب لـه بهـا عشـر حسـنات وحط عنه بها عشر سيئات، ورفع لـه بهـا عشـر درجـات، وكـان في حرز من الشيطان حتى يمسي، وإذا قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح)[2]

وقال:(من قال في دبر صلاة الغداة: لا إله إلا اللـه وحـده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت بيـده الخـير وهـو على كل شئ قدير مائة مرة قبـل ان يثـنى رجليـه، كـان يومئـذ أفصل أهل الارض عملا الا من قال مثل ما قـال أو زاد على مـا قال)[3]

وقال:(من قال: لا إله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمـد بيـده الخـير وهـو على كـل شـئ قـدير، حين يصـلي الصـبح، وقبـل ان يثـنى قدميـه عشـر مـرات، كتب لـه عشـر حسنات ومحيت عنـه عشـر سـيئات ورفـع لـه في الجنـة عشـر درجات، وكتب له عتق عشر رقاب من ولد اسماعيل)[4]

وبناء على هذا، فإن الأسس التي تقـوم عليهـا حكمـة اللـه في مقاديره تقوم على أربعة دعائم:

1. الوحدانية.. ونعني بها ابتناء الكـون على الوحـدة، ونفي الوسائط بين الله وخلقه.

2. الملك.. ونعني به أن الكون جميعا يتعرف على الله من خلال كونه مملوكا له تدبيرا وتقديرا وحكما.

3. الحمد.. ونعني به أن الله تعالى تعـرف على عبـاده بمـا يستوجب الثناء عليه، ولـذلك كـانت كـل أسـمائه رحمـة ولطفـا ومودة.

4. القدرة.. ونعني بها أن اللـه تعـالى عـرف عبـاده على قدرته من خلال خلقه.

---

1) رواه أحمد ومسلم.
2) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.
3) رواه ابن السني والطبراني في الكبير.
4) رواه ابن النجار.

وسنحاول في هـذا الفصـل أن نتعـرف على هـذه الأسـس الأربعة من خلال التبصر الواعي للنصوص المقدسة.

أولا ـ الوحدانية

أول مظهر من مظاهر حكمة الله في مقـاديره في الخلـق والأمر هي إظهار وحدانية الله، فكل الكون ينطق بلسـان حالـه ومقاله:(لا إله إلا الله)

ولهذا كانت الدعوة للتوحيد ـ بمعناه العميق الشامل ــ هي أساس دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ، كما قال تعالى: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رُسُـلِنَا أَجَعَلْنَـا مِنْ دُونِ الـرَّحْمَنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ (الزخرف:45)، وقال تعـالى: وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الانبياء:25)

وقد ذكر الله تعالى عن كل الرسل ـ عليهم السلام ــ أنهم افتتحوا دعوتهم بتوحيد الله، قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَـلْنَا نُوحـاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (لأعـراف: 59)، وقال تعالى: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَـالَ يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ أَفَلا تَتَّقُـونَ (لأعـراف:65)، وقـال تعالى: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (لأعراف: 73)، وقال تعالى: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ (لأعـراف: 85)

وهي أول ما يُدخل به إلى الإسلام وآخـر مـا يخـرج بـه من الدنيا، كمـا قـال ﷺ:(من كـان آخـر كلامـه لا إلـه إلا اللـه دخـل الجنة)

وهذه أدلة كافية لإثبات بناء الكون على هـذا السـر العظيم الجليل الجميل.

فاللـه تعـالى تفـرد بـالخلق والإيجـاد، كمـا تفـرد بالتقـدير والتـدبير، كمـا تفـرد بالتشـريع والتكليـف، كمـا تفـرد بـالجزاء والثواب والعقاب.

وفي كل ذلك التفرد حكم عظيمة، ومعان جليلة، كلها ممـا تقتضيه مصالح الخلق، ومما يستقيم به الوجود.

ولذلك أخبر تعالى عن النتيجة التي يـؤول إليهـا الكـون لـو ترك التصرف فيه لآلهة متعددة، فقـال تعـالى: لَـوْ كَـانَ فِيهِمَـا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُـبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَـرْشِ عَمَّا يَصِـفُونَ (الانبياء:22)

ومما يؤكد هذا الاحتمال البعيد المستحيل ما نرى في واقعنا من انهيار الدول العظيمة، والامبراطوريات الضخمة من أجل صراع بين فرعونين كلا منهما يسعى إلى السلطة، فيسحق من تحته آلاف الآلاف بلا مبالاة من أجل ذلك المغناطيس الذي يجذبه إلى ألوهية السلطة.

فلذلك كان من رحمة الله أن جعل كل شي له، ولم يجعل شيئا من أمر الخلق لغيره.

ولهذا أخبر تعالى أنه لو جعلت خزائن الرحمة بيد الخلق لأمسكوا خشية الإنفاق، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾ (الاسراء:100)

وبمثل ذلك أخبر تعالى عن إمساكه لتماسك السموات والأرض وانتظامهما، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (فاطر:41)، ولو ترك الأمر لغيره لما أطاق ذلك.

وبناء على هذا، فإن (الله) على حسب فهم العارفين المستمد من النصوص المقدسة هو الإله الذي يتولى بذاته وبمقتضيات أسمائه الحسنى كل ما في الكون من خلق وأمر، على خلاف ما يفهم المحرفون لدين الله، أو المعتمدون على العقل المجرد من أن الله خلق الكون واعتزل عنه منشغلا بذاته ليترك التدبير للعقول والأفلاك.

وبما أن الحديث عن الوحدانية يستلزم الحديث عن الوسائط، وبما أن هذا الحديث أساء الكثير فهمه، فراح من خلاله يتهم بالشرك كل من قال بواسطة من الوسائط معتبرة كانت أو غير معتبرة، فسنتحدث في هذا المبحث عن ثلاثة أنواع من الوسائط، نرى أنها تجمع كل ما ذكر فيها، وهي:

1. وسائط القدرة، ونعني بها الوسائط المرتبطة بأسماء الله الحسنى.

2.وسائط الحكمة، ونعني بها شموس الهداية والرحمة التي جعلها الله لخلقه، لتكون واسطة لهدايته ورحمته.

3. الوسائط التقديرية، ونعني بها ما ستر الله به قدرته من أنواع الأسباب.

1 ـ وسائط القدرة:

ما مصدر هذه المقادير الكثيرة المختلفة المتناقضة؟

وهل يمكن أن يصدر كل هذا الكم المترتب على بعضه أو المتناقض مع بعضه من إله واحد؟

ألا يحتاج الله تعالى إلى الوسطاء الذين يطبقون أوامره في خلقه، ويسيرون مقاديره في كونه؟

هذه أسئلة أجاب عنها العقل المجرد إجابات مختلفة متناقضة متهافتة، فذكر الوسطاء الكثيرين لله من العقول والأفلاك.

وأجابت عنها الأديان المحرفة التي اتخذت من أحبارها ورهباناها أربابا من دون الله يسلمونها صكوك الغفران، ويدخلونها الجنة أو النار، فذكرت من الوسطاء من يزاحم الله في وحدانيته، بل جعلت من الوسطاء أبناء لله، وأقانيم مع الله.

وأجاب عنها العامة والجهال بالتهرب من كل قشة مخافة أن تكون وسيط عذاب، والتمسح بكل صخرة رجاء أن تكون وسيط رحمة.

وأجاب عنهم المشركون الذين اتخذوا آلهة أخرى يما كانوا يقولون في تلبيتهم، وهم يطوفون بالبيت:(لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) وبما أخبر عنهم القرآن الكريم من قولهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (الزمر: 3)

وقد رد القرآن الكريم على هذه الإجابات جميعا وأخبر أن كل ذلك من وحي الأهواء والوساوس، وأن الله أعظم من أن يحتاج إلى الوسائط، قال تعالى:وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (يونس:18)

وضرب لهم تعالى مثلا من أنفسهم، فقال: هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ (الروم: 28) أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء تخافون أن يقاسموكم الأموال، فإن أنف أحدكم من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟

وقد رد الله على بعض العقائد التي تعتقد في الوسيط ليجعلها نماذج للرد على جميع الأديان الوسيطية:

ومن ذلك أن المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وأنهم وسطاء بينه وبين خلقه، رد عليهم تعالى بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ (النحل:62)، فهم يجعلون لله البنات الذين يكرهونهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل:58)

وأخبر أنهم في الحقيقة يعبدون الجن، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء، فيعبدونهم متوهمين أنهم يعبدون الله، ولهذا تتبرأ الملائكة يوم القيامة من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:40 ـ 41)

وأخبر تعالى عن الذين اتخذوا المسيح ﷺ وسيطا لله، وزعموه ابنا لله، بآيات كثيرة، وأخبر أن المسيح يتبرأ منهم، كما تبرأت الملائكة من المشركين بها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة:116)، ثم بين نص رسالته لهم، ودوره فيهم بقوله: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة:117)

ورد الله تعالى على عبدة الكواكب، كما في قصة إبراهيم ﷺ، مبينا أن ما جبلت عليه من أفول وضعف يحول بينها وبين تولي زمام الوساطة.

أما عبدة الأصنام، ومن جعلوها وسائط بينهم وبين الله، فقد رد الله تعالى عليهم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وكلها تصلح للرد على كل مشرك كان في جزيرة العرب أو في جزائر الهند واليابان والصين..

* * *

مقابل هؤلاء جميعا.. المؤمن العارف بالله، فهو لا يرى إلا الله، فإن عاد إليه عقله المشدوه في جلال الله وجماله لم ير

الخلق إلا كما يرى القشة في مهب الريح أو الميت بين يدي الغسال.

وإلى هذه الإجابة وردت النصوص الكثيرة تنبه المؤمنين إلى تفرد الله في تصريف مقاديره، وتخبرهم أن الله تعالى لم يجعل الوسائط بينه وبين عباده لا في خلقه ولا في تدبيره، فلم يتخذ الله تعالى ـ كما يتخذ الملوك ــ حجابا بينه وبين عباده يرفعون إليه حاجاتهم أو يتوسطون بينهم وبينه، ولهذا قال تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقرة: 186)

لأن الوسيط لا بخرج عن أحد ثلاث:

وسيط علم: وهو الذي يخبر المتوسط له بما لا يعرفه، كما يقوم الحكام باتخاذ المخابرات والعيون لترصد أحوال الرعية.

وهذا مستحيل على الله تعالى، فهو تعالى يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو السميع البصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، وقد عرفنا طرفا من هذا في الباب الأول.

وسيط عون: ويلجأ إلى ذلك الحكام للعجز عن تدبير الرعية، فيدفعون ذلك إلى بطانة تعينهم ووزراء يخولونهم مهام القيام بشؤون الرعية.

والله تعالى غني عن كل ذلك، ولهذا أخبر تعالى عن عدم حاجته لهؤلاء الوسطاء، فقال تعالى عند ذكره عجائب الخلق في السموات والأرض: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (البقرة: 255)، أي لا يثقله ولا يُعجزه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه.

وأخبر عن عجز الذين اعتقد فيهم المشركون وسطاء لله، فقال تعالى: مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (الكهف: 51)، أي

هـؤلاء الـذين اتخـذتموهم أوليـاء من دوني، عبيـد أمثـالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، بل أنـا المسـتقل بخلـق الأشـياء كلهـا، ومـدبرها ومقدرها، وليس معي في ذلـك شـريك ولا وزيـر، ولا مشـير ولا نظير.

بل أمرهم أن يدعوهم ليروا مقدار ما عنـدهم من سـلطة، قـال تعـالى: ﴿قُـلِ ادْعُـوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُـونَ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَـا لَهُمْ فِيهِمَـا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (سـبأ:22)

بل أخبر عن العجز التام لمن اعتقدوا فيهم الوسـاطة ولـو على خلق ذبابة، كمـا قـال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ ضُـرِبَ مَثَـلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَـوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:73)

ولذلك كان الله تعالى محمـودا على هـذا التفـرد بتصـريف الكون، فالمصلحة كلها في تفرده، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ شَـرِيكٌ فِي الْمُلْـكِ وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ (الاسراء: 111)

وسـيط شـفاعة: وذلـك حينمـا يكـون المتوسـط لـه لا يتحرك إلا بدافع يحركه من الخارج، كمن يكون قاسيا يحتاج إلى من يحرك فيه دوافع الرحمة، أو أن يكون غافلا فيوقظه وينبهه.

والله تعالى غني عن كل ذلك، فهو رب كل شيء ومليكـه، وهـو أرحم بعبـاده من الوالـدة بولـدها، بـل إن رحمـة الوالـدة بولدها من فيوضات رحمته.

وهو تعالى وإن جرت حكمته بنفع العبـاد بعضـهم ببعض، أو شفاعة بعضهم لبعض، فإن ذلـك من مقتضـيات رحمتـه، والأمـر في ذلك كله لـه من قبـل ومن بعـد، ولهـذا قـال ﷺ:(لا يقـولن أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمـني إن شـئت، ولكن ليعزم المسألة فإنه لا مكره له)(1)

وأخبر تعالى أن الشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشـفعون إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ ﴾ (البقرة: 255)، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْـفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَـى وَهُمْ مِنْ خَشْـيَتِهِ مُشْـفِقُونَ﴾

1) رواه البخاري ومسلم.

(الانبياء:28)، وقال تعالى: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (طه: 109)، وقال تعالى: وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (سبأ: 23)

* * *

وبدل هذا التيه الذي دفع له العقل المجرد، أو الفهم القاصر، أو الذوق المنحط، فإن الله تعالى أرشدنا إلى توسيطه في كل مصلحة من مصالحنا، ودفعا لأي مضرة من مضارنا، فنفر إلى الله متوسلين بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

ولهذا علمنا ﷺ أن ندعو الله بأسمائه الحسنى، مستشفعين بها إلى الله، ومتوسطين بها لدية، أو نخبر بها أنفسنا لنكون في دعائنا عارفين بقدر من ندعو، وكان من أدعيته ﷺ:(أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) (1)

وقد علمنا رسول الله ﷺ أن تقول ليلة القدر:(اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى) (2)

ولما كان جميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب، ورد الدعاء في القرآن الكريم بهذه الصيغة في مواضع كثيرة، كما قال آدم عليه السلام: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (لأعراف: 23)

وقال نوح عليه السلام: رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (هود: 47)

وقال إبراهيم عليه السلام: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهيم:37)، ومنه قول الخليل في آخر دعائه بقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (ابراهيم:39)

وبما أن اسمه تعالى الحي القيوم يجمع أصول معاني الأسماء والصفات، وردت الإشارة بأنه اسم الله الأعظم، كما

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه الحاكم وابن ماجة.

قال ﷺ:(إن اسم اللّه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة وآل عمران وطه) (1)، يشير إلى قوله تعالى: اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (البقرة: 255)، وقوله تعالى: اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (آل عمران:2)، وقوله تعالى: وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ (طه: 111)، ولهذا كان النبي ﷺ يقوله إذا اجتهد في الدعاء.

ويدل على نفي الوساطة، وتفرد الله بتصريف المقادير، كثير من الأسماء الحسنى، بل إن كل الأسماء الحسنى ــ مع التأمل ـ لها نوع من الدلالة على هذا، وسنورد هنا دلالات بعض الأسماء الحسنى على نفي الوساطة:

الصمد:

هو الذي يصمد إليه في الحوائج، ويقصد إليه في الرغائب، إذ ينتهي إليه منتهى السؤدد.

وقد ورد في النصوص ما يدل على أن هذا الاسم هو الاسم الأعظم، فقد سمع النبي ﷺ رجلا يقول: (اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)، فقال:(لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب)(2)

ولهذا كان هذا الاسم من الأسماء التي كان النبي ﷺ يتوسل بها للاستعاذة، ومنها قوله ﷺ:(بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من شر ما تجد) ثلاث مرات (3).

وفي حديث آخر:(أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد من شر ما تجد)(4)

القريب:

وهو يدل على أن الله قريب من خلقه قربا لا يحتاجون معه إلى الوسائط لتبليغ حاجاتهم، ولهذا قال تعالى في آية السؤال: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقرة: 186) وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا:(يا رسول

---

1) رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء والطبراني وابن مردويه والهروي في فضائله والبيهقي في الأسماء والصفات.
2) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم.
3) ابن زنجويه في ترغيبه، والعقيلي، والبغوي.
4) أحمد وأبو داود والترمذي.

الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه) فأنزل الله تعالى هـذه الآية(1).

ولهذا أخـبر ﷺ أن معيـة اللـه لعبـده لا تسـتلزم إلا حضـور العبد معه، كما ورد في الأثر الإلهي:(أنـا مـع عبـدي مـا ذكـرني وتحـركت بي شـفتاه) (2)، وأخـبر ﷺ في الأثـر الإلهي أن (من تقرب مني شـبرا تقـربت منـه ذراعـا، ومن تقـرب مـني ذراعـا تقربت منه باعا)، وأخـبر ﷺ أن أقـرب مـا يكـون العبـد من ربـه وهو ساجد.

ولهذا ورد الثناء على تخفيض الصوت بالذكر والـدعاء، كمـا قال تعالى مثنيا على عبده زكريا عليه السلام: إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّـاً (مـريم:3)، فـإن القلب كلمـا استحضـر قـرب اللـه تعـالى وأنـه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

ولهذا لما رفع الصحابة أصواتهم بـالتكبير،وهم معـه ﷺ في سفر، قال:(يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تـدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذين تدعون أقـرب إلى أحدكم من عنق راحلته)(3)

الرحيم:

وهو ـ بعمقه وحقيقته المطلقة ــ يـدل على أن كـل رحمـة في الكون هي من رحمة الله، حتى الرحمـة الـتي يجـدها الولـد من أمـه، هي فيض وقبس من رحمـة اللـه، قـال ﷺ:(إن اللـه تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمـة كـل رحمـة طباق ما بين السماء والأرض، وجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطـير بعضـها على بعض وأخر تسعا وتسعين، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمـة) (4)، فقـد أخـبر ﷺ أن هـذه الرحمـة هي طبـاق مـا بين السـماء والأرض، ومع ذلك فهي رحمة واحدة.

بل إن اللـه تعـالى في رحمتـه بعبـاده أو في إجابتـه لهم لا يحتاج حتى إلى وسـاطة الأعمـال، وقـد قـال بعضـهم في هـذا: عجبت لهـذه الأمـة في قولـه تعـالى: وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (غـافر: 60) أمـرهم بالـدعاء ووعـدهم بالإجابـة، وليس بينهما شرط، فقال له قائل:(مثل مـاذا؟)، فقـال:(مثـل

---

1) رواه أحمد.
2) رواه ابن ماجه وابن حبان والبيهقي.
3) رواه البخاري ومسلم.
4) رواه مسلم وابن مردويه.

قوله تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (البقرة: 25)، فههنا شرط، وقوله تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس: 2)، فليس فيه شرط العمل، ومثل قوله تعالى: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (غافر:14) ففهنا شرط، وقوله تعالى: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (غافر: 60) ليس فيه شرط)

بل إنه ﷺ أخبر عن أن دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله الصرفة، فقال ﷺ:(لن يدخل أحد الجنة بعمله) قالوا:(ولا أنت يا رسول الله) قال:(ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) (1)

أما الشفعاء الذين أخبرت النصوص بشفاعتهم في الخلق، فهم لا يشفعون إلا بإذن الله، وفيمن أذن الله، وهذا وحده دليل على أن رحمة الله ـ لا الشفعاء ـ هم سبب ذلك الفضل.

وإنما اقتضت حكمة الله أن ينفع بعضهم بعضا، ويعرف بعضهم أقدار بعض.

القيوم:

وهو يدل على أن الله تعالى هو القائم بتدبير ما خلق، من دون أن يكل ذلك إلى الوسائط، كما قال تعالى: اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (البقرة: 255)، وقال تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران:18)، وقال تعالى: أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (الرعد:33)

أي هو تعالى القائم بنفسه الذي لا يحتاج في قوامه إلى وجود غيره، ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره، ومع ذلك فهو مستغن عن الوسطاء يقوم به كل موجود، حتى لا يتصور للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به.

ولهذا رتب الله تعالى على ذكر اسميه (الحي القيوم) ما يترتب عليهما من قيامه بخلقه.

الغني

---

1) رواه البخاري ومسلم.

فالله تعالى هو الغني بذاته عن الوسطاء، ولهذا ذكر الله تعالى هذا الاسم الكريم للرد على زعم المشركين أن الله قد اتخذ ولدا، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (يونس:68)

فاتخاذ الولد أو الوسطاء دليل على الفقر والحاجة، ووحدانية الله تتنافى مع ذلك.

وأخبر تعالى عن افتقار كل شيء إليه وغناه عن كل شيء، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:15)

والله تعالى يدفع توهم حاجته إلى عبادة عباده، حتى لا نتخذها وسيطا وثنيا لله، فقال تعالى عند أمره بالحج: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:97)، وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن المنفعة للعابد لأنه ذكر أن من دخله كان آمنا.

وأخبر تعالى أن سليمان عليه السلام عندما عاين فضل الله عليه قال: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: 40)

وأخبر أن من حكمة لقمان عليه السلام إدراك هذا المعنى العميق والتعامل الإيماني معه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان:12)

وأخبر موسى عليه السلام من كانوا يتصورون انتفاع الله بعبوديتهم بقوله: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (ابراهيم: 8)

وبمثل ذلك ورد في الحديث القدسي الجليل:(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) (1)

---

1) رواه مسلم.

وقد يقال هنا: فما القول فيما ورد في النصوص الكثيرة من محبة الله لطاعة عباده وفرحه بها وشكره عليها، كقوله ﷺ: (لَلّهُ تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض الفلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح) (1)؟

والجواب على ذلك، أن الله تعالى يفرح بهذه الطاعة، ويتقبلها ويجازي عليها من باب رحمته المحضة بعباده لا لمنفعة تعود إليه، فهو سبحانه الغني الكريم، كما قال تعالى: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمر: 7)

فالآية الكريمة جمعت بين الإخبار عن غنى الله عن أعمال عباده، وفي نفس الوقت أخبرت أن رضاه في شكرهم، وعدم رضاه في كفرهم.

زيادة على ذلك، فإن الله هو الميسر للطاعات، والمعين عليها والموفق، ولوشاء لجعل الناس أمة واحدة، كما قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس:99)

2 ـ وسائط الحكمة

لكن ألم يجعل الله تعالى من الوسائط ما يبلغنا أمره، ويعلمنا بمحابه ومراضيه، وما يأمر به وما ينهى عنه، وما أعده لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه؟

وهل يمكننا أن نعرف الله، أو نعرف أسماءه الحسنى وصفاته العليا التي تعجز العقول عن معرفتها من غير توسط الرسل ـ عليهم السلام ـ الذين أرسلهم الله الى عباده؟

بل قد أخبر القرآن الكريم عن جعل هذه الوسائط، فقال تعالى: يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (الأعراف: 35)، وقال تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة: 38)، وقال تعالى: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

---

1) رواه مسلم.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (طه:123)

وأخبر تعالى أنه يصطفي هؤلاء الوسائط من خلقه، قال تعالى: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (الحج:75)

وأوجب الله تعالى طاعة هؤلاء الرسل واتباعهم والاقتداء بهم، فقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (النساء: 64)، وقال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (النساء: 80)، وقال تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (آل عمران:31)، وقال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (الأحزاب: 21)

وأخبر تعالى عن أهل النار، فذكر أن النار تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (الملك:8 ـ 9)، وقال تعالى: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (الزمر:71)

وأقر تعالى هذه الوساطة التي يقوم بها الرسل ــ عليهم السلام ـ، كما قال تعالى: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (الأنعام:48)

وغير ذلك من آيات القرآن الكريم الكثيرة التي تخبر عن هذه الوسائط التي جعلها الله بينه وبين عباده، فكيف يستقيم هذا مع القول بتفرد الله بكل شيء وعدم اتخاذه الوسائط؟

والجواب عن ذلك، أن الحكمة الإلهية التي اقتضت جعل الإنسان خليفة هي التي اقتضت إرسال الرسل لتعريف الخلق بوظيفتهم، لأنه لو كان الخطاب مباشرا لهم من الله، تعالى

فصار كل مكلف نبيا، لم يتحقق التكليف الذي يرتبط بالإيمان بالغيب.

ولهذا ورد الثناء على المؤمنين بالغيب في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فقد ذكر تعالى من صفات المؤمنين أنهم: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (البقرة:3)، وقال تعالى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (الانبياء:49)، وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (الملك:12)، وقال تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (قّ:33)

وأخبر تعالى أن من غايات التكليف: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ (المائدة: 94)، وقال تعالى: وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ (الحديد: 25))

وأخبر أن الإنذار موجه للذين يخشون ربهم بالغيب، كما قال تعالى: إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (فاطر: 18)، وقال تعالى: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (يّس: 11)

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن هؤلاء الرسل ــ بالتأمل في حقيقة وظائفهم ـ ليسوا وسائط بالمعنى الذي قد يفهمه المشركون.

فالله تعالى يخبر عن عدم تميزهم عن البشر العاديين في البشرية، وأنه ليس لهم أي سلطة إلا ما خولوا به من الله تعالى، قال تعالى: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (ابراهيم: 11)، وقال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (الكهف: 110)، وقال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (فصلت:6)

حتى ما يتصرفون به من تصرفات لا تكون إلا بإذن الله وباسمه، قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (الرعد: 38)

ولهذا نفى الله تعالى الهداية عن أحب خلقه إليه،، فقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:56)، وقال له: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99) أي أتلزمهم وتلجئهم حتى يكونوا مؤمنين.

وأخبره تعالى أنه ليس من الوظيفة التي كلف بها الهداية بمعناها التوفيقي، فقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة: 272)

وأخبره أن وظيفته مقتصرة على البلاغ، فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: 20)، وقال تعالى: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:22)

ونفى عنه الشفاعة التي لم يأذن فيها الله تعالى، قال تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:80)، وقال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المنافقون:6)

ونفى عنه أي سلطة في التوبة أو المغفرة أو العذاب، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران:128)، أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ولهذا، فإن هذه الآيات القرآنية وغيرها تنفي مفهوم الوساطة الذي يعني أي سلطة إلهية تخول للرسول ما يكون خاصا بالألوهية.

ولهذا، لما قال تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة: 116) قال عيسى عليه السلام: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة:117)

بل أخبر تعالى أن الرسل وخلفاءهم اقتصروا في تبليغهم على الدعوة لتوحيد الله، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران:79)

وأخبر تعالى أن هؤلاء المدعوين عباد لله قانتون له متواضعون له لا يعتقدن في أنفسهم إلا العبودية لله، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الانبياء:27، وقال تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ (النساء:172)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (البقرة:116)

وسر ذلك كما ينبئ القرآن الكريم هو أن الله وحده المتفرد بالضر والنفع، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة: 76)، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس:18)، وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾ (الانبياء:66)، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ (الفرقان: 55)

وأنه وحده المتفرد بالرزق، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (النحل:73)

***

قد يقال هنا: فما القول في نفع دعاء الصالحين، أليس ذلك من الوساطة، وقد قال تعالى: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (النور: 63) أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاه مستجاب، فاحذورا أن يدعو عليكم فتهلكوا؟

أو لم يقل الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ (النساء: 64)؟

أو لم يرو العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول اللّه، سمعت اللّه يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ (النساء: 64)، وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع فطاب من طيبهن
أعظم القاع والأكم

نفسي الفداء لقبرٍ أنت فيه العفاف وفيه
الكرم والجود

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال:(يا عتبي إلحق الأعرابي فبشره أن اللّه قد غفر له) (1)

أو لم يكن الصحابة يستشفعون به ويتوسلون به في حياته بحضرته، فعندما أجدب المسلمون على عهد النبي ﷺ دخل عليه أعرابي فقال: يارسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغثنا فرفع النبي يديه وقال:(اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا وما في السماء قزعة، فنشأت سحابة من جهة البحر، فمطروا أسبوعا لا يرون فيه الشمس حتى دخل عليهم الأعرابي أو غيره، فقال:(يارسول الله، انقطعت السبل وتهدم البنيان فادع الله يكشفها عنا فرفع يديه وقال:(اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب ومنابت الشجر وبطون الأودية فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب)(2)

والجواب على ذلك هو أن دعاء المسلم لأخيه بالشهادة أو بالغيب أو التماس الدعاء من الصالحين لا حرج فيه، وهو ليس من الوساطة في شيء، لأن الدعاء ــ كما ذكرنا في الفصل الأول ــ سبب من الأسباب أو أمارة من الأمارات، وما كان كذلك كان حكمه كحكم سائر الأسباب، فنحن في حياتنا ــ مع علمنا بأن الله هو الشافي ــ نلتمس العلاج من الطبيب، ولم يقل أحد بأن الذهاب للطبيب التماس واسطة لله.

---

1) رواها الإمام النووي في (الإيضاح) ص454.
2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

قد يقال: فما القول بالتوسل به ﷺ، أليس هو من باب الوساطة الشركية؟

والجواب على ذلك هو أن هذه المسألة من المسائل التي كثر فيها الخلاف واشتد إلى أن اعتقد بعضهم أنها من مسائل الإيمان والكفر والسنة والبدعة مع أن الأمر فيها خفيف محتمل.

ونرى أن الإجابة عليها تخضع لثلاثة أنظار، كل نظر منها ينطلق من اسم من أسماء الله الحسنى، فمن قصر نظره إلى اسم واحد قال قولا واحدا، ومن نظر إلى الأسماء جميعا جمع بين الأقوال جميعا من غير أن يرى أي تناقض بينها.

وهذه هي الأجوبة الثلاثة عليها:

الجواب التوحيدي:

وهو يطل من نافذة أحدية الله ووحدانيته، والتي توجب غناه المطلق عن الشريك والوسيط والشفيع، وهذه الرؤية تنفي اتخاذ أي وسيط لله عدا أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فلا توسط لله غير الله.

ومن هذه النافذة يطل المنكرون للتوسل، ويؤولون ما قد تحتمله النصوص منه، ومن حكمة الله ورحمته في الاختلاف الذي وجد في هذه الأمة أن يقال بهذا.

لأن المبالغات في التوسل خرجت به عن إطاره الشرعي المحدود إلى عوالم خطيرة تملأ شعور المسلم بالوساطات الكثيرة التي تقف بينه وبين ربه.

فظهر من يبالغ في قدر رسول الله ﷺ إلى درجة التوسل بالله تعالى إليه، وقد روي الرد على هذا في عهد رسول الله ﷺ أن رجلا قال له:(إنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك)، فسبح رسول الله ﷺ، حتى رؤى ذلك في وجوه أصحابه، وقال:(ويحك أتدرى ما الله،إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك) (1)

ولهذا كان من مقتضى التوحيد إفراد الله بالتوجه، فلا ينشغل قلب الداعي، ولا يستحضر غير ربه، ولا يشكو لغيره أمره، كما قال تعالى: فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (الشرح:7 ـ 8)

وأخبر تعالى عن قول يعقوب عليه السلام: إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (يوسف: 86) وقال

1) رواه أبو داود وغيره.

الخليل عليه السلام: فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (العنكبوت: 17)

وكان ﷺ يحض المؤمنين على إفراد الله بالمسألة، كما قال ﷺ لابن عباس :(إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) (1)، وكان ﷺ يخطب، ويقول:(أيها الناس، والله مهما يكون عندنا من خير فلن ندخره عنكم، وإنه من يستغن يغنه الله، ومن يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر) (2)

ومراعاة لهذه النظرة نرى أن هذا التوسل حكمه كحكم سائر الأذكار والأدعية، لا ينبغي المبالغة فيه أو الاقتصار عليه مع اعتقاد ما سنذكره في الجوابين التاليين، ونفي أي اعتقاد في الوساطة الشركية، التي جعلها أرباب الأوثان لأوثانهم.

الجواب الجزائي:

وهو يطل من نافذة اسم الله الشكور، وهو اسم يقتضي مجازاة الله عباده على أعمالهم الصغيرة بالعوض الكير المجانس لأعمالهم ورغباتهم.

ومن هذه النافذة تفهم النصوص المجيزة للتوسل بأنواعه: التوسل بالأنبياء، والأولياء والصالحين والأعمال الصالحة وغيرها مما ورد النصوص بجوازه.

فالتوسل بالعمل الصالح ــ مثلا ــ إن اعتقد أنه واسطة صحيحة، وأن الله يجب أن يجازي المكلفين، كان سوء أدب مع الله، فالله تعالى: لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (الانبياء: 23)، والله غني عن أعمال عباده.

لكن إن نظر إليه من باب اسم الله الشكور، فذكر العمل، وطلب الجزاء كما تطلب المنن لم يكن في ذلك حرج على الداعي، بل قد ورد في النصوص الكثيرة ما يدل عليه.

ولعل أشهر ما ورد من ذلك حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار(3)، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله، فهذا سأل ببره لوالديه، وهذا سأل بعفته التامة، وهذا سأل بأمانته وإحسانه، وكل ذلك مما يحبه الله ويرضاه، ومحبة الله لذلك العمل تقتضي إجابة صاحبه.

---

1) رواه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم.
2) رواه أبو نعيم والحكيم وغيرهما.
3) رواه البخاري ومسلم.

وقد كان ابن مسعود يقول وقت السحر:(اللهم أمرتني فأطعتك، ودعوتني فأجبتك، وهذا سحر فاغفر لي) (1)

ومن هذا الباب شرعت الصلاة على رسول الله ﷺ، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

بل إن الله تعالى وصانا بالشكر للوالدين، وهما سبب حياتنا الطينية المجازية، فقال تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (لقمان:14)فكيف لا يستحق رسول الله ﷺ منا الشكر، وهو سبب حياتنا الروحية الحقيقية؟

ولهذا اعتبر ﷺ من لم يصل عليه بخيلا، فقال ﷺ:(البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي) (2)

ومن هذا الباب ما ورد من الآثار في ربط الصلاة على رسول الله ﷺ بأشياء، لولا الوساطة الشرعية لرسول الله ﷺ لم تتحقق، مثل قول القائل عند الدخول إلى المسجد:(أعوذ باللّه العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، الحمد للّه، اللهمّ صلّ وسلم على محمد وعلى آل محمد؛ اللهمّ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك) (3)

قد يقال: فما علاقة التوسل باسم الله الشكور؟

والجواب عن ذلك: أن الله تعالى برحمته وفضله وشكره لعباده جعل من جزاء الرسول ﷺ الذي امتلأ قلبه بالرحمة لأمته بل للخلق جميعا، الشفاعة العظمى يوم القيامة، والتوسل باب من أبوابها، كلاهما يطل من نافذة هذا الاسم.

زيادة على أن المتوسل برسول الله ﷺ يستحضره ويشعر بمنة الله به عليه، وفي ذلك الشعور توسل لاستجابة الدعاء، فللدعاء شروطه التي إن توفرت لا يخطئ أبدا.

الجواب المقاصدي:

وهو يطل من نافذة اسم الله الحكيم، وهو اسم يدل على مراعاة المصالح والأسباب المؤدية لها، وهذا الاسم يقتضي الأمرين جميعا، ويطل من نافذته مثبتو التوسل ومنكروه على حد سواء:

---

1) تفسير الطبري (6/266)
2) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان.
3) رواه أبو داود.

أما منكرو التوسل، فيطلون منه خوفا من تسرب الشرك إلى عقيدة المتوسل، أو اعتقاده في أن المتوسل به واسطة حقيقية، وذلك هو السبيل المؤدي للشرك.

وأما مثبتوه، فيطلون منه حرصا على ما يتولد عنه من آثار تربوية عميقة.

وذلك أن من مقاصد الدعاء الحضور مع الله، والتحقق بحقائق الإيمان، زيادة على ما يطلبه الداعي من تحقيق أغراضه، ولهذا سن لنا النبي ﷺ تقديم حمد الله والصلاة عليه على ما نطلبه من حاجات، فقد قال النبي ﷺ لمن رآه يصلى ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه ﷺ:(عجل هذا)، ثم دعاه، فقال:(إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، وليصل على النبي، وليدع بعد بما شاء)(1)

ففي تقديم الثناء على الله معرفة بالله، تدعو إلى محبته وإيثاره والثقة فيه، وفي الصلاة على رسول الله ﷺ تقرب منه ومحبة له تصفي القلب وتطهره، فإذا ما صفا القلب بهذه الصورة كان أهلا لقضاء حاجته.

ولهذا سن لنا النبي ﷺ المقدمات الطويلة لبعض الأدعية لتناسبها مع نوع الدعاء:

فذكر ﷺ أن سيد الاستغفار أن نقول:(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) (2)

فإن مقدمات هذا الدعاء تتناسب تماما مع نوعه، فقد قدم الدعاء بمخاطبة الله التي تستدعي حضور القلب معه، ثم الإقرار بالوحدانية، والتي تدل على تصحيح الإيمان، أو تشير إلى أن الذنب لا يتعلق بالتوحيد، لأن الله وعد أن يغفر غير الشرك، كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء: 48)

ثم تجديد العبد العهد مع الله بحسب الاستطاعة، ثم الاستعاذة بالله من الذنب وشره، مع الإقرار بنعمة الله، وفي الأخير طلب المغفرة المشفوع بمعرفة أن المتفرد بمغفرة الذنب هو الله تعالى.

---

1) رواه أبو داود الترمذي وصححه.
2) رواه الترمذي.

وهكذا في كل الأدعية نجد الحقائق الإيمانية التي تناسبها، ومن ذلك قوله ﷺ:(إذا خفت سلطانا أو غيره، فقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، لا إله إلا أنت، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك) (1)، فهذه الصيغة تتناسب تماما مع نوع الحاجة.

ومنها دعوة ذي النون التي دعا بها، وهو في بطن الحوت، وهي قوله: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الانبياء: 87)، والتي تحوي على كنوز جليلة من المعارف الإيمانية والتربوية، وقد أخبر ﷺ أنه (لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)(2)

ومنها قوله ﷺ لأسماء بنت عميس ـ ـ:(ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب، الله الله ربي لا أشرك به شيئا) (3)، فقد اقتصر هذا الدعاء على ذكر هذه المعارف لتتعمق بمعانيها النفس.

ومنها أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند الكرب بهؤلاء الكلمات:(لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب العرش الكريم) (4)، وكان رسول الله ﷺ إذا نزل به هم أو غم قال:(يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث) (5)

ومن هذا الباب ما ورد في النصوص من التماس دعوة الإخوان بظهر الغيب، كما قال ﷺ:(دعاء المرء المسلم مستجاب لأخيه بظهر الغيب، عند رأسه ملك موكل به كلما دعا لأخيه بخير قال الملك آمين، ولك مثل ذلك) (6)، وقال ﷺ:(من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل) (7)

ففي هذا النصوص أنواع من المصالح والحكم جاء هذا النوع من الدعاء لتحقيقها، منها تعميق الأخوة في الله بين المؤمنين، فالمؤمن إذا دعا لأخيه كان ذلك أمارة على حبه،

---

1) رواه ابن السني.
2) رواه أحمد والترمذي والنسائي.
3) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.
4) رواه البخاري ومسلم.
5) رواه الحاكم وقال: صحيح.
6) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة.
7) رواه مسلم وأبو داود.

وسلوكا لتحبيبه لنفسه، ولهذا ورد دعاء الفاتحة بصيغة الجمع ليستحضر المؤمن أخوته لكل المؤمنين.

ومنها أن الدعاء للإخوان والصالحين يجعل المؤمن يستحضر أحوالهم الربانية وينفعل بها، بل تترقى روحه من خلالها، ومن هذا الباب أمره ﷺ من لقي أويس القرني أن يستغفر له(1).

ومن هذا الباب ما طلب رسول الله ﷺ من أمته من الدعاء له، لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم، كما قال ﷺ للذى قال:(أجعل صلاتى كلها عليك)، فقال ﷺ:(إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك) (2)

فطلبه منهم ﷺ الدعاء له هو رعاية لمصالحهم، كسائر أمره وإياهم، ومثل ذلك قوله ﷺ:(ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا دعوة قال الملك الموكل به: آمين ولك مثله) (3)، ففي هذا مصلحة عظمى للداعي.

ومن هذا الباب ما ورد في النصوص الكثيرة من تبيان آثار الصلاة على رسول الله ﷺ، كقوله ﷺ:(إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة) (4)، وذلك لأن الصلاة على رسول الله ﷺ، تعمق حضور القلب مع رسول الله ﷺ وتملأ القلب أنسا به وحبا له، وذلك كفيل بأن يجعل صاحبها مقربا من رسول الله ﷺ، فقد قال ﷺ:(المرء مع من أحب)(5)

وللأثر التربوي للصلاة على رسول الله ﷺ،قال ﷺ:(صلوا علي فإن صلاتكم علي زكاة لكم) (6)، فهي تزكية للقلب وتطهير له.

بل في الصلاة أعظم تطهير للقلب، ولهذا قال ﷺ:(ما من عبد من أمتي يصلي علي صلاة صادقا بها من قبل نفسه، إلا صلى الله عليه بها عشر صلوات وكتب له بها عشر حسنات

---

1) موضع الشاهد قوله ﷺ:(يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لابره! فان استعطعت أن يستغفر لك فافعل) رواه مسلم وغيره.

2) رواه الترمذي ولفظه (إذاً تكفي همك ويغفر ذنبك)، ورواه أحمد وإسناده جيد.

3) أصل الحديث في مسلم وغيره.

4) رواه الترمذي وابن حبان.

5) رواه البخاري ومسلم.

6) رواه البيهقي في الشعب وابن مردويه.

ومحا بها عنه عشر سيئآت) (1)، فإن صلاة الله على عباده تطهير لهم، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الأحزاب: 43)، فقد أخبر تعالى أن صلاة الله على عباده تخرجهم من الظلمات إلى النور.

* * *

وانطلاقا من هذا، فإن التوسل برسول الله ﷺ هو نوع من الحضور معه، والشعور بمعيته، وله تأثير كبير في ربط القلب بمحبته، وهو السبيل الصحيح لسلوك سنته.

فالتوسل بذلك، والذي يستحضر فيه قلب السائل رسول الله ﷺ، ثم يستشفع به إلى الله، مع الخلو من اعتقاد الوساطة الشركية، والامتلاء بالشعور بالمنة، يملأ القلب شعورا برسول الله ﷺ.

أما اعتقاد أن هذا خاص بحياة رسول الله ﷺ، فلا دليل عليه من النصوص.. بل إن القول بذلك يحرم الأمة جميعا من هذا الخير الجزيل، فلا يتمتع به على مقتضى هذا القول إلا المصاحبون لرسول الله ﷺ.

زيادة على ذلك، فإنا نتوسل برسول الله ﷺ في كل الأحكام الشرعية، فنرجع إليه لنعلم أحكام الله، بل الله تعالى هو الذي أمرنا بالرجوع إليه مطلقا حيا أو ميتا، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: 59)، وليس هناك من يقول بأن هذا خاص بحياته ﷺ.

ثم، من قال بأن موت رسول الله ﷺ يغاير حياته، فإن كان الشهداء، وهم أدنى بآلاف آلاف الدرجات من رسول الله ﷺ قد نفى الله موتهم، ونهى عن اعتقاد ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران:169)، فكيف برسول الله ﷺ وهو سيد الشهداء والعارفين والنبيين؟

ثم، إن رسول الله ﷺ أخبر بأن أعمال أمته تعرض عليه، وأنه يدعو لهم، فقال ﷺ:(حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم،

1) رواه أبو نعيم في الحلية.

فإذا أنا مت كانت وفاتي خيرا لكم، تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله تعالى وإن رأيت شرا استغفرت لكم) (1)

فإن شك في هذا الحديث، فقد قال تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبة:105)

فإن قيل: بأن هذه رؤية وليست دعاء أو شفاعة، فنقول: إن كان الله تعالى أخبر بدعوة الملائكة ــ عليهم السلام ـ للمؤمنين، كما قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (غافر: 7)، فإن كان هذا مع حملة العرش، فكيف برسول الله ﷺ، ومع أمته التي كلف بها، وهو أحرص الخلق عليها؟

وقد أخبر ﷺ أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، فقال ﷺ:(إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا) (2)

فإن جاز هذا للعشائر والأقارب، وهم أفراد من الأمة، فكيف لا يجوز لرسول الله ﷺ، وهو أحن على أمته من آبائهم، وأمهاتهم، وقد قال تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (الأحزاب: 6)

ثم إنه ﷺ قد صرح بجواز التوسل به مطلقا في حديث الأعمى، فعن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ، فقال:(ادع الله أن يعافني)، فقال:(إن شئت أخرت ذلك وهو خير، وإن شئت دعوت)، قال:(فادعه) قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن، ثم يصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء، فيقول:(اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه في وشفعني فيه) (3)، فالحديث ورد مطلقا، ومن التأويل تقييده بما لم يدل الدليل على تقييده.

---

1) رواه ابن سعد.

2) رواه أحمد والطيالسي.

3) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب، ورواه أحمد وابن ماجة والحاكم وابن السني.

وقد أول ابن تيمية هذا الحديث بصنوف من التأويلات وصرفه عن ظاهره، فقال:(وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ فلهذا قال في دعائه:(اللهم فشفعه في)، فعلم أنه شفيع فيه) (1)

واستشهد بقوله ﷺ:(إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك) فقال: (ادع لي)، بأنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فأمره النبي ﷺ أن يصلى ويدعو هو أيضا لنفسه، ويقول في دعائه:(اللهم فشفعه في)، فدل ذلك على أن معنى قوله: (أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد)، أي بدعائه وشفاعته.

ومما أول به ابن تيمية الحديث قوله:(وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسول ﷺ بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه) (2)

والجواب عن هذا من جهتين:

الأولى هي أن من الصحابة ـ كما ذكرنا ـ في الباب السابق من رضي بحاله، ولم يسأل الله تغييره رضى بقسمة الله، بل في حديث الأعمى دليل على استحباب ذلك، وقد ورد في الحديث أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، وبها طيف، فقالت:(يا رسول اللّه إني أصرع، وأتكشف، فادع اللّه أن يشفيني)، فقال: (إن شئت دعوت لك أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة)، فقالت:(بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع اللّه لي أن لا أتكشف)، فدعا لها فكانت لا تتكشف(3).

والثانية أن اشتراط تأييد كل ما ورد من الأحاديث القولية أو الفعلية لرسول الله ﷺ بالآثار الدالة على الفعل به من الصحابة يكلفنا شططا، بل يلغي أكثر السنن.

---

1) مجموع الفتاوى:1/325.

2) الرد على البكري، ابن تيمية، 1/268.

3) رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

فلذلك يكتفي العلماء كلهم ـ بما فيهم ابن تيمية ــ بما ورد من الأحاديث، بل يرون أن في خلاف الصحابة للأحاديث دليل على عدم بلوغ الحديث للصحابة، لا دليلا على ضعف الحديث أو صرفه عن حقيقة معناه.

وقد جعل ابن تيمية نفسه ــ هذا المعنى ــ من أسباب الخلاف الفقهي في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، بل اعتبره أول الأسباب، فقال:(السبب الأول أن لايكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالما بموجبه، وإذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب قياس أو موجب استصحاب فقد يوافق ذلك الحديث تارة ويخالفه أخرى وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث فان الاحاطة بحديث رسول لله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة)(1)

ثم ذكر أن النبي ﷺ كان يحدث أو يفتى أو يقضى أو يفعل الشيء، فيسمعه أو يراه من يكون حاضرا ويبلغه أولئك أو بعضهم لمن يبلغونه، فينتهي علم ذلك إلى من يشاء الله من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ثم في مجلس آخر قد يحدث أو يفتى أو يقضى أو يفعل شيئا ويشهده بعض من كان غائبا عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلم ماليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ماليس عند هؤلاء.

ثم ذكر أن تفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته لا بالإحاطة بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن ادعاؤه.

ومما استدل به ابن تيمية في التفريق بين حياته وموته ﷺ أنه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر، بل هو خير بلا شر، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة، فإن أحدا من الأنبياء ــ عليهم السلام ــ لم يعبد في حياته بحضوره، فإنه ينهي من يعبده ويشرك به، ولو كان شركا أصغر كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له، أما بعد موته،

1) مجموع الفتاوى:20/233.

فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح والعزير وغيرهما(1).

والجواب عن هذا: ما ذكرناه في الجواب الأول من أن حكم التوسل يختلف باختلاف المتوسل واعتقاده، فإن كان يعتقد الوساطة الشركية، فهو حرام، بل قد يكون كفرا، أما إن أراد به التوسل الإيماني الذي هو نتيجة استشعار محبة رسول الله ﷺ وشفقته على أمته فإن في ذلك من المصالح الإيمانية والتربوية ما لا يصح طرحه من أجل هذه المفسدة المشكوكة.

ثم لو طرحنا أحكام الشريعة بهذا الأسلوب، فإن الكثير من الأحكام قد نعرضها للإلغاء خوفا من المفاسد التي قد تنجر عنها.

بل إن ما ينكره ابن تيمية وغيره على القدرية والجبرية وغيرهم لم يجرهم إلى القول به إلا الخوف من المفاسد المنجرة على نقيض ما ذهبوا إليه(2).

وقد بينا في مواضع كثيرة أن الكمال في اتباع كل ما ورد في الشريعة من غير تقديم جانب على جانب، بل إن الحق في جوانبها المختلفة جميعا.

3 ـ الوسائط التقديرية:

ولكن كيف تنفى الوسائط، والقرآن الكريم والنصوص النبوية الكثيرة تخبرنا بترتب الأسباب على بعضها، فقد جعل تعالى المطر سببا لإنبات النبات، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ (البقرة: 164)

ألا يعتبر المطر بذلك واسطة بين إرادة الله لإحياء الأرض وتحقق ذلك الإحياء؟

أليس المطر بذلك واسطة تحتاجها القدرة لإيجاد الإحياء؟

ومثل ما يقال في المطر يقال في كل الأسباب، فهل هي وسائط، أم ماذا؟

والجواب عن ذلك: هو أنه لا يمكن اعتبار المطر وغيره وسائط سواء أثبتنا هذه الأسباب واعتبرناها أو تكلفنا تأويلها بصنوف التأويل:

---

1) مجموع الفتاوى:1/333.

2) رددنا بتفصيل على ابن تيمية في هذه المسألة وغيرها من المسائل التي تجرأ فيها على مقام النبوة، وكأنه يستدرك عليها ما قصرت فيه من إتاحة ذرائع الشرك في كتابنا [شيخ الإسلام في قفص الاتهام]

نفي الأسباب:

أما على اعتبار نفي تأثير الأسباب، واعتبار الخالق للسبب والمسبب الله وحده، فإنه لا إشكال في ذلك، فلا واسطة في هذا بحال من الأحوال.

وهذا قول جماهير العلماء، فقد نصوا على أن الخبز لا يشبع، والماء لا يروي، والنار لا تحرق، وأن الشبع والري والإحراق حوادث انفرد الرب بخلقها، فلم يخلق الخبز الشبع، ولم يخلق الماء الري، ولم تخلق النار الإحراق، وإن كانت أسبابا في ذلك، فالخالق هو المسبب دون السبب.

ونصوا على أن هذه الأشياء محتاجة إلى الله لتأدية الأثر، فالنار في وقت الإحراق محتاجة إلى الله ليخلق فيها إحراقا، والبطن محتاج إلى الله في وقت صيرورة الخبز فيه ليخلق فيه شبعا، فالله خالق النار وإحراقها والماء وريه والخبز وإشباعه.

وبناء على هذا قالوا: لو شاء الله لروى بالنار، وأحرق بالماء، فهو الخالق يفعل ما يشاء،وبالتالي فلا فرق بين النار والماء تحت قدرة الله تعالى.

وهذا الاعتبار صحيح يدل عليه العقل والنقل، ولا حرج على من يقول به، كما لا حرج على من يقول بالقول الثاني، كما سنرى.

أما ذلك الجدال الذي امتلأت به التصانيف وعد في خلاف أحد القولين بدعة أو مروقا، فهو من التألي المنهي عنه، أو هو من فرض قناعات العقول والفهوم على الغير من غير دليل قطعي.

بل نرى في هذا ما رأيناه في القول في التوسل، فمن غلب التوحيد، ورأى أن خالقية الله للأشياء شاملة ومباشرة قال بنفي الأسباب، واعتبارها محال لحصول التأثير، وليست مؤثرة بذاتها.

ومن قال بإثبات الأسباب نظر إلى الحكمة الإلهية التي رتبت الأسباب على المسببات.

ونرى انطلاقا من النظرتين أن يترك ذلك لطلاقة القدرة الإلهية، فلا يحجر عليها في شيء من ذلك.

وإن أردنا مثالا مقربا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نقول بأن الأجهزة الكهربائية منها ما يفتقر افتقارا تاما إلى الحضور

المباشر للصانع، وإلى إيصال التيار الكهربائي به، بحيث لو قطع عنه التيار، أو ابتعد عنه الصانع لا يقوم بأي عمل.

ومنها ما يمكن شحنه ببطارية، وتزويد عقله الصغير أو الكبير وبرمجته بدقائق ما يتعلق بوظيفته.

فكذلك الأمر، ولله المثل الأعلى مع خلق الله تعالى، فكلاهما محتمل، وقد يكون كلا الأمرين صحيحا.

ولعل المثال الأول مرتبط بما نص عليه القرآن الكريم من الآيات الدالة على خلق الله بيديه ونحو ذلك، كما قال تعالى: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (صّ:75) أو بإمساكه تعالى، كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (فاطر: 41)

أما ما يدل على القول بنفي الأسباب وكونها مجرد أمارات من الناحية النقلية، فمن مثل قوله تعالى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (لأنفال: 17)، فنفى تعالى أن يكون رسوله خالقا للرمي، وإن كان سببا فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (لنجم:43 ـ 44)، فاقتطع تعالى الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء عن أسبابها، وأضافها إليه.

ومن ذلك قوله تعالى: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام: 102)، وقال تعالى: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ (فاطر: 3)

بل قد دل على هذا ما ذكره الله تعالى من إخراج ناقة صالح عليه السلام من الجبل الأصم، فقدرة الله لا حدود لها.

وانطلاقا من هذا فإنا لا نرى صحة ما ذكره المخالفون من التشنيع على أصحاب هذا القول، كما قال ابن تيمية:(من قال أن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التي خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا، أو أن وجودها كعدمها، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادي كاقتران الدليل بالمدلول فقد جحد ما خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم، ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها، ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها، ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها، وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبائع

والغرائـز) (1)، فليس في كـل ذلـك جحـود، وإنمـا هـو فهم دلت عليه النصوص ولم ينكره العقل.

إثبات الأسباب:

والاعتبار الثاني هو إثبـات الأسـباب، وهـو قـول الكثـير من العلماء، ومما دلت عليه النصوص، ومما يقول به العقل والحس بادئ الرأي.

ولا دليـل في هـذا القـول أيضـا على كـون هـذه الأسـباب وسائط لأن الله قد يخلق بوجودها، وقد يخلق مـع تخلفهـا، وهـو لا يحتـاج في الخلـق إليهـا، وإنمـا أبرزتهـا حكمتـه في تـرتيب الأسباب على المسببات.

والفريق القائل بهذا يطل من نافذة اسـم اللـه (الحكيم)، وهو يكمل النظرة السابقة، ولا نرى أنه يتنافى معها.

أمـا دلالـة العقـل على هـذا، فواضـحة لا ريب فيهـا، ولكن العقل الملحد أو الغافل يعتبرهـا وسـائط، أمـا العقـل المـؤمن، فيرى أن قدرة الله أعظم من أن تحتاج إلى الوسائط.

وكمثال على ذلك أن رسول الله ﷺ أخـبر بجـدوى الـدواء، وسببيته، فقـال ﷺ: (تـداووا عبـاد اللـه فـإن اللـه لا يضـع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد الهرم) (2)، وقال ﷺ: (إن الله تعـالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء علمه من علمـه، وجهلـه من جهلـه إلا السام وهو الموت) (3)

فهـذه الأحـاديث صـريحة في سـببية الـدعاء، وإن أولهـا النافون للأسـباب، ومن خلالهـا يسـتعمل المـؤمن الـدواء سـواء قال بنفي الأسباب أو إثباتها.

ولكن الفرق بين الطبائعيين القائلين بالسببية المجردة عن السـند الإلهي هـو أنهم يجعلونهـا مسـتندهم الوحيـد، فـإن غـاب عنهم، أو سقط بهم سقطوا معه، بينما استناد المؤمن النافي أو المثبت على الله، فلذلك إن عجز الدواء، أو سقط به لم يسقط معه، لأنه لم يكن مستندا للدواء، وإنما استناده لله.

وبهذا لا يصح تشبيه القـائلين بالأسـباب بالطبـائعيين الـذين يرجعون الأشياء إلى علل طبيعية، لأن هؤلاء لا يقولـون بـأن مـا في الأشياء من خصـائص يرجـع إلى ذواتهـا وإنمـا ينسـبونها إلى الله تقديرا وخلقا، وتوفيقا ومنعا.

---

1) مجموع الفتاوى:8/136.
2) رواه احمد وابن حبان والحاكم.
3) رواه الحاكم.

فلذلك لا يقولون بحتمية الأسباب، بل يربطونها بمشيئة الله، معتقدين إمكانية تخلفها، قال ابن القيم:(ويا لله العجب إذا كان الله خالق السبب والمسبب وهو الذي جعل هذا سببا لهذا والأسباب والمسببات طوع مشيئته وقدرته منقادة لحكمه إن شاء أن يبطل سببيه الشيء أبطلها كما أبطل إحراق النار على خليله إبراهيم وإغراق الماء على كليمه وقومه وإن شاء أقام لتلك الأسباب موانع تمنع تأثيرها مع بقاء قواها وإن شاء خلى بينها وبين اقتضائه لآثارها فهو سبحانه يفعل هذا وهذا وهذا فأي قدح يوجب ذلك في التوحيد وأي شرك يترتب على ذلك بوبه من الوجوه) (1)

والرجوع إلى النصوص يرشد إلى هذا القول ويصححه، وقد ذكرنا في مواطن كثيرة أن الأولى الحفاظ على ظاهرية النصوص وبساطتها وعدم تعديها بتكلف التأويل.

وقد ورد في النصوص ما يثبت الأسباب، قال تعالى عن ذي القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (الكهف:84)، وقد قيل في تفسيرها عن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي، وسأله رجل عن ذي القرنين، كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان اللّه سخّر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد)(2)

وقد سمى تعالى أبواب السماء أسبابا، إذ منها يدخل إلى السماء، فقال تعالى عن فرعون: ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ (غافر: 36 ـ 37)

وسمى تعالى الحبل سببا لإيصاله إلى المقصود، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (الحج:15)

وسمى تعالى وصل الناس بينهم أسبابا، وهي التي يتسببون بها إلى قضاء حوائج بعضهم بعضا، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (البقرة:166)،ـ قال ابن عباس :(يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا)، وقال ابن زيد: (هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله)

---

1) شفاء العليل: 189.

2) رواه الضياء المقدسي.

(1) فسمى الله تعالى ذلك أسبابا، لأنها كانت يتوصل بها إلى مسبباتها.

وقد ذكر ابن القيم الكثير من الأدلة على صحة هذا القول، حتى أنه قال:(ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع، ولم نقل ذلك مبالغةن بل حقيقة) (2)

ولا بأس من إيراد بعض مجامع ما ذكره من أدلة هنا(3):

فمنها أن الله تعالى جعل مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة مرتبطا بالأسباب، قائما بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات،والقدر جار عليها متصرف فيها، فالأسباب محل الشرع والقدر.

والقرآن الكريم مملوء بإثبات ذلك، كقوله تعالى: وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (البقرة: 10)، وقوله تعالى: فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (البقرة: 59)، وقوله تعالى: وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (البقرة: 61)، وقوله تعالى: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (البقرة:95)، وقوله تعالى: وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (البقرة: 225)، وقوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (آل عمران:106)

ومنها أن كل موضع رتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف أفاد كونه سببا له، كقوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (المائدة:38)، وقوله تعالى: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا (النور: 2)، وقوله تعالى: وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (لأعراف:170)، وقوله تعالى: الَّذِينَ

1) انظر: الدر المنثور: 1/402.
2) شفاء العليل: 189.
3) شفاء العليل: 188.

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (النحل:88)

ومنها أن كل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببه الشرط والجزاء، وهو أكثر من أن يستوعب، كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (لأنفال:29)، وقال تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (ابراهيم:7)

وغيرها من النصوص الكثيرة الدالة على فاعلية الأسباب بإذن الله.

وقد ذكر ابن القيم زيادة على ما دلت عليه هذه النصوص وجها مقاصديا حقيقا بأن يلتفت إليه منكرو الأسباب خاصة في هذا العصر، وهو ما عبر عنه بقوله:(ثم من أعظم الجناية على الشرائع والنبوات والتوحيد إيهام الناس أن التوحيد لا يتم إلا بإنكار الأسباب، فإذا رأى العقلاء أنه لا يمكن إثبات توحيد الرب سبحانه إلا بإبطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد، وبمن جاء به، وأنت لا تجد كتابا من الكتب أعظم إثباتا للأسباب من القرآن)[1]

1) شفاء العليل: 189.

ثانيا ـ الملك

السر الثاني للحكمة، والمترتب على الوحدانية، والذي تفهم به أسرار المقادير، ويجتمع شتاتها، وينحل ما يتوهم منها من تناقض هو إدراك مالكية الله للأشياء، والتي يترتبت عنها ملكيته عليها.

أما مالكية الله للأشياء فتعني أن كل شي في الكون من مخلوقات ملك لله تعالى.

وأما ملكية الله عليها، فهو تصرفه فيها، ونفوذ أمره في شؤونها الجبرية أو الاختيارية.

ويدل على هذين المعنيين الاسمين الحسنين (المالك والملك)

وقد وردت القراءة بكليهما في أول سورة في القرآن الكريم، فقرئ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (الفاتحة:4)،وقرئ: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (الفاتحة:4)

وقد تحدث المفسرون في هذه الآية في التفاضل بين (ملك)،و (مالك)، وهو خطأ من جهات:

الأولى: أنه لا تفاضل بين القراءات القرآنية، فكلها كلام الله تعالى، وإن جاز التفاضل فمبينه الوحي لا الاجتهاد.

والثانية: أن أسماء الله كلها حسنى، فلا يجوز المفاضلة بينها.

والثالثة: أن لكل منهما دلالته الخاصة، فللمالك دلالة على حيازة الأشياء، وللملك دلالة على التحكم فيها، وهذا التغاير بينهما يجعل من كل منهما اسما خاصا، خلافا لمن جعل أحدهما أعم من الآخر.

وقد اجتمع هذا الصنفان من الملك في قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (لأعراف:54)،ففي هذه الآية الكريمة إخبار بملكية الله للأشياء، وسريان أمره فيها، والذي عبر عنه في خاتمة الآية بقوله: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

ولإدراك الحقائق المتضمة في معاني هذين الاسمين دور كبير في كشف حقائق الكون، وتعليلها التعليل الإيماني، وله

دور سلوكي، ووجداني كبير من ناحية أخرى، وسنعرض في هذا الفصل لحقيقة هذين الاسمين وآثارهما السلوكية والوجدانية.

1 ـ الله المالك:

يتردد في القرآن الكريم كثيرا تعليل المقادير المختلفة بملكية الله للأشياء، ولذلك تترد في القرآن الكريم كثيرا هذه اللازمة التي تحوي المعاني الكثيرة باختلاف السياق الذي ترد فيه، قال تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (النساء: 170)، وهذه اللازمة تبث في شعور المؤمن ملكية الله المطلقة لكل ما نراه وما لا نراه من الأشياء.

وليس الغرض من هذا التكرير تقرير هذه الحقيقة فقط، والتي تدل عليها كل الدلائل، بل الغرض منها التنبيه في كل مناسبة تدب فيها الغفلة إلى أن الله مالك السموات والأرض وما فيهن.

فيرتب على ذكرها أثر التعرف على قدرة الله المطلقة، كما قال تعالى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة:120)، وقال تعالى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة:120)

ولذلك يستدل القرآن الكريم بملكية الله للمخلوقات على أن قدرته لا تعجز عن مقادير البعث أو الحشر التي يكذب بها الجاحدون.

ولهذا يقترن في القرآن الكريم ثبوت الملكية لله بالإحياء والإماتة وبالقدرة المطلقة، كما قال تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الحديد:2)

وقد ورد في بعض صيغ الذكر الذي انطلقنا منه في بيان أسرار الحكمة في المقادير قوله ﷺ:(من قال حين يدخل السوق: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله، والله أكبر والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كتب الله عز وجل له ألف ألف حسنة) (1)ففيه اقتران الثلاثة مع بعضها.

ويقترن ملك الله للأشياء كذلك بمشيئته المطلقة للمغفرة والتعذيب، كما قال تعالى: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ

1) رواه ابن السني.

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (الفتح: 14)، وقال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة:40)، فهذه التصرفات إنما تستغرب وتستقبح إن كانت في ملك الغير.

ومثل ذلك ارتباط الملك بطلاقة المشيئة في توزيع الهبات والأرزاق، كما قال تعالى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (الشورى:49)

ومثل ذلك ارتباط ملكية الله للأشياء بتفرد الله تعالى بالولاية والنصرة، قال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (البقرة:107)، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (التوبة:116)، فالكل ملكه فلذلك هو الحقيق بالولاية والنصرة لمن شاء من عباده.

ومثل ذلك ارتباط الملك بالحمد، كما قال تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (الاسراء: 111)، وذلك لأن كل شيء من الله، فلذلك لا يحمد سواه.

والقرآن الكريم يعبر عما يفيض من ملك الله على عباده بصيغة الإنزال، ليشير إلى أن ملكيتها الحقيقية لله، وأنها وافدة على العباد لا ملكا مستقرا لهم، قال تعالى في بيان عمومية نزول كل ما يتصور العباد ملكيته من الكون: وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

ويستوي في هذا الإنزال ما يكون حسا أو ما يكون معنى:

قال تعالى عن إنزال الكائنات الحسية: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (يونس:59)

وخص بعض الكائنات الحسية بالذكر بصفة الإنزال لأهميتها، ومنها الأنعام، قال تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (الزمر:6)

ومنها إنزال الماء، وهو أكثرها ورودا في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (النحل:10)

وليس المراد بالإنزال هنا ما يتوهم من كون المطر نازلا من السماء فقط، وإنما المراد ربطه بملكية الله، ولهذا سبق الإنزال ذكر الضمير المنفصل العائد على الله تعالى.

ومن النعم الحسية المنزلة الحديد، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25)

ومثل إنزال ملكية الله للكائنات الحسية إنزال الله للكائنات المعنوية، ومنها السكينة والجند الرباني، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:26)

ومنها إنزال الملائكة والروح، قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل:2)

وآثار إدرك هذا المعنى وارتباطه بتصريفات الله في مقاديره جليلة كثيرة، قد لا تتحقق هذه الآثار بصيغتها الجميلة الكاملة بدونها:

ومنها أن اعتقادنا بملكية الله لما في أيدينا، تجعلنا نخضع للشرع حين يأمرنا بالتصرف في هذا الملك وفق مرضاة الله، لأنه المالك الحقيقي للمال، والعبد لا يعدو أن يكون مستخلفا فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: 33)، وقال تعالى: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: 7)

ولهذا أمر تعالى رسول ﷺ أن ينفي أي ملكية له لخزائن الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:50)، وقال تعالى: ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ

خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا فِي أَنْفُسِـهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (هـود: 31)

ولهـذا أشـار العـارفون إلى أن حقيقـة الفقـر ــ الـتي هي الوصـف الـذاتي للمـؤمن ــ لا تتنـافى مـع الغـنى المـادي،لأنهم يعتقدون أن ملكيتهم مجاز، وأموالهم معارة.

ولهذا كـان لهـذا الاعتقـاد أثـره الكبـير في رفـع الهمم إلى الله، فلا تنحني طالبة الأشياء من غيره، وكيف يطلب من غيره، وهو الفقر المحض، ولهذا كان الصالحون يترفعون على الملوك لمعرفتهم بملك الملوك، وقد أشار بعض العارفين لمـا قـال لـه بعض الأمراء:(سلني حاجتك)، فأجابه العارف:(أوتقول لي هذا ولي عبـدان همـا سـيداك) فقـال:(ومن همـا؟) قـال:(الحـرص والهوى، فقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكـاك) إلى أن الملـك الذي يزعم لنفسه ملكية الخلق لا يملك حتى نفسه.

ولهـذا لمـا سـأل فرعـون موسـى عن حقيقـة اللـه طالبـا التعرف على الماهية قائلا: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ أجابـه موسـى عليه السلام ببيان ملكيـة اللـه لجميـع الأشـياء، فقـال: رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (الشعراء: 24)

وكأن موسى عليه السلام يرد بهذه الإجابة على كـل الأسـس الـتي يقوم عليها تصور فرعون لألوهيته، وهـو مـا عـبر عنـه ذات يـوم بقوله: يَا قَـوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْـكُ مِصْـرَ وَهَـذِهِ الْأَنْهَـارُ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (الزخرف: 51)

ولذلك ـ أيضا ـ نفى الله تعالى أي ملكية لهـؤلاء الجاحـدين لمـا في خـزائن اللـه، كمـا قـال تعـالى: قُـلْ لَـوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُـونَ خَزَائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَـكْتُمْ خَشْـيَةَ الْإِنْفَـاقِ وَكَـانَ الْإِنْسَـانُ قَتُوراً (الاسراء: 100)، وقال تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (الطور:37)

ومنها التأدب مع خلق الله، فلا ينسب ما للـه لنفسـه، كمـا قال ﷺ:(لا يقل أحدكم عبدي وأمتي بل ليقل فتاي وفتاتي) (1)

ومنها أن اعتقاد ملكية الله لكل شيء تخفف ذلـك الحـزن الذي يعتري القلوب عندما تفقد عزيزا عليها كـان وهمهـا يصـور لها ملكيته له، فإذا ما فقد منها عرفت أنه كان مجـر عاريـة من اللـه لهـا، ولهـذا نجـد الاقـتران في القـرآن الكـريم بين الملـك

1) رواه أبو داود.

ورجعة الأمور إلى الله، كما قال تعالى:﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الحديد:5)

ولهذا أخبر تعالى عن الصابرين أنهم يعزون أنفسهم بهذا المعنى، كما قال تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:155 ـ 156)، فهؤلاء الصابرون الموقنون بالله عرفوا أنهم وما يملكون ملك لله، فلذلك كان هذا المعنى هو علاج حر المصيبة التي ابتلوا بها.

وقد قال ﷺ مبينا آثار الرجوع إلى الله في هذا الحال:(ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها) (1)

ومنها الشعور بالغنى بالله، فلذلك لا يخاف، وهو يعلم أن رزق الله المستمد من مالكيته للأشياء لا ينفذ، ولذلك قال ﷺ لبلال :(أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا) (2)

وقد حكى الله تعالى وهم المنافقين الذين كانوا يتصورون الرزق بأيدي الخلق، فقال تعالى:﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون:7)

وقد أخبرنا تعالى عن احتواء خزائن ملكه لكل شيء لنشعر ـ في أثناء شعورنا بصحبة الله ـ قرب تلك الخزائن منا، فنأخذ منهاباسم الله كل مانريد، قال تعالى:﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر: 21)

وقد ربط في آية أخرى بين الخزائن واسمه الوهاب ليغرينا بطلب ما في خزائنه، كما قال تعالى:﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (صّ:9)

وهذا الاستغناء بالله هو الذي يخلصه من عبودية المال والأشياء، وفي ذلك تمام السعادة والراحة.

وبهذا يعيش المؤمن، وهو يرى كل شيء من الله حتى الطعام الذي يأكله، واللباس الذي يكسوه، وقد قال تعالى في الحديث القدسي:(يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته،

---

1) رواه أحمد وابن ماجة.

2) رواه البزاز والطبراني في الكبير.

فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم) (3)

ومنها أن الشعور بملكية الله للأشياء يجعل المؤمن في سعادة تامة، وهو يتناول الأشياء بيد الله، فيراها هدايا ربانية مقدمة من الله للإنسان، ليفيض قلب الإنسان ومشاعره بجميع أنواع الحمد.

وبسر هذا المعنى يرتبط حمد الله ــ كما ورد في الآثار ـ بالأشياء، فرسول الله ﷺ مثلا يعلمنا عندما نريد أن نلبس ثوبا أن نقول كما ورد في الحديث:(من لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه)

فقد جاء التعبير النبوي معبرا على أن الله هو الكاسي وهو الرازق، وأنه ليس للعبد من حول ولا قوة ليحقق لنفسه هذه المصلحة.

ولهذا ورد اللباس في القرآن الكريم بصيغة الإلباس، كما قال تعالى: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

وقد علمنا رسول الله ﷺ من صيغ الذكر ما يغرس هذه المعاني في نفوسنا، أو ما يحوله إلى واقع حي يرفع أرواحنا، ويهذب سلوكنا، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في بعض هذه الرسائل.

ثم إن أعظم نعمة تتجلى للمؤمن من خلال إدركه لملكية الله للأشياء أن تنجلي عن عينيه الغشاوة التي يقبع في وهمها الغافلون، كما قال تعالى: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (يونس:66)

وهذا الوهم هو الذي جعلهم يتصرفون في الأشياء من المنطق الذي تزعمه لهم أهواؤهم، فلذلك جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الأنعام:136)

---

3) رواه مسلم.

ونتيجة خلطهم وخبطهم أنهم يعبدون السراب، ويدعون من لا يملك شيئا، قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (سبأ:22)

2 ـ الله الملك:

كل الملوك يحكمون فيما لا يملكون إلا الله تعالى، فإنه الملك المالك، فهو ملك في ملكه حاكم فيه، فلذلك كان كل ما يفعله فيه ـ من ناحية العقل المجرد ــ جائز، فلا يسمى ظالما بحال من الأحوال.

ولكن الله تعالى برحمته كتب على نفسه أن لا يحكم الكون إلا بمقتضيات أسمائه الحسنى، التي هي كلها محامد وحكم ورحمة.

وحكم الله للكون ينتظم معنيين:

المعنى الأول هو ملكية التدبير القدري، وهو الذي يتولاه تعالى، فينفع ويضر، ويعطي ويمنع، ويرسل الريح أو يمسكها، وينشر رحمته على الأرض أو يقبضها على حسب ما تقتضيه حكمته وأسماؤه الحسنى.

وملكية التدبير التشريعي، والذي وكل للإنسان باعتباره خليفة، فأعطي من الحرية ما يجعله في موقف الاختيار المؤقت بين تنفيذ أوامر الله وعدم تنفيذها.

وسنتحدث عن كلا الملكين فيما يلي:

ملكية التدبير:

تولى الله تعالى ـ كما ذكرنا في الفصل الماضي ــ تدبير هذا الكون وتصريف مقاديره، فلم يكلها لأحد من خلقه، فكل ما يحدث في الكون بمشيئته وقدرته.

والله تعالى يرتب ذلك على ملكه للأشياء وتحكمه فيها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (التوبة:116)، فالملك والمالك له السلطة الكاملة في ملكه.

وآثار إدرك هذا المعنى كثيرة جدا كلها تملأ المؤمن بالمعرفة الراقية والسلوك الرفيع والذوق السامي:

فمن آثار هذه المعرفة التأدب مع الكون، واحترامه فقد وردت بها النصوص الكثيرة تنهى عن سب الريح أو الناقة أو الدهر لأن كل ذلك من الله.

أما سب الزمان والدهر، الذي يعني تقلبات الحوادث، فقد ورد النهي عنه في أحاديث كثيرة قال ﷺ:(قال الله عز وجل يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار) (1)، وقال ﷺ:(لا تسموا العنب الكرم ولا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر) (2)، وقال ﷺ:(إن الله عز وجل قال استقرضت عبدي فلم يقرضني وسبني عبدي ولا يدري يقول وا دهراه وا دهراه وأنا الدهر) (3)

ونهى ﷺ عن سب الريح، وأخبر بأنها لا تتحرك حسب رغبتها، وإنما تتحرك بهدي الوحي الإلهي الذي يسير كل شيء، عن ابن عباس أن رجلا لعن الريح عند النبي ﷺ فقال:(لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه)(4)

وعلمنا ﷺ الطريقة الصحيحة في التعامل معها، فقال ﷺ:(الريح من روح الله، فروح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها) (5)

وقد ذكر ﷺ عقوبة من يسب بعض هذه الكائنات التي لا تملك من أمر نفسها شيئا، وهي عدم جواز الانتفاع بها، فعن عائشة أنها ركبت جملا فلعنته، فقال لها النبي ﷺ:(لا تركبيه)(6)

وفي ذلك أبلغ التحذير من التطاول على خلق الله.

بل إنه لا ينبغي احتقار حتى البعوض الذي قد يؤذينا بلسعه، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (البقرة: 26)

بل إنه ينبه الذين يحتقرون بيت العنكبوت أن بيوتهم أوهن: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت:41)

وينبه الذين يحتقرون الذباب، فيقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه ابن جرير والحاكم.
4) رواه أبو داود والترمذي.
5) رواه مسلم.
6) رواه أحمد وأبو يعلى.

وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (الحج:73)

ومن آثار هذه المعرفة الراحة من منازعة الأقدار اكتفاء ببتقدير الله، وهي نتيجة مهمة، فإن العالم بتصريف الله للكائنات لا يحزن على ما يحصل له منها، أو ما يفوته من منافعها، لأن سبب الحزن هو فوات المقدور عليه، أما ما يعتقد استحالته فإن نفس استحالته تعزيه عن عدم حصوله عليه.

فلذلك لا يخاف مالك على ملكه، ما دام الله هو مؤتي الملك ونازعه، فإن أتى فبفضل الله، وإن ذهب فبقدرة الله، ولن تستطيع قوة في العالم نزعه أو تثبيته، قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران:26)

ولا يخاف على رزقه ما دام الله هو الرازق قال تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (يونس:31)

ولا يخاف الضر، ولا يرجو النفع من غيره، قال تعالى: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (يونس:49)

وهكذا في جميع شؤون حياته، قال الغزالي مبينا التأثير النفسي لهذه المعارف:(.. أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة من ملكوت السموات والأرض، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر) (1)

وهذه المعارف إذا انصبغ بها كيان الإنسان وتوحد قلبه عند النظر للكون أو التعامل معه هو الكفيل الوحيد بتحقيق الراحة والسعادة والطمأنينة.

---

1) الإحياء.

لأن مصدر القلق والاضطراب هو الشتات الذي يحصل في الإنسان نتيجة رؤية الأشياء قائمة بذاتها، فتتوزع في نفسه الرغبة منها أو الرهبة، وهي متناقضة مختلفة، فيحصل فيه من التناقض بحسبما في الأشياء من تناقض.

أما إذا رآها جميعا بيد الله، فإن قلبه يتوحد مع الله.

ومن آثار هذه المعرفة اللجوء إلى الله لا إلى الكون، وطلب الأشياء من الله لا من الأشياء، فالله هو المتصرف لا الأشياء.

ومن الحماقة أن نترك الآمر ونتوجه إلى المأمور، وقد ذكر الغزالي مثالا يبين تهافت الذين ينسبون الأشياء إلى ما يتوهمونه، ثم يلجؤون إليه بضراعة والرجاء بقوله:(فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه وتخليته، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول: لولا القلم لما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل. ومن علم أنّ القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب) (1)

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تدعونا إلى طلب منافع الكون من الله، ولو كانت هذه المنافع مما ننسبه إلى أنفسنا أو ننسبه إلى الطبيعة.

ففي الوقت الذي يستسقي فيها الجاهلون بالأنواء، أو يقولون ما يقول قوم هود حين رأو سحاب العذاب، مما قصه علينا الله تعالى، قال تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (الاحقاف:24)

في ذلك الوقت يتوجه المؤمنون إلى الله رب المطر ومنزله بالدعاء والعبودية، وقد وردت صيغ رقيقة عميقة في الاستسقاء تبين الروح التي يتعامل بها المؤمن مع الأشياء والحوادث.

---

1) الإحياء.

ومنهـا مـا مـا روي أن النـاس شـكوا إلى رسـول اللـه ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعـد النـاس يومـا يخرجـون فيـه، فخـرج رسـول اللـه ﷺ حين بـدا حـاجب الشمس، فقعد على المنبر فكبر وحمد اللـه عزوجـل، ثم قـال: إنكم شكوتم جـدب ديـاركم، واسـتئخار المطـر عن إبـان زمانـه عنكم، وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الـرحمن الـرحيم، مالـك يوم الدين، لا إله إلا اللـه يفعـل مـا يريـد، اللهم أنت اللـه لا إلـه أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعـل مـا أنـزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين)

ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بيـاض إبطيـه، ثم حول إلى الناس ظهره وقلب، أو حول رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين.

وكانت النتيجة هذا الـدعاء، ومـا اشـتمل عليـه من مظـاهر الذلة لله تعالى أن (أنشأ الله تعـالى سـحابة، فرعـدت وبـرقت ثم أمطرت بـإذن اللـه تعـالى، فلم يـأت مسـجدَه حـتى سـالت السيولُ، فلما رأى سـرعتَهم إلى الكِنّ(1) ضـحك ﷺ حـتى بـدت نواجذه، فقال:(أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ على كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ، وأَنّي عَبْـدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) (2)

ومثلمـا طلب ﷺ السـقيا من اللـه طلب الصـحو من اللـه، فقد روي أنه لما كثر المطر سألوه الإستصـحاء فاستصـحى لهم وقـال:(اللهم حوالينـا ولا علينـا اللهم على الآكـام والجبـال والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر) (3)

ومثل اللجوء إلى الله في الاستسقاء وطلب المنـافع الـتي أودعها الله المطر، اللجـوء إلى اللـه في جميـع المنـافع، وحمـد الله عند حصول كل خير.

فقد كان رسول الله ﷺ إذا طلعت الشـمس قـال:(الحمـد لله الذي جللنا اليوم عافيته، وجاء بالشمس، من مطلعها، اللهم أصبحت أشهد لك بما شهدت به لنفسك، وشـهدت بـه ملائكتـك وحملة عرشك وجميع خلقك إنك أنت الله لا إلـه إلا أنت القـائم بالقسـط، لا إلـه إلا أنت العزيـز الحكيم، اكتب شـهادتي بعـد شهادة ملائكتـك وأولي العلم، اللهم أنت السـلام ومنـك السـلام

1) ما يُردُّ به الحرُّ والبرد من المساكن.
2) رواه أبو داود، وقال: غريب و إسناده جيد.
3) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وإليك السلام، أسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تستجيب لنا دعوتنا، وأن تعطينا رغبتنا، وأن تغنينا عمن أغنيته عنا من خلقك، اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معيشتي، وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي) (1)

***

بعد هذا نحب أن نشير هنا إلى مسألة مهمة لا تتنافى مع تفرد الله بالتدبير، وهي أن الله تعالى قد يوكل تنفيذ بعض هذه التدابير إلى بعض خلقه، فالله هو الآمر وعباده هم المنفذون، ولذلك جمع القرآن الكريم بين كون الله تعالى هو المتوفي المميت، وبين الإخبار بتوكيل الملائكة بذلك:

فقال تعالى في الأول، وهو الذي يقرر توحيد الله، ونفي الوسائط: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:28)، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْأِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (الحج: 66)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم:40)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر:42)

ولذلك عرف إبراهيم الله تعالى للملك الطاغية بقوله: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: 258)، وفي موقف آخر، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (الشعراء:81)

وقال تعالى عن الثاني: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (لأنفال:50)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: 93)

وأخبر ﷺ أن (أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه،

1) رواه ابن السني.

فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصفوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب) (1)

وإلى هذا الباب الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ (النازعات:5)، وقد روي في تفسيرها عن ابن عباس أنها (الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التدبير الموكل للملائكة، فقال تعالى: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6)﴾ (المرسلات)، وقال تعالى: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5)﴾ (النازعات)

وقال تعالى عن ملائكة العذاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:6)

وقال عن تنزل ملائكة الرحمة: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر:4)

وقد ورد في الأحاديث الشريفة تفاصيل أكثر في ذلك ذكرناها في محلها من هذه الرسائل:

ومنها أنه تعالى وكل بالجبال ملائكة، وقد ورد في الحديث الشريف أنه ﷺ جاءه ملك الجبال يسلم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحب، فقال:(بل أستأني لهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا) (2)

ومنها أنه وكل بكل عبد أربعة من الملائكة في هذه الدنيا، حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومعقبات من بين يديه ومن خلفه أقلهم اثنان يحفظونه من أمر الله.

وهكذا ورد في النصوص الإخبار بأن كل حركة في العالم سببها تنفيذ الملائكة لأمر الله.

* * *

1) رواه ابن ماجة.
2) رواه البخاري ومسلم.

قد يقال هنا: فالأمر إذن موكول للملائكة، فكيف يقال بتفرد الله في التدبير؟ وكيف يقال هذا، وقد عرفنا في المبحث السابق عدم الوسائط؟

والجواب عن ذلك: هو أن الله تعالى أخبر عن طبيعة الملائكة، وهي الانقياد التام لله، فيستحيل على طبيعتها أن تنفذ غير ما طلب منها، ولهذا كان اسمها مشتقا من (الألوكة)، وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

وقد قال تعالى في وصفهم: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الانبياء:27)، وقال: لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (التحريم: 6)، فأخبر تعالى أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجز عنها.

وقد ورد في الحديث الصحيح كيفية تلقي الملائكة ــ عليهم السلام ـ لأوامر الله بقوله ﷺ:(إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال: الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا واحد فوق آخر فربما لم أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقا للكلمة التي سمعت من السماء) (1)

بل إن الطاعة المطلقة التي جبل عليها الملائكة تجعلهم يحبون ويبغضون بمجرد علمهم بمحبة الله وبغضه، مع أن الحب والبغض من المشاعر المستعصية، قال ﷺ:(إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه! فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه! فيحبه أهل، ثم يوضع له القبول في الأرض؛ وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغضه؛ فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله تعالى يبغض فلانا فأبغضوه! فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض) (2)

---

1) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم.
2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ولذلك أخبر ﷺ عن رجوع الملائكة لله في كل ما تشك فيه أو تحتاج إليه، كما أخبر ﷺ عن الملك الموكل بالرحم أنه يقول: (يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة يا رب ذكر أم أنثى فما الرزق فم الأجل وشقي أم سعيد) (1)

وأخبر ﷺ عن رجوع الملائكة السياحين لله، فقال ﷺ:(إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس، يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ فيقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون لا والله ما رأوك فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيدا وأكثر لك تسبيحا، فيقول: فما يسألوني فيقولون: يسألونك الجنة فيقول هل رأوها فيقولون لا والله يا رب ما رأوها فيقول: فكيف لو أنهم رأوها فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ فيقولون: من النار فيقول: عز وجل هل رأوها؟ فيقولون لا والله يا رب فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم فيقول: ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) (2)

ملكية التشريع:

بناء على كون الله هو المدبر الأوحد للكون، فإنه ينبغي التسليم له بكونه المشرع الأوحد للكون، ذلك أن الكون لا يقوم إلا بخالقه، فالخالق أعلم بخلقه، ولذلك كان الانحراف عن هذا النوع من الملكية انحرافا خطيرا عن الفطرة الأصلية التي خلق الله عليها كل شيء.

والأمر في ذلك الحين يشبه السرطان الذي تنحرف خلاياه عن المسارات التي رسمت لها، فتروح ترمي جسد صاحبها بأنواع المهالك.

---

1) رواه البخاري.
2) رواه البخاري ومسلم.

ولهذا تـدارك اللـه برحمتـه عبـاده، فأرسـل إليهم الرسـل، وأنــزل عليهم الكتب، وبعث فيهم المعلمين، لتســتقيم حيــاتهم وفق السنن التي استقام عليها الكون جميعا.

وقد عبر عن هذا النوع من الملكية قوله تعالى ـ آمـرا كـل مسلم أن يقول ـ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَـاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:162)، فقد عبر القرآن الكريم في هـذه الآية عن الصلاة والنسك والمحيا والمماة بلام الملكية، ليبين أن المؤمن هو الذي يسلم كل ذلك لله.

ولهذا كان الحكم بغير ما أنزل الله كفرا وجحودا، كما قـال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْـلَمُوا لِلَّذِينَ هَـادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَـارُ بِمَـا اسْـتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَـانُوا عَلَيْـهِ شُـهَدَاءَ فَلَا تَخْشَـوُا النَّاسَ وَاخْشَـوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)﴾(المائدة)

لأن الذي يأكل رزق الله، ويعيش في ملك الله، ثم يعصــي أمره، جاحد لم تتوفر له أدنى القيم الأخلاقية.

ولهذا كان الصالحون يربطون بين ملكية الله للأشياء، وبين حقه في العبادة، ومما يروى في ذلك ما روي أن رجلاً جــاء إلى بعضهم، فقـال لـه: إني مسـرف على نفسـي فـاعرض علي مـا يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلـبي قـال: إن قبلت خمس خصـال وقدرت عليها لم تضرك معصية ولم توبقك لذة قال: هات يا أبـا إسحاق! قال: أما الأولى فإذا أردت أن تعصي الله عز وجــل فلا تأكل رزقه قال: فمن أين آكـل وكـل مـا في الأرض من رزقـه؟ قال له: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصـيه؟ قـال: لا هـات الثانية! قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده قال الرجــل: هــذه أعظم من الأولى! يــا هــذا! إذا كــان المشــرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟ قال: يا هـذا! أفيحسـن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟ قال: لا هات الثالثة! قال: إذا أردت أن تعصـيه وأنت تحت رزقـه وفي بلاده فـانظر موضـعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه قال: يا إبراهيم! كيف هـذا وهـو مطلع على ما في السـرائر؟ قـال: يـا هـذا! أفيحسـن أن تأكـل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يـراك ويـرى مـا تجـاهره بـه؟! قال: لا هات الرابعة! قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحـك فقل له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحاً وأعمل لله عملاً صــالحاً

قال: لا يقبل مني! قال: يا هذا! فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير فكيف ترجو وجه الخلاص؟! قال: هات الخامسة! قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذونك إلى النار فلا تذهب معهم قال: لا يدعونني ولا يقبلون مني قال: فكيف ترجو النجاة إذاً؟! قال له: حسبي حسبي! أنا أستغفر الله وأتوب إليه ولزمه في العبادة حتى فرق الموت بينهما.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن التشريع الذي أمرنا الله به ليس إلا تكميلا للتكوين الذي فطرنا عليه.

وكمثال مقرب لذلك أن صانع الآلة يصنع للآلة كل ما تحتاجه لأداء وظيفتها على أكمل وجه، ولكن آلته مع ذلك لا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا إذا تعامل معها صاحبها وفق ما تتطلبه خصائصها..

فمثلا لو أن الآلة تحتاج إلى كمية كهرباء قليلة، لكن صاحبها أسرف، وأعطاها فوق حاجتها، فإن ذلك قد يتلفها..

وهكذا الأمر مع خلق الله..

فالله تعالى خلق الخلق، وهو أعلم بحاجاتهم، ولهذا لم يأمرهم إلا بما يصلح لنفوسهم وأجسادهم وعقولهم وقلوبهم، فمن خالف ذلك لم يلق إلا الهلاك، والهلاك في هذه الحالة لم يأته من مصدر خارجي، وإنما أتاه من نفسه.

وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:124)

وفي مقابل هؤلاء من نفذ أوامر الله، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:97)

ولا نحتاج هنا إلى ذكر الأدلة على ذلك.. فالحياة كلها أدلة عليها.

ثالثا ـ الحمد

السر الثالث للحكمة، والذي تفهم به أسرار المقادير، ويجتمع شتاتها، وينحل ما يتوهم منها من تناقض هو التعرف على معنى الحمد، وكونه الغاية التي تنتهي إليها المعرفة بالله، والتي هي مقصد الكون.

ومما يدل على كون الحمد غاية من غايات الخلق أن جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وجهوا أقوامهم إلى شكر الله:

فهذا موسى - عليه السلام - يخاطب قومه الجاحدين المخاصمين لربهم، الذين غمر القنوط حياتهم، فصاروا ينظرون بعين سوداوية لكل الأشياء، فلا يرضيهم شيء، ولا تسعدهم نعمة، بالشكر، فيقول الله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (إبراهيم:6)

وفي آية أخرى يأمرهم - عليه السلام - بذكر نعم الله المعنوية عليهم، يقول تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ (المائدة:20)

وقال تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ هو يعدد نعم الله على قومه: يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) (نوح)

ومما يدل عليه كذلك أن عصارة أولياء الله وخلاصتهم هم الذين تحققوا بهذا المقام العالي، كما قال تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (سبأ:13)، فقد أمر الله تعالى آل داود في هذه الآية أن يعملوا بحال الشكر، باعتباره أعلى الأحوال.

وقد كان ﷺ يعبد الله من خلال هذا المقام العالي، ولهذا قال معللا كثرة عبادته لربه: (أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم لا أفعل ذلك، وقد أنزل الله تعالى علي: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران:190)

ومما يدل على قيمة الحمد باعتباره من غايات الخلق قرنه بالإيمان، فالله تعالى يقول: ﴿ ما يَفْعَلُ اللّه بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ ﴾ (النساء:147)، فلم تكتف الآية بالإيمان، بل ضمت إليها الشكر.

وقرن كذلك بالذكر، كما في قوله تعالى: ﴿ فاذْكُروني أَذْكُرْكُمْ واشْكُروا لي ولا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:152) مع أن الذكر قد عظم بقوله: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت: 45)، فصار الشكر أكبر لاقترانه به.

ومما يدل على هذه المنزلة اعتبار عدم الشكر كفرا، كما قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:152)

***

بعد هذا، فإن القرآن الكريم يخبرنا بأن نعم الله تتجلى في كل شيء.. تتجلى في عالم الخلق وعالم الأمر.. أو في عالم التكوين وعالم التشريع.. ولهذا يذيل الله عالم الخلق والأمر في القرآن الكريم بالأمر بالشكر والثناء على الله، فلا يعرف الله من لم يشكر الله.

1 ـ عالم الخلق:

ففي عالم الخلق، يدعونا الله تعالى إلى التأمل في عالم البحار، وما يزخر به من فضل الله، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الجاثية:12)، ويقول: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (فاطر:12)، ويقول: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:14)

وفي عالم المياه.. ذلك العالم الذي تنطلق منه الحياة، وبه تستمر، يوجهنا الله إلى التأمل في عذوبته، فيقول: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)﴾ (الواقعة)

وفي عالم النفس.. ذلك العالم الذي به يعبد الله، وبه يعرف، يوجهنا الله إلى ما أودع فيه من قوى تستدعي الشكر، فيقول: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك:23)، ويقول: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:9)، ويقول: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (المؤمنون:78)، ويقول: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:78)

وفي عالم الطبيعة بظواهرها المختلفة.. يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم:46)، ويقول: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: 73)

وفي عالم الحفظ الإلهي للإنسان وحياة الإنسان، يقول الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لأنفال:26)، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (لأعراف:10)

وكل هذه الآيات ينطلق منها المؤمن ليعيش في صحبة الكون صحبة ممتلئة بالتفاؤل والجمال، فهو لا يرى الكون بسوداوية مقيتة، بل يراه نورا صرفا لا يحمل إلا السعادة.

ولذلك كانت مقادير الله في عالم الخلق المرتبط بالنشأة الأولى هي الدليل الأول لمقادير الله في عالم الخلق المرتبط بالنشأة الآخرة.

فالمؤمن لا يستغرب ما يدخر الله له من خزائن جوده في الآخرة، ما دام يرى هذه الخزائن مفتوحة في الدنيا.

وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ:(ليس على أهل لا إله الا الله وحشة في الموت ولا في الحشر ولا في النشر كأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن)(1)

هذه بعض أنوار الرجاء التي يبثها النظر الحامد للكون.. ولذلك لا يصيب المؤمن أي ألم أو أي حزن، وهو يختزن في نفسه هذه المعارف الجليلة.

وننبه هنا إلى ناحية مهمة ربما تكون الإشارة إليها في بداية القرآن الكريم بسورة الفاتحة، وهي قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الفاتحة:2)، ومثلها قوله تعالى: وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (الضحى:11) على اعتبار (ربك) هي موضوع النعمة.. وهذا، وإن لم تسمح به اللغة لكن معناه صحيح.. فالمؤمن ـ أول ما يستشعره من نعم الله ــ هو نعمة (الله).. فكون الله ربنا.. نعمة لا يمكن تصورها، ولا تقديرها، لأن كل ما يأتي من النعم نتيجة عنها.

2 ـ عالم الأمر:

ومثل عالم القدرة الإلهية التي أبرزت هذه المكونات الجميلة التي تملأ النفس انشراحا ومحبة وتفاؤلا.. كانت أوامر الله.. فهي أوامر لا تختزن إلا التفاؤل والمجبة والرحمة.. وكلها لا تملأ القلب إلا حمدا لله ورضى عنه وثناء عليه.

ولهذا عبر الله تعالى عن علة أوامره مقارنة بأوامر الشياطين، فقال: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة: 268)

ولهذا يختم الله تعالى أوامره على عباده بالحث على شكرها:

فيختم أمره بالصوم بالشكر لله، يقول تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقرة:185

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

ويختم أمره بالطهارة بالشكر للـه، يقـول تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِـقِ وَامْسَـحُوا بِرُؤُوسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَـفَرٍ أَوْ جَـاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَـاءَ فَلَمْ تَجِـدُوا مَـاءً فَتَيَمَّمُـوا صَـعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَـــرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيـــدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَـــهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:6)

ويختم ما أمر به من كفـارات الأيمـان بالشـكر للـه، يقـول تعالى: ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِـذُكُمْ بِمَـا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَـرَةِ مَسَـاكِينَ مِنْ أَوْسَـطِ مَـا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِـيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:89)

ويختم أوامره المرتبطة بالنسك بالشكر لله، يقول تعـالى: ﴿ وَالْبُـدْنَ جَعَلْنَاهَـا لَكُمْ مِنْ شَـعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَـا خَيْرٌ فَـاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُـوا مِنْهَـا وَأَطْعِمُـوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الحج:36)

وانطلاقا من هـذا كـانت أوراد رسـول اللـه ﷺ الـتي سـنها لورثتـه تمتلئ بالمحامـد، وكـا يحض على هـذه المحامـد وامتلاء القلب بها، قال ﷺ:(ألا أدلك على شئ هو اكثر من ذكرك الليل مع النهار، والنهار مع الليل قل الحمد لله عدد مـا خلـق والحمـد للـه ملا مـا خلـق، والحمـد للـه عـدد مـا في السـموات والارض والحمد لله عـدد مـا احصـى كتابـه والحمـد للـه عـدد كـل شـئ والحمد له ملا كل شئ وسبحان الله عدد ما خلق، وسبحان الله ملا مـا خلـق وسـبحان اللـه عـدد مـا في السـموات والارض وسبحان الله عدد ما احصى كتابه، وسبحان الله عدد كـل شـئ، وسبحان الله ملا كل شئ، تعلمهن وعلمهن عقبك من بعدك)[1]

ويقـول ﷺ:(ان الحمـد للـه وسـبحان اللـه ولا إلـه إلا اللـه واللـه اكـبر لتسـاقط من ذنـوب العبـد كمـا تسـاقط ورق هـذه الشجرة)[2]

---

1) رواه النسائي وابن خزيمة والطبراني في الكبير وسمويه وابن عساكر.
2) رواه الترمذي.

رابعا ـ القدرة

السـر الرابـع للحكمـة، والـذي تفهم بـه أسـرار المقـادير، ويجتمع شتاتها، وينحل ما يتوهم منها من تناقض هو إدراك قدرة الله المطلقـة.. فاللـه خلـق الخلـق ليـدرك الخلـق قدرتـه الـتي تتجلى في كل شيء، ولا يعجزها شيء.

ولذلك كان أعرف الخلـق باللـه، أعظمهم معرفـة بقدرتـه، وكان أجهل الخلق بالله أعظمهم جهلا بقدرته.

ولذلك كان أسعد الخلق بالله، وأفرحهم به، وأعظمهم أملا فيه هو من عـرف قدرتـه الـتي لا تحـدها الحـدود، ولا يقـف في وجهها شيء.

ولذلك كان أشقى الخلق، وأكثرهم حزنا، وأضيقهم صــدرا، وأجزعهم عنـد كـل مصـيبة من حجبت عيبنـا بصـيرته عن قـدرة الله.

والأمر في ذلك يشبه رجلين:

أمـا أحـدهما.. فكـان يلتجئ إلى قـوي قـادر حكيم طـبيب كريم شجاع.. يشفيه من كل داء، ويخلصه من كل عـدو، ويغنيـه من كل فاقة، ويسد له كل حاجة.

وأما الثاني.. فلم يكن له من يلتجئ إليه، فكان يقـف أمـام كل عقبة، حزينا يائسا محبطا ممتلئا هما وغما.

فأما الأول.. فذلك الذي يعـرف اللـه.. ويعـرف قـدرة اللـه التي لا تحدها الحدود، ولا تقف في وجهها العقبات.

وأما الثاني.. فذلك الذي لا يعـرف اللـه.. أو يعرفـه، ولكنـه يعرفه إلها عاجزا ممتلئا ضعفا، فلا يحل له معضلة، ولا يعينه في مصيبة.

وقد اعتبر القرآن هذا الثاني مشركا بالله.. لأن الشرك هو اعتقاد ند لله، وأي ند أعظم من ذلك الذي يحول بين اللــه وبين تنفيذ قدرته.

ولهذا يمن الله على المؤمنين بإلههم القادر على كل شيء في مقابل الـذين تعلقـوا بآلهـة من القش، تفـر منهم أحـوج مـا يكونون إليها.

قــال تعــالى في وصــف الآلهــة الــتي تعلــق بهــا هــؤلاء المشــركون: مَثَـلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَـاءَ كَمَثَـلِ

الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت:41)

وذكر العجز الذي تمتلئ به آلهتهم، فقـال: يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ ضُـرِبَ مَثَـلٌ فَاسْـتَمِعُوا لَـهُ إِنَّ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُـوا ذُبَابـاً وَلَـوِ اجْتَمَعُـوا لَـهُ وَإِنْ يَسْـلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَـيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (الحج:73)

فهذه الآلهة العاجزة تعجز حتى عن خلق ذبابة، بل أبلغ من ذلك أنهم عاجزون عن مقاومته والانتصار منـه، لـو سـلبها شـيئًا من الـذي عليهـا من الطيب، ثم أرادت أن تسـتنقذه منـه لمـا قدرت على ذلك، مع الذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قـال تعـالى: ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُـوبُ ، فسـوى بين الطالب والمطلوب.

ولهذا، فإن إبراهيم عليه السلام في محاجته للنمروذ، ذكـر لـه هـذه الناحية، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَـاجَّ إِبْـرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَـالَ أَنَـا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ فَـأْتِ بِهَـا مِنَ الْمَغْـرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَـرَ وَاللَّهُ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (البقرة:258)

***

قد يقال هنا: إن ما ذكر من قـدرة اللـه ربمـا ينسـجم مـع تلك العصور التي لم تظهر فيهـا الطـائرات والحواسـيب.. وهـذا التقدم التقني العظيم.

أما الآن.. وبعد أن عرفنـا أسـرار سـنن الكـون.. فلا نحتـاج إلى هذه المعرفة.

والجواب عن ذلك: هو ما ذكـره القـرآن.. فتحـدي القـرآن للآلهة بالذبابة لا زال قائما.

ونحن نقول لهؤلاء الذين استعبدتهم التكنولوجيا: اخلقوا لنا ذبابة واحدة كما ذكر القـرآن.. أمـا إن عجـزتم، فلا ينبغي إلا أن تخضعوا للذي خلق ملايير ملايير من الذباب.. بل الذي خلق هذا الكون الواسع الذي يمتلئ بكل أنـواع القـدرة، والـذي لا يشـكل الذباب إلا عنصرا ثانويا، بل مرفوضا فيه.

قد لا يعلم المدى الـذي يحملـه هـذا الجـواب لعامـة الـذين ربما يغترون بمنتجات التكنولوجيا، ويتصـورونها أعظم خلقـا من الذباب.

ولكن العلماء.. كل العلماء.. يدركون هذا..

إنهم يدركون أن الإنسان لو تمكن من خلـق ذبابـة واحـدة، فإنه بذلك يكون قد أنجز أعظم إنجاز في تاريخ البشرية جميعا.

فلا نستطيع بحال من الأحوال أن نقيس السفينة الفضـائية أو العقـل الالكـتروني أو أي منجـو من منجـزات هـذه الحضـارة بخلق ذبابة (1).

فليس في هذه المنجزات ـ مع احترامنـا لهـا، بـل اعتقادنـا أنها من فضل الله على عباده ـ أي نمـو أو رشـد، ويسـتحيل أن تنجب مثيلا لها، ولا يمكنها من داخل نفسها ترميم ما يطرأ عليها من الأضرار، فهي لا تصلح قطعها التالفة أبـداً، وهي فـوق ذلـك تحتاج إلى الهداية والقيادة من الخارج.

أما الذبابة، فلها من هذه الجهات أفضلية واضحة على تلـك السفينة الفضائية أو جهاز الكومبيوتر.. ولكن كـثرة الـذباب أدى إلى تصـوره من قبلنـا كموجـود حقـير، ولـو كـانت هنالـك ذبابـة واحدة فقط في العالم لاتضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.

وهـــذا الكلام لا نقولـــه نحن.. ولا يقولـــه فقـــط علمـــاء المسلمين.. ولا يقوله قبل ذلك القرآن..

بل هو علم من العلم لا يصير العالم عالما إلا إذا علمه.

يقول (البروفيسور هانز):(سوف يصل الانسـان بعـد ألـف سنة إلى سر الحياة، ولكن هذا لا يعـني أنـه سيسـتطيع صـناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية)

ويرد (كرسي مورسـن) رئيس اكاديميـة العلـوم بـنيويورك في كتاب (سر خلق الانسان) على هيجل، فيقول:(قـال هيغـل: أعطوني الهواء والماء والمواد الكيمياوية والزمان وسوف أخلق بهـا إنسـاناً. لكن هيغـل نسـي أنـه بحاجـة إلى نطفـة وجرثومـة الحياة من أجل هذا المشروع ايضاً. إنـه بعـد أن يجمـع الـذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضـها ضـمن نظـام وتـرتيب خـاص بخلقة الأنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القـالب! وعلى فـرض أنه وُفّق للقيام بكل هذه الأُمور الخارقة للعادة، هنالـك احتمـال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لظهور حيـوان لم تشـاهد عين الدهور شيئاً أغرب منـه. والأعجب هـو أن هيغـل لن يقـول بعـد الموفقيـة في هـذا الأمـر أن هـذا الموجـود العجيب ظهـر

1) انظر: الأمثل للشيرازي.

بحسب التصادف والاتفاق، بل يقول:(إن ذكائي ونبوغي هو الذي خلقه)(1)

ويقول (جورج والد) أستاذ علم الأحياء في جامعة (هارفارد):(من أجل تشكيل البروتين يجب التحام مئات أو آلاف الجزئيات (أحماض أمينية) بنِسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة، وإن عدد أنواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنه لايمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات، إذن فجزيئات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة، ومن أجل صنع موجود حي واحد لا نحتاج إلى مقدار كاف ونسب معينة من انواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أي ان بناءها له من الأهمية ما لتركيبها الكيمياوي من الأهمية.. إن بناء البروتينات معقد حقاً، وإن أعقد الأجهزة التي صنعها الانسان (كالعقل الألكتروني) هي بحكم الألعوبة مقابل أبسط الكائنات الحية! يكفي الانسان أن يفكر في هذه العظمة لتتضح له استحالة الخلقة الذاتية أو التصادفية)

***

بعد هذا نتساءل عن بعض آثار هذه المعرفة في نفس المؤمن، المؤمن الذي يتهم بأن إيمانه بالقدر قد ملأه بالعجز والجهل والخرافة لنرى علاقة الإيمان بالقدرة، أو علاقة النظر إلى قدرة الله التي بث مظاهرها في أكوانها في بث العزيمة في نفس المؤمن وفي ملئه بالعلم والعقل.

1 ـ العزيمة:

أما العزم الناشئ عن معرفة قدرة الله، فلا يمكن تصوره، فالمؤمن الذي يرى نفسه مستندا للقدرة التي لا يعجزها شيء، لا يخاف من أي شيء، وكيف يخاف والله ربه.

ولهذا اعتبر الله تعالى من أسباب الرعب الذي يملأ النفوس الشرك، فقال تعالى:﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:151)، فقد اعتبر الله تعالى في هذه الآية شركهم مصدر رعبهم.

---

1) سر الخلق، ص 139 إلى 141.

والـرعب منبـع من منـابع الضـعف.. بـل لا يمكن لشـخص يمتلئ أن يفعل أي شيء.

وقـد ذكـر اللـه تعـالى في مقابـل هـذا مواقـف المؤمـنين الصـادقين الـذين ملأوا قلـوبهم باللـه، فـرزقهم الأمن التـام، والسكينة المطلقة:

فهذا إبراهيم عليه السلام وحده في الأرض يوحـد اللـه، ووحـده في الأرض يعبد الله، وتدعوه غيرته على أن يعبد غـير اللـه، ورأفتـه على الجـاهلين باللـه، فيتحـدى قومـه، ويتحـدى الأرض معهم، فيحطم الأصنام من غـير خـوف ولا وجـل، وهـو يـدرك المصـير الذي يتعرض له من يحطم تلك الأوثان المقدسة.

ولكن إبـراهيم عليه السلام انشـغل باللـه، وبجـوار اللـه عن كـل المخاوف التي يتذرع بها الخلق، وعندما خوفه قومـه من آلهتهم التي دعا إلى نبذها، قال متعجبا:﴿ وَكَيْفَ أَخَـافُ مَـا أَشْـرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُمْ سُـلْطَاناً فَـأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:81)

فإبراهيم عليه السلام في ذلك الموقف كان يقارن بين القوة الوهميـة التي يستند إليها قومه، والقوة الوهمية الـتي كـانوا يتصـورون أنهم يملكونها، وبين قوة الله تعالى، فأخبر أن قومه أولى بالخوف منه.

وقد عقب الله تعـالى على قـول إبـراهيم عليه السلام مقـررا هـذه الحقيقة المطلقة، ومقننا هذه السنة الإلهية التي لا تتخلف، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام:82)

وعلى خطى إبراهيم عليه السلام سار أصـحاب محمـد صلى الله عليه وسلم الـذين ﴿ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَـزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: 173)

وقد جمع ابن عبـاس بين القـدوة والمقتـدي في قولـه عن شعار التوجه إلى الله والاكتفاء بـه:(حسـبنا اللـه ونعم الوكيـل، قالها إبراهيم الخليل عليـه السـلام حين ألقي في النـار، وقالهـا محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم)

والمـؤمن لـذلك يقـارن دائمـا بين القـوى الوهميـة الـتي تتحداه، وبين قوة اللـه، فتطيش كـل القـوى، وتـزول معهـا كـل المخاوف.

وبخلاف هذا نجد الغافلين والجاحدين أكثر الناس مخـاوف، فهم يخافون كل شيء، وقد يدركون ما يخافون، وقد لا يدركون

كما عبر بعضهم عن نفسه بقوله عن مخاوفه التي لا تنتهي، والتي لا يعلم لها سببا:(إنني أعيش في خوف دائم، في رعب من الناس والأشياء، ورعب من نفسي، لا الثروة أعطتني الطمأنينة، ولا المركز الممتاز أعطانيها ولا الصحة، ولا الرجولة، ولا المرأة، ولا الحب، ولا السهرات الحمراء.. ضقت بكل شيء، بعد أن جربت كل شيء)

فالمعرفة الصحيحة بالله والتي تتولد عنها جميع المعارف، وتصحح بها جميع الفهوم، وتنشق عنها جميع المشاعر هي التي تقي المؤمن من الخوف الذي يستعبد الناس.

2 ـ العلم:

أما العلم، فإن معرفة قدرة الله تعالى تملأ النفس بالعلم الصحيح.. العلم الذي ليس معه جهل.. والعلم الذي لا ينتج إلا العلم.

والاستدلال لهذا لا يحتاج منا أي تكلف، فمقارنة مقولات المؤمن التي تفسر الكون، وقوانين الكون، والتي ترجعه إلى قدرة الله التي لا يعجزها شيء، لا يمكن مقارنتها بتلك المقولات الكثيرة التي أفرزتها الفلسفات المختلفة.

فقدرة الله هي التفسير الحقيقي لكل الظواهر.. وهو تفسير علمي منطقي لا تتكلف العقول في تقبله.

3 ـ العقل:

أما العقل، وهو المنهج السليم للتفكير.. فليس ذلك إلا لمن يؤمن بقدرة الله.

ولهذا كان الدهريون الذين أنكروا قدرة الله على البعث أجهل الخلق بالله، وأبعد الناس عن مقتضيات عقولهم.

وقد ذكر الله تعالى المنطق الذي يفكر به هؤلاء، فقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَافْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (8)﴾ (سبأ)، فالضلال البعيد ــ هنا ــ هو ذلك الضلال عن مستلزمات العقول السليمة.

ولهذا يوجههم الله تعالى إلى النظر في دلائل القدرة التي تنطق بكل لسان، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ (الاسراء:99)، وقال

تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (يّس:81)

وهو يوجههم إلى النظر في أصل الخلق.. فمن قدر على أن يخلق لن يعجز على أن يعيد، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الروم:27)

وقال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83) (يس)

وقال تعالى: وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99) (الإسراء)

وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) (الروم)

4 ـ الأمل:

أما الأمل.. فليس له إلا باب واحد هو الإيمان بقدرة الله التي لا تحد.

ذلك أن سبب اليأس هو اعتقاد العجز.. فمن عرف أن في قدرة الله أن يحقق له كل أمنية، فإنه سيعيش ممتلئا بالأمل السعيد الذي تنهض به الحياة، وتستقر به النفس.

وقد ربط الله تعالى بين الأمل والقدرة وتحقيق المطالب في قصة زكريا عليه السلام..

فقد كان زكريا محبا للولد.. وكان يود لو سأل الله ذلك.. ولكنه كان يتوقف كل حين.. إلى أن رأى ما دعاه لأن يسأل ذلك السؤال الذي كان يملأ عليه نفسه.

قال تعالى يربط بين الإيمان بالقدرة المعجزة، وبين الأمل: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا

زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41) (آل عمران)

وهكذا كان الأمل في قدرة الله التي لا يعجزها شيء هو الحادي الذي يسوق المؤمنين للحياة السعيدة المستقرة مع الله.

الفصل الرابع

سر الرحمة

في هذا السر يصحب المؤمن أسماء الله الكثيرة الـتي تخـبر عن محبـة اللـه لخلقـه، ومودتـه لهم، ورحمتـه بهم، ورزقـه لهم، ولطفــه بهم، وحنانــه عليهم، وعفــوه عن مســاويهم، ومغفرتــه لذنوبهم، وتوبته عليهم، وشكره لهم.

ومن هذا السر يبحر المـؤمن في بحـر الحب المقـدس، حين يرى جمال الله المتجلي في جميع الأشياء، ورحمـة اللـه الـتي هي فيض من فيوضات جماله قد تـزيينت بهـا حـروف جميـع الكائنـات، ونطقت بمعانيها جميع الحقائق.

ومن هــذا الســر يمتلئ قلب المــؤمن من الرحمــة الإلهيــة، فيفيض على جميع الكائنـات رقـة وإحسـانا وبـرا، فيصـير عينـا من عيون الرحمة، وواسطة من وسائط الجود.

وقبل أن نلج باب الرحمة الإلهية المفتـوح على كـل الكائنـات نحب أن نمثل لعقولنا الموغلة في الحس، والمغرمـة بالتشـبيه مـا يمثل بعض تجليات الرحمة الإلهية.

ولمعرفة ذلك نرحل إلى رسول الله ﷺ أعظم العارفين بالله، وأقرب الخلق إلى الله، ليذكر لنا هذا النموذج:

رأى رسول الله ﷺ امرأة من السـبي قـد فـرق بينهـا وبين ولدها، فجعلت كلمـا وجـدت صـبياً من السـبي أخذتـه فألصـقته بصدرها وهي تبحث على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمتـه ثديها، فقال رسول اللّه ﷺ:(أترون هذه طارحة ولدها في النــار وهي تقدر على أن لا تطرحه؟)، قالوا:(لا يا رسول اللّه)، قال:(فواللّهِ، للّه أرحمُ بعباده من هذه بولدها) (1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن هذه الرحمة الـتي وقفتهـا هذه الأم ليست سوى تجـل من تجليـات رحمـة اللـه، قـال ﷺ:(جعل اللّه الرحمة مائة جزء فأمسـك عنـده تسـعة وتسـعين جـزءاً وأنزل في الأرض جـزءاً واحـداً، فمن ذلـك تـتراحم الخلائـق، حـتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) (2)

ولذلك كان أكثر أسماء الله الحسنى يصب في بحـر الرحمـة،

---

1) رواه البخاري.

2) رواه البخاري ومسلم.

فتوبة الله على عباده، وتجاوزه عنهم من رحمته بهم، وقد أخبر ﷺ ـ لتقريب صورة هذا النوع من الرحمة ـ بهذا المثال، قال ﷺ:(لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده) (1)

بل إن رسول الله ﷺ يحكي عن ربه قوله لعباده:(إذا تقرب إلي العبد شبرا تقربت إليه ذراعا وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة) (2)، وقوله:(يا ابن آدم قم إلي أمش إليك وامش إلي أهرول إليك) (3)

والله هو الودود الذي يحب عباده، ويفيض عليهم لمحبته لهم كل أنواع الخير، ولا يحول بينه وبين التودد إليهم ما يبارزونه به من الخطايا والمعاصي، وفي الأثر الإلهي يقول الله تعالى:(إني والجن والإنس في نبإ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي)(4)

وفي أثر آخر:(ابن آدم، ما أنصفتني، خيري إليك نازل، وشرك إلي صاعد، أتحبب إليك بالنعم وأنا عنك غني، وتتبغض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم ما من يوم جديد إلا يأتيك من عندي رزق جديد، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح، تأكل رزقي وتعصيني، وتدعوني فأستجيب لك، وتسألني فأعطيك، وأنا أدعوك إلى جنتي فتأبى ذلك)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقرابة الأرض - بضم القاف ويجوز كسرها أي قريب ملئها - خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) (5)

وقد أخبر القرآن الكريم أن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:5)، وفي ذلك إشارة إلى أن مملكة هذا الكون الواسعة

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه البخاري.
3) رواه أحمد.
4) رواه الحكيم والبيهقي.
5) رواه الترمذي.

مبنية على أساس الرحمة الإلهية ومنتهية إليها.

فالله تعالى في تلك الآية الكريمة لم يختر من أسمائه إلا هذا الاسم الجليل الذي يجمع بين الدلالة على منتهى الرحمة وكمالها والعلمية على الذات ليدل على هذا المعنى، فإنه إذا قيل:(حكم الملك الشجاع) دل ذلك على ان أكبر منجزات هذا الملك مؤسسة على شجاعته، وإن قيل:(حكم الملك العادل) دل ذلك على أن أبرز ما يظهر في مملكته هو عدله، وهكذا.

وهذا ما نفهمه من الآية الكريمة، فهي لم تقرر معنى الاستواء بقدر ما قررت معنى الرحمة التي على أساسها يحكم الكون، ولكن التحريف اهتم بالاستواء وأوغل فيه مع دقة مسلكه، وكاد يعرض عن معنى الرحمة التي هي المقصود الأول من البيان في هذه الآية، أو كما قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (الفرقان: 59)

وهذه الآية تدل على أن الخبراء بالله العارفين به يدركون هذا المعنى، فلذلك كان أكثر كلام العارفين في التحبيب في الله والدلالة على أبواب رحمته، بل كان أعظم العارفين ﷺ هو الرحمة المهداة.

ولهذا يربط القرآن الكريم بين ملك الله الذي يعني تدبير الله للأشياء وبين رحمته تعالى، كما قال تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (الفرقان: 26)

ولذلك ورد في القرآن الكريم الإخبار عن سعة الرحمة الإلهية وشمولها باعتبار الكون مؤسسا عليها إنشاء وتدبيرا، قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف:من: 156)، وقال تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (الأنعام:147)

فالآيتان الكريمتان صريحتان في سعة الرحمة الإلهية وشمولها لكل شيء، ولم يرد في القرآن الكريم اقتران السعة بشيء من صفات الله إلا في صفتي الرحمة والعلم.

وقد بينا في الفصل الأول أن العلم هو أوسع الصفات الإلهية حيث يتعلق بالواجب والجائز والمستحيل، فاعتبارالرحمة مماثلة للعلم في السعة يدل على المدى العظيم لسعتها، قال تعالى في بيان سعة علمه: وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ

عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (الأنعام:80)، وقال تعالى: قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (لأعراف:89)، وقال تعالى: إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (طه: 98)

وقال تعالى جامعا بين الرحمة والعلم واقترانهما بالسعة: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (غافر: 7)

وقد ورد في القرآن الكريم ــ زيادة على هذا ــ اقتران السعة بالمغفرة، كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ (لنجم: 32) وهو يصب فيما ذكرناه من الرحمة، لأن المغفرة مظهر من مظاهر الرحمة، أو هو مقدمة لها، ولذلك يقترنان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

* * *

قد يقال بعد هذا: فما حقيقة الرحمة الإلهية؟

إن أحدنا إذا رحم غيره رق قلبه، وانهمرت دموعه، وشعر بمشاعر هي أدل على الصعف منها على الكمال، فهل يجوز على الله هذا النقص الذي نجده في ذواتنا، وهذه المشاعر التي هي دليل ضعفنا وعجزنا؟

والجواب عن ذلك هو أن الله تعالى الكبير المتعال الذي ليس كمثله شيء يتعالى عن النقص، فهو السلام الذي سلم من كل الآفات، بل من كل ما نتوهمه كمالا، بل نحن ـ لضعفنا وقصورنا ـ لا نعرف من حقائق الأسماء إلا بعض مظاهرها، أما حقائقها فلا حدود لها.

ولذلك تتفق رحمته تعالى مع ما نفهمه من الرحمة في بعض الأمور، وتختلف في بعضها.

فالرحمة في منطقنا تستدعي مرحوما، وتشترط في المرحوم أن يكون محتاجا.

وتشترط في الراحم أن يفيض عنايته على المرحوم بما يسد حاجاته، قاصدا بذلك العناية بالمرحوم، فإن قصر ـ مع القدرة ــ لم تعتبره رحيما.

فإن عجز اكتفت منه بما يظهر عليه من أمارات الرقة

وعلاماتها، فتكون رحمة قاصرة لا يصيب المرحوم منهـا إلا امتنانـه لمن رحمه.

وتتفق الرحمة الإلهية مع هذه المعـاني جميعـا إلا في المعـنى الأخـير، والـذي لا يعتـبر شـرطا في الرحمـة، بـل هـو دليـل العجـز والنقص.

وعـدم احتـواء الرحمـة الإلهيـة على هـذا المعـنى مظهـر من مظاهر كمالها، لأن الرحيم الذي يفيض عنايته بسبب ما اعتراه من الرقة، هو في حقيقته يعالج رقته، ويعتني بالضـعف الـذي أصـابه لا بـالمرحوم، ولـذلك تجـده يضـطر المرحـوم للتوسـل إليـه بفاقتـه وعجزه ليرحمه.

يقول الغزالي:(الرحمة لا تخلو عن رقة مؤلمة تعتري الرحيم فتحركه إلى قضاء حاجة المرحـوم والـرب سـبحانه وتعـالى مـنزة عنها، فلعلك تظن أن ذلـك نقصـان في معـنى الرحمـة، فـاعلم أن ذلك كمال وليس بنقصان في معنى الرحمة، أما أنه ليس بنقصـان فمن حيث أن كمال الرحمـة بكمـال ثمرتهـا ومهمـا قضـيت حاجـة المحتاج بكمالها لم يكن للمرحوم حـظ في تـألم الـراحم وتفجعـه، وإنمـا تـألم الـراحم لضـعف نفسـه ونقصـانها ولا يزيـد ضـعفها في غرض المحتاج شيئا بعد أن قضيت كمال حاجته، وأما أنه كمال في معنى الرحمة فهو أن الرحيم عن رقة وتألم يكاد يقصد بفعلـه دفـع ألم الرقة عن نفسـه فيكـون قـد نظـر لنفسـه وسـعى في غـرض نفسه، وذلك ينقص عن كمال معنى الرحمة بل كمـال الرحمـة أن يكون نظره إلى المرحوم لأجـل المرحـوم لا لأجـل الاسـتراحة من ألم الرقة) (1)

ولكنه مع ذلك، فإن هناك فرقا بين الرحمة والإحسان المجرد عن الرحمة والذي تدل عليه أسماء حسنى كثيرة، وهذا الفـرق قـد ندركه ذوقا ولا نستطيع التعبير عنه لسانا، فأسماء الله وصفاته من العظمة ما يعجز اللسان عن الوصف أو التعبير.

ولذلك، فإن تفسير الرحمة الإلهية بمجرد الإحسان يزيل عنهـا الخصوصية التي يختص بها هذا الاسم، بل يجعل هذا الاسـم مجـرد مرادف لفظي لأسماء الجواد والكريم وغيرها.

* * *

قد يقال هنا: كيف نعتبر الرحمة صفة إلهية، والقرآن الكـريم والسنة المطهرة تخبر بـأن اللـه تعـالى خلـق الرحمـة، والمخلـوق

1) المقصد الأسنى:62.

ليس صفة، أو ملكها، والمملوك ليس اسما؟

والجواب عن ذلك أن أكثر الأسماء الحسنى تدل على اتصاف اللـه بالرحمـة، بـل إن اللـه تعـالى تسـمى باسـمين صـريحين في الدلالة على رحمته هما:(الرحمن الرحيم)

فهذان الاسمان الكريمـان همـا الخلاصـة الـتي تضـمنها أكـثر الأسماء الحسنى، ولذلك لهما من العناية من النصوص وفي الأذكار الشرعية ما ليس لغيرهما.

وقد وردا مقترنين في مواضع من القـرآن الكـريم للدلالـة على سعة الرحمة وشمولها، كما قال تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ (الفاتحـة: 1)، وقـال تعـالى: الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ (الفاتحـة:3)، وقـال تعـالى: وَإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الـرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ (البقـرة:163)، وقـال تعـالى: تَنْزِيـلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (فصلت: 2)

بل إن الله تعالى جعل اسم الرحمن علما على الذات الإلهيـة المقدسة، قال تعالى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَـدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (الاسراء: 110)، وقال تعـالى: وَلَقَـدْ قَـالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَـاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (طـه:90)

ومما يدل على دلالته للذات أن الله تعالى نسب الملك للفظ الجلالة الدال عل الذات، كما قـال تعـالى: الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (الحج: 56) ونسبه إلى الرحمن، كما قال تعالى: الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ لِلـرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (الفرقـان: 26)، وقـال تعـالى: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (طـه: 109)، وقال تعالى: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَـفّاً لا يَتَكَلَّمُـونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً (النبأ:38)

ولهذا ترد نسبة العباد إلى الرحمن سواء من البشر، كما قـال تعالى: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَـاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (الفرقـان: 63)، أو من الملائكـة، كمـا قـال تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَـهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ (الزخرف:19)

ودلالته على الذات تعني شـموليته لكـل شـيء، فكـل شـيء قائم بالله، ولهذا يربط القرآن الكريم كل المظـاهر برحمانيـة اللـه سواء ما كان منها من باب الرحمة الخالصة، كقوله تعـالى: جَنَّاتِ

عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً (مريم: 61)

أو من باب الرحمة الممزوجة بالآلام على حسب ما تقتضيه الأسماء الحسنى والحكمة الإلهية، كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (مريم: 45)

فقد ذكر إبراهيم عليه السلام الرحمن، ولم يقل الجبار ولا القهار، للدلالة على أن العذاب لا يتنافى مع الرحمة الإلهية، كما لا يتنافى الكي أو الحقنة أو الدواء المر إذا وضعت في مواضعها التي تقتضيها حكمة الجسم مع رحمة الطبيب.

ولذلك قال تعالى: أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (يس:23)، فقد نسب إرادة الضر إلى الرحمن ليدل على أن هذا الضرر في حقيقته رحمة، اقتضاه التدبير الإلهي.

ومثل ذلك قوله تعالى: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً (مريم:69)، وقال تعالى: قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (مريم:75)

أما ما ورد في النصوص من الرحمة المضافة إلى الله مما قد يوهم أنها خلق من خلق الله لا صفة من صفاته، فهو جار على أسلوب القرآن الكريم والسنة المطهرة في وصف الله تعالى إما بأوصاوف أو بأعيان تدل على الأوصاف، فالإضافة تدل على أنها إضافة وصف له قائم به ليست مخلوقة لأن الصفة لا تقوم بنفسها، فلا بد لها من موصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له.

لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها، فيسمى المقدور قدرة والمخلوق بالكلمة كلاما، والمعلوم علما، والمرحوم به رحمة، كما يقال للمطر والسحاب:(هذه قدرة قادر، وهذه قدرة عظيمة)، ويقال في الدعاء:(غفر الله لك علمه فيك) أي معلومه.

ومن هذا الباب ما ورد من النصوص الكثيرة من التعبير على الرحمة الإلهية بمظاهرها، كما قال تعالى في دعاء المؤمنين: رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (آل عمران:8)، وقال تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (النساء:175)

ومثل ذلك اعتبار الله تعالى الجنة رحمة، كما قال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (آل عمران:107)

ومثله اعتبار ما ينزل على عباده من مظاهر النعيم المختلفة رحمة، كما قال تعالى: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (يونس:21)، وقال تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ (هود:9)

إلى غير ذلك مما يرد في النصوص من مظاهر الرحمة الإلهية، والتي سنعرف الكثير منها في محالها من هذا الفصل.

ولهذا، فإن كل مقادير الله تصب من بحر رحمة الله، ولكن صورها ومظاهرها قد تختلف بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، وأسماء الله الحسنى، وهي مع هذا الاختلاف الذي قد يبدو متناقضا تتوحد على رحمة الله.

* * *

قد يقال بعد هذا، أو بعد قراءة ما سيأتي من مباحث: أليس في نشر مثل هذا الفكر الإرجائي خطرا على السلوك الإسلامي الذي يستدعي الترهيب والتشديد سدا لذرائع الانحراف؟

أو لسنا بهذا نعطي المنحرفين مبررا للانحراف، بل نوهمهم أن رحمة الله ستشملهم كما تشمل المتقين؟

والجواب على ذلك: أن المؤمن يقدم كل ما ورد في النصوص على كل ما يرد في ذهنه من تحليلات ومخاوف، لأن الله تعالى هو الذي أخبر عن صفاته وأفعاله ما ملأنا شعورا برحمته التي وسعت كل شيء، ومن الخطر أن نصف الله تعالى بغير ما وصف به نفسه.

فالله تعالى يخاطب المسرفين على أنفسهم بألوان الذنوب قائلا: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر:53)، فالله تعالى عرف نفسه لهؤلاء المسرفين بكونه غفورا رحيما، ومن الخطأ أن نعرفهم لهم بغير ما عرفهم به.

بل إن هذا التعريف هو الذي يحرك القلوب للسير نحو الله، ويكبح الغرائز عن معارضة الرحيم الودود.

ومما يروى في هذا أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال: إن أسلمت أضفتك؛ فمرّ المجوسي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك؛ فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسي فرده وأضافه؛ فقال له المجوسي: ما السبب فيما بدا لك؟ فذكر له؛ فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي الإسلام فأسلم.

ولما يتضمنه القنوط من رحمة الله من مساوئ في الاعتقاد أو السلوك ورد النصوص بتحريمه، كما قال تعالى في الآية السابقة: لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ (الزمر: 53)، فحرم أصل اليأس.

بل اعتبر اليأس من روح الله من صفات الكافرين، كما قال تعالى: إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (يوسف: 87)

وأخبر تعالى أن كفر الكافرين وضلالهم ناتج عن سوء ظنهم بربهم، كما قال تعالى: وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (فصلت:23)، وقال تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (الفتح: 12)

وذلك لأن استشعار رحمة الله يحبب في لقاء الله، بخلاف اليأس من رحمته، فإن الإنسان يكره لقاء من لا يحبه، قال ﷺ: (إن شئتم أنبأتكم: ما أول ما يقول الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة وما أول ما يقولون له؟ قلنا: نعم يا رسول الله. قال: إن الله تعالى يقول للمؤمنين هل أحببتم لقائي؟ فيقولون: نعم يا ربنا. فيقول: لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك، فيقول: قد وجبت لكم مغفرتي) (1)

ولهذا ورد الأمر بحسن الظن بالله خاصة في موقف الاحتضار، وقد سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول:(لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) (2)

ودخل ﷺ على شاب وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟

---

1) رواه أحمد الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وهو ضعيف.
2) رواه أحمد ومسلم.

قال: أرجو الله يـا رسـول اللـه، وإني أخـاف ذنـوبي، فقـال ﷺ:(لا يجتمعان في قلب عبد في مثـل هـذا المـوطن إلا أعطـاه اللـه مـا يرجو وأمنه مما يخاف) (1)

وقد أخبر ﷺ عن تأثير حسن الظن بالله ـ والـذي يعتمـد على معرفة رحمة الله الواسعة ـ سواء في السلوك أو في تـنزل فضـل الله عليه:

فقال عن تأثيره السلوكي:(حسن الظن من حسـن العبـادة) (2)، وقال ﷺ:(إن أفضل العبادات حسن الظن بالله تعـالى، يقـول الله لعباده أنا عند ظنك بي) (3)

وقال عن تأثيره في تنزل فضل الله عليه:(قـال اللـه تعـالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني) (4)، وقـال ﷺ:(قـال الله جل وعلا: أنا عنـد ظن عبـدي بي إن ظن خـيرا فلـه، وإن ظن شرا فله) (5)

وأخبر ﷺ عن تأثير حسن الظن بالله في الآخرة بقولـه:(أمـر الله تعالى بعبد إلى النار فلما وقف على شفيرها التفت فقال: أمـا والله يا رب إن كان ظني بك لحسـنا، فقـال اللـه تعـالى ردوه، أنـا عند ظن عبدي بي) (6)

ويروى في الأثر أن رجلين كانـا من العابـدين متساويـين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يـا رب مـا كـان هـذا في الـدنيا بـأكثر مـني عبـادة فرفعته عليَّ في عليـين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسـألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤله.

وسر هذا أن القانط من رحمة الله يعتقد في الله مـا لا يليـق به مما ينزه عنه، بينما من أحسن ظنه بالله، وإن قصر في سلوكه، فإن ذلك التقصير لم يؤثر في حسن معرفته بربه، ولذلك قال علي لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه:(يـا هـذا يأسـك من رحمة الله أعظم من ذنوبك)

ولهـذا ورد الأمـر بتحـبيب اللـه إلى عبـاده، وذلـك لا يكـون إلا بذكرفضله ورحمته، وقـد أوحي اللـه تعـالى إلى داود عليه السلام:(أحبـني

1) رواه الترمذي، وقال: غريب.
2) رواه أبو داود والحاكم.
3) رواه البغوي.
4) رواه البخاري.
5) رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.
6) رواه البيهقي.

وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي)، فقال:(يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟)، قال:(اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل)

ويروى أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم، فيقول الله تعالى يوم القيامة له:(اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها)

* * *

قد يقال بعد هذا: فإن رجع الأمر إلى استشعار الرحمة المحضة، فما محل ما ذكر في النصوص، وما تحدث عنه العارفون من مقامات الخوف والخشية والحذر، أتلغى كل هذه المقامات، أم يعتقد قصورها وضعفها وانحطاطها؟

فإن قيل بذلك، فإن الله تعالى أخبر عن العارفين من عباده أنهم يخشونه، بل أخبر ﷺ عن نفسه أنه يخشى الله، كما قال ﷺ:(أما والله إني لاتقاكم لله، وأخشاكم له) (1)

والجواب عن ذلك هو أن المؤمن الكامل هو الذي يؤمن بالعزيز الرحيم، فكما أن لله صفات الجمال، فله صفات الجلال، وفرق كبير بين من يعرف العزيز الرحيم، وبين من يعرف الرحيم مجردا من العزة والكبرياء والجلال.

بل إن إدراك المؤمن لعزة الله المقترنة برحمته، أو رحمته المقترنه بعزته يزيد من إدراكه وتلذذه واستشعاره لرحمة الله، لأن رحمة العزيز كمال، ورحمة الذليل الضعيف القاصر ضعف، قد يستحسن لبعض البشر، ولا يستحسن لله.

ولذلك ورد في القرآن الكريم وصف المؤمنين برجاء الرحمة الذي يكبح بمكابح الهيبة والخشية والخشوع، كما قال تعالى: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (الزمر:9)

فهذه الآية الكريمة جمعت بين المعرفتين: معرفة العزة المقتضية للحذر، ومعرفة الرحمة المقتضية للرجاء، وأشارت إلى أن هذا الجمع هو جمع العارفين العالمين من المؤمنين.

وقد جمع بينهما في تعبير الخشية، كما قال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (فاطر: 28) فحصر الخشية في العلماء العارفين بالله.

---

1) رواه مسلم.

والخشية أخص من الخوف، وأدل على المعرفة بالله منه، ولذلك حصرت في العلماء، فهي خوف مقرون بمعرفة، ولهذا قال ﷺ:(أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له) (1)

فالخشية في حقيقتها خوف مقترن برحمة اقتضاه معرفة العزيز الرحيم، ولذلك قال تعالى: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (النساء:9)،ـ فكأن الآية تقول لهم:(كما تخشون على ورثتكم وذريتكم بعدكم، فكذلك فاخشوا على ورثة غيركم ولا تحملوه على تبذير ماله) (2) فالخوف على الأولاد خوف رحمة لا خوف هروب.

ولهذا لم يرد في القرآن الكريم وصف العارفين من المؤمنين إلا بالخشية، كما قال تعالى: إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (طه:3)، وقال تعالى: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (النور:52)، وقال تعالى: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (الأحزاب:39)، وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (الملك:12)، وقال تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (الزمر:23)، وقال تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (الأعلى:10)

بل نرى القرآن الكريم يجمع الخشية مع اسم الرحمن، كما قال تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (قّ:33)،ـ فسماه بالرحمن في حال خشيته ليدل أن الخشية اقتران معرفة العزة بالرحمة.

بينما نرى القرآن الكريم يقصر الخوف على أفعاله تعالى دون ذاته، كما قال تعالى: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (الأنعام: 15)، وقال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس: 15)، وقال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ

---

1) رواه مسلم.
2) قاله ابن عباس.

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس:15)، وقال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (هود:103)، وقال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (الاسراء:57)، وقال تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (قّ:45)، وقال تعالى: وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (الذريات:37)، وقال تعالى: كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (المدثر:53)، وقال تعالى: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (الانسان: 7)، وقال تعالى: إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (الانسان: 10)

فالخوف من هذه جميعا يدعو إلى سلوك السبل المبعدة عنها، بخلاف الخشية التي تدعو إلى الفرار من الله إلى الله، عرفانا بعزة الله ورحمته.

ولهذا عندما تجتمع الخشية والخوف في الآية الواحدة تتعلق الخشية بالله، ويتعلق الخوف بأفعاله، ومن ذلك قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (الرعد:21)، وقال تعالى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (الانبياء:49)

وبالإضافة إلى هذا ورد النص على الخوف من مقام الله، كما قال تعالى: وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (ابراهيم:14)، وقال تعالى: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (النازعات:40)

وهو راجع لمعنى الخوف من أفعاله، لأن المعنى فيها:(خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية)، فـ (مقام) مصدر بمعنى القيام، أو أنه (خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه)، كما قال تعالى: أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (الرعد: 33)

أما المواضع الوحيدة التي ورد فيها التعبير عن الخوف من الله، ففي قوله تعالى عن إبليس: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (الحشر:16) وخوف إبليس يدعوه إلى الهروب من ربه لا إلى الفرار إليه.

وورد مثله في قوله تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (النحل:49 ـ 50)، والآية عامة تشمل المؤمن المستسلم بقلبه وقالبه للّه، والكافر المستسلم للّه كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

وبما أن الخوف مرحلة مؤقتة أو حالة مؤقتة، فإن الملائكة ـ عليهم السلام ـ تخاطب المؤمنين العارفين باللّه لتبشرهم وتزيل عن قلبهم المخاوف، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (فصلت:30)

فالخوف إذن حالة سلبية إذا لم تمزج بمعرفة رحمة الله، بل هو ـ بذلك ـ دليل على الجهل باللّه، وطريق إلى اليأس من اللّه، ومثل هذا لا يمدح بحال من الأحوال.

ولهذا اتفق العارفون على أن الخوف ليس مقصودا لذاته، بل هو مقصود لغيره، قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف فأهل الجنة لا يخافون، كما قال تعالى: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة:112)، وقال تعالى: فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (آل عمران:170)، وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (المائدة:69)، وقال تعالى: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (الأنعام:48)

ولهذا كانت المحبة الناشئة من معرفة جمال اللّه أكمل من الخوف المتعلق بأفعال الله، ولهذا كان الخوف المحمود الصادق هو ما حال بين صاحبه وبين محارم اللّه تعالى، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

وقد قال الغزالي بعد إيراده النصوص الكثيرة المرغبة في الخوف:(اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما) (1)

1) الإحياء.

وقد أجاب على هـذا السـؤال بقولـه:(وقـول القائـل الخـوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهي قول القائل الخـبز أفضـل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشـان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب، فإن كان الجوع أغلب فـالخبز أفضـل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان) (1)

وبعد بيانه لمنفعة الخوف لأكثر الخلق بين أن الأسـاس الـذي يبنى عليه الرجاء أكمل من الأساس الذي يبنى عليه الخوف، قال:(وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء، فالرجاء أفضل لأنـه مسـتقى من بحر الرحمة، ومستقى الخـوف من بحـر الغضـب، ومن لاحـظ من صفات الله تعالى ما يقتضـي اللطـف والرحمـة كـانت المحبـة عليـه أغلب، وليس وراء المحبـة مقـام، وأمـا الخـوف فمسـتنده الالتفـات إلى الصـفات الـتي تقتضـي العنـف، فلا تمازجـه المحبـة ممازجتها للرجاء)

بل إن الرجاء لا يقل عن الخوف في تأثيره السـلوكي، ولهـذا غلب الله تعالى الرجاء عل الخوف في قوله تعالى: وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (لأعراف: 56)

فالرجاء مع ما يبثه في النفس من محبة الله، فإنه يبعث فيهـا دوافع السلوك إليـه، والخـوف من فراقـه، فـإن كـل محب خـائف، ولهذا يقـال:(من رجـا خـاف، ومن خـاف رجـا)، وقـد قـال الإمـام الجليل محمد بن إبراهيم القاسمي في هذا المعنى (2):

عـــذلي عـــابوا رجـــائي	عـــذلي جـــاروا وتـــاهوا
كيـــف لا أرجـــو الـــذي لا	يغفـــر الـــذنب ســـواه
جـاء في القـرآن منصوصا	وكـــــــل قـــــــد رواه
وهـــــو أعلي رتب المجد	بعفـــــو هـــــو مـــــا هو
قصـــــر المـــــدح عليه	فـانظروا ذا المـدح مـا هو
هـــو حـــق أو محـــال	أو صـــحيح أو ســـواه
لا ومن لا يغفـــر الـــذنب	وإن جـــــل ســـــواه

1) الإحياء.
2) إيثار الحق على الخلق: 357.

إنـــه للحـــق صـــدقا وصـــــــــدوق من رواه
وســـــــــعيد من تلقا بصـــــــدق ورجـــــاه
وظلـــــوم من يســـميه مـــــني خـــاب منـــاه
الامـــــــاني رده الحق اجتهـــــادا بهـــــواه
أو يـــــري أهـــــدي من القـــرآن نهجـــا مـــا رآه
ويـــــري الباطـــــل في مفهومـــــه مهمـــــا تلاه
غـــــير أن اللـــــه للعبد بخـــــــــــــوف ابتلاه
لصـــلاح فيـــه لا يغـــني عن الخـــــوف ســـــواه
نحمـد اللـه علي الخـوف فمولانـــــــا قضـــــاه
لـو محـا الخـوف رجـائي لمحـــا الخـــوف قضـــاه
من رجـــا خـــاف من الله ومن خـــــاف رجـــــاه
ولـــذا اختص أولـــو العلم ومن قـــــد اصـــــطفاه
بمزيـــــد الخـــــوف لله مـــــع وعـــــد رضـــــاه
لـو رجـا الكـافر أوخـاف وقـــــــاه وكفـــــــاه
ذا رجـــــائي فيـــــه وإلا رجـــــــــــاء زور لا أراه

* * *

بعد هذه المقـدمات الـتي تـبين لنـا من خلالهـا سـعة الرحمـة الإلهية وشمولها، نحاول أن نطل من نافذة قوله تعـالى: الـرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (طـه:5) على بعض تفاصيل الرحمـة الإلهيـة الشاملة ومظاهرها، فالتفاصيل تعمق الإيمان وتحققـه، وفي نفس الوقت نرد بتوفيق اللـه على بعض الشـبه الـتي قـد تشـوه جمـال الرحمة الإلهية في الذهن المؤمن.

وقد اخترنا من باب القسمة العقليـة حصـر الحـديث في هـذا الباب على رحمة الله في النشأتين: النشأة الأولى والنشأة الآخرة، ونحن نســتغفرالله مســبقا من تقصــيرنا في بيــان رحمــة اللــه الواسعة، فهي من العمق والشمول ما لا يقدر بشـر على الإحاطـة

به، ونستغفره قبل ذلك من أن نـرى رأيـا أو نـذهب مـذهبا يخـالف مراده، فهو اجتهاد المقصر الذي يبحث عن الحق أين كـان، ويرجـع إليه كيف كان.

أولا ـ رحمة النشأة الأولى

النشأة الأولى هي النشأة التي جعلها الله غراسا للنشأة الآخرة، فحياتها مقدمة الحياة لا أصلها، وهي لذلك حياة دنيا قصيرة تختلط فيها جميع الأشياء ليختار كل طبع ما يتلاءم مع طبعه.

هي أشبه بالتعليم الابتدائي الذي تتميز فيه الكفاءات، ومنه تنشأ التخصصات.

أو هي أشبه بمراحل التدريب التي يخوضها الإنسان في فترات حياته ليتمكن من عمل أو ليحترف حرفة.

وهي لذلك تجمع النماذج المختلفة للنشأة الآخرة، التي هي الأصل والمستقر، فتجمع صورة الجنة مع صورة النار، وريح الجنة، مع فيح جهنم، وأهل الجنة مع أهل النار.

في النشأة الدنيا تحتجب القدرة بالحكمة ليقول الغافلون: (لا إله)، وليقول الموقنون الطيبون مستدركين:(إلا الله)

ومع ذلك، فإن هذا النشأة التي اقتضت الحكمة الإلهية المقترنة بالرحمة الإلهية إنشاءها بهذه الصورة هي في حقيقتها دار ضيافة عظيمة، وكل ما فيها رحمة صرفة، ولكن العقول الغافلة قد لا تبصرهذه الرحمة، لأنها كالأطفال لا تريد من الحياة إلا اللعب.

وقد أخبر ﷺ عن شمولية هذه الرحمة في الدنيا بقوله: (إن الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، وجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض وأخر تسعا وتسعين، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة) (1)، فقد أخبر ﷺ أن هذه الرحمة هي طباق ما بين السماء والأرض، ومع ذلك فهي رحمة واحدة.

وأخبر ﷺ أن من مظاهر هذه الرحمة عطف الوالدة على ولدها.

فكل ما نراه إذن من مظاهر الرحمة، حتى الرحمة التي نجدها في قلوبنا وتدمع لها أعيننا وترق لها أفئدتنا هي من رحمة الله لا من رحمة قلوبنا.

---

1) رواه الحاكم.

ومظاهر رحمة الله في هذه النشأة لا نهاية لها ولا حدود تحدها، ولا يمكن إحصاؤها، فكيف نحصي اللانهاية، وكيف نحد اللامحدود؟

ولذلك يخبرنا القرآن الكريم عن مظاهر الرحمة الإلهية الكثيرة لننتقل من التفصيل إلى التحقيق، ومن المظاهر إلى المظهر الظاهر.

ويخبرنا تعالى أن خزائن الرحمة بيده، وأنه لا يتصرف فيها غيره، لنتوجه إليه وحده في طلبها، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾ (الاسراء:100)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ (صّ:9)

ولذلك، فإن مفاتيح كل ما نراه من رحمة هو بيد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (فاطر:2)

ولذلك، فإن العارفين بتفرد الله بالرحمةِ الشالمة الواسعة يتوجهون إليه وحده في طلبها، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر:9)

وأخبر تعالى عن أهل الكهف أنهم قالوا:(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ (الكهف:10)

ولذلك فإن الله تعالى يخبرنا على أن كل ما يحصل في الكون من رحمة هو من إرساله ومن خزائنه:

فرحمة رسول الله ﷺ التي هي أساس علاقته بأمته وبالخلق، والتي هي مقصد رسالته هبة من الله إليه، أو هي مظهر من مظاهر رحمة الله، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:159)

وما أنزل على رسول الله ﷺ من الكتاب رحمة من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾ (القصص:86)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ

رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَـا أَتَـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ (القصص:46)

بل إن نفس إرساله ﷺ رحمة من الله، قـال تعـالى: وَمَـا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (الانبياء:107)

وما أنعم الله به على أيوب عليه السلام من العافية بعد البلاء رحمة إلهية، قال تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِـهِ مِنْ ضُـرٍّ وَآتَيْنَـاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْـرَى لِلْعَابِـدِينَ (الانبيـاء: 84)

وما أنعم الله به على الخضر عليه السلام رحمة إلهية، قال تعـالى: فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (الكهف: 65)

والقـرآن الكـريم ينبهنـا إلى أن مـا نتوهمـه رحمـة منـا قـد نزكي بسببها أنفسنا هو في حقيقته رحمة إلهيـة، ولـذلك نسـب الخضر عليه السلام ما بذله من جهد لحفظ مال اليتيمين رحمة من الله، قـال تعـالى: وَأَمَّا الْجِـدَارُ فَكَـانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَـةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَـا وَكَـانَ أَبُوهُمَـا صَـالِحاً فَـأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَـا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْـرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (الكهف: 82)

ونسب ذو القرنين ما فعله من بناء السد إلى رحمـة اللـه، قال تعالى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَـاءَ وَعْـدُ رَبِّي جَعَلَـهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً (الكهف: 98)

* * *

انطلاقـا من هـذه المعـاني سـنتحدث عن بعض مظـاهر رحمـة اللـه في هـذه النشـأة، وقـد قسـمنا الحـديث فيهـا إلى قسمين:

الرحمـة الخالصـة، وهي الرحمـة الصـرفة الـتي لم تمـزج بشيء من الآلام.

والرحمـة الممزوجـة، وهي الـتي مـزجت ببعض الآلام لمـا تقتضيه الحكمة الإلهية وأسماء الله الحسنى.

1 ـ الرحمة الخالصة:

الرحمـة الخالصـة هي الرحمـة الـتي تهب من ريح الجنـة لترسم نموذجا عن جمالها، فلذلك يراهـا كـل الخلـق ويسـعدون بها ويعيشون فرحين بنشوتها، ولكنهم قـد يغفلـون عن مرسـلها

أو عن الحكمة منها، فتصبح شركا لأرواحهم وقيدا لنفوسهم يجذبهم إلى الخلود إلى الأرض.

وتجليات هذه الرحمة لا حدود لها، فهي تشمل كل الأشياء، (فلو أنعم الانسان النظر في سير الحوادث ابتداءً من أضعف كائن حيّ وأشده عجزاً وانتهاءً بأقوى كائن، لوجد أن كل كائن يأتيه رزقه رغداً من كل مكان، بل يَمنح سبحانه أضعفَهم وأشدّهم عجزاً ألطف الارزاق وأحسنها، ويسعف كل مريض بما يداويه)(1)

فكسوة جميع الأشجار بحلل شبيهة بالسندس الخضر كأنها حور الجنة، وتزيينَها بمرصعات الازهار الجميلة والثمار اللطيفة، وتسخيرَها لخدمتنا بانتاجها ألطف الاثمار المتنوعة وألذها في نهايات اغصانها التي هي أيديها اللطيفة.. وتمكيننا من جني العسل اللذيذ ـ الذي فيه شفاء للناس ــ من حشرة سامة.. وإلباسَنا أجمل ثياب وألينها مما تحوكه حشرة بلا يد.. وادّخار خزينة رحمة عظيمة لنا في بذرة صغيرة جداً.. كل ذلك يرينا بداهةً كرماً في غاية الجمال، ورحمة في غاية اللطف.

وهكذا عناية الامهات بأولادهن الضعاف العاجزين ــ سواء في النبات أو الحيوان أو البشر ـ عناية ملؤها الرأفة والرحمة وتغذيتها بالغذاء اللطيف السائغ من اللبن، تريك عظمة التجليات، وسعة الرحمة المطلقة.

وانطلاقا من قوله تعالى: وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (الذريات:21)نرحل إلى عالم النفس، وما أودع الله فيه من خزائن الرحمة، فعالم النفس هو أول عالم يرحل منه إلى الله.

ونبدأ عالم النفس بعالم الجنين.. ذلك الذي تتجلى فيه الرحمة الخالصة في أصفى تجلياتها.

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل في كتابه (الله والعلم الحديث):(انظر إلى الجنين كيف يتغذى في بطن أمه، وكيف يتنفس، أو كيف يقضي حاجاته، وكيف تنمو أجهزته، أو كيف تعلق في الرحم، وكيف أن الحبل السري الذي يربطه بأمه ليتغذى به منها قد روعي عند تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكّون من أجله دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه، أو قصر يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه.. اذا ما فكرنا في ذلك فلا نملك إلا أن نعترف بقدرة الصانع ولطف الخالق.

1) الكلمة العاشرة، النورسي.

وعندما يبلغ الحمل نهايته تفرز غدد الأنثى إفـرازات كثـيرة متعـددة الأغـراض، فمنهـا مـا يسـاعد على انقباضـات الـرحم وتقلصاته، ومنها ما يسهل عملية انزلاق الجنين، ومنها ما يعمـل على مساعدة المولود في أن يكون نزوله بالوضع الطبيعي.

وباعتبار أن الثدي غدة كذلك، فهو يفـرز في نهايـة الحمـل وبدء الوضـع، سـائلاً أبيض مـائلاً إلى الأصـفر، ومن عجيب صـنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كمياويـة ذائبـة تقي الطفـل من عدوى الأمراض.

وفي اليوم التالي للميلاد يبدأ اللبن في التكّون، ومن تـدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم، حتى يصـل إلى حـوالي لـترين ونصـف لـتر في اليـوم بعـد سنة، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات.

ولا يقف الإعجـاز عنـد كميـة اللبن الـتي تزيـد على حسـب زيادة الطفل، بل إن تراكيب اللبن كـذلك تتغـير نسـب مكوناتـه وتتركز مـواده، فهـو يكـاد يكـون مـاء بـه القليـل من النشـويات والسـكريات في أول الأمـر، ثم تـتركز مكوناتـه فزيـد نسـبته السكرية والدهنية فترة بعد أخرى، بل يوماً بعد يوم بمـا يوافـق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو، وعملية اسـتخلاص اللبن في الثدي عملية عجيبة، تثبت وجود الخالق وتدلل على قدرته.

وجهاز الرضاع الذي نراه بعين الغفلة، فلا نكاد نبصره عالم من عجائب الرحمة الإلهية.

فالثدي أوعية شبكية كبيرة العدد، دقيقة الحجم، تتمـيز عن غيرها من الأوعية الدموية بكثرة مرور الدم فيها كثرة ملحوظة، وهذه الأوعيـة تحيـط بفجـوات متسـعة مبطنـة بالخلايـا، صـانعة اللبن، الذي تستخلصه من الدم المار بالأوعية، ويخرج اللبن من هـذه الفجـوات إلى مسـتودعات يبلـغ عـددها خمسـة عشـر أو عشرين، مكانها تحت دائرة حلمـة الثـدي، وتضـيق قنـوات هـذه المستودعات كلما قربت من سطح الحلمة حتى تصـبح فتحـات ضيقة بهذا العدد، توزع اللبن بها توزيعاً عادلاً، ويكـون بـذلك في حالة ميسرة لرضاعة الطفل.

ويأخذ الرضيع حاجاته من هـذا اللبن الـذي يتغـير من وقت إلى آخـر، وكلمـا زاد تراكـيز مكوناتـه، كلمـا سـبب ذلـك نمـو الأسنان التي تظهر لتهيئة الطفل لأن يتناول الطعام.

والأسنان نفسها تعتبر آية من آيات رحمة الله، فهي تختلف من قواطع في وسط الفم وقرب فتحته لقطع الطعام، إلى أنياب بجانبها للمعونة في تمزيقه، ثم أضراس صغيرة فكية على كل جانب لهرس وطحن الطعام.

وقد حاول العلماء جاهدين عند محاولة صنع الأسنان الصناعية أن يستنبطوا نظاماً آخر أو يغيروا من وضع الأسنان، فاعترفوا بقدرة الخالق، عندما قرروا أن أبدع وأكمل نظام يمكن للأسنان أن تكون عليه هو النظام الطبيعي، فلذلك صنعوا أطقم الأسنان على نسق الأسنان الطبيعية: شكلاً.. وموضعاً.. وترتيباً.

وعندما يحجب الطفل عن الرضاعة ويبدأ في الأكل، تظهر الآيات البينات على قدرة الخالق وعظمته، بما يشاهد من جليل الصنع على تهيئة الإنسان بما يحقق له حفظ حياته، فنجد في فم الإنسان فتحات الأنف الداخلية، وفتحة التنفس في أول القصبة الهوائية وفتحة البلعوم أول القناة الهضمية، ويذكر العلم أن أية ذرة من غبار تضل طريقها وتصل إلى القصبة الهوائية لابد أن تُطرد، وما السعال إلا محاولة لطرد غبار وصل القصبة الهوائية، وأي ذرة من الغبار تقتحم القصبة الهوائية تفضي إلى الموت.. فكيف تدخل أذن البلعة الغذائية إلى فتحة القناة الهضمية ولا تدخل في فتحة القصبة الهوائية برغم تلاصق فتحتيها!؟

وتدفع اللهاة إلى أعلى عند البلع، ويسد لسان المزمار طريق التنفس حتى تدخل البلعة الغذائية، ولم يحدث أن أخطأ لسان المزمار طريق التنفس حتى تدخل البلعة الغذائية، ولم يحدث أن أخطأ لسان المزمار، ذلك الجندي المجهول في نظام المرور الكائن في فتحة الفم اطلاقاً.. فاذا تصورنا كم فماً على وجه الحياة وكم جنديا يحرس تلك الفتحات في كل ثانية بل في كل لمحة، وكم مرة تفتح هذه الفتحات وتقفل لآمنا بأن الله لا يحيط به مكان ولا زمان.

ويتم هضم الغذاء، أي تحويله من مواد صلبة معقدة، إلى أخرى سائلة سهلة الامتصاص بعمليات دقيقة غاية الدقة، تقوم خير دليل على رحمة الله، فكم ما يأكله الإنسان من صلب جامد وسائل ولزج، ومر وحار، وثقيل وخفيف، وحريف ولاذع وساخن وبارد، ولحوم وخضر، وخبز وفاكهة، وزيوت وشحوم،

وبقـول وأبصـال، مطبوخـة أو نيئـة، كلهـا تهضـم بمـواد واحـدة، وطريق واحـد، مـواد اختلفت تراكيبهـا وتبـاينت تراكيزهـا جسـم الإنسان، أدق معمل كيماوي عرف على وجه البسيطة فيــدفعها في طريقها المرسوم لتصـب عليهـا الغـدد افرازاتهـا الحمضـية، وعصاراتها ذات التركـيز المقـدر، الـذي لـو قـل قليلاً لمـا هضـم الطعام، ولو زاد زيادة طفيفة لاحترق الجسم، فسبحان الخــالق العظيم.

وتدخل البلعة الغذائية في الفم، فتبدأ أولى مراحل الهضم، وذلك بخلط الغذاء باللعاب الذي تفرزه ست غدد.. وهذا اللعاب أول مراتب الهضم، لاحتوائه على خمـيرة، ويسـاعد على خفض درجة حرارة الطعام، إن كان ساخنا، وكسر حدة برودته أن كان مثلجـا، كمـا أنـه عامـل أساسـي في معادلـة المـواد الحرفـة، وتخفيف أثر التراكيب اللاذعة وتنزلق بعد ذلـك البلعـة مختلطـة باللعـاب إلى البلعـوم، فـالمريء ثم المعـدة إلي تفـرز حـامض الكلورودريك، ذا التركيز الخاص المعد بعنايـة، فتبلـغ درجتـه من أربعـة من أربعـة إلى خمسـه في الألـف، ولـو زاد التركـيز هـذا الحامض على ذلك زيادة طفيفة، لحـرق أنسـجة المعـدة حرقـاً تاماً، وتتولى بعد ذلك زيادة الافـرازات والعصـارات في مختلـف أجزاء الجهاز الهضمي الذي يبلغ طوله تسعة أمتار.

فهذه العصارات في مختلف أجزاء الجهـاز الهضـمي الـذي يبلغ تسعة أمتار، فهذه عصارة الأمعاء، وتلك إفـرازات الصـفراء والبنكرياس وغيرها وكلها تلائم حالـة الغـذاء الـذي وصـل إليهـا، ولم تعرف إلا من عشرين سنة.

ووظائف الغدد المسامات تلك المعامل الكيماوية الصغيرة التي تمد الجسم بالتراكيب الكيماوية الضرورية، والتي تبلـغ من قوتها، أن جزءا من بليون جزء من بليون جزء منها، تحدث آثـارا خطيرة في الإنسان.

وهي مرتبة بحيث أن إفـراز كـل غـدة يكمـل إفـراز الغـدة الأخرى، وكل ما يعرف عن هذه الافرازات إنها معقدة الــتركيب تعقيداً مدهشاً، وأن أي اختلال في إفرازها يسبب تلفاً عامـا في الجسم، يبلغ حد الخطورة إذا دام هذا الاختلال وقتاً قصيراً.

ومثل ذلك لم يعرف إلا أخيراً أن الغـدد النخاميـة والغـدتين فـوق الكليـتين إنمـا هي مخـازن ذخـيرة تعمـل وتنشـط عنـد الحاجـة.. بينمـا في الأوقـات العاديـة لا تزيـد عن كونهـا أجهـزة

عاطلة.. هذه الغدة وظيفتها الأساسية حفظ التوازن الكيماوي والحيوي في الجسم.. إلا أنه يحاط الإنسان بجو بارد تفرز هذه الغدد افرازات تسبب ضيقاً في الأوعية الدموية مما يرتفع بسببه ضغط الدم.. فيتغلب الجسم على الجو البارد المحيط به.. بالدفء الداخلي الناتج من ارتفاع ضغط الدم.

وفي حالات الجروح الخطيرة.. ينعكس عمل هذه الغدد فتعمل على خفض ضغط الدم.. وسرعة تجلطه لإيقاف نزف الدم.. كما أن هذه الغدد تعمل على تخفيض ضغط الدم عند الانفعالات النفسية وحالات التوتر والقلق...

وما قرره العلم من أن للأمعاء الدقاق، التي يبلغ طولها ستة أمتار ونصف متر، حركتين لا ارادیتن كلها دلائل على رحمة الله.

أما الحركة الأولى، فهي حركة خلط مستمر هدفها مزج الطعام بمختلف عصارات الأمعاء وخمائرها مزجا تاما حتى يكون الهضم عاما.

وأما الحركة الثانية، فهي عرض الطعام المهضوم على أكبر مساحة ممكنة في الأمعاء كي يمس أكبر مسطح فيها فتمتص منه أكبر قدر، ثم يأتي بعد ذلك دور الهضم في الأمعاء الغلاظ التي تفرز آخر أجزاء المواد المهضومة من الفضلات، حتى لا تخرج من الجسم إلا الفضلات والنفايات التي لا فائدة منها للإنسان، كما أنها كذلك تفرز مادة مخاطية تيسر انزلاق هذه الفضلات إلى خارج الجسم.

وفي جسم الإنسان، علاوة على هذه المواد الكيماوية المعقدة والمختلفة الأنواع، ميكروبات وجراثيم وبكتريا، إذا زاد عدد النوع النوع منها عما هو مقدر لها، أو قل عمل تنوع آخر، أو اختلفت لسبب ما نسبة هذه الأحياء بعضها لبعض، لهلك الجسم.

وهذه الأحياء تفرز افرازات، وتقوم بنفسها بتحويل الغذاء العسر إلى يسر، والصعب إلى سهل، والمعقد إلى بسيط والضار إلى نافع، والكيماوي إلى دم.

ولتعرف ماهية هذه الحياء يكفي أن تعلم أن العلماء قد قدروا عدد الموجود منها بالمعدة بحوالي مائة ألف في السنتيمتر المكعب الواحد.

ويذكر المختصون يقول علماء الطب وأساتذة علم الأحيـاء عن جسم الإنسان، انـه يقـوم بأعمـال تثـبيت أنـه خلـق بحكمـة ولحكمة، وانه وجد بتقدير، وتنفي عنه شبة المصادفة في خلقه. ودليلهم على ذلك التحول الذي تقوم به الأجهزة لملاقـات نقص وجد، أو لتكملة ضعف طرأ على أحدها، فقد دلت التجارب التي أجريت، والمشاهدات التي درست،

ومن عجائب الرحمة الإلهية المرتبطة بجسـم الإنسـان مـا أودع فيه من قدرات على ترميم ذاته، فقد وجد العلمـاء أنـه إذا استؤصلت كلية من الجسم مثلاً ترتب على ذلك تضخم الأخرى، لإمكان قيامها بعمل الكيتين، دون أن يكـون للإنسـان دخـل في ذلك، ومثل ذلك إذا بتر نصـف الغـدة الدرقيـة زاد حجم النصـف الثاني، وإذا أصـاب القلب مـرض في صـمامه قلـل من قدرتـه، عمل على أن يزيد سـمك جدرانـه شـيئاً فشـيئاً لتقـوى عضـلاته على دفع الأذى، وكثيرا ما يلاحـظ أن القلب في محاولـة إصـلاح خلله يأخذ حجمه في الكـبر حـتى يصـبح أربعـة أضـعاف مـا هـو عليه.

وفي ذلك يقول الدكتور (رتشارد كابوت)، والدكتور (راسل ركس) في مؤلف لهما:(إن لأعضاء الجسم قوة مدخرة يسـتمد منها عند الحاجة، فالمريض بالسـل الـذي أصـيب في بقعـة من الرئـة ن يجـد في جسـمه أنسـجة من الرئـة تزيـد عن حاجتـه، يستطيع أن يعتمد عليها في مده بأسباب الحياة)

وقد ظل الـدكتور (تـرودو) أربعين عامـاً عاكفـاً على علمـه المتواصل المرهق، وليس له الا جزء من رئة واحدة.

ودلت التجـارب على أن بالجسـم أجـزاء احتياطيـة يمكن الاستغناء عن جـزء منهـا عنـد إصـابتها بمـرض، فقـد يقطـع من أمعـاء الإنسـان مـتر من الأمتـار السـبعة والنصـف الموجـودة بجسمه دون أن يحس بفقـده..كـذلك أمكن بـتر أجـزاء متعـددة في مختلف أجهزة الجسم دون أن يؤثر على حياة الإنسان.

ومن أغرب ما حدث في هذا الشأن ما أعلنه الدكتور آرون سميث في المؤتمر الدولي لعلماء النفس المنعقد في موسـكو أوائل شهر أغسطس 1966 عن رجل أمريكي أزيل نصف مخه بعملية جراحيـة ومـا زال يسـتطيع المشـي والكلام والغنـاء بـل والقيام بمسائل حسابية كما كان قبل الجراحة..

ومن عجائب رحمة الله في جسم الإنسان ما أودع فيه من قدرة على التشكل لملائمة ظروف طارئة، فعندما يشرف الحمل على غايته، تتدفق السوائل من مختلف الأجهزة إلى أنسجة المهبل لتصبح أنسجته رخوة مطاطة، وتساعد بذلك على مرور الجنين، وتجعل نزوله ممكنا.

ومن عجائب رحمة الله في جسم الإنسان جلده.. فالجسم يغلف بستار محكم بديع يحجب الأسرار التي تجري بداخله، وهذا الستار هو الجلد، وهو من أدق وأروع الآيات المحكمات الدالة على جليل صنع الخالق، فالجلد لا ينفذ منه الماء ولا الغازات، رغم مسامه التي تساعد على إخراج الماء من داخل الجسم، فهو يخرج الماء ولا يسمح بدخوله.

والجلد معرض لهجمات المكروبات والجراثيم التي تسبح في الجو، لذلك يسلح بإفرازات قادرة على قتل تلك المكروبات، أما إذا تغلبت الجراثيم واجتازت منطقة الجلد، فهنا تبدأ عملية حربية منظمة يعجز الإنسان عن إدراك عظمتها، حيث تدق الأجراس لتنبه أعضاء الجسم على دخول عدوا لها، وما هذه الأجراس إلا الآلام التي يحسها الإنسان، لتسرع فرقة حراس الحدود، وتضرب حصارا شديدا على عدوها المغير، فإما هزيمة وطردته خارج الجسم، وإما اندحرت وماتت، فتتقدم فرقة أخرى من الصف الثاني،، فالثالث، وهكذا.

وهذه الفرقة هي كريات الدم التي يبلغ عددها حوالي ثلاثين ألف بليون كرة بين بيضاء وحمراء، فإذا رأيت بثرة حمراء وفيها صديد على الجلد فاعلم أن صديدها إن هو إلا فرق ماتت في سبيل واجبها، وأن الاحمرار هو كريات دم في صراع مع عدو غادر.

ومن أهم وظائف الجلد، حفظ الجسم عند درجة ثابتة من الحرارة، إذ أن أعصاب الأوعية الدموية في الجلد تنشطها عندما يشتد حر الجو، كي تشع منه الحرارة، وتفرز غدد العرق ما يزيد على لتر من الماء فتخفض درجة حرارة الجو الملاصق للجلد.

أما إذا اشتد برد الجو فإن الأوعية الدموية تنقبض، فتحتفظ بحرارتها ويقل العرق.. وهذا الجهاز العجيب أعد بعناية وتقدير ليكيف حرارة الجسم فيجعلها على درجة 37 مئوية دوما في خط الاستواء أو في القطب.

وقد قال الدكتور (رتشارد كابوت) في هذا الشأن:(لقد أودع الله في أجسامنا قدرة عظيمة شافية تعين على الصحة، وفطنة لا تنام لها عين، ويحاول الأطباء تقليدها ومعاونتها بالمبضع تارة وبالدواء أخرى، وهذه القدرة البارعة الجبارة لا تفتأ تشد من أزرنا في كفاح العلل والأمراض)

وجلد الإنسان شيء خاص به، فلا يشبه جلد إنسان إنسانا آخر أبدا كما أن الجلد نفسه يتجدد، فالجلد الحالي ليس هو جلد العام الماضي، فإن تجديدات الجلد مستمرة بنمو الخلايا التي في الطبقات التي تكون الجلد فكل 20 طبقة من الخلايا تكون سطح الجلد.

وبالرغم مما وصل إليه العلم من حقائق وغرائب في جسم الإنسان، فهناك أسرار ما زالت تكتشف لتضع الإنسان موضع العجب والحيرة التي لا بعدها إلا التسليم بوجود الله وقدرته وعظمته.

وهكذا جميع أجهزة الجسم.. كلها تصيح بلسان فصيح مخبرة عما أودع الله فيها من رحمته بعباده.

2 ـ الرحمة الممزوجة:

وهي الرحمة التي مزجت بعجين الآلام، أو هب عليها بعض فيح جهنم، وهي رحمة يرسلها الله ليطهر من تدنست روحه، أو يرفع من تثاقل سره، أو يبرز عن حقيقته من تعفنت فطرته.

وهنا يقول الغافل أو الجاحد: فلماذا تمزج هذه الرحمة بما يكدرها، ويحيلها في الأعين آلاما وشرا ينزه الإله عنه؟

والجواب عن ذلك ـ ابتداء ـ هو أن الآلام التي مزجت بهذه الرحمة، والشر الذي خلط بها لا ينسب إلى الله، فليس من الله إلا الخير، وقد قال ﷺ:(لبيك وسعديك، والخير فى يديك، والشر ليس إليك) (1)

ولهذا ينزه الله تعالى في الأسلوب القرآني من نسبة الشر إليه، ومنها قوله تعالى: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (الفاتحة:7)، فإنه تعالى ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل، وبنى الفعل للمفعول، فقال: الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، وقال في الإحسان: الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

1) رواه أحمد ومسلم.

ومنها قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:78 ـ80)، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض نسبه إلى نفسه، ولم يقل:(أمرضني) وقال:﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

ومنه قول الخضر ﷺ في السفينة: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (الكهف:79)، فأضاف العيب إلى نفسه، وقال في الغلامين:﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (الكهف: 82) فأضاف الإرادة إلى الله.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن:﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ (الجن: 10)، فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول.

ومنه قوله تعالى:﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنّ﴾ (البقرة: 187)، فحذف الفاعل وبناه للمفعول، بينما قال في البيع:﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا ﴾ (البقرة: 275)، لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (المائدة: 3)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (الأنعام: 151)

ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى أي اسم يتضمن الشر، وإنما يذكر الشر فى مفعولاته كقوله تعالى:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر:49)، وقال بعدها:﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:50)، ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة:98)

ولذلك نفى المحققون من العلماء صحة تسمية الله تعالى باسم (المنتقم)، فهو ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبى ﷺ، وإنما جاء في القرآن مقيدا، كقوله تعالى:﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (السجدة: 22)، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَـدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيـزٌ ذُو انْتِقَـامٍ (آل عمران: 4)

مزيج الظالمين:

قد يقـال بعـد هـذا: فهـل يفهم من هـذا أن الخـالق لـذلك المزيج المؤلم غير الله، وأن الخالقيـة بـذلك لا ينفـرد بهـا اللـه، فكيف يكون ذلك وقد عرفنا في سر التوحيد أن المتفرد بالخلق والمشيئة هو الله، وأن كل ما يحدث في الكون أفعال الله؟

والجواب عن ذلك: إن الله تعالى هو الرحيم الذي خلق كل شيء، وجعل لكل شيء من الحكم مـا يصـب في بحـر الرحمـة الـتي هي منفعـة محضـة، ولكن هـذه الرحمـة قـد يعترضـها مـا يحيلها إلى ألم، ولا يكون ذلك الاعتراض إلا من نفس الإنسان.

ولنضـرب مثلا على ذلـك بهـذه الأرض الـتي نعيش عليهـا، فإن الله تعالى جعلهـا رحمـة صـرفة، بكـل مـا فيهـا، لكن فعـل الإنسان الذي استغل ما وهب من عقل، وما عرف من قـوانين، جعله يمزج هذه الرحمة بأنواع الكدر والتلوث والآلام، بحيث قـد تتحول بفعله إلى آلام محضة.

ولـذلك قـال تعـالى: ظَهَـرَ الْفَسَـادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ بِمَـا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُـوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (الروم:41)، فقد نسب الله تعالى الفساد إلى كسب الناس.

وأخبر عن الكفـرة أنهم: أَكْثَـرُوا فِيهَـا الْفَسَـادَ (الفجـر: 12)، وأخـبر عن المجـرم الـذي إِذَا تَـوَلَّى سَـعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيهَـا وَيُهْلِـكَ الْحَـرْثَ وَالنَّسْـلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَـادَ (البقرة:205)

ولهذا أخبر تعالى أن كل ما يحصـل في الأرض من مشـاق هو نتيجة حتمية للذنوب، على حسب مـا يقتضـيه العـدل الإلهي والحكمة الإلهية، التي رتبت المشـقة على المعصـية، كمـا رتبت الراحة على الطاعـة، قـال تعـالى: وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَـذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف:96)

وقال تعالى عن أهل الكتاب: وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْكِتَـابِ آمَنُـوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَـيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقَـامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُـوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِـدَةٌ وَكَثِـيرٌ مِنْهُمْ سَـاءَ مَـا يَعْمَلُـونَ (المائـدة:65 ـ 66)، أي لـو أنهم عملـوا بمـا في

الكتب الـتي بأيـديهم عن الأنبيـاء، على مـا هي عليـه من غـير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمـل بمقتضى ما بعث اللّه به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقـة بتصـديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وهو ما أشار إليه سقوط آدم عليه السلام من الجنة، حيث كان يجد كل شيء في غاية الجمال والمتعـة واليسـر، حيث خـوطب من الحق تعـالى: إِنَّ لَـكَ أَلَّا تَجُـوعَ فِيهَـا وَلَا تَعْـرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) (طه)

ولكنـه مباشـرة بعـد شـرب كـأس اللـذة، أصـابه شـؤمها فسـقط عنـه لبـاس الرخـاء ليلبس لبـاس التعب والعنـاء، قـال تعالى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَـا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (طه:121)

وأخـبر تعـالى عن جزائـه للـذين: أَكْثَـرُوا فِيهَـا الْفَسَـادَ (الفجر: 12) بأنه: صَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (الفجر: 13)

وهـذه النصـوص تشـير إشـارة صـريحة إلى الفسـاد الـذي حصل في البر والبحـر والجـو بفعـل معاصـي المدنيـة الحديثـة، الـتي أرادت أن تـوفر الـترف لثلـة قليلـة تمتص أموالهـا على حساب صحة الأرض وجمالها وصلاحيتها للحياة.

وكما كان كسب الإنسان هو السبب فيما حصل للأرض من مصائب، وما حصل لأهلها نتيجة لـذلك من بلاء تخبرنـا النصـوص أن كـل المعاصـي صـغرت أو كـبرت هي الحائـل بين الإنسـان والرحمة الصـرفة، أو هي المـزيج المـؤلم الـذي يكـدر الرحمـة، ويظهرها بمظهر العقوبة والألم.

ولذلك قال تعالى مخبرا عن مقالة الملائكـة المقـربين من حملة العـرش، ومن حوله: وَقِهِمُ السَّـيِّئَاتِ وَمَنْ تَـقِ السَّـيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (غافر:9)

ولهذا كان لكل مخالفـة شـرعية من الآلام مـا يكـدر صـفو الرحمة النازلة مع ذلك الأمر التشريعي، قال تعالى مشـيرا إلى هذا المعنى: وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـوَاءَهُمْ وَاحْـذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُـوكَ عَنْ بَعْضِ مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ إِلَيْـكَ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَـا يُرِيـدُ اللَّهُ أَنْ يُصِـيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُـوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِـيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة:49)

وسر ذلك هو أن التكاليف الشرعية هي نفسها رحمة، فلذلك كان مجرد مخالفتها ألما قد يشعر به الإنسان الحساس في حينه، وقد يغفل عنه إلى أن تتراكم الآلام، فيهتز ميزان الرحمة في نفسه.

فالمعصية بذلك تشبه وضع الإنسان نفسه في مواضع العطب، فإنه في حينها قد يغفل عن جراحه لحرارة ما هو فيه من معصية، فإذا ما انطفأت تلك الحرارة في نفسه عادت الآلام لتشعره بجروحه الكثيرة.

ولذلك فإن المصائب تتوالى بتوالي الكفر، وتنمو بنمو المعصية، قال تعالى: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد: 31)

ولهذا أخبر تعالى أن المؤمنين المستقرين في طاعة الله لا يرون إلا الرحمة الخالصة، والتي قد يتيه عنها بسبب الغفلة الغافلون، ولهذا قال تعالى آمرا المؤمنين بأن يخاطبوا المنافقين قائلين: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (التوبة:52)،

ولكن رحمة الله مع ذلك قد تعفو عن بعض الذنوب، فتمحوها، أو تجعل من ذلك البلاء كفارة لها، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:30)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ (فاطر: 45)

والقرآن الكريم يضرب لنا الأمثلة الكثيرة عن آثار المعاصي المتمكنة من النفوس، لينبهنا إلى أن الشر الذي كانت تنطوي عليه تلك النفوس هو السر الواقف وراء ما حاق بها من عذاب، فلهذا كانت تلك العقوبات ــ والتي هي في حقيقتها نوع من التطهير كما سنرى ـ متناسبة مع جرائمهم:

فالله تعالى قال عن أهل سبأ: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سبأ:16)

ولهذا أمر النبي ﷺ أن يحذر قومه مثل هـذا المصـير، قـال تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْـذَرْتُكُمْ صَـاعِقَةً مِثْـلَ صَـاعِقَةِ عَـادٍ وَثَمُودَ (فصلت:13)

* * *

بل إن النصوص لا تعتبر الشر هو النتيجة الطبيعية الحتميـة للانتكاسة التي تصيب الإنسان بالمعاصي فقط، وإنما تخبر بـأن المعاصي نفسها ـ بتأثيرها الخطير على الفطرة ـ تعتبر أكبر شر وأخطـر ألم يصـيب الإنسـان، فهي مصـيبة في نفسـها، ثم هي مصيبة بما تجره من بعدها من آثار.

ولهذا كان ﷺ يجمع في خطبه بين الاستعاذة من المعاصي وآثارها، قال ﷺ:(الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ باللـه من شرور أنفسنا ومن سـيئات أعمالنـا) (1)، فتضـمن هـذا الحـديث الاسـتعاذة من شـرور النفـوس ومن سـيئات الأعمـال وهى عقوباتها.

ولعله ـ لأجل هذا ـ كان لفظ الحسنة والسـيئة في القـرآن الكريم لفظا مشتركا يـدل على النعم والمصـائب، ويـدل كـذلك على مـا يفعلـه الإنسـان باختيـاره باعتبـاره من الحسـنات أو السيئات.

فالحسنة الناتجـة عن سـلوك الإنسـان هي نفسـها رحمـة، والسيئة مصيبة بفعلها أو نتيجتها:

ومن أمثلة الحسنة والسـيئة السـلوكية قولـه تعـالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَـا وَمَنْ جَـاءَ بِالسَّـيِّئَةِ فَلا يُجْـزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (الأنعام:160)، وقـال تعـالى: مَنْ جَـاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (النمل:89)، وقال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّـيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (القصـص: 84)، وقال تعالى: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُـذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِـكَ ذِكْـرَى لِلذَّاكِرِينَ (هود: 114)، وقال تعالى: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (الفرقان: 70)

ومن أمثلـة الحسـنة والسـيئة القدريـة قولـه تعـالى عن المنـافقين: إِنْ تَمْسَسْـكُمْ حَسَـنَةٌ تَسُـؤْهُمْ وَإِنْ تُصِـبْكُمْ سَـيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا

1) رواه البخاري ومسلم.

يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (آل عمران:120)، وقال تعالى: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (التوبة:50)، وقال تعالى: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (لأعراف: 168)، وقال تعالى: وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (الشورى: 48)،

ومثل ذلك قوله تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى عليه السلام ومن معه: فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (لأعراف:131) ذكر هذا بعد قوله تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (لأعراف:130)

ثم إن السيئة الثانية قد تكون عقوبة للسيئة الأولى، فتجتمع فيها سيئات الجزاء مع سيئات العمل، ومثل ذلك الحسنة قد تلد الجسنة، فيجتمع فيها المعنيان جميعا.

وقد وردت الدلالة على هذا المعنى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم:

ومن ذلك قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (النساء:66)، فقد أخبر تعالى بأن من جزاء طاعتهم للتكليف زيادة التثبيت.

ومنه قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت:69)، فقد أخبر تعالى أن من نتائج المجاهدة الهداية لسبله.

ومنه قوله تعالى: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (الروم:10)، فقد بين أن عاقبة مرتكبي السيئات أن أضافوا إليها التكذيب والاستهزاء.

ومنه قوله تعالى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (المائدة:16)، فقد أخبر عن الحسنات الكثيرة التي يهبها الله برحمته لمن اتبع رضوانه.

ومنه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (الحديد:28)، فقد أخبر تعالى أن من إثابته للمتقين أن يجعل لهم نورا يمشون به.

ومنه قوله تعالى: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (لأعراف:154)، فقد أخبر تعالى أن الهدى الذي في الألواح ينعم به من عمل حسنة الرهبة من الله.

ومثله قوله تعالى: هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (آل عمران:138)، فقد أخبر تعالى أن البيان الإلهي يتعظ به ويهتدي الذين سبق لهم عمل حسنة التقوى.

ومثله قوله تعالى: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (فصلت:44)فقد أخبر تعالى أن الهدى والشفاء لمن سبقت لهم حسنة الإيمان، وأن العمى والوقر لمن سبقت لهم السيئات.

ومنه قوله تعالى: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (يوسف:24)، فقد أخبر تعالى أن سر صرفه عن السوء والفحشاء ما سبق منه من الإخلاص لله.

ومثله قوله تعالى: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (يوسف:22)، فقد أخبر تعالى أن الحكم والعلم جزاء لحسنة الإحسان.

ومنه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (الأحزاب: 70 ــ71) فقد أخبر تعالى أن من جزاء تقوى الله والقول السديد صلاح الأعمال.

ومنه قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (النور:54)، فقد أخبر تعالى أن من جزاء الطاعة الهداية.

والشواهد على هذا المعنى كثيرة في القرآن الكريم، وهي تدل على انسياق الطبيعة الإنسانية إلى ما يفعله صاحبها من أفعال سلوكية.

فالسلوك الإنساني زيادة على أنه المحدد لطبيعة الإنسان، والتي بموجبها يتم ثوابه أو عقابه قد انطوى على رحمة القابلية للتغير.

فالطبيعة الإنسانية المنتكسة في حمأة الرذيلة يمكنها بحسنة واحدة أن تسترجع فطرتها الأصلية، فالحسنة تلد الحسنات، والحسنات هي المطهر الشرعي لما يلحق بالفطرة من أوزار.

لذلك كان سلوك الإنسان في كل الأحوال هو المزيج المؤلم لهذا النوع من الرحمة.

* * *

قد يقال بعد هذا: فإذا كان الأمر راجعا للإنسان، وأنه هو الجاني على نفسه، وأن الأمر كما قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: 79)، فكيف ينسجم هذا، وقد نسب الله تعالى الجميع من الحسنات والسيئات إليه، وذلك في الآية الكريمة السابقة لهذه الآية: ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء: 78)

والجواب عن ذلك: أن القرآن الكريم ــ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ يستحيل فيه التناقض، إنما التناقض في الفهم المحدود الذي لا يستطيع أن يستوعب المعاني المتعلقة بالألوهية، فيقيسها بمعاني البشرية، فكل الأشياء من الله خلقا وتقديرا، وذلك لا يلغي كسب العبد، وتأثيره في حصول النتائج.

وزيادة على هذا، فإن الله تعالى ذكر عن المنافقين والذين في قلوبهم مرض الناكصين عن الجهاد ما ذكره بقوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (النساء: 78)

* * *

قد يقال بعد هذا: نعم، إن أقدار الله لا تتنزل إلا بالخير، فصفات الله تعالى، والتي هي كلها محامد لا يصدر منها إلا

الخير، وإنما كسب الإنسان هو الذي يحول الخير شـرا والعافيـة بلاء والجمال دمامة.

لكن مـا القـول في بعض مـا نـراه شـرا مجـردا، لا وجـه للخيرية فيه، كخلق الشياطين المضـللة، بـل كتقـدير المعاصـي نفسها، فلو أن الله تعالى خلقنـا معصـومين لمـا حـاق بنـا ذلـك العذاب،ولما تنزلت بنا تلك الآلام؟

والجـواب عن ذلـك، هـو أن كـل مـا قـد نتصـوره من شـر مجرد، هو في حقيقته ـ ومن جهة تقدير اللـه لـه ــ خـير عظيم، ولكن سوء تعاملنا معه هو الذي يحول ذلك الخير إلى شــر نتهم به الأقدار.

وقد ذكر النورسي مثلا لذلك بالنار، فإن لهـا فوائـد ومنـافع كثيرة جداً، فلا يـحق لأحد أن يقول: إن ايــجاد النـار شـرّ اذا مـا أساء استعمالـها باختياره وجعلـها شّـراً ووبالاً على نفسه.

قال النورسي معلقا على هذا:(ومن هذا السر يكون خلـق الشر ليس شراً، وانما كسب الشر شر، اذ لا يحق لكسـلان قـد تـأذى من المطـر المتضـمن لمصـالح غزيـرة أن يقـول: المطـر ليس رحمة)(1)

وهكذا الكلام عن المعاصي، فهي ليسـت شـرا ــ من جهـة تقديرها ـ بل قد أخـبر ﷺ أن البشـر لـو لم يخطئـوا لخلـق اللـه بدلهم من يخطئ، ولكن الشر في سوء التعامل معها.

فالمعاصي المقدرة من اللـه رحمـة محضـة، كرحمـة اللـه عباده بخلق النار، ولكن العاصي الـذي يسـيئ التعامـل مـع هـذا التقدير هو الذي يحرق نفسه بها، كالذي يحرق نفسه بالعبث مع النار.

قد يستغرب هذا، أو يعتبر إلحـادا، أو قـد يـرمى قائـل هـذا بالشطح والبدعة، ولكن التأمل في حقيقـة هـذا يـؤدي إلى هـذا المعنى.

وقبل أن نبين هذا نحب أن نذكر مثالين لسوء التعامـل مـع المعصية ولحسن التعامل معها:

أمـا المثـال الأول، فهـو إبليس، فإنـه عصـى اللـه تعـالى، ولعلها أول معصية تحدث في الكون، وقد أخبر إبليس عن تـأثير تقدير الله في حصـول معصـيته، كمـا قـال تعـالى: قَـالَ فَبِمَـا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (لأعـراف:16)، وقـال

1) الكلمة السادسة والعشرون، رسالة القدر، النورسي.

تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:39)،ولم ينكر الله عليه هذا، فالمعصية من تقدير الله تعالى، وهي من هذا الباب رحمة إلهية.

لكن إبليس انشغل بكون المعصية مقدرة عن التعامل معها وفق ما يحبه الله ويرضاه، فلذلك عندما سأله الله تعالى، وهو أعلم به، عن الدافع لمعصيته، فقال تعالى: ﴿ يَا إِبلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر: 32) أجابه بكبرياء: ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: 33)

وكان في إمكان إبليس بعد ما حاقت به اللعنة أن يقول: اغفر لي وتب علي، ولكن ما تنطوي نفسه المتكبرة، والتي أبرز كبرياءها أمره بالسجود لآدم عليه السلام جعلته يطلب شيئا آخر، هو مدد لمعصيته الأولى، جعلته يقول: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء: 62)

فإبليس، أو طبيعة إبليس حولت من المعصية إلى شر محض استحق بسببه تلك الآلام.

وبخلافه آدم عليه السلام، فإن المعصية كانت وسيلة لتبوئه تلك المكانة العظيمة من الله، ففرق كبير بين آدم الذي يسرح بين الجنان، وآدم الذي هبط إلى الأرض متبتلا للرحمن، قد انطوى قلبه على كل المشاعر النبيلة نحو ربه.

فآدم عليه السلام بأكله من الشجرة، وإدراكه حقيقة نفسه الشهوانية أقر بقصوره وكمال ربه: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:37)، فكان ذلك الإقرار هو سبب الرفعة العظيمة التي نالها في جوار الله.

انطلاقا من هذين المثالين، فإن المعاصي، وإن احتوت على مساخط الرب تعالى إلا أن في تقديرها من المحاسن ما يجعلها رحمة محضة سواء من ناحية علاقة الإنسان بنفسه أو علاقته بربه أو علاقته بالمجتمع:

أما من الناحية النفسية،فإنه بالمعاصي يعرف الإنسان نفسه، وأنها الخطاءة الجاهلة، وأن كل ما فيها من علم أو عمل أو خير فمن الله منَّ به عليه لا من نفسه.

فنفس كل إنسان تحمل الاستعداد لكل رذيلة، بل في كل نفس مقالة فرعون: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 24)، ولهذا

فهم العارفون الربانيون الذين فقهوا عن الله، وفهموا عن الله مراده أن فرعون الذي أمر موسى بالذهاب إليه: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (النازعات:17) لا يراد به فرعون مصر فقط، بل هو كل فرعون يزاحم الله ربوبيته، وأولهم فرعون النفس التي أبت التسليم لله، ولذلك جاءت المقدمة القرآنية لقصة فرعون بهذه الآية: نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (القصص:3)، وجاءت الخاتمة بهذه الآية: فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (الزخرف:56)

ولذلك فإن الله تعالى ــ كما ابتلى فرعون بموسى عليه السلام ـ ليبرز عن سريرته، يبتلي عباده بما يبرز ما في سرائرهم من حقائق.

ولتقريب الرحمة المنطوية في هذا المعنى نقول: بأن دور المعاصي في تقويم الإنسان وتهذيبه وتطييبه ليصلح لمعرفة ربه ولدخول جنته هو نفس دور الأعراض التي تصاحب الأمراض من حمى وآلام وغيرها، فإنها وإن كانت مكروهة في نفسها، إلا أن فيها خيرا عظيما، فلولاها لم يتعرف الإنسان على مرضه، ولم يسع للعلاج منه، ولذلك، فإن أخطر الأمراض ما تسرب تسربا خفيا إلى الجسد وصار ينخر فيه إلى أن يستحكم نخره من غير ان يظهر لذلك من الآلام ما يتناسب مع دوره التهديمي.

زيادة على هذا، فإن الانشغال برؤية الطاعة قد يصحبه الإدلال على الله بها، وهو من أكبر الموبقات، بخلاف المعية التي يصحبها الانكسار، ولهذا ورد في الحديث الشريف:(لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب)(1)، وفي الأثر الإلهي:(لولا أن الذنب خير لعبدي المؤمن من العجب ما خليت بين عبدي المؤمن وبين الذنب)، وقد قال بعض الصالحين: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه، إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله وبادر إلى محوها وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار.

1) رواه الخرائطي في مساوي الاخلاق، والحاكم في تاريخه وأبو نعيم والديلمي.

زيادة على هذا، فإن حسن التعامل مع المعصية يزيد في مناعته منها ويدفعه إلى المزيد من التيقظ والحذر من مصايد العدو ومكايده، ويعرفه من أين يدخل عليه، وبماذا يحذر منه، كالطبيب الذى ذاق المرض والدواء.

* * *

قد يقال بعد هذا: فما الرحمة التي أتنعم بها وأنا مبتلى بشيطان يضع خرطومه على صدري لا يكف عن بث الوساوس في قلبي؟

وكيف أتنعم وشياطين الإنس والجن تترصد لي؟

والجواب عن ارتباط هذا بسر العدل ذكرناه في محله من الفصل الثاني، وقد ذكرنا في الفصل الثالث أن خلق الأضداد وترتيب آثارها عليها هو ما تقتضيه حكمة الله تعالى وأسماؤه الحسنى، وأن الكمال في هذا الترتيب.

أما ارتباط هذا المعنى بالرحمة، فإن سمو الإنسان وكماله وتدرجه في معارج الرحلة إلى الله مربتط بمجاهدته هذه الشياطين، فلذلك ــ كما يقول النورسي ــ (لا يسيغ لمن استسلم للشيطان - باختياره وكسبه الخاطىء - أن يقول: ان خلق الشيطان شرٌ، اذ قد عمل الشر لنفسه بكسبه الذاتي) (1)

فالشيطان ليس له من دور إلا الكشف عن الخبايا الآثمة للنفس، ولذلك يبرأ يوم القيامة من أن يكون له أي سلطان على سلوك الإنسان، بل إن سلوك الإنسان كان نابعا من طبيعته واختياره، قال تعالى: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (ابراهيم:22)

والشياطين في هذا تشبه تلك المحاليل الكاشفة التي توضع على مواد معينة للتعرف على مكوناتها، فإن انفعال تلك المواد هو الذي يحدد طبيعتها، أما المحاليل، فليس لها من دور إلا الكشف عن تلك المواد.

ولهذا أخبر تعالى الشيطان بأنه ليس له من سلطان على عباده المخلصين، قال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

1) اللمعة الثالثة عشر، النورسي.

سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر:42)، بل استثنى الشيطان نفسه هؤلاء بقوله: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (الحجر:40)

وذلك لأن عباد الله المخلصين، هم الذين تخلصوا من كل الشوائب التي تتفاعل معها وساوس الشيطان، فلذلك لا يصدر منهم إلا الخير.

ومثل تسليط الشياطين تسليط الدواعي التي تمتطيها الشياطين للاستيلاء على قلب الإنسان من الشهوة والغضب ودواعيهما، وإرسال رياح الفتن لاختبار طبيعة الإنسان، فإن كل ذلك ـ بالتأمل الصادق ـ رحمة إلهية عظمى.

فإنه لولا هذا لفات الإنسان من الفضائل ما هو أضعاف الآلام الممزوجة بهذه الدواعي، فلولاها لم تحصل فضيلة الصبر ولا جهاد النفس ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله وإيثاراً لمرضاته وطلباً للزلفى لديه والقرب منه.

بل لولاها ما تحقق سير السائرين إلى الله، كما يقول ابن عطاء الله:(لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)

فالسير إلى الله إنما هو قطع عقبات النفس، إذ لا مسافة حسية بين الله وعبده، ولا مقاطعة توجب البعد المعنوي بين الله وعبده حتى تمحوها وصلته، وليس ثم حجاب غير حجاب النفس.

فلذلك كان من رحمة الله خلق هذه النفس بهذه الصورة ليتحقق من قطع عقباتها التعرف على الله والوصول إليه.

***

قد يقال: فلماذا لا نكون بهيئة أخرى ومع ذلك ينعم علينا ـ من غير مجاهدة ـ بهذه المعرفة وذلك الوصول؟

والجواب عن ذلك أن الأمر لو لم يكن بهذه الصفة، لما كانت النشأة الإنسانية إنسانية، بل كانت ملكية، ولما كان الإنسان حينها إنسانا بل كان ملاكا.

قد يقال: فلماذا لم أكن ملاكا؟

والجواب عن ذلك ما ذكرنا في باب الحكمة من أن الله تعالى ينوع الدلائل على قدرته، وعلى مشيئته، وأن هذا من مقتضيات الربوبية ومن مقتضيات اسمائه الحسنى.

وهذه الحكمة تنطوي على رحمة عظيمة للإنسان، فالنشأة الإنسانية في منتهى السمو والرفعة، بل إن الإنسان فهرس العالم الأكبر، وجامع تفاصيله(1).

يقول ابن عطاء الله في بيان رحمة الله في خلق النشأة الإنسانية بهذه الصورة:(جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ؛ ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوناته)

أي أن الله أنعم على الإنسان بأن جعله عالماً متوسطاً بين ملكه، وهو عالم الشهادة، وملكوته وهو عالم الغيب، ولم يجعله ملكياً محضاً ولا ملكوتياً محضاً، بل جعل فيه من كلا العالمين ليعلمه جلالة قدره بين مخلوقاته، حيث جمعت بين الظاهر والباطن، وبين الجسمانيات والروحانيات، فانطوى فيه العالم الأكبر.

ولهذا السر سخر الله للإنسان جميع مخلوقاته لنفعه، كما قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الجاثية: 13)،وفي الأثر الإلهي:(يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له)

مزيج الصالحين:

قد يقال بعد هذا: نعم، إن كسب الإنسان هو الذي يحول الخير شرا والعافية بلاء، والجمال دمامة، ولكن ما القول في أولئك الصالحين العارفين الذين يتربعون على عروش الولاية، والذين يمتلئ كيانهم بجميع الأنوار، ولا يعرج منهم إلى ربهم إلا

---

1) ذكر العلماء بعض مظاهر انطواء العوالم في الإنسان،ومنها:
أن فيه من صفات الملائكة العقل والمعرفة والعبادة.
ومن صفات الشيطان الإغواء والتمرد والطغيان.
ومن صفات الحيوانات أنه في حالة الغضب يكون أسداً، وفي حالة غلبة الشهوة يكون خنزيراً لا يبالي أين يلقي نفسه، في حالة الحرص على الدنيا والشره يكون كلباً، وفي حالة الاحتيال والخداع يكون ذئباً.
ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون في مبدئه غصناً طرياً مترعرعاً وفي آخره يابساً أسود.
ومن صفات السماء أنه محل الأسرار والأنوار ومجمع الملائكة.
ومن صفات الأرض أنه محل لبنات الأخلاق والطباع، ومنه اللين والخشن.
ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلي.
ومن صفات اللوح أنه خزانة العلوم.
ومن صفات الجنة إنه إذا حسنت أخلاقه تنعم به جليسه.
ومن صفات النار أنه إذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه.

الحسنات المتلألئة العظيمة، فكيف يجازون بالبلاء الذي تنهد لـه الجبال؟

أو لم يقـل رسـول اللـه ﷺ:(أشـد النـاس بلاء الأنبيـاء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل) (1)؟

والجواب عن ذلـك من وجـوه عديـدة، نكتفي منهـا بأربعـة أجوبة(2):

الجواب الأول:

أولها أن الصالحين يعطيهم الله من القـوة والإيمـان بحيث يواجهـون البلاء بالابتسـامة العذبـة، ويرونـه هـدايا جزيلـة من محبوبهم تعالى الذي فنوا بمحبته عن كل ألم، وقد أخبر السري السقطي عن القدرة العجيبة التي يتحملها من انشغل بالله، لما سـأله الجنيـد: هـل يجـد المحب ألم البلاء؟ قـال: لا، قـال: وإن ضرب بالسـيف قـال: نعم وإن ضـرب بالسـيف سـبعين ضـربة، ضربة على ضربة.

وبين يحيـى بن معاذ الرازي الحال الذي دعا إلى هذا الفناء عن البلاء مستعملا أقيسة الفقهاء بقوله: (إذا نظـر أهـل الجنـة إلى الله تعـالى ذهبت عيـونهم في قلـوبهم من لـذة النظـر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلـوب وقعت بـين جماله وجلاله؟ إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جمالـه تاهت)

ومثـل الغـزالي سـبب بطلان إحسـاس المحـبين بـالآلام، بالرجل المحـارب فإنـه في حـال غضـبه أو في حـال خوفـه قـد تصيبه الجراح، وهو لا يحس بألم ذلك لشـغل قلبـه، (بـل الـذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم بـه، فـإن كـان مشـغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشـعر بـه) (3)

ثم بين علة هذه الحالـة وقانونهـا الـذي لا يختص بـالمحبين لله، فقال:(وكـل ذلـك لأنّ القلب إذا صـار مسـتغرقاً بـأمر من الأمـور مسـتوفى بـه لم يـدرك مـا عـداه، فكـذلك العاشـق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قـد يصـيبه مـا كـان يتألم به أو يغتمّ له لولا عشـقه، ثم لا يـدرك غمـه وألمـه لفـرط

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) انظر في تفاصيل هذا رسالة (ابتسامة الأنين)
3) الإحياء.

استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه؟)[1]

فإذا كان الحب والعشق من أعظم الشواغل، وكان ذلك في ألم يسير بسبب حب خفيف، فكيف يكون الأمر لو تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم.

وقد بين بشر بن الحارث في موعظة بليغة كيف يتمكن المحب من قهر كل ألوان البلاء، فقال يحكي عن نفسه: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: ولم سكت؟ قال:(لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليَّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتاً.

ولذلك يعتبر الربانيون المنشغل بذاته عن ربه، أو الذين يعبدون الله على حرف، فلم يعبروا من عبادته إلى معرفته، ولم يخرجوا من أنفسهم إليه قاصرين محاطين بأنواع الشوائب، وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال له: يا حبيب أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة.

ومراده ـ كما يشرح الغزالي ـ أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت في طبقات أصحاب اليمين، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح.

وعلى نهج هؤلاء الصالحين، قال الإمام بديع الزمان النورسي:(المؤمن يعتقد بما يقول لذا يجد في كل شئ باباً ينفتح الى خزائن الرحمة الإلهية، فيطرقه بالدعاء، ويرى أن كل شئ مسخَّر لأمر ربه، فيلتجىء اليه بالتضرع. ويتحصَّن أمام كل مصيبة مستنداً الى التوكل، فيمنحه ايمانه هذا الامان التام والاطمئنان الكامل) [2]

فلذلك (لو أصبحت الكرة الارضية قنبلة مُدمِّرة وانفجرت، فلربما لا تخيف عابداً لله ذا قلب منوَّر، بل قد ينظر اليها أنها

---

1) الإحياء.
2) الكلمة الثالثة.

خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاها باعجاب ومتعة، بينما الفاسق ذو القلب الميت ولو كان فيلسوفاً ـ ممن يُعدّ ذا عقل راجح ـ اذا رأى في الفضاء نجماً مذنباً يعتوره الخوف ويرتعش هلعاً ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟ فيتردى في وادي الاوهام)

ولذلك، فإن الصالحين المنورين بنور العبودية لا يخافون من الأقدار، بل يستقبلونها كما يستقبل المحب هدايا محبوبها، ولا يثقلهم الهم بما يأتي لعلمهم بأن الله هو الذي يحمل ذلك الهم عنهم، قال النورسي مصورا تصور المؤمن لقدر الله:(كما ان القدر لا يورث ضيقاً، فانه يمنح خفة بلا نهاية وراحة بلا غاية وسروراً ونوراً يحقق الأمن والامان والروح والريحان؛ لأن الانسان إن لم يؤمن بالقدر يضطر لأن يحمل ثقلاً بقدر الدنيا على كاهل روحه الضعيف ضمن دائرة ضيقة وحرية جزئية وتحرر مؤقت، لأن الانسان له علاقات مع الكائنات قاطبة، وله مقاصد ومطالب لا تنتهيان الاّ ان قدرته وارادته وحريته لا تكفي لإيفاء واحدٍ من مليون من تلك المطالب والمقاصد، ومن هنا يفهم مدى ما يقاسيه الانسان من ثقل معنوي في عدم الايمان بالقدر، وكم هو مخيف وموحش.

بينما الايمان بالقدر يحمل الانسان على أن يضع جميع تلك الاثقال في سفينة القدر، مما يمنحه راحة تامة، اذ ينفتح امام الروح والقلب ميدان تجوال واسع، فيسيران في طريق كمالاتهما بحرية تامة. بيد أن هذا الايمان يسلب من النفس الامارة بالسوء حريتها الجزئية ويكسر فرعونيتها ويحطم ربوبيتها ويحدّ من حركاتها السائبة)

وضرب مثالا على لذة الإيمان بالقدر، برجلين يسافران معاً الى عاصمة سلطان عظيم، ويدخلان الى قصر السلطان العامر بالعجائب والغرائب، أحدهما لا يعرف السلطان ويريد ان يسكن في القصر خلسة ويمضي حياته بغصب الاموال، فيعمل في حديقة القصر. ولكن ادارة تلك الحديقة وتدبيرها وتنظيم وارداتها وتشغيل مكائنها واعطاء ارزاق حيواناتها الغريبة وامثالها من امورها المرهقة دفعته الى الاضطراب الدائم والقلق المستمر، حتى اصبحت تلك الحديقة الزاهية الشبيهة بالجنة جحيماً لا يطاق. اذ يتألم لكل شئ يعجز عن ادارته،

فيقضي وقته بالآهات والحسرات. واخيراً يُلقى به في السجن عقاباً وتأديباً له لسوء تصرفه وادبه.

أما الشخص الثاني فانه يعرف السلطان، ويعدّ نفسه ضيفاً عليه، ويعتقد ان جميع الاعمال في القصر والحديقة تدار بسهولة تامة.. بنظام وقانون وعلى وفق برنامج ومخطط، فيلقى الصعوبات والتكاليف الى قانون السلطان، مستفيداً بانشراح تام وصفاء كامل من متع تلك الحديقة الزاهرة كالجنة، ويرى كل شئ جميلاً حقاً، استناداً الى عطف السلطان ورحمته، واعتماداً على جمال قوانينه الادارية.. فيقضي حياته في لذة كاملة وسعادة تامة (1).

الجواب الثاني:

ونوضحه بهذا المثال الذي ضربه الشبلي في حالة من أحواله الوجدانية، فقد دخل عليه جماعة في مارستان قد حبس فيه، وقد جمع بين يديه حجارة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال: ما بالكم ادعيتم محبتي إن صدقتم فاصبروا على بلائي.

وهذا المعنى هو عينه ما يدل عليه قوله تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (العنكبوت:2)، فقد أخبر تعالى أن من مقتضيات ادعاء الإيمان الابتلاء حتى يعلم الصادق من الكاذب، ومن يؤثر الله، ومن يؤثر هواه.

ولذلك أخبر تعالى عن الكثير من البلاء الذي أصاب المؤمنين، كما قال تعالى في غزوة الأحزاب: إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (الأحزاب:10 ـ 11)

بل أخبر أن هذا الابتلاء المزلزل الذي محص به الصحابة هو سنة الله تعالى مع الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم، كما حكى الله تعالى عن النماذج الكثيرة من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وما حصل لهم مع أقوامهم، كما قال تعالى على لسان فرعون مخاطباً السحرة الذين اتبعوا موسى عليه السلام: آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (طـه:71)

---

1) الكلمة السادسة والعشرون.

وهذا البلاء قد يكون من الأقوام لأنبيائهم والدعاة المكلفين بتبليغهم، كما حكى الله تعالى عن فعل فرعون بالسحرة.

وقد يكون من الله تعالى، للتمحيص، ولبيان رفعة الدرجة، وأن الابتلاء لا يتنافى مع النبوة، وذلك مثل ما حصل لأيوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الانبياء:83)، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (صّ:41)

فإن أيوب عليه السلام استقبل كل أنواع البلاء بصدر رحب لم يتزعزع قيد أنملة عن محبة ربه وإيثاره، بل إنه في ثنايا ذلك البلاء كان مستغرقا في رحمة الله، فلذلك قال في دعائه: ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، وكان متأدبا مع ربه، فلم ينسب البلاء إليه، بل قال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ وقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

وقد جمع الله كلا النوعين من البلاء لإبراهيم عليه السلام، فإنه من جهة قومه أوذي إيذاء عظيما، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ (العنكبوت: 24)، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الانبياء:68)، بل إنه أوذي من أقرب الناس إليه حيث قال له: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم: 46)

ومع هذا البلاء العظيم الذي واجهه به قومه، وأقرب الناس إليه، أمره الله تعالى بذبح ابنه الوحيد، والذي لم يرزقه إلا بعد أن بلغ من الكبر عتيا، ولكنه لم يتلكأ، ولم يتردد، بل سارع ليخبر ابنه بذلك، وكان البلاء موجها لكليهما، ولنستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي عن هذه الرحمة التي صبت في قالب هذا الابتلاء، قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات:101 ـ 102)

لكن الله تعالى برحمته كما نجى إبراهيم عليه السلام من الحرق بالنار، فجعلها بردا وسلاما، نجاه كذلك من هذا البلاء الذي لم يكن مقصده العذاب، وإنما مقصده الرحمة ورفعة الدرجة، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء

الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ (الصافات:105 ـ110)

فالله تعالى أخبر في هذه الآيات عن الجزاء العظيم الذي ناله إبراهيم عليه السلام على نجاحه في ذلك البلاء، وهو لا يقتصر على الذبح العظيم فقط، بل تعداه إلى سلام الله عليه،وإلى ترك أثره في الآخرين بالثناء الحسن والذكرالجميل.

وأول الثناء عليه ثناء الله الذي بين وفاءه عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (نجم:37)،، وقال تعالى:﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:124)

وهكذا يجازي الله الصالحين الذين صبروا لبلائه ووفوا له، أما من لا ينجح في أقل من هذا البلاء ويبيع الله بأي شهوة تعرض له أو شوكة تعترض طريقه، فإن الله تعالى يتخلى عنه ويتركه لنفسه جزاء وفاقا.

وقد أخبر الله تعالى عن هذا الصنف في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:11)، فهذا الخاسر لا يعبد الله في الحقيقة وإنما يعبد أهواءه التي قد تتفق أحيانا مع ما يأمر به الله، فيتوهم الخلق أنه يعبد الله، فلذلك يبتلى بما يظهر حقيقته،ويكشف عن سريرته.

وقد أخبر الله تعالى عن مواقف هذا الصنف مع الخلق بقوله:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت:10)

ولذلك كان من سنة الله في هذه الدار الكشف عن المعادن النفيسة وتمييزها عن المعادن الخسيسة بما يصبه من انواع البلاء، قال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:214)، وقال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:142)، وقال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ

اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (التوبة:16)

الجواب الثالث:

وعبر عنه بعضهم عندما سئل:(أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟)، فقال: (لا يمكن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكنهم)

فالله تعالى ـ بحكمته المطلقة ــ يربي عباده الصالحين الذين جعلهم وسائط للهداية والرحمة بينه وبين خلقه بأنواع البلاء المتناسب مع نوع الرسالة التي يكلفون بها.

ومثل ذلك مثل من يريد تعلم صناعة معينة، فإنه يحتاج إلى التدريب الذي يتناسب مع تلك الصناعة، فإن نجح فيه أهل ومكن من صناعته، وإن لم ينجح طرد وأبعد عنها.

وقد ضرب الله تعالى الأمثلة القرآنية الكثيرة على ذلك، ولعل أوضحها ما حكاه عن نبيين كريمين هما يوسف وموسى ـ عليهما السلام ـ فإن الله تعالى دربهما بصنوف البلاء ليتمكنا من أداء الوظيفة التي كلفا بها.

الجواب الرابع:

هو أن العارفين الذين يعتبرون أفعال الله تعالى فيهم وفي غيرهم رسائل رحمة ومودة لا يفهمون من تلك الأنات والبلايا إلا أنها حروف من الله تشهدهم وجود فاقتهم، وتشعرهم بحقيقتهم، لتشغلهم بالله عن أنفسهم، قال ابن عطاء الله: (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلى وجود ذِلتك)، ولهذا يقال:(أوقات الفاقات أعياد المريدين)

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن عطاء الله في الحكمة الأخرى بقوله:(فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)

أي أنه إذا علم العبد أن العدم سابق على وجوده، وأن وجوده مفتقر إلى المدد في كل وقت، وإلا تلاشى وانعدم، علم أن فاقته ذاتية وأن الاضطرار لازم لوجوده، وأن ورود العلل المختلفة من الفقر والمرض مذكرات له بما خفي عليك من الفاقة الذاتية، فإن غالب الناس يغفلون عن الفاقة الذاتية إذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم.

ولهذا قيل: إن السبب الذي حمل فرعون على قولـه: ﴿أَنَـا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:24) طول العافيـة والغـنى، فإنـه لبث أربعمائة سـنة لم يتصـدع رأسـه، ولم يضـرب عليـه عـرق، ولـو أخذته الشقيقة ساعة واحدة لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

وأخبر ﷺ أن الرجل يكون له عند اللـه المنزلـة فمـا يبلغهـا بعمل فما يـزال يبتليـه بمـا يكـره حـتى يبلغـه إياها، وبـأن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن صبر فلـه الصبر ومن جزع فله الجزع، وأن من يـرد اللـه بـه خـيرا يصـب منه(1).

ولكن هذا لا يعني ترفع الولي على ربه، أوعـدم رفـع يديـه إليـه بالسـؤال، أو عـدم الالتجـاء إلى عـالم الحكمـة الربانيـة، ومداواة العلل بماوضعه الخالق الحكيم من علاج، فلامنافاة بين الانشغال بالله وممارسة الأسباب، ودفع الأقدار بالأقدار.

ولهـذا قص القـرآن الكـريم علينـا نمـوذج الراضـي باللـه، المنشغل به أيوب عليه السلام، وهو ينادي ربه:﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَـادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّـنِيَ الضُّـرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الـرَّاحِمِينَ﴾ (الانبيـاء:83) وهـو أدب رفيع في الدعاء، اقتصر فيه أيوب عليه السلام على ذكر ضـعفه، وكمـال ربه، فعالج ضره برحمة ربه.

مزيج الأبرياء

قد يقال بعد هـذا: نعم إن المـزيج الـذي مـزجت بـه هـذه الآلام هو نتيجة حتمية لأفعال المكلفين، أو لها علاقـة بتهـذيبهم، أو لها علاقـة برفـع درجـاتهم وتقـريبهم من ربهم وتعـريفهم بـه، لكن ما القول في الآلام المحضة التي يعـاني مرارتهـا الـذين لم يمنحهم الرحيم تعالى قابلية التكليف، فلا علاقة للآلام بتهـذيبهم، لعدم تلطخهم، ولا علاقة له بأعمالهم لعدم تكليفهم؟

وللجواب عن ذلك نقول:

إن هذه المسألة من أخطر المسائل التي تـاه فيهـا العقـل البشري، إلى أن جر بعضهم إلى الإلحاد بسببها، ولـذلك لا بـأس أن نورد بعض هذا التيه لنبين قيمة النور الذي يستفيده المـؤمن من وحي الله العاصم من تلك الأوحال، وذلك التيه.

أما الملحدون، فأعموا قلوبهم القاسية عن الاهتمام بـذلك، بل قالوا: إن كل ذلك من تصرف الطبيعة وفعلهـا، وليس لـذلك فاعل مختار مدبر بمشيئته وقدرته.

---

1) ذكرنا تخريج هذه الأحاديث ونصوصها في الفصل الأول من هذه الرسالة.

وذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح الفـاجرة الظالمـة تـودع فى الحيوانـات الـتى تناسـبها، فينالهـا من ألم الضـرب والعذاب بحسبها، فلذلك كانت مستحقة لما يصيبها من آلام.

وذهب آخرون إلى إسناد الشر والخير إلى إلهين مسـتقلين كل منهمـا يـذهب بخلقـه، وذكـروا أن هـذه الآلام والشـرور من الإله الشرير المظلم فلا تضاف إلى الإله الخير العادل ولا تدخل تحت قدرته.

وذهب آخرون إلى أن البهائم مكلفة مـأْمورة منهيـة مثابـة معاقبة، وأن فى كل أمة منهـا رسـول ونـبى منهـا، وهـذه الآلام والعقوبات الدنيوية جزاءٌ على مخالفتها لرسولها ونبيها.

وذهب آخرون إلى أن البهائم والأطفال لا تتألم أبدا(1).

وكل هذه أقوال جر إليها العقل المجرد الذي لم يستند إلى الوحي، ولا إلى ما تقتضيه المعرفة بالله من حقائق.

ونحن نقر بـادئ ذي بـدء أن كشـف سـر الرحمـة في هـذا يتطلب الإيمـان بجميـع الحقـائق، وأولهـا مـا ذكرنـاه في سـر الحكمة من أنه (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملـك ولـه الحمد وهو على كل شيء قدير)

فمن فهم هذه الكلمة خق الفهم ورعاها حق الرعاية أدرك بعين البصيرة أن ما نراه من آلام قد نتصورها آلاما مجـردة هي في حقيقتها رحمة صورت بتلك الصورة.

ولـو أن الأمـر كـان خلاف ذلـك لكـان العـالم على خلاف الصورة التي هو عليها.

ولذلك نكتفي هنا بجوابين:

الجواب الأول:

الإحالة إلى الله تعالى في علم تفاصيل الرحمـة المنطويـة في ظل هذه الآلام، فإن الله تعالى أخبرنـا بـأن رحمتـه وسـعت كل شيء، وأن المزيج المؤلم الـذي يختلـط برحمتـه هـو مـزيج يرتبط بالكسب، لا بالرحمة والمقادير.

---

1) وهذا المذهب له وجوه من الحقيقة تـدل عليـه، فالأطفـال والبهـائم لا تـدرك الآلام حسبما يدركها العقلاءُ، فإن العاقل إذا أدرك تألم جوارحه وأحس به تألم قلبه وطال حزنه وكثر هم روحـه وغمهـا، وهـذه الآلام زائـدة على مجـرد ألم الطبيعـة، ولا ريب أن البهـائم والأطفال لا تحصل لها تلك الآلام كما يحصـل للعاقـل المميـز، فـإن أراد القـوم هـذا فهم مصيبون، وإن أرادوا أنه لا شعور لها بالآلام البتة وأنها لا تحس بها فمكابرة ظـاهرة، فـإن الواحد منا يعلم باضطرار أنه كان يتألم فى طفولته بمس النار له وبالضـرب وغـير ذلـك. انظر: طريق الهجرتين: 249.

فلذلك، إذا جهلنا سرا ما نلجئه إلى هذه المعرفة التي برهنت عليها كل الدلائل.

ولنضرب مثالا مقربا لذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الانبياء: 30)، فإن هذه الآية كانت تتناقض مع بعض التصورات الخاطئة من أن حياة بعض الحيوانات قد تستغني عن الماء، لكن معارف الإنسان المتطورة أثبتت شمولية هذه الحقيقة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذريات:49)، فقد كانت النظرة البدائية تتصور الزوجية منحصرة في أجناس معينة، لكن العلم الحديث أثبت الكثير من مظاهر الزوجية في الأشياء مما يجعل منها معنى شاملا.

وهكذا، وبنفس الأسلوب قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (لأعراف: 156)، وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ (غافر: 7)، فلذلك إن رأينا قصورا في إدراك شمولية هذا المعنى، فالمتهم هو عقولنا، لا سعة رحمة الله.

الجواب الثاني:

ونرجع فيه إلى اسم الله (الشكور) وقد ذكرنا في الفصل السابق أن هذا الاسم مفتاح لمعرفة الكثير من حقائق الكون.

فالله تعالى برحمته قد يستسخر من خلقه من يقوم بوظيفة معينة إظهارا لحكمة من حكمه أو لمقتضى من مقتضيات أسمائه الحسنى، فإذا قام ذلك المستسخر بتلك الوظيفة جازاه عليها أضعاف أضعاف الآلام التي تحملها.

فلذلك كان من حكمة الله التي اقتضاها وجود الكون بهذه الصورة أن توجد الآلام التي قد نتوهمها آلاما محضة، ولكنها في حقيقتها تنطوي على رحمة خفية إما في ذات وجودها، أو بما يترتب عليها.

فلذلك من حكمة الله أن يستسخر هؤلاء لتحمل بعض الآلام اللحظية ليستوفوا بعد ذلك أجورا تتناسب مع شكر الله وجوده.

ولو أنا نرى أن الله تعالى يخفف عنهم الآلام إلى درجة قد لا يحسون بها، وإلى ذلك الإشارة بما أخبر عنه ﷺ من أن

(الشـهيد لا مس القتـل إلا كمـا يجـد أحـدكم مس القرصـة يقرصها) (1)

وقد يقال هنا: فإذا كان اللـه قـادراً على التفضـل بـالعوض وبأضعافه بدون توسط الألم فأى حاجة إلى توسطه؟ وهل يصح لأحدنا أن يؤلم غيره ثم يعوضه عن آلامه؟

والجواب عن ذلك: إن الله تعالى مع مشيئته المطلقة التي لا يحـدها شـيء، ولا يحجـر عليهـا حـاجر أخبرنـا ــ من خلال النصوص الكثيرة ــ على أن حكمتـه تـأبى وضـع شـيء في غـير موضعه، لذلك ورد أنه ـ بالنسـبة للمكلفين ــ يـوزع البلاء عليهم بحسب ما يصلحهم، كما ورد في الأثـر الإلهي:(وإن من عبـادي المؤمنين لمن سألني من العبادة فأكفه عنـه ولـو أعطيتـه إيـاه لدخلـه العجب وأفسـده ذلـك وإن من عبـادي المؤمـنين لمن لا يصـلحه إلا الغـنى ولـو أفقرتـه لأفسـده ذلـك وإن من عبـادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيتـه لأفسـده ذلـك وإن من عبـادي المؤمـنين لمن لا يصـلحه إلا الصـحة ولـو أسـقمته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا السـقم ولو أصححته لأفسده ذلك وإني أدبر لعبادي بعلمي بقلـوبهم إني عليم خبير) (2)

ولذلك ـ نؤمن انطلاقا من ذلك ــ إيمانـا جازمـا أن الرحمـة في ذلك البلاء بغض النظر عن نوع الرحمة في ذلك.

وقد أجاب بعض من يسمى بالقدرية على هذا جوابا حسنا، فقال: إن الله تعالى لا يُمرض ولا يُؤلِم إلا من يعلم من حاله أنه لو أطلعه على الأعواض التى تصل إليـه لرضـى بـالألم ولـرغب فيه لوفور الأعواض وعظمها.

وانطلاقا من هذا فرق بين إيلام البشر وإيلام الله، فإن من قطع يد غيره أو رجلـه ليعوضـه عنهـا لم يحسـن ذلـك منـه، لأن العوض يصل إليه وهو مقطوع اليـد والرجـل، وليس من العقلاءِ من يختار ملك الدنيا مع ذلك، والله يوصل الأعواض فى الآخـرة إلى الأحياء وهم أكمل شيءٍ خلقاً وأتمه أعضـاءً، فلـذلك افـترق الشاهد والغائب في هذا.

أما إذا فرض أن الأذى تحقق مع سلامة الأعضاءِ،وكان فيـه مصلحة ورضـى المضـروب بـذلك وعظمت الأعـواض عنـه فهـو

---

1) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان.

2) رواه ابن ابى الدنيا في كتاب الاولياء والحكيم وابن مردوديه وأبو نعيم في الاسـماء وابن عساكر.

حسن فى العقل لا محالة، لأن العوض يخرج الألم عن كونه ظلماً، لأنه نفع موقوف على مضرة الألم، وباعتبار كونه لطفاً فى الدين يخرج عن كونه عبثاً.

بل إن الواقع يدل على هذا، فإنه يحسن فى المشاهد إيلام أنفسنا وإتعابها فى طلب العلوم والأرباح التى لا نصل إليها إلا على جنس من التعب والمشقة.

وبناء على هذا ذكر بأن هذا الوجه هو الذى حسن لأجله إيلام الأطفال فإنه إيلام لنفع، فإن أبدان الأطفال لا تستقيم إلا على الأسباب الجالبة للآلام، وكذلك نفوسهم إنما تكمل بذلك.

وهذه أجوبة حسنة، والخطأ الذي ينكر عليهم ليس فيها، وإنما في إلزام هؤلاء الله تعالى بذلك، فهو تعالى: لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (الانبياء:23)، أو اعتقادهم الظلم في خلافها، وااللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس: 44)

ويروون من محاجة المخالفين لهم في بعض هذا أن أبا الحسن الأشعرى ناظر أبا على الجبائى عن ثلاثة إخوة لأب وأم مات أحدهم صغيراً، وبلغ الآخر فاختار الإسلام، وبلغ الآخر فاختار الكفر، فاجتمعوا عند رب العالمين، فرفع درجة البالغ المسلم فقال أخوه الصغير:(يا رب، ارفع درجتى حتى أبلغ منزلة أخى، فقال: إنك لا تستحق، إن أخاك بلغ فعمل أعمالاً استحق بها تلك الدرجة)، فقال:(يا رب، فهلا أحييتنى حتى أبلغ فأعمال عمله)، فقال: كانت تلك لمصلحة تقتضى اخترامك قبل البلوغ، لأنى علمت أنك لو بلغت لاخترت الكفر، فكانت المصلحة فى قبضك صغيراً، قال: فصاح الثالث بين أطباق النار وقال: يا رب، لم لم تمتنى صغيراً؟ فما جواب هذا أيها الشيخ؟ فلم يرد إليه جواباً(1).

***

قد يقال هنا: نعم، إن هذا أمر يحتاج إلى معرفة وجه الرحمة والعدل فيه.

---

1) نرى أن الجواب لمثل هذا الإشكال هو أن الله تعالى برحمته أعطى كل شخص من الرحمة ما يتناسب معه، فلذلك لا يطلب غيرها، كما أن الصبي لو عوض بلعبته قناطير الذهب والفضة لم يقبل.

وبناء على هذا، فإن هذه المسألة تقف في بدايتها، لأن سؤال الصبي مستحيل.. وما دام مستحيلا.. فلن تكون المسألة بهذه الصفة.

يضاف إلى هذا ما ذكرناه من قبل في مسألة امتحان غير المكلفين.. فالعدل الإلهي يقتضي أن لا يدخل الجنة إلا الطيبون.

والجـواب عن ذلـك مـا ذكرنـا في الفصـل الثـاني من أن عدالـة اللـه المطلقـة تقتضـي أن لا يـدخل الجنـة إلا الطيبـون، سواء بفطرتهم الأصلية التي لم تتدنس، أو بمقاومتهم للتأثيرات المفسدة للفطرة.

فلذلك إن مات الصغير من غير تدنس فطرته دخـل الجنـة برحمة الله المحضة، وكان حاله كحال الذين خلقهم اللـه للجنـة من غـير معانـاة للتكـاليف، أمـا درجتـه فيهـا فتختلـف بحسـب فطرته، وقد أخبر تعـالى أنهم يلحقـون بآبـائهم المؤمـنين كرمـا منـه ورحمـة، كمـا قـال تعـالى: وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ كُـلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (الطور:21)

أمـا إن تدنسـت فطرتـه في صـغره، فإنـه يتعـرض من الامتحان إلى ما يعيد لفطرته أصـالتها، ثم يـدخل الجنـة برحمـة الله.

أما الكافر، فلا يحق له أن يسـأل ذلـك السـؤال، لأنـه كـان معرضا لنفس الرحمة التي تعرض لها أخوه الصغير الذي حافظ على فطرته بصغره، أو أخـوه الكبـير الـذي أضـاف إلى فطرتـه الأصلية ما استأهل به الدرجات العليا.

ومع ذلك، فإن اللـه يرحمـه بـذلك العـذاب ليخلص فطرتـه من الدنس الذي علق به، وسنعرف هذا في محلـه من (رحمـة النشأة الثانية)

ثم إن هذا السؤال نفسه مستحيل، لأن الله تعالى برحمتـه يجعل لكل واحد من أهل الجنة رضى بما هو فيه، فلا يطمع في نصيب غيره، بل لا يرغب فيه، وإلى هـذا الإشـارة بقولـه ﷺ عن عتقـاء اللـه الـذين أدخلهم الجنـة بغـير عمـل عملـوه ولا خـير قدموه:(فيقولون: ربنا! أعطيتنا ما لم تعط أحـدا من العـالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يـا ربنـا! أي شـيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدا) (1)

بل يدل الواقع على هذا، فإن الصـبي الصـغير لـو خـير بين لعبه والمناصب الرفيعة أو الأموال الضخمة لاختار لعبه.

ولهـذا أخـبر ﷺ عن رجلا من أهـل الجنـة اسـتأذن ربـه في الزرع، فقال له: ألسـت فيمـا شـئت؟ قـال: بلى ولكن أحب أن أزرع، فبذر فبادر الطـرف نباتـه واسـتواءه واستحصـاده، فكـان

1) رواه البخاري ومسلم.

مثل أمثال الجبال؛ فيقول الله: دونك يا ابن آدم! فإنه لا يشبعك شيء(1).

وهـو يـدل على أن رغبـات أهـل الجنـة هي الـتي تحـدد درجاتهم، وهو من تمام رحمة الله بهم.

1) رواه البخاري.

ثانيا ـ رحمة النشأة الآخرة

جعل الله تعالى بحكمته ومقتضيات أسمائه الحسنى هذه الدار الدنيا محلا لاجتماع الطيب مع الخبيث، والصالح مع الفاسد، والمؤمن مع الكافر ليقيم الحجة على خلقه، ولتظهر أسرار رحمته عليهم.

ففي الدنيا يجتمع الرسل مع الفراعنة، والأولياء مع الأشقياء، والطاهرون مع المتننجسين، والطيبون مع الخبثاء.

وفي الدنيا تتحاور الجواهر الكريمة مع الحجارة الخسيسة، والجداول الرقراقة مع المستنقعات الآسنة، والصفاء مع الكدر، والسلامة مع العطب.

وفي الدنيا تلتقي المتناقضات، ليختار هذا الإنسان من بينها ما يتناسب مع طبيعته.

أما في الآخرة، فإن ما تميز في الدنيا تميزا معنويا يتميز هناك تميزا حسيا، فهي في ذلك تشبه مغناطيسا ضخما وضع على معادن متباينة ليميز كل معدن منها عن غيره.

ولهذا ورد في القرآن الكريم الكثير من النصوص الدالة على هذا التميز، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ (الروم:14)، وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (الروم:43) أي يصيرون صدعين أي فرقتين.

ولهذا يقال في ذلك اليوم للمجرمين الذين يطمعون أن يجالسوا المؤمنين: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يّس: 59)، ويقال لهم: ﴿ مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ (يونس: 28)

وعندما يطمع المنافقون أن يقتبسوا من أنوار المؤمنين يقال لهم: ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحديد: 13)

وإلى هذا التميز الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (التكوير:7)، وبقوله تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (الصافات: 22)، وبقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ (الفرقان:13)

فقد ورد في تفسير هذه الآيات أن المـراد منـه الجمـع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف(1)، وقــد ورد في الحديث قوله ﷺ في تفسير الآية:(يقرن كل رجل مع كـل قـوم كانوا يعملون كعمله)

وقال ابن عباس :(ذلـك حين يكـون النـاس أزواجـا ثلاثـة، السابقون زوج - يعني صـنفا - وأصـحاب اليمين زوج، وأصـحاب الشمال زوج)

وعنه أيضا:(قرن كل شكل بشـكله من أهـل الجنـة وأهـل النار، فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثلـه، وأهل المعصية إلى مثله)

وقال ابن مسعود :(لو أن رجلاً قـام بــين الـركن والمقـام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب)

وقد بينت النصوص علة هذا التفريق بقوله تعـالى:﴿ لِيَمِـيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـــلَ الْخَبِيثَ بَعْضَـــهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (لأنفال: 37)

فالبشـر في ذلـك مثـل الشـوائب الـتي تختلـط بالمعـادن النفيسـة، فإنهـا بعـد عرضـها على كـير الامتحـان يمـيز الـذهب، فيوضع في أعناق الحسان، ويرمى بالشوائب إلى القمامات.

لكن..

هل يمكن أن نعـرف أصـناف الخلـق في الآخـرة، في تلـك النشأة المتميزة.

في الــدنيا، نعــرف أصــناف الســلالات، وأنــواع الألــوان، وأجناس القوميات، والأحـزاب والمـذاهب والأديـان الـتي يتمـيز الناس على أساسها.

أما في الآخرة، فالتمايز شـديد، ولكنـه يرجـع إلى مقيـاس واحد هو صورة الروح الـتي تشـكلت في الـدنيا، ونـوع المعـدن الذي تمخضـت عنـه الأنـا، يقـول الغـزالي: (النـاس في الآخـرة ينقسـمون أصـنافاً وتتفـاوت درجـاتهم ودركـاتهم في السـعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصـر كمـا تفـاوتوا في سـعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخـرة في هـذا المعـنى أصـلاً البتـة،

1) انظر هذه النصوص في: الدر المنثور:8/429.

فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك لـه. وسـنته الصـادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها) (2)

وقد أشار إلى هذا التمايز الشديد قوله تعالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْبَـرُ تَفْضِـيلاً ﴾ (الاسراء:21) أي ولتفاوتهم في الدار الآخـرة أكـبر من تفـاوتهم الدنيا، فـإن منهم من يكـون في الـدركات في جهنم وسلاسـلها وأغلالهـــا، ومنهم من يكـــون في الـــدرجات العلى ونعيمهـــا وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاتون فيما هم فيـه، كمـا أن أهـل الدرجات يتفاوتون.

وقد بين تعالى الأصناف العامة للخلق، فقسـمها إلى ثلاثـة أقسام، تختلف رحمة كل واحـد منهم بحسـبها، وهـذه الأصـناف عبرت عنها كثير من سور من القـرآن الكـريم نـذكر ثلاثـة منهـا هنا، وهي الواقعة، والإنسان والمطففين:

أمـا في سـورة الواقعـة، فقـد ذكـر اللـه تعـالى أن الخلـق يقسـمون إلى ثلاثـة أصـناف عـبر عنهـا بقولـه تعـالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَـةً فأَصْـحَابُ الْمَيْمَنَـةِ مَـا أَصْـحَابُ الْمَيْمَنَـةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْـأَمَةِ مَـا أَصْـحَابُ الْمَشْـأَمَةِ وَالسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّاتِ النَّعِيم ﴾ (الواقعة: 7- 12)

ثم عبر عن الجـزاء الخـاص المعـد لكـل صـنف، ثم ختمت بذكر حالهم في القيامة الصـغرى والـبرزخ بقولـه تعـالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْـحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِن كَـانَ مِن الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ فنُـزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْـلِيةُ جَحِيمٍ ﴾ (الواقعـة: 88- 94)

أمـا سـورة الإنسـان، فقـال تعـالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَـدْنَا لِلْكَـافِرِينَ سَلاسِـلَ وَأَغْلالاً وَسَـعِيراً ﴾ (الإنسـان: 4) فهـؤلاء هم أصـحاب المشأمة، ثم قال تعالى بعدها: ﴿ إِنَّ الأَبْـرَارَ يَشْـرَبُون مِن كَـأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ (الإنسان: 5)، وهؤلاء هم أصـحاب اليمين، ثم قال تعالى بعدها: ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفْجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ (الإنسان:6)، وهؤلاء هم المقربون السـابقون، ولهـذا خصـهم بالإضافة إليه وأخبر أنهم يشربون بتلك العين خالصة بينما تمزج للأبرار مزجاً كما قـال تعـالى فى سـورة المطففين فى شـراب

2) الإحياء.

الأبـرار: وَمِزَاجُـهُ مِن تَسْـنِيمٍ عَيْنـاً يَشْـرَبُ بِهَـا الْمُقَرَّبُـونَ (المطففين:27-28)

أما في سورة المطففين، فقال تعالى عن الفجار: كَلا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَـابٌ مَرْقُـومٌ إلى قوله تعـالى: كَلا إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُـونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَـالُوا الجَحِيمِ ثُمَّ يُقَـالُ هَـذَا الَّذِى كُنتُمْ بِـهِ تُكَـذِّبُونَ (المطففين: 7- 17)

ثم تحدثت الآيـات القرآنيـة عن الأبـرار الـذين هم أصحاب اليمين، فقال تعالى: كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عليين وَمَا أَدرَاك مَا عِلِّيُّونَ (المطففين: 18- 19)

ثم ذكر تعالى النعيم المعد لهم، فقال تعالى: يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْـكٌ وَفِى ذَلِـكَ فَلْيَتَنَـافَسِ الْمُتَنَافِسُـونَ (المطففين: 25- 26)، ثم قال تعالى: وَمِزَاجُهُ مِن تَسنيمٍ عَيْناً يَشْـرَبُ بِهَـا الْمُقَرَّبُـونَ (المطففين: 27-ـ 28) والتسـنيم هـو أعلى أشربه الجنة، فـأخبر تعـالى أن مـزاج شـراب الأبـرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال تعـالى بعدها: عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبون (المطففين: 28)، كما قـال تعالى فى سورة الإنسان سواءً، قال ابن عباس وغيره: يشـرب بها المقربون صرفاً، ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً.

وقـد شـبه الغـزالي هـذه التقسـيمات بملـك من الملـوك اسـتولى على إقليم فيقتـل بعضـهم فهم الهـالكون، ويعـذب بعضـهم مـدّة ولا يقتلهم فهم المعـذبون، ويخلي بعضـهم فهم الناجون، ويخلـع على بعضـهم فهم الفـائزون، فـإن كـان الملـك عـادلاً لم يقسـمهم كـذلك إلا باسـتحقاق، فلا يقتـل إلا جاحـداً لاستحقاق الملك معانداً لـه في أصـل الدولـة، ولا يعـذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلـوّ درجتـه، ولا يخلى إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصـر ليعـذب ولم يخـدم ليخلـع عليه، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصـرة، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إمـا تحقيقـاً بحـزّ الرقبـة أو تنكيلاً بالمثلة بحسب درجـاتهم في المعانـدة، وتعـذيب المعذبـين في الخفة والشدّة وطول المدّة وقصـرها واتحـاد أنواعهـا واختلافهـا بحسب درجات تقصيرهم، فتقسم كل رتبة من هذه الـرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر.

ثم عقب على هذا المثال بقوله:(فكذلك فافهم أنّ النـاس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالـك، ومن معـذب مـدّة، ومن ناج يحل في دار السلامة، ومن فائز)(1)

* * *

بعد هذا..

نتساءل عن قوله تعـالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (لأعـراف: 156)، وقولـه تعـالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام: 54) فنقول:

هل تشمل هذه الرحمة العظيمة هذه الأصناف جميعا؟

وكيف تشملهم؟

وكيف تنسجم الرحمة مع العدل والحكمة؟

هذا ما سنحاول معرفته في هذا المبحث.

1 ـ رحمة المقربين :

المقربون هم أصحاب القلوب الطاهرة النقية الذين لم يريدوا من الأكوان غير رب الأكوان.

هم كالمرآة الصقيلة، أو كصفحة الماء الصافي، أو كالجوهر اللامع ليس لها رغبة في غير أن يشرق على صفحاتها الجمال الخالد.

وكما أن أحوال هؤلاء المقربين مع ربهم محجوبة عن أكثر الخلق، فلا يرون فيهم إلا بشرا مثلهم يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق، شغلتهم مظاهر البشرية عن أحوال الخصوصية، فكذلك ما أخبرت عنه النصوص من الجزاء المعد لهم والرحمة الخاصة بهم.

ولذلك لما سأل موسى عليه السلام ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة أجابه، لكن عندما سأله عن أعلاهم منزلة قال:(أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر) (2)

ولهذا عندما ذكر الله هؤلاء المقربين العارفين بربهم الساجدين بكل كيانهم له، فقال:﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) ﴾ (السجدة) ذكر بعدها ما أعد لهم

---

1) الإحياء.

2) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

من النعيم، فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)﴾ (السجدة)

وفي الحديث القدسي الجليـل قـال ﷺ:(قـال اللّـه تعـالى أعددت لعبادي الصـالحين مـا لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلب بشر) قال أبو هريـرة :(اقـرأوا إن شـئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُـــرَّةِ أَعْيُنٍ جَـــزَاء بِمَـــا كَـــانُوا يَعْمَلُونَ ﴾) (1)

وقال ﷺ:(من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابـه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر) (2)

بل ورد في النصوص ما يدل على أن أهل الجنة أنفسهم لا يعرفون الرحمات الخاصة بهـؤلاء المقـربين، قـال ﷺ:(إن أهـل الجنة ليتراؤن أهل الغرف من فوقهم كما تراؤن الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم) (3)

* * *

قد يقال هنا: فما سر هذا الإخفاء؟

أو ليست رغبات الخلق واحدة، فكيف تتفنن النصـوص في عرض ما أعد للمقتصدين، والمقصـرين، بينمـا لا تـذكر من نعيم المقربين إلا النزر اليسير، والـذي هـو في أكـثره مجمـل يحتـاج إلى تفصيل، أو غامض يحتاج إلى بيان؟

والجـواب ــ فيمـا نـرى ــ أن الجـزاء المعـد لهم لا يمكن تصـوره أو التعبـير عنـه أو فهمـه في حـال القـدرة على التعبـير عنه.

والأمــر في ذلــك يشــبه تعليم الأمــيين أعقــد النظريــات الرياضية، أو إقناعهم بأخطر المسائل الفلسفية.

ولذلك كـان أكـثر مـا ورد من جـزائهم ــ إن اسـتثنينا بعض الجزاء الحسي ـ ألغازا تعيا العقـول في تحديـد معانيهـا، فلـذلك لما قال ﷺ:(صلوا علي فإن الصلاة علي زكاة لكم واسألوا الله تعـالى لي الوسـيلة) (4) احتـار الصـحابة في هـذا اللفـظ الـذي يعرفــون معنــاه ولكنهم لا يعرفــون حقيقتــه، فقــالوا:(ومــا

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه الطبراني بإسناد حسن الترمذي رجاله.
3) رواه البخاري ومسلم.
4) رواه الترمذي.

الوسيلة؟)، فقال ﷺ:(هي أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو) (5)

وهذا التعريف بالوسيلة منه ﷺ بين قيمتها، ولكنه لم يبين حقيقتها لعدم إطاقة العقول تحمل معناها.

ومن جهة ثانية فإن للمقربين الذين هم عصارة عصارة البشر، وخلاصة خلاصة الخير من المقامات والأحوال ما يجعل من كل واحد منهم عالما خاصا، فتكون له رحمته الخاصة به، والتي تنسجم مع حقيقته وطبيعته.

ولهذا لا يستغرب أن يخص رسول الله ﷺ من بين الخلق جميعا بالمقام المحمود، قال تعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (الاسراء: 79)

وهو مقام تتيه العقول والأرواح في معرفة كنهه.

فهو مقام منسجم مع رسول الله ﷺ فكل شيء فيه ﷺ ينطق بالحمد، فاسمه محمد وأحمد، وهو محمود عند الله ومحمود عند ملائكته ومحمود عند إخوانه من المرسلين، وأمته الحمادون يحمدون الله على السراء والضراء، وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، وبيده لواء الحمد يوم القيامة، وعندما يسجد بين يدي ربه تعالى للشفاعة ويؤذن له فيها يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ.

وحتى نبين قيمة هذا المقام المتجلية في بعض مظاهره نذكر أن مشهدا واحدا من مشاهد ذلك المقام يطوق أعناق الخلائق جميعا بالشعور بالمنة نحو رسول الله ﷺ.

ففي ذلك الموقف الذي يغضب الله فيه غضبا لم يغضب قبله ولا بعده مثله، وفي ذلك الوقت الذي ينشغل فيه الأنبياء بغضب الله عن سائر صفاته يقوم رسول الله ﷺ العارف بربه الحامد له فيشفع للخلائق جميعا بعد آلاف من سنين الانتظار.

ولو أردنا أن نعرف قيمة هذا الموقف مقارنة بما نعيشه نقول: إن كل ما مر به البشر من أحداث لا يساوي لحظة واحدة من ذلك الموقف.

ونعود إلى ما كنا فيه فنقول: بأن هذا المقام المحمود يتناسب تناسبا تاما مع طبيعة رسول الله ﷺ، فلذلك كان من رحمة الله له أن يهبه هذا المقام.

---

5) رواه الترمذي وابن مردويه.

فطبيعة رسول الله ﷺ كما أخبر القرآن الكريم، وكما أخبرت حوادث السيرة، وكما عرفه العارفون عين من عيون رحمة الله على عباده، بل هو رحمةكبرى من رحمات الله، بل هو شمس الرحمة التي تفيئ إلى دفئها جميع الخلائق.

ولهذا ورد في القرآن الكريم الإخبار بأن الرحمة هي علة إرسالة، كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (الانبياء:107) بل إن الله تعالى سماه باسمين من أسماء رحمته، فقال تعالى: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (التوبة: 128)

وفي هذه الآية تصريح عظيم بما كانت عليه طبيعة رسول الله ﷺ من حب للخير والرحمة على كل الخلائق، ولهذا قال ﷺ:(إن اللّه لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب) (1)

وبناء على هذا كانت الرحمة الخاصة برسول الله ﷺ مرتبطة بهذه الطبيعة، فكان المقام المحمود الذي هو جزء من أجزاء فضل الله عليه متناسبا تماما مع رحمته وحرصه.

وهكذا يقال في الكوثر، فرسول الله ﷺ لا يصيبه الظمأ الذي يصيب الخلائق، وهم في ذلك الموقف الشديد، وكيف يصيبه وهو رسول الله ﷺ، ولكن طبيعته التي خلقه الله عليها جعلته يأبى أن يروي في الوقت الذي يعطش فيه المؤمنون، فكان الكوثر جزاءا متوافقا تماما مع هذه الطبيعة.

عن أنَس بن مالك قال:(بينا رسول اللّه ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع مبتسماً قلنا: ما أضحكك يا رسول اللّه؟ قال: لقد أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: بسم اللّه الرحمن الرحيم إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: اللّه ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك) (2)

---

1) رواه أحمد والطبراني في الكبير.
2) رواه مسلم وأبو داود.

ففي هذا الحديث إشارة صريحة إلى علة تخصيص رسول الله ﷺ بهذه الرحمة الخاصة.

***

قد يقال هنا: فإن قلبي يتقطع رحمة على الخلائق، بل إن من الصالحين من تمنى أن يدخل النار بدل الخلائق، فكيف تكون هذه المقامات خاصة برسول الله ﷺ؟

والجواب عن هذا: إن الفرق عظيم بين الدعوى والواقع، وبين ما يستشعره الإنسان من معان، وبين عرضه على كير الامتحان.

ونحن لا ننكر الدعوى ولا الشعور بها، ولا فضل من نطق بها، ولكن نقول: إن تلك المواقف الشديدة التي لا يمكن تصورها، والتي لا تستمر ساعات وأياما، بل قرونا طويلة ممتدة تظهر الطبيعة الحقيقية التي تتشكل منها الروح.

ولتصور هذا نرى كيف تتخبط الخلائق في البحث عن المخلص الذي يخلصها من تلك الأهوال آلاف السنين، فلا تجد إلا من يعتذر لهول الموقف.

بل نرى أن ما أخبر عنه ﷺ من رجوع الخلق إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ هو مرحلة أخيرة سبقتها مراحل طويلة من البحث المضني عن السبيل للخلاص.

فلذلك لم تكمل الرحمة لأحد إلا لواحد، فاستحق ذلك المقام المحمود.

عن ابن عمر قال:(إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يبعثه اللّه مقاماً محموداً)، وفي رواية:(إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه اللّه مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم) (1)

ومثل ما ذكرنا من الرحمات الخاصة برسول الله ﷺ الرحمات الخاصة بغيره من المقربين، فلكل منهم من الرحمة ما يتناسب مع طبيعته التي نم عنها سلوكه في الدنيا.

---

1) رواه البخاري وابن جرير وابن مردويه.

ولا بأس أن نذكر بعض ما أعد لهؤلاء من الجـزاء في ذلـك الموقف الشديد الذي تفزع فيه الخلائق ويبهتون.

فقد أخبر ﷺ أنه عندما تغشى الظلمات أرض الموقف، فلا يكاد أحد يرى أحدا تلمع من بعيد منابر مختلفة مكونة من مــواد مختلفة على كل منها من لا يتناسب معه إلا ذلك المقام:

فعلى بعضها المتحابون في الله، كما قال ﷺ:(ليبعثن اللــه أقوامـا يـوم القيامــة، في وجـوههم النـور، على منـابر اللؤلـؤ، يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء، هم المتحـابون في اللـه من قبائل شتى، وبلاد شتى، يجتمعون على ذكـر اللـه يذكرونـه) (1)، وقـال ﷺ:(إن للـه تعـالى عبـادا ليسـوا بأنبيـاء ولا شـهداء، يغبطهم النــبيون والشــهداء بقــربهم ومقعــدهم من اللــه يــوم القيامة، عباد من عباد الله من بلدان شتى وقبائل من شــعوب، أرحــام القبائــل لم يكن بينهم أرحــام، يتواصــلون بهــا، ولا دنيــا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل اللــه في وجـوههم نـورا، يجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن تعالى، يفـزع النـاس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون) (2)

وعلى بعضها الذين يحببـون عبـاد اللــه إلى اللــه، ويحببـون الله إلى عبـاده، قـال ﷺ:(ألا أخـبركم بـأقوام ليسـوا بأنبيـاء ولا شهداء؟ يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله على منابر من نور يرفعون الـذين يحببـون عبـاد اللــه إلى اللــه، ويحببـون اللــه إلى عبـاده، ويمشـون في الأرض نصـحاء، قيـل: كيف يحببون عباد الله إلى الله؟ قال: يـأمرونهم بمـا يحب اللــه وينهونهم عما يكرهه الله، فإذا أطاعوهم أحبهم الله) (3)

وعلى بعضـها المقسـطون، كمـا قـال ﷺ:(إن المقسـطين عند الله يوم القيامة على منابر من نـور عن يمين الـرحمن عـز وجل وكلتـا يديـه يمين، الـذين يعـدلون في حكمهم وأهلهم ومـا ولوا) (4)

وعلى بعضها الذين أكرمـوا الفقـراء والمسـاكين، قـال ﷺ: (يصيح صائح يوم القيامة أين الذين أكرموا الفقراء والمسـاكين ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، ويصيح صائح يـوم القيامة أين الذين عادوا مرضى الفقراء والمسـاكين في الـدنيا،

---

1) رواه الطبراني في الكبير.
2) رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي.
3) رواه البيهقي وأبو سعيد النقاش في معجمه وابن النجار.
4) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

فيجلسون على منابر من نـور يحـدثون اللـه والنـاس في شـدة الحساب) (1)

وعلى بعضها المدلجون إلى المساجد في الظلم، قال ﷺ:(بشـر المـدلجين إلى المسـاجد في الظلم بمنـابر من نـور يـوم القيامة يفزع الناس ولا يفزعون) (2)

وعلى بعضها المهاجرون الذين فزعوا في سبيل الله، قـال ﷺ:(للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامـة قـد أمنوا من الفزع) (3)

وعلى بعضها الشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيل الله قـال ﷺ:(الشـهداء عنـد اللـه على منـابر من يـاقوت في ظـل عرش الله يوم لا ظل إلا ظلـه، على كـثيب من مسـك، فيقـول لهم الرب: ألم أوف لكم وأصدقكم؟ فيقولون: بلى وربنا) (4)

بل إن الرحمات الكثيرة التي ينالها الشهيد ابتداء من ذلـك الجـرح الـذي رفـع روحـه إلى اللـه تجعلـه يتمـنى أن يعـود إلى الحياة من جديـد ليقتـل في سـبيل اللـه آلاف القتلات، قـال ﷺ: (ما من نفس تموت لهـا عنـد اللّـه خـير، يسـرها أن ترجـع إلى الدنيا إلا الشهيد، فإنـه يسـره أن يرجـع إلى الـدنيا فيقتـل مـرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة) (5)

وقال ﷺ لجابر عنـد استشـهاد أبيـه:(أعلمت أن اللّـه أحيـا أباك فقال له: تمنَّ، فقال لـه: أردُّ إلى الـدنيا فأقتـل فيـك مـرة اخرى، قال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون) (6)

بل إنه ﷺ تمـنى ــ لمـا رأى من رحمـة اللـه بالشـهيد ــ أن يمـوت شـهيدا، قـال ﷺ:(والـذي نفسـي بيـده لـولا أن رجـالا يكرهون أن يتخلفوا بعدي ولا أجد ما أحملهم ما تخلفت لـوددت أني أقتل في سبيل اللـه ثم أحيـا ثم أقتـل ثم أحيـا ثم أقتـل ثم أحيا ثم أقتل) (7)

وأول رحمة ينالها هذا الشـهيد أن يحفـظ ذلـك الـدم الـذي أراقه في سبيل الله ليراه في القيامـة عطـرا فواحـا يشـهد لـه بالشهادة، قال ﷺ:(ما من مجروح يجرح في سـبيل اللـه واللـه

---

1) رواه ابن عساكر والشيرازي في الالقاب والرافعي.
2) رواه الطبراني في الكبير.
3) رواه ابن حبان والحاكم.
4) رواه العقيلي في الضعفاء.
5) رواه مسلم.
6) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان.
7) رواه البخاري ومسلم.

أعلم بمن يجرح في سبيله إلا جاء يـوم القيامـة وجرحـه كهيئتـه يوم جرح اللون لون دم والريح ريح مسك) (1)

بل إن من رحمة الله بالشهيد أن لا يجد ألم القتل حتى لو تقطع جسمه أشلاء في سبيل الله، قال ﷺ:(ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة) (2)

وبعد قتلـه مباشـرة يـنزل عليـه من فضـل اللـه مـا يجعلـه مبهوتـا حـائرا، قـال ﷺ:(لا تجـف الأرض من دم الشـهيد حـتى يبتدره زوجتاه كأنهما ظئران أظلتا أو أضلتا فصيليهما بـبراح من الأرض بيد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا وما فيها) (3)

ولهذا يصـحح القـرآن الكـريم الخطـأ الشـائع الخطـير بـأن الشــهيد ميت، وأن الشــهادة مــوت، بحقيقــة عظمى، وهي أن الشــهيد لم يمت، لا بــالمعنى المجــازي الإيحــائي الــذي يعتــبر الشــهيد حيــا في كتب التــاريخ وعلى ثــرى الأرض وفي ذاكــرة الشعوب، وإنما حياة حقيقية لا فـرق بينهـا وبين هـذه الحيـاة إلا في أن تلك الحياة أفضل بكثير من هذه الحياة،قال تعـالى: وَلا تَقُولُـوا لِمَنْ يُقْتَـلُ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْـوَاتٌ بَـلْ أَحْيَـاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ (البقرة:154)

وليدفع تعالى الأوهام التي تـؤول معـنى هـذه الحيـاة أخـبر تعالى عن الرحمة التي يجدها الشهيد، والتي لم يجـد جـزءا من ملايين الأجزاء منها في الـدنيا، قـال تعـالى: وَلا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ فَـرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُـوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُــونَ (آل عمــران:169 ـ 170)

فقد أخبر تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين بكـل مـا يـدل على الحياة الحقيقية للشهيد، فهو يرزق كما يرزق الأحياء، وهـو يتتبع أخبار إخوانه الذين كانوا معه، بـل أخـبر تعـالى أن الشـهيد يستبشر مطلقـا سـواء استشـهد إخوانـه فنـالوا مثـل فضـله، أو انتصورا فتحقق ما قدم من أجله دمه.

ففي الحديث في تفسير قولـه تعـالى :وَلا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتـاً بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ (آل عمران:169)، قـال رسـول اللّـه ﷺ:(أرواحهم في جـوف طـير

1) رواه ابن ماجة.
2) رواه الترمذي وابن حبان.
3) رواه أحمد وابن ماجة.

خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسـرح من الجنـة حيث شـاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم إطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنـة حيث شـئنا؟ ففعـل ذلـك بهم ثلاث مـرات، فلمـا رأوا أنهم لن يـتركوا من أن يسـألوا قـالوا: يـا رب نريـد أن تـردَّ أرواحنـا في أجسادنا حتى نقتل في سـبيلك مـرة أخـرى، فلمـا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) (1)

ولهذا كان ﷺ يعزي أسر الشهداء بهذا الجزاء العظيم الذي نالوه، لما أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام جاءت أمـه إلى النـبي ﷺ، فقالت:(يا رسول الله قد عـرفت منزلـة حارثـة مـني فـإن يكن في الجنة أصبر وأحتسـب وإن تـك الأخـرى تـرى مـا أصـنع فقال ويحك أوهبلت أوجنة واحدة هي إنها جنان كثـيرة وإنـه في جنة الفردوس) (2)

فهـذه النمـاذج هي بعض مـا ينالـه هـؤلاء المقربـون من رحمات بحسب أعمالهم وطبائعهم ورغباتهم.

بل أخبر ﷺ أن رفيق المـؤمن في تلـك المواقـف العصـيبة هو من كـان قلبـه يهفـو إلى محبتـه، والاقتـداء بسـنته الشـاملة لجميـع أحوالـه، قـال ﷺ:(إن من أحبكم إلي وأقـربكم مـني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعـدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يـا رسول الله ما المتفيقهون؟ قال: المتكبرون) (3)

وهذا المعـنى هـو العـزاء العظيم لمحـبي رسـول اللـه ﷺ، فـإنهم لا تقـر أعينهم بـأي نعيم مـا لم يـروا رسـول اللـه ﷺ ويكحلون أبصـارهم وبصـائرهم بطلعتـه، فلـذلك كـانت الرحمـة الخاصة بهم أن ينالوا هذا الجزاء.

عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصـار إلى رسـول اللّه ﷺ وهو محـزون، فقـال لـه النـبي ﷺ:(يـا فلان مـالي أراك محزوناً؟) فقال:(يا نـبي اللّـه شـيء فكـرت فيـه)، فقـال:(مـا هو؟) قال:(نحن نغدوا ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغـداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك) (4)

فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، حتى أتاه جبريـل بهـذه الآيـة:

---

1) رواه أحمد وأبو داود والحاكم.
2) رواه البخاري.
3) رواه ابن أبي شيبة وأحمد وابن حبان والطبراني.
4) رواه ابن جرير.

 وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (النساء: 69)، فبعث النبي ﷺ فبشره.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول اللّه! إنك لأحب إليَّ من نفسي، واحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلتّ الجنة رفعتَ مع النبيّين، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك)، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه الآية السابقة (1).

وجاء ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقال له:(يا ثوبان ما غير لونك؟) فقال:(يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك؛ لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا) فأنزل الله تعالى هذه الآية (2).

* * *

بعد هذا..

هل نطمع ــ ونحن في هذه الدار ــ أن ندخل إلى الجنة لنتلمس بعض رحمات الله لهؤلاء الذين فنت أرواحهم في معرفة الله ومحبته؟

هل نطمع أن نتلمس بعض ذلك الذي يجل عن أي اسم أو وصف أو تعبير؟

إن النصوص المقدسة ـ برحمة الله ـ لم تترك من الحقائق شيئا إلا وبينته أو رمزت له ليكون الخلق على بينة، فيختاروا من السبل ما يتناسب معهم لإقامة الحجة عليهم.

وقد أخبر ﷺ أن الجنة دار الرغبات والأشواق، فكل رغبة في النفس يجعلها الله تعالى بين يدي الراغب فيها.

وانطلاقا من هذا نستطيع أن نتلمس ذلك النعيم الخفي من هذه الرغبات الظاهرة، وقد اتفق العارفون بالله على أن

1) رواه الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة وحسنه.

2) رواه أبو صالح.

أكبر رغبة لهم، ولا تتحقق الرحمة الكاملة بهم إلا بتحقيقها هي لقاء الله، وقد قيل لرابعة:(كيف رغبتك في الجنة؟)، فقالت: (الجار ثم الدار)

ورابعة في هذا أثر من آثار امرأة فرعون التي قالت: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ (التحريم: 11) فقدمت الجار قبل الدار.

ولذلك يقول العارفون:(ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط)

وقالوا:(من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها. إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد)

وقالوا:

وفي فؤاد المحبِّ نار جوى أحرّ نار الجحيم أبردُها

ولا ينبغي أن يفهم من هذه الأقوال أن هؤلاء يتكبرون على النعيم الحسي، أو يأنفون منه، فالطبيعة التي طبع عليها الإنسان تأبى ذلك، ولكن ما يختلج في صدرهم من أشواق يشغلهم عن كل نعيم حسي.

قد شبه الغزالي أحوال هؤلاء بالعاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه، لم يبق في قلبه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه.

بل إن مثل هذا نراه في عالم الدنيا، (فقد رئي من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه، وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأنّ الغضب نار في القلب.. واحتراق الفؤاد أشدّ من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرّق بين

جـزأين يرتبـط أحـدهما بـالآخر برابطـة التـأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بـين القلب وبـين محبوبه الذي يرتبط بـه برابطة تأليف أشدّ إحكاماً من تأليف الأجسام فهـو أشـدّ إيلامـاً)[1]

ولذلك كانت الرحمة الخاصة بهؤلاء أن ينـالوا منـاهم بهـذه الرؤية والمصاحبة والمعرفة التي هفت أنفسهم لها.

ورحمة هؤلاء ـ بهذا ــ رحمـة لا يمكن تصـورها، ولا الطمـع فيها لولا إخبار الله بها ووعده عباده الصالحين بتحقيقها.

* * *

قد يقال بعد هذا: فإذا رجع الأمر إلى أن رحمة كل شـخص تتناسب مع طبيعتـه، وطبيعـة المقـربين روحانيـة محضـة، فهـل يقتضي هـذا أن يكـون نعيمهم روحانيـا محضـا، وإن كـان كـذلك فكيف القول فيما ورد في النصوص من النعيم الحسي الجزيـل المعد لهم؟

والجـواب عن ذلـك، واللـه أعلم، أن كـل مـا يتمتـع بـه المقربون من نعيم ينسجم مع طبيعتهم.

وطبيعــة المقــربين الروحــانيين في المفهــوم الإســلامي وحسـب مـا توضـحه النصـوص لا يخـرج عن الطبيعـة البشـرية، ولذلك قال تعالى في أقرب خلقه إليه: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ (الكهف: 110)

وهو نفس قول سائر الأنبياء ــ عليهم السـلام ــ، كمـا قـال تعـالى: قَـالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (ابراهيم: 11)

وهــذه الطبيعــة البشــرية هي المــرآة الــتي تتجلى على صفحتها الحقائق الروحانية، ولهذا لا تنافي بين الحس والمعـنى، ولا بين الجسد والروح إلا فيمن لم تتوحد ذاته، ولم يعرف ربــه، أما الذي عرفه، فإنه لا يحجبه عن الله شيء.

وقد بين النورسي روحانيـة الأجسـام بقولـه:(على الـرغم من كثافة التراب وظلمته، نسبة الى الماء والهواء والضياء فهـو منشأ لجميع أنواع المصنوعات الإلهية، لذا يسمو ويرتفـع معـنىً فـوق سـائر العناصـر.. وكـذا النفس الانسـانية على الـرغم من كثافتهـا، فانهـا ترتفـع وتسـمو على جميـع اللطـائف الانسـانية بجامعيتها، بشرط تزكيتها.

---

1) الإحياء.

فالجسمانية كذلك هي أجمع مرآة لتجليات الأسماء الإلهية، وأكثرها احاطة واغناها.. فالالات التي لها القدرة على وزن جميع مدخرات خزائن الرحمة الإلهية وتقديرها، انما هي في الجسمانية، اذ لو لم تكن حاسة الذوق التي في اللسان مثلاً حاوية على آلاتٍ لتذوق الرزق بعدد أنواع المطعومات كلها، لَما كانت تحسّ بكلٍ منها، وتتعرف على الاختلاف فيما بينها، ولَما كانت تستطيع ان تحس وتميز بعضها عن بعض.

وكذا فان أجهزة معرفة أغلب الأسماء الإلهية المتجلية، والشعور بها وتذوقها وادراكها، انما هي في الجسمانية) (1)

ويشير إلى هذا المعنى ما أخبر به ﷺ من إلهام أهل الجنة التسبيح كما نلهم النفس، قال ﷺ:(إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولكن طعامهم ذلك جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس) (2)

فالنفس الذي هو نوع من النعيم الحسي، بل لا يقوم الحس إلا به هو نفس التسبيح الدال على المعرفة بالله، فلذلك لايغفلون عن الله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

2 ـ رحمة الأبرار:

الأبرار هم أصحاب القلوب الطاهرة الذين لاح لهم فضل الله في أعمال البر، فأسرعوا إليها يتسابقون في الاستزادة منها، فكان منهم السابق بالخيرات، وكان منهم المقصر المقتصد فيها.

والفرق بينهم وبين المقربين أن المقرب لاح له نور الحق، فأسرع بالتقرب إليه، ومعرفته ومحبته غافلا عما أعد له من فضل، مقدما الجار على الدار، أما الأبرار، فهم كالتجار يعملون الطاعات، وينتظرون العوض، أو يتوسعون في البر طمعا في الفضل.

فالأبرار تعرفوا إلى الله الرحيم الجواد الحكيم، فأسرعوا إلى ما في يديه الكريمتين ينهجون ما اقتضته حكمته من أسباب أو أمارات، ففضل الله هو داعيهم إلى الله.

أما المقربون فداعيهم إلى الله هو الله، فهم مكتفون بالله منشغلون به عن فضله من غير استغناء منهم عن فضله.

---

1) الكلمة الثامنة والعشرون، النورسي.

2) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

ولا فرق في الأعمال بين المقربين والأبرار، بل قد يكون بعض الأبرار أكثر أعمالا من المقربين، لأن البر ينظر إلى العمل، فيستزيد منه، أما المقرب فهو مشغول بقيمة العمل عن العمل.

ولنضرب مثالا على ذلك بعمل عظيم من أعمال البر هو قيام الليل، فالمقرب حاديه إلى القيام ومهيجه إليه (الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام)

وهؤلاء يشعرون بأن نفس القيام هو جنتهم وجزاؤهم، فلذلك لا يتنظرون عليه عوضا، وكيف ينتظر المحب الولهان العوض عن ملاقاة حبيبه وهي كل مراده،بل يشعرون بمنة الله عليهم بتحريكهم لعبادته ومناجاته.

وقد روي عن المقربين من هذه الأمة ما يدل على هذا المعنى، فقد قيل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ فقال: ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذاجاء وأغتم بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط. وقال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر. وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليَّ. وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، وقال أيضاً: لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم.

وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة. وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم، وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث. قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة.

أما الأبرار فإن حاديهم إلى ذلك إما خوف يلزم قلوبهم من عذاب الله، فهم يبادرون إلى الوقاية منه، أو شوق إلى فضل الله يحرك جوارحهم إلى القيام بطاعته:

منع القران بوعده ووعيده مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليه تَخَضُّعا

ويروى من باعث الخوف أن غلاماً بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيدته: إنّ قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار، فقال: إنّ صهيباً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم.

ويروى من باعث الشوق أن بعض الصالحين رجع من غزوته فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره، فدخل المسجد ولم يزل يصلي حتى أصبح فقالت له زوجته: كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح؟ قال: والله إني كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل، فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتي شوقاً إليها.

ويروى عن اجتماع الباعثين أنه قيل لغلام وهو يقوم كل الليل فقال: إذا ذكرت النار اشتدّ خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتدّ شوقي فلا أقدر أن أنام.

وجميع هؤلاء عارفون بالله ومحبون له، ولكن الفرق بينهما في كمال المحبة والمعرفة ونوعها، (فالعباد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جميلة اعتقدوها بتصديق من وصفها لهم. والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر) (1)

وإلى هذا الإختلاف الإشارة بقوله تعالى: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (الاسراء:84)

وإلى ذلك أيضا الإشارة بقوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (الاسراء: 57)، فقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين بواعث العارفين المقربين، وهو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه. وبين بواعث الأبرار والمقتصدين، وهي رجاء الرحمة وخوف العذاب.

* * *

بعد هذا التمهيد الذي لا بد منه للتعرف على طبيعة الأبرار السابق منهم بالخيرات والمقتصد، نتساءل عن الرحمة المعدة لهم، والتي تتطلبها طبائعهم.

---

1) الإحياء.

والجواب عن هذا: أن الكريم الجواد إن صحب لغرض لم يبخل على مصاحبه بما طلبه من غرض، والأكرم الأجود هو من أنال مصاحبه فضلا زائدا على طلبه، وأكرم الأكرمين وأجود الأجواد من يكون عطاؤه ممتدا لا يفنى، عظيما لا يحد، ولا يتحقق ذلك في غير صحبة الله.

ولذلك فإن الله تعالى ـ برحمته وكرمه ـ أعد لكل عمل من أعمال البر ما يتناسب معه من جزاء، أو ما يتناسب مع صاحبه من طبيعة ورغبة.

ولهذا وردت النصوص الكثيرة ترغب في الجنة وما فيها من الجزاء، قال ﷺ:(من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)(1)

ويروى أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة فقال: تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئا أبدا ولا أنقص منه، فلما ولى قال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا(2).

وغيرها من النصوص الكثيرة.

* * *

قد يقال هنا: فإن كان الجزاء محض رحمة إلهية، فلماذا لم يتساو الناس في الجزاء، بل لماذا اختلفت درجاتهم في نعيم الجنان؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم، هو أن الأسماء الإلهية الحسنى تقتضي تنوع الجزاء بحسب الأعمال، فالرحمة تقتضي إفاضة الإحسان بلا حدود، والعدل يقتضي توزيع الجزاء بحسب الأعمال، والحكمة تقتضي ترتيب ما يدل على الطبائع والنفوس حتى يتشكل الجزاء منها.

والعقل والعادة يدلان على هذا، فنحن في حياتنا لا نتعامل إلا على هذا الأساس، فنعطي لكل شيء ما يستحقه من الجزاء بحسبه.

ولهذا يخبر القرآن الكريم عن تنوع الجزاء بحسب تنوع الأعمال:

---

1) رواه النسائي.

2) رواه البخاري ومسلم.

فأخبر تعالى أن عمل العالم المؤمن يرفع درجات على عمل الجاهل، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة:11)

وأخبر أن عمل المجاهدين أفضل من أعمال القاعدين، قال تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (النساء:95)

وأخبر أن أعمال البر العظمى أعظم من كثير من أعمال الخير التي يتهافت عليها الخلق غافلين عن أصول البر، قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة:19)

وأخبر أن: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (التوبة:20)

بل أخبر بأن الأعمال، وإن تساوت في صورها يختلف جزاؤها بحسب مواقيت الحاجة لها، فلذلك قال تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (الحديد: 10)

وقد أخبر ﷺ عن فضل السقي والإطعام عند الحاجة، فقال:(أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة) (1)

3 ـ رحمة الظالمين :

الظالمون ــ هنا ــ هم من عرفوا الحق، ولكنهم آثروا أهواءهم على سلوك سبيله، فجمعوا بين الإيمان الذي يستدعي الرحمة، والخطيئة التي تستدعي العقوبة، فلذلك وقعوا تحت

---

1) رواه أحمد.

اسمي العدل الرحيم.

وقد عـرف ابن القيم هـذا الصـنف بأنـه من (تحلى بأصـل الإيمان، ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه، فإنّ رأس الإيمـان هـو التوحيد. وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هـواه فقـد اتخـذ إلهـه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة)(1)

وهذا الصنف بذلك يجمع أمرين:

الإيمان الصحيح الجازم بالله، وبقضايا الإيمان، فيذعن لهـا، ويوقن بها.

والسلوك المنحـرف عمـا يقتضـيه الإيمـان، وهـذا السـلوك كالمنحرف يبدأ من الصغائر لينتهي إلى الكبائر، ويبدأ من اللمم، وينتهي بالإصرار.

وكل واحد من الأمـرين يتطلب معاملـة خاصـة بحسـب مـا تقتضيه أسماء الله الحسنى، وكلهـا بعـد ذلـك يـؤول إلى رحمـة الله.

أمـا الرحمـة الإلهيـة، فهي تطلب المغفـرة لهـؤلاء والسـتر عليهم ومحـــو ذنـــوبهم وإدخـــالهم دار الرحمـــة الإلهيـــة بعـــد استحقاقهم لها.

والعدل يقتضي مجازاتهم بذنوبهم، وتطهيرهم من رذائلهم، فجوار الله تعالى لا يتحقق إلا للطيبين.

والحكمـة تقتضـي مـا يصـلح هـؤلاء، ويجعلهم أهلا للرحمـة الإلهية.

ولهذا، يرد في القرآن الكريم ربط المعاصـي والمخالفـات بالمغفرة والرحمة، أو بالعزة والحكمة، وما شاكل ذلك:

فمن الربـط بـالمغفرة والرحمـة قولـه تعـالى:﴿ وَآخَـرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَـالِحاً وَآخَـرَ سَـيِّئاً عَسَـى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:102)، وقال تعـالى:﴿ وَلَـوْ أَنَّهُمْ صَـبَرُوا حَتَّى تَخْـرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَـانَ خَيْـراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات:5)،ـ فـأخبر تعـالى عن مغفرتـه لهم ورحمتـه بهم من غير أن يذكر توبتهم.

أما ما ذكر مرتبطا بالتوبة فكثير جدا في القرآن الكريم.

ومثل ذلك الربـط بـالمغفرة والحلم، كمـا قـال تعـالى:﴿ لَا يُؤَاخِـذُكُمُ اللَّهُ بِـاللَّغْوِ فِي أَيْمَـانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِـذُكُمْ بِمَـا كَسَـبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقـرة:225)، وقولـه تعـالى:﴿ وَلا

---

1) الإحياء.

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (البقرة:235)، وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (آل عمران: 155)، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (المائدة:101)

فالله تعالى في هذه الآيات وعد بالمغفرة والحلم من غير أن يذكر صدور توبة منهم.

ومن الربط بالعزة والحكمة، والتي قد تقتضي العقاب المطهر قوله تعالى: فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقرة:209)، وقوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (المائدة:38)

فحال هؤلاء إذن متروك للمشيئة، فقد تغفر لهم خطاياهم مغفرة محضة، وقد تغفر لهم بعد تعريضهم لكير الامتحان، ولهذا اختلفت المدارس الإسلامية في شأنهم، فمنها من غلب الرجاء، ومنها من غلب الوعيد، وكلها على حق في بعض جهاتها، كما سنرى.

* * *

وقد عبرت النصوص القرآنية عن هذا الصنف من الخلق بظالمي أنفسهم، كما قال تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (فاطر:32)، وقال تعالى: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (الصافات:113)

والظالم لنفسه يحتمل في النصوص القرآنية أن يراد به المؤمنين المخطئين أو الكافرين الجاحدين، كما قال تعالى: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (الكهف:35)

ولذلك اختلف المفسرون ومن بعدهم في شمول قوله

تعالى: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (فاطر:33) للظالمين لأنفسهم على قولين(1):

فذهب بعضهم إلى شمول الآية لظالمي أنفسهم، وذهب طائفة أخرى إلى أن الظالمين لأنفسهم من غير المصطفين، وأن الوعد بالجنات قاصر على المقتصد والسابق دون الظالم لنفسه، وفسروا الظالم لنفسه بالكافر، والمقتصد المؤمن العاصى، والسابق المؤمن التقى، وذلك مثل ما ورد في تصنيف الخلق في الاخرة، والذي تقدم ذكره سالفا.

وعلى هذا تدل النصوص الكثيرة التي تقصر الوعد بالثواب على المتقين دون الظالمين، بل لم يأت في القرآن الكريم ذكر الظالم لنفسه إلا مصحوبا بالوعيد، كما قال تعالى: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (هود:101)، وقال تعالى:وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (ابراهيم:45)، وقال تعالى: فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (سبأ:19)

بل إن القرآن الكريم يصرح بأن الظالم لنفسه هو من خفت موازينه ورجحت سيئاته، وهو ما يدل على خسارته وعدم نجاته، كما قال تعالى: فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يظْلِمُونَ (الأعراف: 8-9)، وقال تعالى: وأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (القارعة: 8- 9)

* * *

بعد هذا الخلاف نحاول تبين الحق والجمع بين النصوص من الزاوية التي نحن فيها من سر الرحمة الإلهية الشاملة.

ونبادر فنقول بأن كل إنسان باعتبار عظمة حق الله وثقل أدائه أداء كاملا ظالم لنفسه، فحق الله تعالى المعبر عنه في قوله تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (آل عمران: 102)، وهو ـ كما فسره عبد اللّه بن مسعود ـ أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر

1) انظر الآثار في ذلك عن السلف في: الدر المنثور: 7/25.

فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر)(1) أعظم من أن يطيق أحد أداءه أداء كاملا.

فحق الله هو أن تحصى كل نعمة من نعمه وتشكر، وذلك مستحيل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (ابراهيم: 34)، ولهذا ختمت هذه الآية بظلم الإنسان وكفره، كما قال بعضهم:(إن حق اللّه أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم اللّه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين)

بل إنهم لو أطاقوا إحصاءها لكان إحصاؤهم لها نعمة أخرى تستوجب الشكر، وذلك ما يؤدي للتسلسل المستحيل.

ولهذا حكى الله تعالى عن ظلم المصطفين من عباده لأنفسهم، كما قال تعالى عن آدم وحواء ــ عليهما السلام ـ:﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (لأعراف:23)

وحكى تعالى عن موسى عليه السلام قوله:﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ (القصص: 16)

وحكى عن يونس عليه السلام قوله:﴿ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الانبياء: 87)

وأخبر تعالى عن صفات المتقين، وأنهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة من غير إصرار على ذلك، كما قال تعالى عن عباده المتقين الموعودين بالجنات التي عرضها السموات والأرض:﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:135)

ولهذا علمنا ﷺ أن أوفق الدعاء أن يقول الرجل:(اللهم أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، يا رب فاغفر لي ذنبي، إنك أنت ربي، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) (2)

ومن الأدعية المأثورة:(اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، وأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم) (3)

* * *

قد يقال بعد هذا: لقد عرفنا في سر العدل أن الله تعالى

---

1) رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين.
2) رواه محمد بن نصر في الصلاة.
3) رواه البخاري ومسلم.

لا يظلم النـاس شـيئا، ولكن النـاس أنفسـهم يظلمـون، فكيـف يسـتوي في مـوازين اصـطفاء اللـه السـابقون مـع الظـالمين لأنفسـهم، فهـل يرجـع الأمـر إلى محض المشـيئة، أم أن هنـاك قوانين وسننا ضابطة لهذا الاصطفاء تمنع تساوي الفريقين؟

والجواب عن ذلك أن جناب الحـق العـدل الحكيم يعـز عن أن يساوى بين المحسن والمسيئ، وبين القريب والبعيد، كما لا تستوي الظلمات والنور، ولا الظل ولا الحرور.

بل هو تعالى ـ مع مشيئته المطلقة ـ أخبرنا بقوانين الثواب والعقاب التي يتعامل بها مع عباده، حتى يقيم الحجة علينا.

فلذلك كان من الذنوب ــ الـتي هي سـبب الظلم للنفس ـ ما يكفي في تطهيره العمل الصالح بعده، وكـان منهـا مـا تكفي فيـه المغفـرة المجـردة من العمـل، وكـان منهـا مـا يحتـاج إلى التوبة النصوح، وكان منهـا مـا يسـتدعي اسـتحلال الخلائـق ورد حقوقهم.

فالذنوب كالأمراض، منها ما يزور الفينة بعد الفينـة ليغـادر من غـير أن يـترك آفـة أو يحـدث ضـررا، بـل قـد تكـون زيارتـه عافيـة: وربمـا صـحت الأجسـام بالعلـل، وإلى هـذا النـوع من الذنوب الإشـارة بقولـه ﷺ:(والـذي نفسـي بيـده لـو لم تـذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) (1)

ومن الذنوب ما يحدث جراحـا في القلب تـداويها الأعمـال الصالحة، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَـرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِـكَ ذِكْـرَى لِلذَّاكِرِينَ (هود:114)

وإليهـا الإشـارة بالأحـاديث الكثـيرة الدالـة على مغفـرة الـذنوب ارتباطـا بالأعمـال الصـالحة، كقولـه ﷺ (الصـلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفـرات لمـا بينهن، إذا اجتنبت الكبـائر) (2)، وقولـه ﷺ:(ألا أنـبئكم بمكفرات الخطايا! إسباغ الوضوء على المكـاره، وكـثرة الخطـا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط) (3)

ولهذا أرشد ﷺ إلى إتباع السيئات بالحسنات، كما قـال ﷺ:

---

1) رواه أحمد ومسلم.
2) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.
3) رواه أحمد والطبراني في الكبير.

(ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له) (1)، وقال ﷺ:(اتق اللّه حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) (2)، وعندما قال أبو ذر لرسول اللّه ﷺ:(يا رسول اللّه أوصني)، قال:(إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها)، قال، قلت:(يا رسول اللّه أمن الحسنات (لا إله إلا اللّه)؟)، فقال ﷺ:(هي أفضل الحسنات) (3)

ومن الذنوب ما يحدث جراحا خطيرة في القلب، فتغير طبعه، وينتكس انتكاسة خطيرة توجب إجراء عملية تصحيح لنفسه، وتطييب لها إن لم يتب، وهي ما يسمى بالكبائر، قال تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (النساء:31)، وقال تعالى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (الشورى:37)، وقال تعالى: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ (النجم: 32)

وقد سمى ﷺ هذا النوع من الذنوب بالموبقات، فقال ﷺ:(اجتنبوا السبع الموبقات)، قيل:(يا رسول اللّه وما هن؟)، قال:(الشرك باللّه وقتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) (4)

وليس المراد في هذا الحديث تحديدها، بل المراد ذكر مجامعها، عن سعيد بن جبير، أن رجلاً قال لابن عباس :(كم الكبائر، سبع؟)، قال:(هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار)

وقد ورد في أحاديث أخرى ذكر غيرها، وقد كتب رسول اللّه ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات، وكان في الكتاب:(إن أكبر الكبائر عند اللّه يوم القيامة: إشراك باللّه، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل اللّه يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم) (5)

وفي حديث آخر عن عبد اللّه بن مسعود قال، قلت:(يا

---

1) رواه النسائي.
2) رواه أحمد والترمذي والحاكم.
3) رواه أحمد.
4) رواه البخاري ومسلم.
5) رواه الحاكم والطبراني في الكبير.

رسول اللّه أي الذنب أعظم؟)، فقال:(أن تجعل للّه نداً وهو خلقك)، قلت:(ثم أي؟)، قال:(أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)، قلت:(ثم أي؟)، قال:(أن تزاني حليلة جارك) (1)

فهذه الذنوب وغيرها تستدعي أمرين:

إما التوبة النصوح المطهرة التي ترد فيها الحقوق لأصحابها، وترد فيه الفطرة إلى أصالتها.

أو أن تجرى لهذا الذي انتكست نفسه، وتغيرت طبيعته عملية جراحية تعيد لفطرته أصالتها، ولنفسه طيبتها، فيستحيل أن يدخل دار الطيبين متلطخ بالخبث.

* * *

قد يقال عند هذا: ألا يتنافى هذا مع رحمة الله، فكيف يكون الله الرحيم معاقبا، وكيف تأذن رحمة الله التي وسعت كل شيء في وجود العقوبة؟

والجواب عن ذلك، هو أن ما ورد في الشرع من اصطلاح (العقوبات) في الحقيقة ليس إلا نوعا ممن المجاز(2)، فكما أنه لا يقال للجراح الذي يحاول جهده أن يخلص المريض من الأذى الخطير الذي لحق بدنه معاقبا، فكذلك لا يقال للعمليات التي تترتب على هذا النوع من الخطايا بأنها عقوبات إلا بنوع من المجاز، فالرحيم اللطيف يستحيل عليه أن يعاقب لغير علة أو لغير ما تقتضيه الحكمة.

ولعله لأجل هذا ورد الوعيد بالعذاب في مواضع من القرآن الكريم بصيغة البشارة، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (آل عمران: 21)، وقال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (لقمان:7)، وقال تعالى: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (الجاثية:8)

ومثل ذلك قوله ﷺ:(بشر الكنازين بكي في ظهورهم

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) كما ورد في الحديث:(تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه)

يخرج من جنوبهم وبكي من قبل أقفائهم يخرج من جباههم)[1]

فهذه النصوص وغيرها مع استعمالها لأساليب العرب في ذكر الوعيد بصيغة البشارة إلا أن لها دلالة غير مباشرة على البشارة الحقيقية، ومثل ذلك أن يقال لمريض ميئوس من مرضه:(أبشر، فإن هناك عملية خطيرة وشديدة وأليمة، وهي في ظاهرها عذاب، ولكنها في حقيقتها علاج لهذا الداء)، أفلا يعتبر هذا بشارة؟

وقد أشار إلى هذا البعد التطهيري للعقوبة قوله ﷺ في آخر من يدخل الجنة:(آخر رجل يدخل الجنة رجل يتقلب على الصراط ظهرا لبطن كالغلام يضربه أبوه وهو يفر منه، يعجز عنه عمله أن يسعى فيقول: يا رب بلغ بي الجنة ونجني من النار! فيوحي الله إليه: عبدي أنجيتك من النار وأدخلتك الجنة تعترف لي بذنوبك وخطاياك؟ فيقول: العبد: نعم يا رب وعزتك وجلالك لئن نجيتني من النار لأعترفن لك بذنوبي وخطاياي! فيجوز الجسر ويقول فيما بينه وبين نفسه: لئن اعترفت له بذنوبي وخطاياي ليردني إلى النار! فيوحي الله إليه: عبدي اعترف لي بذنوبك وخطاياك أغفرها لك وأدخلك الجنة فيقول العبد: وعزتك وجلالك ما أذنبت ذنبا قط ولا أخطأت خطيئة قط! فيوحي الله إليه: عبدي إن لي عليك بينة فيلتفت العبد يمينا وشمالا فلا يرى أحدا ممن كان يشهده في الدنيا فيقول: يا رب أرني بينتك! فيستنطق الله تعالى جلده بالمحقرات فإذا رأى ذلك العبد يقول: يا رب عندي - وعزتك - العظائم المضمرات! فيوحي الله إليه: عبدي! أنا أعرف بها منك، اعترف لي بها أغفرها لك وأدخلك الجنة، فيعترف العبد بذنوبه فيدخل الجنة، هذا أدنى أهل الجنة منزلة فكيف بالذي فوقه) [2]

ولعل رؤية أهل النار لنجاة مثل هذا هي التي جعلتهم يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (فاطر: 37) ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة: 12)

لكنهم لا يخرجون منها لعدم استكمال الطهارة، ولأن جرائمهم التي يتطهرون منها لا علاقة لها بالاعتارف بذنوبهم، وما أسهل أن يقول المنافق مثل هذا، ثم يتنصل منه متى شاء.

---

1) رواه أحمد والبخاري وغيرهما.
2) رواه الطبراني في الكبير.

* * *

قد يقال: فلماذا هذه العملية الأليمة؟

لماذا لاتشمل هؤلاء الرحمة، فيدخلون الجنة من غير آلام؟

والجواب عن ذلك، هو أن الحكمة الإلهية اقتضت تطهير من يجاور دار الرحمن تطهيرا متناسبا مع الجرائم التي عملها، ولنضرب مثلا مقربا لذلك، وهو أن من تنجست روحه بالفواحش وأنواع الشذوذ لا يليق أن يدخل جنة الطيبين، وهو ملوث بهذا الخبث، لأن خبثه سينقله معه إلى الجنة، وليس في الجنة إلا الطهارة.

ولهذا ورد في الأحاديث المخبرة بأنواع العقوبات التي يتعرض لها الظالمون لأنفسهم في البرزخ ما يتناسب مع العقوبة:

فقد رأى ﷺ الذي يأخذ بالقرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة مضطجعا، وآخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ بها - رأسه فيتدهده الحجر فيذهب ههنا فيتبعه فيأخذه ولا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى(1).

ففي ذلك أكبر تنبيه له وتأديب وتبيان لعظم ما كان يفعله.

ورأى ﷺ الذي يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق مستلقيا لقفاه، وآخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ذلك، فما يفرغ منه حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود إليه فيفعل به كما فعل في المرة الأولى.

فهذا تأديب مناسب تماما للكذب رادع عنه.

ورأى الزناة والزواني على بناء مثل التنور عراة، وإذا هو يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضؤا.

وفي هذا إشارة واضحة إلى حفلات الرقص الماجنة التي يختلط فيها الرجال والنساء، فلذلك كان أكبر رادع لهم هو أن تصور تلك الحفلات ذاتها بصخبها، مصحوبة بذلك العذاب الشديد، لينمحي من القلب استحلاء تلك المعصية، وتنمحي من الفطرة صورة ذلك الشذوذ.

ورأى ﷺ آكل الربا على نهر أحمر مثل الدم، وهو يسبح

---

1) رواه البخاري ومسلم.

فيه، وإذا على شاطيء النهر رجل قد جمع عنده حجارة، وإذا ذاك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده حجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا حجرا فيذهب فيسبح ما يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع فغر له فاه فالقمه حجرا.

فهذا تأديب متناسب تماما مع هذا السلوك.

ولهذا أخبر ﷺ أن المتكبرين (يحشرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال) (1)، فهذا الإذلال الشديد تأديب قد ينزع الكبر من صدورهم، ليستحقوا دخول الجنة، فالجنة لا يدخلها المتكبرون.

وأخبر ﷺ أن من شرب المسكر يسقى يوم القيامة من طينة الخبال، وفسرها ﷺ بأنها عرق أهل النار، أو صديد أهل النار، حتى يمحى حبها تماما من قلبه.

وأخبر ﷺ أن (من ولي من أمور المسلمين شيئا فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم وفاقتهم احتجب الله عنه يوم القيامة دون خلته وحاجته وفاقته وفقره) (2)، فهذا الاحتجاب كفيل بنزع ما لصق بفطرته من ذلك السلوك.

بل إن هذه العقوبات، التي هي في حقيقتها رحمة منطوية في مظهر الغضب، تتماثل مع الغرض الذي تريد تحقيقه في جميع ما ينزل الله تعالى من أنواع عقاب الكفار وغيرهم في الدنيا.

ومن ذلك مثلا أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام عندما دعا قومه لدخول الأرض المقدسة وإبائهم: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (المائدة:26)، فهي عقوبة بحرمانهم من الأرض المقدسة، لأن أنفسهم حينذاك كانت مستمرئة للذل، فاحتاجت إلى تدريب يدوم أربعين سنة ليقلع آثار ذلك الاستمراء.

* * *

وهذا ما يرد الكثير من الأسئلة والشبهات التي يوردها البعض ممن يضرب النصوص بعضها ببعض، فيقول: بما أن الله تعالى جعل الجنة دار الرغبات التي لا تحد، فبالإمكان إذن أن

---

1) رواه أحمد والترمذي.

2) رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم.

يطلب أهل الجنة رغبات شاذة.

فبإمكانهم مثلا أن يقيموا حفلات رقص ماجنة يحضر فيها أهل الجنة نساءهم وحور عينهم ويرقصون ويلهون كما كانوا يلهون في الدنيا.

أو بإمكانهم أن يمارسوا أنواع الشذوذ الذي كانوا يمارسونه في الدنيا.

أو بإمكان من جرت اللصوصية في عروقه، فلم يستحل إلا ما جاء به من عرق اللصوصية أن يكون عصابة في الجنة تغير على قصورهم وضياعهم.

أو بإمكان من تمكن حب الاستبداد والتسلط من نفسه أن يقيم امبراطورية في الجنة يحكم فيها بنفسه ولنفسه.

والجواب عن هذا أن الفطرة والطيبة التي يملكها أهل الجنة سواء بسلوكهم الصالح في الدنيا، وحفاظهم على أمانة الروح التي أودعت جنباتهم، أو بالتطهير الذي تعرضوا له تحيل عليهم مجرد التفكير في الخبث.

ولهذا ورد في النصوص الإخبار عن أن الجنة لا يدخلها، بل لا يشم ريحها من لم تتوفر فيه الطيبة الكافية، والفطرة الأصيلة:

ومن ذلك الإخبار بعد دخول البخلاء الجنة، قال ﷺ:(قال إن الله تعالى غرس جنة عدن بيده وزخرفها، وأمر الملائكة فشقت فيها الأنهار، فتدلت فيها الثمار، فلما نظر إلى زهرتها وحسنها، قال: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي لا يجاورني فيك بخيل) (1)

وأخبر ﷺ أنه لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا ديوث، قال ﷺ في الحديث القدسي:(وعزتي لا يسكنها مدمن خمر ولا ديوث)، قالوا:(يا رسول الله وما الديوث؟)، قال:(من يقر السوء في أهله) (2)

وأخبر ﷺ أنه لا يجد ريح الجنة من قتل معاهدا، قال ﷺ: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما) (3)، وقال ﷺ:(ألا من قتل نفسا معاهدة له وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن

---

1) رواه ابن النجار و الخطيب في كتاب البخلاء.
2) رواه الخرائطي في مساوئ الاخلاق.
3) رواه أحمد والبخاري وابن ماجة.

الجنة ليوجد ريحها من مسيرة سبعين خريفا) (1)

وأخبر ﷺ أنه لا يجد ريح الجنة أي وال بات غاشا لرعيته، قال ﷺ:(ما من إمام ولا وال بات ليلة سوداء غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة وعرفها يوجد يوم القيامة من مسيرة سبعين سنة) (2)، وقال ﷺ:(من استرعى رعية فلم يحطهم بنصيحة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام. من انتسب إلى غير أبيه لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مائة عام) (3)

وأخبر ﷺ أنه (لا يدخل الجنة شيخ زان، ولا مسكين مستكبر، ولا منان بعمله على الله) (4)

وقال ﷺ:(إياكم وعقوق الوالدين! فإن الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله عز وجل) (5)

وأخبر ﷺ عن هذين الصنفين من أهل النار، فقال ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا) (6)

وأخبر ﷺ أن المرأة التي تسأل زوجها الطلاق من غير سبب لا تجد رائحة الجنة، فقال ﷺ:(لا تسأل المرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة! وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاما) (7)

ونرى في كثير من هذه الاحاديث مسافات مختلفة لبعد رائحة الجنة، وهي تعني بعد صاحبها أو قربه من الجنة، بحسب نوع جرمه، وقدر الحاجة إلى تطهيره.

وقد أشار حديث أدنى أهل الجنة منزلة إلى هذا، فقال ﷺ: (أدنى أهل الجنة منزلة رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ومثل له شجرة ذات ظل فقال: أي رب! قدمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها، فقال الله تعالى: هل عسيت إن فعلت

---

1) رواه الترمذي.
2) رواه الطبراني في الكبير.
3) رواه أحمد ومسلم.
4) رواه ابن عساكر.
5) رواه الديلمي.
6) رواه أحمد ومسلم.
7) رواه أبو داود.

أن تسألني غيره؟ قال: لا وعزتك! فقدمه اللـه إليهـا، ومثـل لـه شجرة ذات ظل وثمر، فقال: أي رب! قدمني إلى هذه الشجرة فأكون في ظلهـا وآكـل من ثمرهـا، فقـال اللـه تعـالى لـه: هـل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألني غـيره؟ فيقـول: لا وعزتـك! فيقدمه الله إليها، فيمثل الله تعالى له شـجرة أخـرى ذات ظـل وثمر وماء، فيقول: أي رب! قدمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها وآكل من ثمرها وأشرب من مائها! فيقول له: هل عسيت إن فعلت أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتـك لا أسـألك غـيره، فيقدمه الله إليها، فيبرز له باب الجنة فيقـول: أي رب! قـدمني إلى باب الجنة فأكون تحت نجـاف الجنـة فـأرى أهلهـا، فيقدمـه الله إليها فيرى الجنة وما فيهـا فيقـول: أي رب أدخلـني الجنـة! فيدخله الجنة، فإذا دخل الجنة قال: هذا لي؟ فيقول الله تعـالى له: تمن! فيتمنى، ويذكره اللـه عـز وجـل: سـل من كـذا وكـذا، حتى إذا انقطعت به الأماني قال اللـه تعـالى: هـو لـك وعشـرة أمثاله، ثم يدخلـه الجنـة فتـدخل عليـه زوجتـاه من الحـور العين فتقولان: الحمد للـه الـذي أحيـاك لنـا وأحيانـا لـك! فيقـول: مـا أعطي أحد مثل ما أعطيت) (1)

فهــذا الحــديث الشــريف يشــير إلى أن أهــل النــار من الظـالمين لأنفسـهم في رحلـة مسـتمرة طويلـة من النـار إلى الجنة، بحسب جرائمهم، وبحسب قابليتهم للتطهير.

ولعلـه لأجـل هـذا، واللـه أعلم، كـان الصـراط بين الجنـة والنار، والصراط يشير إلى الاستقامة، قال الغزالي:(ولما كـان الصراط المستقيم الـذي لا يكمـل التوحيـد إلا بالاسـتقامة عليـه أدق من الشعر وأحدّ من السيف مثـل الصـراط الموصـوف في الآخـرة، فلا ينفـك بشـر عن ميـل عن الاسـتقامة ولـو في أمـر يسير، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمـال التوحيـد بقـدر ميلـه عن الصـراط المسـتقيم، فـذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجـات القـرب، ومـع كـل نقصـان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن؛ فيكون كل مائل عن الصراط المسـتقيم معـذباً مرتين من وجهين)(2)

ولهذا ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: كَـانَ عَلَى رَبِّكَ

1) رواه أحمد.
2) الإحياء.

حَتْماً مَقْضِيّاً (مريم:71)،ـ ففيها دالة على أن كل الخلق يعرضون على النار، ولكن مكثهم فيها بحسب أعمالهم، وهذا ما نصت عليه الأحاديث الشريفة والآثار عن السلف الصالح، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم يدخلونها جميعاً، ثم ينجي اللّه الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد اللّه فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً، وأهوى بإصبعه إلى أذنيه، وقال: صُمَّتَا إن لم أكن سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:(لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي اللّه الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً) (1)

ولهذا اشتد خوف السلف الصالح من هذا الورود، والذي يدل على استحالة كمال الاستقامة، عن قيس ابن أبي حازم قال: كان عبد اللّه بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال إني ذكرت قول اللّه تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، فلا أدري أنجو منها أم لا؟ وكان مريضاً) (2)، وكان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها، وعن الحسن البصري قال، قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك، قال: فما رئي ضاحكاً حتى لحق باللّه.

وهذا الورود المتيقن، والذي هو من مقتضيات حكمة اللّه التي تأبى دخول غير الطيبين، يختلف باختلاف درجات الخبث ونوعه، وقابلية صاحبه للتطهير، وقد قال عبد اللّه بن مسعود :(يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجُل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع قدميه يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة، عليه

1) رواه ابن حبان.
2) رواه عبد الرزاق.

حسـك كحسـك القتـاد، حافتـاه ملائكـة معهم كلاليب من نـار يختطفون بها الناس) (1)

ومع انسجام هذا الورود لحكمة الله، فهو ينسجم كذلك مع رحمته، فلا يعـرف قيمـة الجنـة من لم يعـرف النـار، ولا يعـرف قيمة النجاة من لم يرد موارد الهلكة، ولا يعرف قيمة القرب إلا من صلي بنار البعد.

* * *

وقد كانت النصوص الكثيرة السابقة في وعيد هذا الصـنف بعدم دخول الجنة سـببا فيمـا ذهبت إليـه طوائـف الوعيديـة من خلود مرتكبي الكبائر في جهنم، ومع أن هذا القـول يتنـافى مـع الكثـير من النصـوص الدالـة على خـروج الموحـدين من الجنـة، والـتي سنعرضـها في محلهـا من هـذا الفصـل، إلا أنـه لا ينبغي التشنيع على القائلين بهذا القول أو عدهم مبتدعة بهذا.

فالحكمة الإلهية تقتضي وجود من يقول بهذا غضبا لمحارم اللـه، بـل قـد ورد في النصـوص مـا يشـير إلى أن من طوائـف الملائكة من خلقه الله غيورا لمحارم الله، فلـذلك يشـتد غيظـه على العصاة وادا لو أقحم بهم في جهنم.

وإلى ذلـك الإشـارة بقولـه تعـالى: وَقِيـلَ مَنْ رَاقٍ (المـدثر:27)، فقـد قـال ابن عبـاس في تفسـيرها:(من يـرقى بروحه ملائكة الرحمـة أم ملائكـة العـذاب) (2)، فـاعتبر هـذا من كلام الملائكة.

وعلى ذلك يفسـر مـا ورد في النصـوص من اختصـام الملأ الأعلى، كما قال ﷺ في قول اللـه تعـالى لـه:(هـل تـدري فيمـا اختصم الملأ الأعلى)، قال ﷺ:(قلت: نعم يـا رب في الكفـارات والدرجات، قال: فما الكفارات؟ قلت: إنشـاء السـلام، وإطعـام الطعـام، وصـلة الأرحـام، والصـلاة والنـاس نيـام، قـال: فمـا الدرجات؟ قلت: إسـباغ الطهـور في المكروهـات ومشـي على الأقـدام إلى الجماعـات، وانتظـار الصـلاة بعـد الصـلاة؛ قـال: صدقت) (3)

وعلى ذلك أيضا يفسر ما ورد في الآحاديث من أنه (ما من يوم يصبح العباد فيـه إلا ملكـان يـنزلان، فيقـول أحـدهما: اللهم

---

1) رواه ابن أبي حاتم.
2) رواه ابن أبي حاتم.
3) رواه ابن عساكر.

أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا) (1)

بل ذلك يفسر ما جعل الله تعالى لكل مؤمن من الملائكة الكتبة، فمنهم من يحصي الحسنات، ومنهم من يحصي السيئات، كما قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (قّ:18)

وكما أن رحمة الله سبقت غضبه، فقد جعل ملك الرحمة أمينا على صاحب الشمال، قال الأحنف بن قيس :(صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر اللّه تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها)

ومثل ذلك منكر ونكير ومبشر وبشير، وملائكة الجنة وملائكة النار..

ومثل هذا حصل في المدارس الإسلامية، حيث خاف بعضهم من مفاسد الأمان، وخاف بعضهم من مفاسد القنوط، ومن مفسدة تكذيب البشرى ومفسدة ثقة الانسان بنفسه وحوله وقوته وعلمه، فكانت هذه المقاصد هي الحامل على هذه الأقوال.

* * *

ولكن مع هذا العذر الذي نقيمه لهؤلاء الوعيدية، مقدرين غضبهم لمحارم الله، وإعمالهم لظواهر النصوص التي تدل على هذا الوعيد الشديد، إلا أن الحق الذي نعتقده هو ما دلت عليه النصوص من سبق الرحمة الإلهية، وأن العذاب ليس مقصودا لذاته، بل هو لحكمة التربية والإصلاح.

ولهذا اعتبر الله تعالى النار في سورة الرحمن من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه فقال تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ (الرحمن:43 ـ 44)،ـ ثم قال تعالى بعدها: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:45)

ولهذا قال بعضهم :(خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا) (2)

ولهذا وردت النصوص الكثيرة المتواترة على خروج الموحدين من النار ودخولهم الجنة، وقد قال ﷺ:(ما من عبد

---

1) رواه النسائي.
2) رواه أبو نعيم.

قال لا إلـه إلا اللـه ثم مـات على ذلـك إلا دخـل الجنـة وإن زنى وإن سـرق وإن زنى وإن سـرق وإن زنى وإن سـرق وان رغم أنف أبي ذر) (1)

وقد أخبر ﷺ عن أثر التوحيد في النجاة، فقال ﷺ:(إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مـد البصـر ثم يقـول: أتنكر من هذا شـيئا؟ أظلمـك كتبـتي الحـافظون؟ فيقـول: لا يـا رب! فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب! فيقول: بلى، إن لـك عنـدنا حسـنة، وإنـه لا ظلم عليـك اليـوم. فتخـرج بطاقـة فيهـا (أشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وأشـهد أن محمـدا عبـده ورسـوله)، فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يا رب، ما هـذه البطاقـة مـع هـذه السجلات؟ فيقـال: فإنـك لا تظلم. فتوضـع السـجلات في كفـة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء) (2)

بل قد ورد ما هو أخطـر من ذلـك، فقـد قـال ﷺ:(إن اللـه تعالى حرم على النار من قـال لا إلـه إلا اللـه يبتغي بـذلك وجـه الله تعالى) (3)

وهذا الحديث لا يتعارض مـع مـا ذكرنـا من إمكانيـة دخـول الموحدين الجنة، لأن رسول الله ﷺ قيد التوحيد بالإخلاص، وهـو يعني البعد عن محـارم اللـه، قـال ﷺ:(من قـال لا إلـه إلا اللـه مخلصا دخل الجنة) قيل:(وما اخلاصـها) قـال:(أن تحجـزه عن محارم الله) (4)

أما من لم يحجزه التوحيد عن معاصـي اللـه، وورد الآخـرة ملطخا بهذه الأوزار، فـإن النصـوص أخـبرت بـوروده إلى النـار، وبقائه المدة الكافية لتطهيره، ثم يخرج بعـدها إلى الجنـة، قـال ﷺ:(يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النـار ثم يقـول اللـه عـز وجل: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيـاة فينبتـون كمـا تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صـفراء ملتويـة) (5)

وفي حديث آخر، قـال ﷺ:(يعـذب نـاس من أهـل التوحيـد

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه البخاري والترمذي وغيرهما.
3) رواه أحمد ومسلم.
4) رواه الحاكم والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية.
5) رواه البخاري ومسلم.

في النـار حـتى يكونـوا حممـا، ثم تـدركهم الرحمـة، فيخرجـون ويطرحـون على أبـواب الجنـة فـيرش عليهم أهـل الجنـة المـاء فينبتون كما ينبت الثغـاء في حمالـة السـيل ثم يـدخلون الجنـة) (1)، وقـال ﷺ:(ليصـيبن ناسـا سـفع من النـار عقوبـة بـذنوب عملوهـا ثم يـدخلهم اللـه الجنـة بفضـل رحمتـه فيقـال لهم الجهنميون) (2)

فهذان الحديثان يشيران إلى أن هؤلاء لكـثرة ذنـوبهم تكـاد النـار تطحنهم طحنـا، لينشـأوا في الجنـة نشـأة أخـرى بفطـرة أطهر وأطيب.

* * *

قد يقال بعد هذا: فلماذا كان هذا الجزاء مختصا بالتوحيـد، أوليس من الكفار من هـو أحسـن خلـق، وأكـثر عـدلا من بعض هؤلاء الموحدين؟

والجواب عن ذلك ما عرفنـا في الفصـول الماضـية من أن السر في خلق الإنسان هو تحقيق العبودية للـه، وأعلى درجـات هذه العبودية هو التسليم التام لله، وأصـحاب هـذه العبوديـة هم أصحاب الرحمة الخالصة التي لم يشبها أي منغص.

وأدنى درجات هذه العبودية هو الإقرار بالله وبتوحيده، وهو بتعبير العصر الحد الأدنى الذي ينجو بـه صـاحبه من الخلـود في عذاب الله.

وسر ذلك أن الشر ـ كما ذكرنا سابقا ــ هـو أعظم تخـريب لبنيان الكون، كما قال تعالى إنكارا على من زعم أن لـه ولـداً ـ تعـالى وتقـدس وتـنزه عن ذلـك علـواً كبـيراً ــ: وَقَـالُوا اتَّخَـذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَـدْ جِئْتُمْ شَـيْئاً إِدّاً تَكَـادُ السَّـمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْـهُ وَتَنشَـقُّ الْأَرْضُ وَتَخِـرُّ الْجِبَـالُ هَـدّاً أَن دَعَـوْا لِلـرَّحْمَنِ وَلَـداً وَمَـا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (مريم:88 ـ 93)

فكل حرف في هذه الآيات ينطـق بخطـر الشـرك، وبعظم جرمه، فلذلك إن انتفى الشرك كان الأمر أيسر، وكانت الرحمة أقـرب، مـع أن ذلـك لا ينفي ضـرورة التطهـير والتطـييب الـذي يؤهل لدخول الجنة.

* * *

1) رواه أحمد والترمذي.
2) رواه أحمد والبخاري.

قد يقال بعد هذا: فإن كان الغرض مما نسميه عقابا هو التطهير، وأن الجنة لا يدخلها إلا الطيبون، فما القول فيما تواتر في النصوص من أن الله تعالى يأذن بالشفاعة لمن شاء من عباده، فيدخلون بالشفاعة إلى الجنة، أو يخرجون بالشفاعة من النار، فهل تملك الشفاعة لهؤلاء أن يطهروا من ذنوبهم، ومما لحق فطرتهم من الدنس؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم، أن النصوص المقدسة كما أخبرت عن جدوى الشفاعة وتأثيرها، وهي من التواتر والكثرة ما لا يمكن غض الطرف عنه، أو تحريفه بأنواع التأويل، فقد ورد مقابل ذلك كذلك ما يدل على عدم جدواها.

فقد قال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (غافر:18)، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ (النساء:123)، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (البقرة:48)، وغيرها من آيات القرآن الكريم.

ولا يصح تأويل هذه النصوص ـ كما أولها بعضهم ــ من أن المراد منها الكافرون دون المؤمنين، بدليل ما ورد في صفة الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (المدثر:48)، لأن ما في النصوص يثبت عدم صحة هذا التأويل.

ومن ذلك قوله ﷺ لأهل بيته، وهم أقرب الناس إليه:(إلا ان لي عملي ولكم عملكم، إلا اني لا أغني عنكم من الله شيئا، إلا ان أوليائي منكم المتقون، ألا لا أعرفنكم يوم القيامة تاتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، ويأتي الناس يحملون الآخرة. يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، اعملا فاني لا أغني عنكما من الله شيئا) (1)

ومنه قوله ﷺ في تاركي الزكاة:(لأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من اللّه شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل جملاً له رغاء يقول: يا محمد يا محمد؟ فأقول: لا أملك لك من اللّه شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل فرساً له حمحمة ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا

1) رواه الطبراني في الكبير وغيره.

أملك لك من اللّه شيئا قـد بلغتـك، ولأعـرفن أحـدكم يـأتي يـوم القيامة يحمل قسماً من أدم ينادي: يا محمد يا محمـد! فـأقول: لا أملك لك من اللّه شيئاً قد بلغتك) (1)

بل منه وأوضح دلالة مـع تعرضـه للتأويـل ــ قولـه ﷺ:(ألا وإنه يجـاء برجـال من أمـتي فيؤخـذ بهم ذات الشـمال فـأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فـأقول كما قـال العبد الصالح: مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيداً مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَـوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المائدة:117 ـ 118)، فيقـال: إن هـؤلاء لم يزالـوا مرتـدين على أعقـابهم منـذ فارقتهم) (2)

***

فكيف نتعامل ـ إذن ـ مـع هـذه النصـوص، ونحن إن قـدمنا أحدها أخرنا الآخر، والشرع طالبنا بتقديمها جميعا؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم، أن الشفاعة نوع من أنـواع التطهير، كما أنها سبب من أسباب الرحمة.

قد يستغرب هذا، فالشفاعة رحمة صرفة، والتطهير ــ كمـا رأينا في النصوص ـ عذاب محض، فهل يستوي حنـان الشـفاعة ولطفه مع شدة العذاب وقسوته؟

والجواب عن ذلك، بمثـال بسـيط، وهـو أن من الخلـق من يرده عن غيه تقلده لمنة، أو سماعه لكلمة طيبة، أو استشـعاره لشعور نبيل، فمعدنه يتقبل ذلك، ويستسيغه، بـل قـد يـؤثر فيـه هذا السلوك أكثر من جميع أنواع العقاب، بينما نجـد من الخلـق من لا يردعه إلا طول العقاب، وأنواع العذاب، فلـذلك لا تردعـه الكلمـة الطيبـة ولا الموقـف النبيـل، فـإن ردع ظـاهرا لم يـردع باطنا، وإن ردع لحظة رجع بعدها.

وبمثل هذا، ولله المثل الأعلى، أحوال الآخرة، فمن الخلـق ــ وهم أكـثر الخلـق ــ من لا يجـدي معـه إلا الشـدة والتعـنيف والقسوة لكف نفسه الرعناء، فلذلك أخبرت النصـوص أن أكـثر تطهيرات الآخرة من نوع العقوبات، ومنها ما يقبل التطهير بهـذا النوع الذي سماه الشرع شفاعة، ومنها ما يحتـاج إلى النـوعين،

---

1) رواه ابن جرير.
2) رواه البخاري ومسلم.

فيطهر بالشفاعة والنار جميعا، بحسب ما دنس فطرته الأصلية من ذنوب.

ونرى أن لهذه الشفاعة شروطها الخاصة بها، وأهمها التعلق بالشافع ومحبته، وهي المحبة التي تحرق خطايا المحب خاصة إن علم المشفوع له بتدخل الشافع بإذن الله في محو أوزاره، وقد تؤخر هذه الشفاعة لذلك إلى ان تستقر هذه المحبة في قلب ذلك المعذب، فيستحق بذلك شفاعة الشافعين.

والشفاعة بذلك ليست وساطة، فوحدانية الله تتنافى مع الوسطاء، ورحمة الله أعظم من أن تحتاج إلى الوسطاء.

ولكن الله تعالى شاء برحمته، كما شاء في الدنيا أن يفيض فضله على عباده عبر عباده، أن يجعل من عباده شفعاء، فيكرمهم من جهة، ويطهر المشفوع فيهم من جهة أخرى.

ومثل ما ذكرنا في الحكمة من ظهور طوائف الوعيدية كانت الحكمة في ظهور منكري الشفاعة، فإن هناك من قعد عن العمل والكسب طمعا في الشفاعة، فكان القول المتناسب معه هو إزالة هذا الوهم عنه.

ولذلك لم يكن القول بإنكار الشفاعة أو تأويلها بدعة ضلالة، وإنما هو فهم من الفهوم، قد يحتاج إليه في موضعه المناسب.

4 ـ رحمة الجاحدين:

بعد هذا البحر المحيط من رحمة الله الواسعة ألا يحق لنا ـ نحن الأقزام الغلاظ ـ أن نتساءل عن مصير أولئك الذين مكثوا في النار آلاف الآلاف من السنين، أو أقل منها، أو أكثر منها.

أيظلون في النار أبد الآباد ـ حيث لا حدود للزمن ــ تبدل جلودهم، ويذوقون من أصناف العذاب المتصاعد ما لا ينتهي مدده ولا عدده؟

أم يألفون النار بعد وحشة، ويتنعمون بها بعد عذاب، كما يتنعم أهل الصحارى بحر صحرائهم، وأهل القطبين بجليد قطبهم؟

أم ـ ياترى ـ ينتهي ما كتب لهم من عذاب، كما تنتهي فترة المسجون بطول مكثه في سجنه؟

وهل في هذه الحالة يخرجون بعد تغير صفاتهم وتبدل سيرهم وتحولهم خلقا آخر فتنسجم الحكمة مع الرحمة، ويمتزج

العدل بها جميعا، أم يخرجون بمجرد اقتضاء رحمة الله ذلك، فرحمة الله تسبق غضبه؟

هذه أسئلة كثيرة يتيه العقل في مبادئها، ولم يرد في النصوص القطعية ما يشفي غليل السائلين فيها.

وسر ذلك أنها من العلم الذي قد يضر سماعه، فالغافل الجاحد إن سمع مثل هذا قد يجعل منه زادا لغفلته، وسببا من أسباب شقوته، وطريقا يسلك منها إلى غضب ربه.

وقد كان هذا سببا لإحجامي عن الحديث في هذه المسألة، ولولا أن النصوص تكاد تشير إليها ما ذكرتها.

زيادة على ذلك، فإن العاقل الذي سد منافذ الغفلة يرى من رحمة الله فيها ما يملؤه محبة له وشوقا إليه وتطلعا لما في يديه.

ومن هذا الباب نطل على هذه المسألة غير باتين فيها بقول من الأقوال، مرجعين الأمر لإرادة الله ومشيئته، فلذلك نكتفي بذكر ما يمكن أن تحتمله النصوص، وما قد يدل عليه العقل الواعي لحكمة الله ورحمته ليشرب منها كل إنسان ما ينسجم مع طبيعته، كما قال تعالى: كُلًّا نُمِدُّ هَـؤُلاءِ وَهَـؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (الاسراء:20)

خلود العذاب:

أكثر النصوص القطعية تدل على خلود الكفار في العذاب، وبأن النار لا تفنى، ولا يفنى ما فيها، وقد ورد في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وبصيغ مختلفة الدلالة على هذا المعنى:

ومن ذلك الإخبار عن مقامهم فيها بصيغة الخلود، وهو يقتضي التأبيد، وهو أكثر ما ورد في القرآن الكريم مما يدل على خلود أهل النار في النار، كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (التغابن:10)، وقال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة:39)، وقال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: 257))، وقال تعالى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (لأعراف:36)، وقال تعالى: وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

مَـا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِـمٍ كَأَنَّمَـا أُغْشِـيَتْ وُجُـوهُهُمْ قِطَعـاً مِنَ اللَّيْـلِ مُظْلِمـاً أُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ (يـونس: 27)، وقال تعالى: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُـرُوا مَسَـاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِـالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (التوبة:17)، وقال تعالى: لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَـةً مَـا وَرَدُوهَـا وَكُـلٌّ فِيهَـا خَالِـدُونَ (الانبيـاء:99)، وقـال تعـالى: إِنَّ الْمُجْـرِمِينَ فِي عَـذَابِ جَهَنَّمَ خَالِـدُونَ (الزخـرف:74)، وقـال تعالى: فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ الظَّالِمِينَ (الحشر:17)، وقال تعالى: تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَـخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (المائدة:80)

أو يعبر عن ذلك بعدم الخروج من النار، كما قـال تعالى: وَقَـالَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا لَـوْ أَنَّ لَنَـا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِنْهُمْ كَمَـا تَبَـرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَـا هُمْ بِخَـارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقرة:167)، وقال تعـالى: ذَلِكُمْ بِـأَنَّكُمُ اتَّخَـذْتُمْ آيَـاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَـالْيَوْمَ لا يُخْرَجُـونَ مِنْهَـا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (الجاثـية:35)

أو يعبر عن ذلك بأنهم كلما أرادوا أن يخرجـوا منهـا أعيـدوا فيهـا، كمـا قـال تعـالى: كُلَّمَـا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُـوا مِنْهَـا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَـذَابَ الْحَرِيـقِ (الحج:22)، وقـال تعـالى: وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُـوا مِنْهَـا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَـذِّبُونَ (السجدة:20)

أو يعبر عن ذلك بكون العـذاب مقيمـا مسـتقرا، كمـا قـال تعـالى: يُرِيـدُونَ أَنْ يَخْرُجُـوا مِنَ النَّارِ وَمَـا هُمْ بِخَـارِجِينَ مِنْهَـا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (المائدة:37)

أو يعبر عن ذلـك بكـون العـذاب مقيمـا ملازمـا، كمـا قـال تعالى: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَـذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَـذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (الفرقان:65) أي لازما.

أو يعبر عن ذلـك بعـدم التخفيـف من العـذاب، كمـا قـال تعـالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا بِـالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (البقـرة:86)، وقـال تعـالى: لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (الزخرف:75)

أو يعـبر عن ذلـك بـدوام تسـعير النـار وإيقادهـا، كمـا قـال

تعـالى: وَمَنْ يَهْـدِ اللَّهُ فَهُـوَ الْمُهْتَـدِ وَمَنْ يُضْـلِلْ فَلَنْ تَجِـدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (الاسراء:97)

أو يعبر عن ذلك بتجديد الأهلية للعذاب، كما قـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِـجَتْ جُلُـودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (النساء:56)

أو يعبر عن استحالة دخولهم الجنة بما يدل على الاستحالة العقلية، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَـا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْـوَابُ السَّـمَاءِ وَلا يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَـلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (لأعراف:40)

وقد ورد في الأحاديث الشريفة من النصوص ما يـدل على هذا، ومن ذلك قولـه ﷺ:(يـؤتى بـالموت في صـورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهـل الجنـة خلـود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت)(1)

وقد وقع إجمـاع جمـاهير العلمـاء على مـا دلت عليـه هـذه النصوص، ولم يخالفه إلا القليل الذين سنذكر بعضهم في القول الثاني.

أما دلالة العقل والحكمة على خلود الكفار في جهنم، فقـد أجاب عنها أصحاب هذا القول في معرض ردهم على المخالفين من أصحاب القول الثاني، وسنكتفي هنا بإيراد ما ذكره علم من الأعلام الكبـار، وهـو العلامـة الطباطبـائي الـذي عـرض في تفسيره(2)إلى بعض الإشكالات المترتبة على القول بالخلود في العذاب، والمطروحة من قبل أصحاب القول الثـاني، وخصوصـا صـدرالدين الشـيرازي وابن عـربي والقيصـري وغـيرهم، وهي نفسها التي ذكرها ابن تيمية وابن القيم وغيرهما.

ومن تلـك الإجابـات رده على الإشـكال المتعلـق بكيفيـة الجمع بين كون رحمة الله واسعة غـير متناهيـة، وبين أن يخلـق من مصيره إلى عذاب خالد لايقوم له شيء؟

فقد أجاب على هذا الإشكال بأن معنى الرحمة الإلهية هـو الإفاضـة لمـا يناسـب الاسـتعداد التـام الحاصـل في القابـل، والرحمـة رحمتـان : رحمـة عامـة، وهي إعطـاء مـا يسـتعد لـه

1) رواه البخاري ومسلم.
2) تفسير الميزان، ج 1، ص 413 ـ 416..

الشيء ويشتاقه في صراط الوجود والكينونة، ورحمة خاصة، هي إعطاء ما يستعد الشيء في صراط الهداية إلى التوحيد وسعادة القرب.. وإعطاء صورة الشقاء اللازم، الذي أثره العذاب الدائم للانسان المستعد له باستعداده الشديد، لا ينافي الرحمة العامة بل هو منها، وأما الرحمة الخاصة فلا معنى لشمولها لمن هو خارج عن صراطها، فلا منافاة بين العذاب الدائم والرحمة سواء العامة منها أو الخاصة كما تبين، على أن الإشكال لو تم لجرى في العذاب المنقطع أيضاً حتى أنواع العذاب الدنيوي.

ومن الإشكالات التي أجاب عنها، ما ذكره المخالفون من (أن العذاب إنما يكون عذاباً إذا لم يلائم الطبع فيكون قسراً، ولا معنى للقسر الدائم، فكيف يصح وجود عذاب دائم ؟)

فقد أجاب عن ذلك بقوله: (يجب أن يعين معنى عدم ملائمة الطبع، فانه تارة بمعنى عدم السنخية بين الموضوع والأثر الموجود عنده، وهو الفعل القسري الذي يصدر عن قسر القاسر، ويقابله الأثر الملائم الذي يصدر عن طبع الشيء إذا اقترن به آفات سم رسخت فيه، فصارت صورة في الشيء، وعاد الشيء يطلبه بهذا الوجود، وهو في عين الحال لا يحبه، كما مثّلنا فيه من مثال الماليخوليائي، فهذه الآثار ملائمة لذاته من حيث صدورها عن طبعه الشقي الخبيث، والآثار الصادرة عن الطباع ملائمة، وهي بعينها عذاب لصدق حد العذاب عليها، لكون الشيء لا يرتضيها، فهي غير مرضية من حيث الذوق والوجدان في عن كونها مرضية من حيث الصدور)

ومن الإشكالات (أن العبد لم يذنب إلّا ذنباً منقطع الآخر، فكيف يجازى بعذاب دائم؟)

وقد أجاب عنه بأن العذاب ترتب أثر غير مرضي على موضوعه الثابت حقيقة، وهو صورة الشقاء، فهذا الأثر معلول الصورة الحاصلة بعد تحقق علل معدة، وهي المخالفات المحدودة، وليس معلولاً لتلك العلل المعدة المحدودة حتى يلزم تأثير المتناهي أثراً غير متناه، وهو محال، نظير تصور المادة بالصورة الانسانية بتوسط علل معدة، ولا معنى أن يسأل ويقال: إن الآثار الإنسانية الصادرة عن الانسان بعد الموت صدور دائمي سرمدي لحصول معدات مقطوعة الأمر للمادة، فكيف صار مجموع منقطع الآخر من العلل سبباً لصدور

الآثار المذكورة وبقائها مع الانسان دائماً، لأن علتها الفاعلة ـ وهي الصورة الانسانية ـ موجودة معها دائماً على الفرض، فكما لا معنى لهذا السؤال لا معنى لذلك أيضاً.

ومن الإشكالات (أن أهل الشقاء لا يقصر خدمتهم لنظام التكوين عن خدمات أهل السعادة، ولولاهم لم تتحقق سعادة لسعيد، فما هو الموجب لوقوعهم في عذاب مخلد؟)

وقد أجاب عنه بقوله: (إن الخدمة والعبودية أيضاً مثل الرحمة على قسمين: عبودية عامة، وهو الخضوع والانفعال الوجودي عن مبدأ الوجود، وعبودية خاصة وهو الخضوع والانقياد في صراط الهداية إلى التوحيد، ولكل من القسمين جزاء يناسبه وأثر يترتب عليه ويخصه من الرحمة، فالعبودية العامة في نظام التكوين جزاؤه الرحمة العامة، والنعمة الدائمة والعذاب الدائم كلاهما من الرحمة العامة، والعبودية الخاصة جزاؤه الرحمة الخاصة، وهي النعمة والجنة، على أن هذا الإشكال لو تم لورد في مورد عذاب المنقطع، بل الدنيوي أيضاً.

ومن الإشكالات (أن العذاب للعاصي انتقام، ولا يجوز الانتقام على الله تعالى، لأنه لا يكون إلّا لجبر النقص، والله تعالى هو الغني المطلق، فكيف يجوز منه العذاب المخلد ؟)

وقد أجاب عنه بقوله: (إن العذاب الدائم مستند إلى صورة الشقاء الذي في الانسان، وإلى الله سبحانه بالمعنى الذي يقال في كل موجود إنه مستند اليه تعالى لا بمعنى الانتقام وتشفي الصدر المستحيل عليه تعالى، نعم الانتقام بمعنى الجزاء الشاق والأثر السيء الذي يجزي به المولى عبده لتمرده عليه مما يصدق فيه تعالى، ولكن لا يستلزم كون العذاب انتقاماً بهذا المعنى إشكالاً البتة. على أن هذا الإشكال لو تم لورد في مورد العذاب المؤقت المنقطع في الآخرة، بل في الدنيا أيضاً)

وربما يدل على الكثير من الإجابات التي ذكرها الطباطبائي قوله تعالى: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (الأنعام: 28)، فالآية الكريمة تدل على غاية عتوهم وإصرارهم وعدم قبول الخير فيهم، فلا تصلح نفوسهم الشريرة الخبيثة إلا للعذاب، ولو صلحت لصلحت على طول العذاب، فحيث لم يؤثر عذابهم تلك الأحقاب الطويلة في نفوسهم ولم يطيبها علم أنه لا قابلية فيهم للخير أصلا.

انتهاء العذاب:

وهذا مما قد تحتمله الأدلة، وإن كان جماهير العلماء على خلافه، والحكمة تقتضي أن يذهب جماهير العلماء إلى ذلك، فإن انتشار مثل هذا العلم قد يكون سبيلا من سبل الشقاوة، وفتنة للقلوب المريضة.

ولكن العلم به مع ذلك لا يخلو من مصلحة، بل إن مصلحته للقلوب الواعية والفطر السليمة أعظم من مفسدته.

بل إن ما تحتمله النصوص من هذا المعنى يجيب على الأسئلة الكثيرة التي قد تحتار فيها العقول، ولا تجد لها مسلكا في غير رحمة الله التي وسعت كل شيء.

وقبل أن نذكر الأدلة نحب أن ننبه إلى أن الذين قد يبادرون لإنكار هذا القول، أو يشنعون على القائل به قد لا يتصورون حقيقة الخلود، أو قد لا يعطونها حقها، فلذلك لو تركوا لخيالهم أن يمتد بهم ليتصور بعض حقيقة الخلود، فلربما نزعوا عن بعض التشنيع والمبادرة بالإنكار.

فلذلك نرى أن ما ورد في تحديد فترة مكوث الكافرين في النار من الآثار التي قد لا يسلم لها كافية في الردع والزجر بغض النظر عن ذكر الخلود.

ومن أمثلة هذه الآثار ما ذكره ابن كثير بقوله في تفسير قوله تعالى: لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً (النبأ:23):(أي ماكثين فيها أحقاباً، وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره، فقال ابن جرير، قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري:(ما تجدون الحقب في كتاب اللّه المنزل؟)، فقال: (نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة) (1)

والحقب الواحد بذلك يصبح ثمانية وعشرين مليونا وثمانمئة ألف سنة [28800000] مع أن الله تعالى ذكر أن مكثهم يستمر أحقابا بدون تحديد، وبذلك يصبح العدد مهولا جدا لا يمكن تخيله.

فإذا اعتبرنا عدد الأحقاب سبعمائة على حسب ما ذكر السدي، فإن العدد يصبح عشرين مليارا ومئة وستين مليونا [20160000000]

وفي رواية:(الحقب أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة

---

1) الدر المنثور: 8/395.

مما تعدون)، والحقب الواحد بهذا هو عبارة عن أربعة عشر مليونا وستمئة ألف سنة[14600000]

فإذا اعتبرنا عدد الأحقاب سبعمائة على حسب ما ذكر السدي، فإن العدد يصبح عشر ملايير ومائتين وعشرين مليونا [10220000000]

وقد ذكر السدي أن عدد الأحقاب سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون) ومدة مكث أهل النار بحسب هذا العد تصل إلى سبعة عشر مليارا وستمائة وأبعين مليونا [17640000000]

ونحن نسوق هذه النصوص لا من باب كونها الحقيقة النهائية، ولكن من جهتين:

أولا: من جهة أن ذكر مثل هذه الأعداد قد يبعد أن يقال بمجرد الرأي، فالرسول ﷺ ذكر كثيرا من الحقائق التي لم تشتهر إلا بين الخاصة من أهل العلم، حتى لا يفتتن بها، وقد ذكرنا بعض أدلة ذلك من قبل.

وثانيا: أن تصور مثل هذه الأرقام الضخمة كاف وحده للزجر، بل إن ذكر مثل هذه الأرقام قد يكون أردع وأزجر من ذكر الخلود نفسه عند الكثير من العامة الذين لا يستطيع خيالهم أن يتخيل ما تحمله كلمة الخلود من معان.

وفي الواقع دلالات كثيرة على هذا المعنى، فالمجرم قد يردعه عن جرائمه توعده بسنين معدودات في سجن هو جنة بالنسبة لجهنم، فكيف لا يردع بهذه السنين الطويلة في العذاب الذي لا يشبهه في شدته أي عذاب.

أما المجرم الذي قد يستحلي هذا المعنى، فهو مجرم لا يخاف من عذاب الخلود نفسه، فكيف يخيفه العذاب المحدود.

فذريعة إنكار ما قد تحتمله من النصوص من هذا المعنى خوفا من الفساد غير صحيح أو غير لازم، فالكفار مع علمهم بما يخبرهم المؤمنون من خلودهم في النار لا يردعون، والمؤمنون الأتقياء العارفون أنهم بتوحيدهم ينجيهم الله من النار ولو دخلوا إليها أخوف الناس من النار.

والمؤمنون العصاة يعلمون أنهم يدخلون النار وأنهم يخرجون منها، ومع ذلك لا يردعهم ذلك عن ما هم فيه.

بعد هذا.

سنحاول أن نتناول هنا باختصار ما ذكره علمان من علمـاء هذه الأمة، ينتمي كل منهما لطائفة من طوائفهـا الكـبرى، حـتى نــبين أن الخلاف في هــذه المســألة لا يحــوي أي اصــطفاف طائفي، بل هو وجهة نظر موجودة بين المسلمين جميعا.

أما الأول، فهو ابن القيم الذي دافع عن هـذه الرؤيـة في كتبـه المختلفـة، وتبعـه على ذلـك بعض العلمـاء من القـدامى والمعاصرون، كما انتقده آخرون من أصحاب القول الأول.

ومن العلماء المعاصرين الذين أيدوه، بل أثنوا عليه بسـبب هذا القول الشيخ محمد عبده الذي نقل في تفسـيره (المنـار) قول ابن القيم بفنـاء النـار بتفصـيله بمـا يقـارب ثلاثين صـفحةً، وفي ختامه يثـني مادحـاً لابن القيم وداعيـاً لـه إلى أن يكافئـه الله أفضل ما يكافيء العلمـاء العـاملين ويقـول : (فمـا أعظم ثواب ابن القيم على اجتهاده في شرح هذا القول المـأثور عن بعض الصـحابة والتـابعين، وإن خـالفهم الجمهـور الـذين حملـوا الخلـود والأبـد اللغـويين في القـرآن على المعـنى الاصـطلاحي الكلامي وهو عدم النهاية في الواقع، ونفس الأمر بالنسبة إلى تعامل الناس وعرفهم في عالمهم) (1)

وأمـا الثـاني: فهـو صـدر المتـألهين، صـاحب الحكمـة المتعاليـة، والـذي حـاول أن يجمـع فيهـا بين القـرآن والبرهـان والعرفان، وقد سعى إلى تطبيقها على هذه المسألة كما طبقها على غيرها من المسائل الفلسفية والعقدية الكبرى(2).

رؤية ابن القيم:

---

1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج 8، ص 99.

2) يذكر الكثير من الباحثين أن صـدرالدين الشـيرازي قـد رجـع عن نظريـة الخلـود النوعي إلى القول بالخلود الشخصي في كتاب العرشية ـ الذي قيل إنه آخر مـا كتبـه في حياته ـ كما صرح به عدد من المعلقين والمحشـين على كتب صـدر المتـألهين، فبعـد أن نقل فيها عن محيي الدين بن عربي بأن أهـل النـار المشـركين بعـد انتهـاء مـدة عقـابهم يكون لهم نعيم في النار، فيتلذذون بماهم فيه من نار وزمهريـر، لكـون طبـاعهم تقتضـي ذلك، قال: (وصاحب (الفتوحات المكية) أمعن في هذا الباب وبالغ فيه في ذلك الكتاب، وقال في الفصوص : وأما أهل النار فمـآلهم إلى النعيم، إذ لابـد لصـورة النـار بعـد انتهـاء مدة العقاب أن تكون برداً وسلاماً على من فيها. وأما أنا، والذي لاح لي ـ بما أنا مشـتغل به من الرياضات العلمية والعمليـة ــ أن دار الجحيم ليسـت بـدار نعيم، وإنمـا هي موضـع الألم والمحن، وفيها العذاب الدائم، لكن آلامها متفتة متجددة على الاستمرار بلا انقطـاع، والجلود فيها متبدلة، وليس هنـاك موضـع راحـة واطمئنـان، لأن منزلتهـا من ذلـك العـالم منزلة عالم الكون والفساد من هذا العالم) (صدرالدين الشيرازي، العرشية، ص 95)

وقد اعتبر المحشون والمعلقـون على كتب صـدرالدين الشـيرازي عبـارة الشـيخ هـذه بأنها تدلّ على رجوع عن الخلود النوعي، فقال الخواجـوي : وليعلم أن المصـنف (قـدس سره) في كتابه (الحكمة العرشية) صرح بدوام الخلـود وتسـرمد العـذاب. (صـدرالدين الشيرازي، تفسير القرآن الكريم، ج 5، ص 305 (التعليقة)

يمكن تصنيف ما ذكره ابن القيم الذي حمل مع شيخه ابن تيمية لواء هذا القول من أدلة إلى ثلاثة أنواع:

الدليل الأول:

ما ورد في القرآن الكريم من الأمارات الدالة على هذا الاحتمال، فالقرآن الكريم إذا ذكر جزاء أهل رحمته وأهل غضبه معا فرق بين جزاء أهل الرحمة وجزاء أهل الغضب.

ومن ذلك بأن يذكر خلود المؤمنين في الجنة ولا يذكر خلود الكافرين، كما قال تعالى في الكافرين: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران:106) ثم قال بعدها في المؤمنين: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران:107)

أو أن يذكر خلود الكفار مطلقا، ويذكر خلود المؤمنين مؤبدا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة:6) وفي المقابل قال عن جزاء المؤمنين: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة:8)

أو أن يذكر خلود الكفار مع الاستثناء والإخبار عن إرادة الله، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (هود:107)بينما يعبر عن عدم انقطاع نعيم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:108)

وقد يقال هنا: ولكن في مقابل ذلك قد ورد في النصوص الجمع بينهما في الذكر، والقضاء لهم بالخلود جميعا، كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

وقال جلال الدين الآشتياني في تعليقه على شواهد الربوبية : (مسألة خلود الكفار وانقطاع العذاب عنهم، لا يلائم القواعد العقلية والآثار الواردة عن حملة الوحي عليهم السلام، وقد عدل عن هذا القول المصنف العلامة) (صدرالدين الشيرازي، شواهد الربوبية (المقدمة)، ص 319 (التعليقة)

وقال ملاهادي السبزواري في تعليقته على شواهد الربوبية : وبعض كلمات المصنف (قدس سره) متشابهة، ولكن كلامه في رسالته المسماة بالحكمة العرشية محكم، فليرد المتشابه إلى المحكم.. صدرالدين الشيرازي، شواهد الربوبية (التعليقة)، ص 777، 778.

تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (النســاء:13)، وقولــه بعــدها عن العصــاة: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَـا وَلَـهُ عَـذَابٌ مُهِينٌ (النساء:14)

والجواب عن هذا ــ كمـا يـذكر ابن القيم ــ أن مجـرد ذكـر الخلود والتأبيد لا يقتضـي عـدم النهايـة، لأن الخلـود هـو المكث الطويل، كقولهم قيد مخلد.

زيادة على أن تأبيد كل شـيء بحسـبه، فقـد يكـون التأبيـد لمدة الحياة، وقد يكون لمدة الدنيا، كما قال تعالى عن اليهود: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَــداً بِمَــا قَــدَّمَتْ أَيْــدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (البقــرة:95) مــع العلم أنهم يتمنــون المــوت في النــار حيث يقولــون: يَــا مَالِــكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَــا رَبُّكَ قَــالَ إِنَّكُمْ مَــاكِثُونَ (الزخرف:77)

زيـادة على هـذا، فـإن اللـه تعـالى ذكـر خلـود بعض أهـل المعاصــي في النــار مــع إجمــاع العلمــاء على أن الموحــدين يخرجون منها، كما مر سابقا.

ومن ذلـك قولـه تعـالى: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَيَتَعَـدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَـهُ عَـذَابٌ مُهِينٌ (النسـاء:14)،، وقوله تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (التوبة:63)

وهـذان النصـان قـد يـؤولان بالكفـار، إلا أن قولـه تعـالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (النساء:93) لا يمكن تأويلـه، فالآيـة السـابقة تتحـدث عن قتـل المـؤمن للمـؤمن، كمـا قـال تعـالى: وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُـلَ مُؤْمِنـاً إِلَّا خَطَـأً وَمَنْ قَتَـلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَـةٍ وَدِيَـةٌ مُسَـلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِـهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَـدُوٍّ لَكُمْ وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَتَحْرِيـرُ رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَـةٌ مُسَـلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَـهْرَيْنِ مُتَتَـابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (النساء:92)

وقد روي في النصوص ما يؤيد هذا، كما روى سالم بن أبي الجعد قال: كنا عنـد ابن عبـاس بعـدما كُـفَّ بصـره فأتـاه رجـل فناداه: يـا عبـد اللّـه بن عبـاس مـا تـرى في رجـل قتـل مؤمنـاً متعمداً؟ فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب اللّه عليـه ولعنـه

وأعد له عذاباً عظيماً، قال: افرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى؟ والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمداً، جاء يوم القيامة أخذه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن، يلزم قاتله بشماله وبيده الأخرى رأسه يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني، وإيم الذي نفس عبد اللّه بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان)(1)

فهذه النصوص مع ما تواترت به الأحاديث عن رسول اللّه ﷺ من أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان يدل على أن الخلود لا يعني بالضرورة الأبد.

فنحن بهذا – كما يرى ابن القيم- بين أن نقول بخلود عصاة الموحدين في النار، وبين أن نعتبر أن لفظ (الخلود) لا يدل بالضرورة على الأبد الذي لا نهاية له، والقول الثاني أهون من القول الأول.

قد يقال هنا: فأهل الجنة كأهل النار إذن، فلا خلود للطرفين، ما دامت النصوص الدالة على الخلود واحدة.

والجواب عن هذا – كما يذكر ابن القيم- أن الله تعالى خص أهل الجنة بما يدل على الخلود الحقيقي الذي هو الأبد الذي لا نهاية له، ومن ذلك قوله تعالى: إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (صّ:54)، وقوله تعالى عن نعيم الجنة: عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (هود: 108)، وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (فصلت:8)، وقوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (الانشقاق: 25) أي غير مقطوع، بخلاف أهل النار، فإنه لم يرد فيهم مثل هذا.

وقد ذكر ابن القيم وجوها كثيرة لتميز الجنة عن النار تقتضي خلود الجنة دون النار، ومنها(2):

1. أنه تعالى أخبر بما يدل على انتهاء عذاب أهل النار في عدة آيات، ولم يخبر بما يدل على انتهاء نعيم أهل الجنة، ولهذا احتاج القائلون بالتأبيد الذي لا انقطاع له إلى تأويل تلك الآيات، ولم يجيء في نعيم أهل الجنة ما يحتاجونه إلى تخصيصه

1) رواه ابن جرير.
2) شفاء العليل: 262.

بالتأويل.
2. أن الأحاديث التي جاءت في انتهاء عذاب النـار لم يـأت شيء منها في انتهاء نعيم الجنة.
3. أن الصحابة والتابعين إنما ذكـروا انقطـاع العـذاب، ولم يذكر أحد منهم انقطاع النعيم.
4. أنه قد ثبت أن الله تعـالى يـدخل الجنـة بلا عمـل أصـلا بخلاف النار.
5. أنه تعالى ينشئ في الجنة خلقا يمتعهم فيها، ولا ينشـئ في النار خلقا يعذبهم بها.
6. أن الجنـة دار فضـله، والنـار دار عدلـه، وفضـله يغلب عدله.
7. أن النار دار استيفاء حقه الذي له، والجنة دار وفاء حقه الذي أحقه هو على نفسـه، وهـو سـبحانه يـترك حقـه ولا يـترك الحق الذي أحقه على نفسه.

ومما يدخل في هذا الدليل أن القرآن الكريم يسـتثني بعـد ذكر الخلود، فيرجع الأمـر إلى المشـيئة، وذلـك كقولـه تعـالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِـدِينَ فِيهَـا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَـا شَـاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَـا يُرِيـدُ (هـود:107)، بينمـا ذكـر أهـل الجنـة بعـد الاسـتثناء بـأن عطاءهم غير مجذوذ، كما قال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ سُـعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَـا شَـاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (هود:108)

وقال عبد الرحمن بن زيـد بن أسـلم:(أخبرنـا اللـه بالـذي يشاء لأهل الجنة، فقال تعـالى: وَأَمَّا الَّذِينَ سُـعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَـاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (هود:108)، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار)

ومثل ذلك مـا ورد من الاسـتثناء، بـل رد الأمـر إلى حكمـة الله وعلمه في قوله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَمِيعـاً يَـا مَعْشَـرَ الْجِنِّ قَـدِ اسْـتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَـالَ أَوْلِيَـاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَـا اسْـتَمْتَعَ بَعْضُـنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَـا أَجَلَنَـا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَـا قَـالَ النَّارُ مَثْـوَاكُمْ خَالِـدِينَ فِيهَـا إِلَّا مَـا شَـاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (الأنعام:128) وقال ابن عباس معلقا على هذه الايـة:(إن هـذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقـه لا يـنزلهم جنـة

ولا نارا) [1]

وقد ذكـر ابن القيم وجوهـا لاسـتبعاد ارتبـاط الاسـتثناء في هذه الآية بغير الكفار، ومنها:

1. اســتكبارهم منهم أي من إغــوائهم وإضــلالهم وإنمــا استكبروا من الكفار.

2. أنه عبر عنهم بأنهم أولياؤهم، وأوليائهم هم الكفار، كمـا قـال تعـالى: إِنَّا جَعَلْنَـا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ (لأعراف: 27)، فحزب الشيطان هم أولياؤه.

3. أنهم شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، ومـع هـذا قال: النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثم ختم الآيـة بقوله تعـالى: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، فتعـذيبهم متعلـق بعلمـه وحكمته، وكذلك الاستثناء صادر عن علم وحكمة، فهو عليم بمـا يفعل بهم حكيم في ذلك.

ومن الأدلـة المرتبطـة بهـذا – والـتي ذكرهـا ابن القيم- أن القرآن الكـريم قيـد لبث الكفـار في جهنم بعـدد محـدودٍ تعرفـه العرب، وهو (الأحقاب) في قوله تعـالى: لابِثِينَ فِيهَـا أَحْقَابـاً (النبأ:23)،ـ فهذا اللفظ يدل على مـدة مقـدرة يحصـرها العـدد، كما تقدم من النصوص الدالة على ذلك.

ولهذا تهرب المخـالفون إلى التأويـل، فتـأول الزجـاج الآيـة على أن الأحقاب تقييد لقوله تعـالى: لا يَـذُوقُونَ فِيهَـا بَـرْداً وَلا شَرَاباً (النبأ:24)، وأما مدة مكثهم فيها فلا يتقدر بالأحقاب.

وقد اسـتبعد ابن القيم هـذا التأويـل بحجـة أنـه يقتضـي أن يكونوا بعد الأحقاب ذائقين للبرد والشراب.

أما القول بأن الآية منسوخة بالنصوص الدالة على الخلـود، فغير صحيح، لأن النسـخ لا يـدخل في الخـبر إلا إذا كـان بمعـنى الطلب، فإن أرادوا بالنسخ البيـان فهـو صـحيح، وهـو إنمـا يـدل على أن عذابهم دائم مستمر ما دامت باقية فهم فيهـا خالـدون، وما هم بمخرجين.

وفـرارا من هـذه التـأويلات اسـتدل بعضـهم على أن ذكـر الأحقاب لا يدل على النهاية بعدم تقديرها بالعـدد، فإنـه لم يقـل عشـرة ولا مائـة، ولـو قـدرت بالعـدد لم يـدل على النهايـة إلا بالمفهوم، فكيف إذا لم يقدر، ونصوا على أنه كلما مضـى حقب تبعه حقب لا إلى نهاية.

---

1) رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ.

والـرد على هـذا هـو أن أهـل النـار يختلـف مكثهم فيهـا أو عذابهم بها ـ كما سنرى ــ بحسـب اسـتعدادهم، فلـذلك لا يمكن تحديد مكثهم فيها بأحقاب معينة.

وقد رد ابن القيم على استدلالهم بأنه لـو أريـد بالآيـة بيـان عدم انتهاء مدة العذاب لم يقيد بالأحقاب، فإن ما لا نهايـة لـه لا يقال هو باق أحقابا ودهورا وأعصارا أو نحو ذلك، ولهـذا لا يقـال ذلك في نعيم أهل الجنة، ولا يقال للأبدي الذي لا يزول هـو بـاق أحقابا أو آلافا من السنين.

الدليل الثاني:

وهو مستند إلى أن المقادير جميعا قائمة على أسماء اللـه الحسنى وصفاته العليا، فلا يشذ شيء عن هـذه الأسـماء، وأول ذلك أن الله تعالى تسمى بالغفور الرحيم، ولم يتسـم بالمعـذب ولا بالمعاقب، بل جعل العذاب والعقاب في أفعاله، فهو فعل لا وصف.

وهذا التفريق واضح في القرآن الكريم، ومنه قوله تعـالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَـا الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ﴾ (الحجـر:49) ثم قـال بعدها:﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:50)

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم﴾ (الأنعام: 165)

ومثلـه قولـه تعـالى:﴿فَـإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقُـلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَـةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام:147)

ومثله قوله تعالى:﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَـدِيدٌ﴾ (الـبروج:12) ثم قوله بعدها:﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (البروج:14)

ومثلـه قولـه تعـالى:﴿ غَـافِرِ الـذَّنْبِ وَقَابِـلِ التَّوْبِ شَـدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر:3)

ثم إنه تعالى يتمدح في أسمائه الحسنى بـالعفو والمغفـرة والرحمة والكرم والحلم، ويتسمى بها، ولم يتمدح بأنه المعاقب ولا الغضبان ولا المعذب ولا المسقم.

ثم إن اللـه تعـالى قـد كتب على نفسـه كتابـا بـأن رحمتـه سبقت غضبه، وهذا الكتاب لا يخلف ولا يبدل.

بل إنه تعالى رحم أهل النار، وسبقت رحمته غضبه في كل شــؤونهم: رحمهم في حــال شــركهم بإقامــة الحجــة عليهم، وبدعوتهم إليه بعد أن أغضـبوه وآذوا رسـله وكـذبوهم، وأمهلهم ولم يعاجلهم، بل وسعتهم رحمته فرحمته غلبت غضبه.

ثم إن الرسول ﷺ أخبر في حديث الشفاعة عن قول أولي العزم من الرسل:(إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله) (1)، وهو تصريح بأن هذا الغضب العظيم لا يدوم.

وبما أن أهل النار إنما دخلوها بما استوجبوه من ذلك الغضب، فلذلك لو دام ذلك الغضب لدام عذابهم، إذ هو موجب ذلك الغضب، فإذا رضي الله تعالى وزال ذلك الغضب زال موجبه.

ومثل ذلك ما ورد في النصوص من أن عقوبات الدنيا العامة آثار غضب الله، فإذا استمر غضبه استمر ذلك البلاء، فإذا رضي وزال غضبه زال البلاء وخلفته الرحمة.

ثم إن النصوص أخبرت بأن رضى الله أحب إليه من غضبه، وعفوه أحب إليه من عقوبته، ورحمته أحب إليه من عذابه، وعطاءه أحب إليه من منعه.

بل أخبرت أن الأصل هو الرضى والعفو والرحمة والعطاء، وإنما يقع ما يضادها بأسباب تناقص موجب تلك الصفات والأسماء.

ولهذا ورد في النصوص الإخبار بأن الله وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، نظيف يحب النظافة، عفو يحب العفو، شكور يحب الشاكرين، عليم يحب العالمين، جواد يحب أهل الجود، حيي ستير يحب أهل الحياء والستر، صبور يحب الصابرين، رحيم يحب الرحماء.

وهو تعالى إنما يكره ما يضاد ذلك ككره الكفر والفسوق والظلم والجهل لمضادة هذه الأوصاف لأوصاف كماله الموافقة لأسمائه وصفاته، وإنما يريد تعالى هذه الأمور مع كراهيته لها لأدائها إلى ما ما يحبه ويرضاه، فهو مرادة لغيرها لا لنفسها، فلذلك إذا حصل بها ما يحبه وأدت إلى الغاية المقصودة له تعالى لم تبق مقصودة لا لنفسها ولا لغيرها فتزول ويخلفها أضدادها التي هي أحب إليه تعالى وهي موجب أسمائه وصفاته(2).

قد يقال هنا: بأن من أسماء الله ما يقتضي خلودهم في العذاب، فالعذاب صادر عن عزته وحكمته وعدله، وكل هذه

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) شفاء العليل: 264.

أسماء حسنى، فكيف تقدم الرحمة عليها؟

والجـواب عن هـذا مـا ذكرنـاه في الفصـل الماضـي من أسماء الله المركبـة من أن اللـه تعـالى إن أراد أن يـرحم عبـدا غفر له، فتكون المغفرة مقدمـة للرحمـة، ووسـيلة لهـا، فلـذلك كان من أسماء الله الحسـنى اسـم (الغفـور الـرحيم)، فكـذلك عزة الله وحكمته وعدله قـد تقـترن برحمتـه وجـوده ومغفرتـه، فتكون (عزة مقرونة برحمـة، وحكمـة مقرونـة بجـود وإحسـان وعفـو وصـفح، فـالعزة والحكمـة لم يـزالا ولم ينقص بـل صـدر جميع ما خلقه ويخلقه وأمر به ويأمر به عن عزته وحكمته) (1)

ثم إن الله تعالى بحكمته ورحمته ـ كما سنرى ــ لم يجعـل العذاب مقصودا لذاتـه، بخلاف الرحمـة والإحسـان والنعيم فقـد جعل مقصودة لنفسها، فالإحسان غاية والعـذاب والألم وسـيلة، فلا يصح قياس أحدهما على الآخر.

ثم إنه تعالى أخبر أن رحمته وسعت كـل شـيء، كمـا قـال تعالى: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً (غـافر: 7)، وقـال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (لأعراف: 156)

وهذه الرحمة الواسعة التي شملت كـل شـيء لا يسـتحيل أن تشمل هؤلاء المعذبين بعد انقضاء فترة طويلـة على حسـب ما يوجبه العدل والحكمة، وقـد ورد في الحـديث عن جنـدب بن عبد اللّه البجلي قال: جـاء أعـرابي فأنـاخ راحلتـه، ثم عقلهـا ثم صلى خلف رسول اللّـه ﷺ فلمـا صـلى رسـول ﷺ أتى راحلتـه، فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نـادى:(اللهم ارحمـني ومحمـداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً)، فقال رسـول اللّـه ﷺ:(أتقولـون هـذا أضل أم بعيره، ألم تسمعوا ما قال؟)، قالوا:(بلى)، قـال:(لقـد حظرت رحمة واسعة، إن اللّه عزَّ وجلَّ خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بهـا الخلـق جنهـا وإنسـها وبهائمهـا، وأخـرّ عنـده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟)(2)

قد يقال هنا: إن الله تعالى أخبر بعد ذكره سعة رحمته أنـه يكتبها للمؤمنين الـذين ذكـر مواصـفاتهم في قولـه تعـالى عقب ذكر سعة رحمته: فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (لأعـراف: 156)، وهي بـذلك رحمـة خاصـة بالمؤمنين لا تتسع لغيرهم.

---

1) شفاء العليل: 263.

2) رواه أحمد وأبو داود.

والجواب عن هذا: إن الرحمة المكتوبة في هـذه الآيـة هي الرحمة الخالصة، فلذلك يـدخل هـؤلاء المسـتظلون بظـل هـذه الرحمة إلى الجنة مباشرة من غير عقاب، أما الرحمة المقترنـة بعدل أو بحكمة، فلم تنفها الآية عن غيرهم، بدليل مـا تـواتر من النصوص من دخول من كـان في قلبـه مثقـال ذرة من الإيمـان الجنة مع كونه ليس منصوصا عليه في هذه الآية.

وذكر الرحمة الخاصة بعـد الرحمـة العامـة ليس غريبـا في النظم القـرآني الـذي قـد يسـتطرد من الخـاص إلى العـام أو العكس حسبما يقتضيه المقام.

ومن ذلك قوله تعالى: هُـوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفـاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَـا صَـالِحاً لَنَكُـونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (لأعراف:189)، فهذا استطراد من ذكر الأبوين إلى ذكر الذرية.

الدليل الثالث:

انطلق ابن القيم في الحديث عن هـذا الـدليل بقولـه:(أي لذة وأي خير ينشأ من العذاب الشديد الدائم الذي لا ينقطـع ولا يفتر عن أهله، بل أهله فيه أبد الآباد، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرهـا، لا يقضـي عليهم فيموتـوا ولا يخفـف عنهم طرفـة عين؟)(1)

وقد ذكر ابن القيم اختلاف المدارس الإسلامية في الإجابـة على هذا السؤال الخطير:

فمنهـا من بـادر فـأنكر الحكمـة، ورد الأمـر إلى المشـيئة المحضة التي لا سبب لها ولا غاية، وهؤلاء هم الذين جوزوا على الله أن يعذب أهل طاعته وأولياءه وينزلهم إلى أسـفل الجحيم، وينعم أعداءه المشـركين بـه ويـرفعهم إلى أعلى جنـات النعيم، (وأن يدخل النار من شاء بغير سبب ولا عمل أصلا، وأن يفاوت بين أهلها مع مساويهم في الأعمـال ويسـوي بينهم في العـذاب مع تفاوتهم في الاعمـال، وأن يعـذب الرجـل بـذنب غـيره، وأن يبطل حسناته كلها فلا يثيبه بها أو يثيت بها غيره وكل ذلك جـائز عليه لا يعلم أنه لا يفعله إلا خبر صادق إذ نسبه ذلك وضده إليـه على حد سواء) (2)

---

1) شفاء العيل: 252.
2) شفاء العيل: 252.

وهؤلاء تصوروا أن مجرد إرجاع الأمر إلى المشيئة كاف في الإجابة، استنادا إلى قوله تعالى:﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:23)

وهذه الإجابة مع تقريرها للتوحيد إلا أنها غفلت عن عالم الحكمة الإلهية، ولذلك آثاره الخطيرة على معرفة الله أو السلوك إليه، فمعرفة الله تستدعي تكامل المعرفة لا الاقتصار على بعض جوانبها، والسلوك تبع للمعرفة، وثمرة شجرتها.

ومقابل هؤلاء مثبتو الحكمة الغافلون عن التوحيد، وهؤلاء (أوجبوا على الله سبحانه تخليد من أفنى عمره في طاعته، ثم ارتكب كبيرة واحدة ومات مصرا عليها في النار مع أعدائه الكفار أبد الآباد، ولم يرقبوا له طاعة ولم يرعوا له إسلاما) (1)

ومقابل هذين ظهر من وصف نفسه بالحكمة، فنفى كل ما ورد عن الأنبياء ـ عليهم السلام ــ من العقاب، وتصور أن كل ذلك مجرد (تخويف وتخييل لا حقيقة له يزرع النفوس السبعية والبهيمية عن عدوانها وشهواتها فتقوم بذلك مصلحة الوجود) (2)

بعد هذه الأجوبة المختلفة المتناقضة حاول ابن القيم أن يبين أن الغاية من كل ما شرعه الله تعالى من العقوبات أو أخبر عنه هو لتهذيب النفوس وتصفيتها من الشر الذي فيها، ولحصول مصلحة الزجر والاتعاظ وفطما للنفوس عن المعاودة.

فإذا لم تنتج العقوبة هذه المصالح لم يعتبرها الشرع، ولم يعاقب بها، (إنه تعذيب عليم حكيم رحيم لا يعذب سدى ولا لنفع يعود إليه بالتعذيب، بل كلا الأمرين محال)

ولهذا ورد في النصوص أن الغرض من دخول النار هو التطهير والتطييب لأن الجنة لا يدخلها إلا الطيبون، كما قال تعالى:﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: 73)

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة) (3)

وفي الحديث الموقوف عن أبي أمامة قال:(لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع اللّه ما في صدره من غل حتى ينزع منه

---

1) شفاء العيل: 252.
2) شفاء العيل: 253.
3) رواه أحمد والبخاري.

مثل السبع الضاري)

وهذا يدل على أن في العذاب المعد لأهل جهنم خاصية تطهير الروح وتطييبها، وأن المكث في جهنم بحسب استعداد الروح للطيبة والتطهير.

وربما نستشف هذا المعنى من الحديث الذي قال فيه ﷺ:(إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان يا منان، فيقول اللّه عزَّ وجلَّ لجبريل اذهب فأتني بعبدي هذا، فينطلق جبريل، فيجد أهل النار مكبين يبكون، فيرجع إلى ربه عزَّ وجلَّ فيخبره، فيقول اللّه عزَّ وجلَّ: ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجيء به، فيوقفه على ربه عزَّ وجلَّ، فيقول له: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول اللّه عزَّ وجلَّ: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها، فيقول اللّه عزَّ وجلَّ: دعوا عبدي)(1)

ففي هذا الحديث إشارة جليلة إلى أن هذا العبد قد تطيبت روحه وتطهرت وحسن ظنه بربه، فاستحق بذلك أن يخرج من العذاب.

وفي حديث آخر قريب من هذا قال رسول اللّه ﷺ:(إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا)، قال: فضحك رسول اللّه ﷺ حتى بدت نواجذه(2).

فهذا الحديث يشير إلى أن هذا الرجل قد هذب وأدب إلى أن صار يعترف بذنوبه وينبه إلينا.

وقد أجاب على خصوصية ذلك بالموحدين أو من كان في قلبه ذرة من الإيمان، لأن تلك البذرة ستنبت في جهنم شجرة الإيمان التي تؤهله لدخول الجنة، بأن اللّه تعالى الحكيم تنزه عن الباطل والعبث، فأدلة النصوص والأكوان كلها تبرهن بآلاف الأدلة على أنه تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ﴾ (الأنعام: 73) وأنه تعالى لم يخلق شيئا عبثا ولا سدى ولا باطلا، كما قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً

1) رواه أحمد.
2) رواه مسلم.

ذَلِـكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَـرُوا فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا مِنَ النَّارِ (صّ: 27)،وقـال العـارفون باللـه: رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَـذَا بَـاطِلاً (آل عمران: 191)

فلذلك فإن كل مـا نـراه من الأفعـال والموجـودات يسـتند إلى الحق فهو (وصفه واسمه وقوله وفعله، وهو سبحانه الحق المبين، فلا يصـدر عنـه إلا حـق، ولا يقـول إلا حقـا، ولا يفعـل إلا حقا، ولا يأمر الا بالحق، ولا يجازي إلا بحـق، فالباطـل لا يضـاف إليه، بـل بالباطـل مـا لم يضـف إليـه، كـالحكم الباطـل والـدين الباطـل الـذي لم يـأذن فيـه ولم يشـرعه على ألسـنة رسـله، والمعبود الباطل الذي لا يستحق العبادة، وليس أهلا لها فعبادته باطلـة ودعوتـه باطلـة، والقـول الباطـل هـو الكـذب والـزور والمحال من القول الذي لا يتعلق بحق موجود بل متعلقه باطل لا حقيقة له) (1)

وانطلاقا من هذا فـإن الغايـة من خلـق الخلـق هـو عبادتـه التي تعني معرفته ومحبته، كما قـال تعـالى: وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذريات:56)

وقد فطر الله الخلق على هذه المعرفة والمحبة، كما قـال ﷺ:(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء) (2)

فالأصـل في الفطـر البشـري هـو الطهـارة، والفسـاد والانحراف عارض لها كما قال ﷺ:(يقول اللّه تعـالى إني خلقت عبـادي حنفـاء، فجـاءتهم الشـياطين، فاجتـالتهم على دينهم، وحرمت عليهم مـا أحللت لهم. وأمـرتهم أن يشـركوا بي مـا لم أنزل به سلطاناً) (3)

ولذلك أرسل الله تعالى الرسل لتقويم الفطـرة وتكميلهـا، فمن الخلق (من استجاب لهم كل الاسـتجابة وانقـاد إليهم كـل الانقياد، فرجعت فطرته إلى ما كانت عليه مع ما حصل لهـا من الكمال والتمام في قوتي العلم النافع والعمل الصالح، فازدادت فطرتهم كمالا إلى كمالهـا، وهـؤلاء لا يحتـاجون في المعـاد إلى تهذيب وتأديب ونار تذيب فضلاتهم الخبيثة وتطهرهم من الأردن

1) شفاء العليل: 252.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه الطبراني في الكبير.

والأوساخ، فإن انقيادهم للرسل أزال عنهم ذلك كله) [1]

ومنهم من استجاب لهم، ولم تكمل استجابته، بل بقيت فيه بقية من الأدران والأوساخ التي تنافي الفطرة التي فطروا عليها، والغاية التي خلقوا من أجلها، فلذلك هيأ لهم الله تعالى بعلمه وحكمته (من الأدوية الابتلاء والامتحان بحسب تلك الأدواء التي قامت بهم، فإن وفت بالخلاص منها في هذه الدار، وإلا ففي البرزخ، فإن وفى بالخلاص وإلا ففي موقف القيامة وأهوالها ما يخلصهم من تلك البقية، فإن وفى بها، وإلا فلا بد من المداواة بالدواء الأعظم، وآخر الطب الكي فيدخلون كير التمحيص والتخليص، حتى إذا هذبوا ولم يبق للدواء فائدة أخرجوا من مارستان المرضى إلى دار أهل العافية)

ومن البشر من لم يستجيبوا للرسل ــ عليهم السلام ـ وخرجوا عن الفطرة، ولم يرجعوا إليها، واستحكم فسادها أتم استحكام، فهؤلاء لا تفي جميع البلايا التي يمرون بها من مصائب الموت وما بعده وأهوال القيامة وما بعده من تطهيرهم من أوساخهم،ومما لحق فطرهم، فلذلك بحكمة العليم الحكيم أن يجاور بهم الطيبين في دارهم.

وفي نفس الوقت لم يخلقهم الله للفناء، فلذلك تقتضي رحمة الله المقرونة بحكمته أن يعالجوا في دار الابتلاء والامتحان، فيتركون فيها الآباد الطويلة إلى أن يزول ما فيهم من درن الكفر والشرك.

بل إن النار والعذاب في الحقيقة ليس إلا صورا متشكلة من أعمالهم وذنوبهم، كما قال ﷺ في الحديث القدسي:(يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) [2]، فلذلك يستمر عذابهم قدر ما يبقى معهم من حقائق تلك الأعمال وما تولد منهما، فما دامت موجبات العذاب باقية فالعذاب باق.

قد يقال هنا: فالعذاب إذن لن يفارقهم، ولن يفارقوه لأن فطرهم أصبحت شرا محضا، والشر المحض يستحيل أن يتحول إلى خير محض، وإلا انقلبت حقائق الأشياء.

والجواب عن هذا: إن الشر المحض يستحيل وجوده في

---

1) شفاء العليل:254.

2) رواه مسلم وغيره.

هذا الكون لأن كل ما نتوهمه أو نـراه من شـر قـد يكـون خـيرا متلبسا بصورة شر، أو شرا انحرف عن مسـاره مـع بقـاء أصـل الخيرية فيه.

ولهـذا خلـق اللـه تعـالى مـا نـراه من الـدواب الشـريرة، أوالأفعــال الــتي هي شــر لمــا يــترتب على خلقهــا من الخــير المحبوب (فلم يخلق لمجرد الشر الذي لا يسـتلزم خـيرا بوجـه ما)

فالخير هو المقصـود من الخلـق، والشـر إنمـا قصـد قصـد الوسائل والمبادئ لا قصد الغايات والنهايات، فإذا حصلت الغاية المقصودة بخلقه بطل وزال، كما تبطـل الوسـائل عنـد الانتهـاء إلى غاياتها كما هو معلوم بالحس والعقل.

وبناء على هذا، فإن العذاب شر ولـه غايـة تطلب به، وهـو وسيلة إليها، فإذا حصلت غايتـه انتفى وجـوده وارتفعت الحاجـة إليه.

وانطلاقا من هذا، فإن هـذه الفطـر مـع انحرافهـا الشـديد، يمكن أن تعود بالعلاج الشديد إلى أصـل الفطـرة، فـالفطرة لم تذهب بالكلية، وإنما أصابها مرض عضال قد يؤثر في علاجه مــا ينزل على صاحبها من أنواع البلاء.

وقد ورد في النصوص ما يـدل على تـأثير البلاء في تطهـير الفطـرة وتقويمهـا، كمـا قـال تعـالى:﴿ وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَـذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَــذَابِ الْأَكْبَــرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُــونَ﴾ (الســجدة:21)، فأخبر تعالى أنـه يعـذبهم رحمـة بهم لـيردهم العـذاب إليـه كمـا يعذب الأب الشفيق ولده إذا فر منه إلى عدوه لـيرجع إلى بـره وكرامته.

وبين الله تعالى سنته في ذلك بقوله تعالى:﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَـانَ اللَّهُ شَـاكِراً عَلِيمـاً﴾ (النسـاء: 147)

ومن النصوص الدالة على هذا المعنى كذلك قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَـةٌ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيـظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَـالُونَ مِنْ عَـدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَـلٌ صَـالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُحْسِـنِينَ﴾ (التوبـة: 120)، فقد أخبر تعالى أن يكتب لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صـالحة وثواباً جزيلاً.

ومنهـا قولـه تعـالى:﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَيَمْحَـقَ الْكَـافِرِينَ﴾ (آل عمــران:141)، فــأخبر تعــالى أن ألم القتــل والجراح في سبيله تمحيص وتطهير وتصفية للمؤمنين.

ولهذا ورد في النصـوص الإخبـار بـأن من عـوقب عن ذنب في الدنيا بأنه لا يعاقب عليه في الآخـرة، كمـا ورد في الحـديث الشريف عن علي قال:(ألا أخبركم بأفضل آيـة في كتـاب اللـه تعالى حدثني بها رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَـا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:30) قال لي رسـول الله ﷺ:(سأفسرها لك يا علي، ما أصابكم في الدنيا من بلاء أو مـرض أو عقوبـة فاللـه أكـرم من أن يثـني عليكم العقوبـة في الآخرة، وما عفـا اللـه عنـه في الـدنيا فاللـه أحلم)، وفي لفـظ: (أجل من أن يعود بعد عفوه) (1)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(من أذنب ذنبا في الدنيا فعـوقب به فالله أعدل أن يثني عقوبتـه على عبـده، ومن أذنب ذنبـا في الدنيا فستر الله عليـه وعفـا عنـه فاللـه أكـرم من أن يعـود في شيء قد عفا عنه) (2)

ويستوي في هذا العقوبات التشريعية والقدرية، ولهذا قـال ﷺ في العقوبات التشريعية:(من أصاب منكم ذنبا مما نهى الله عنه فأقيم عليه حده فهو كفـارة ذنبـه)(3)، وقـال ﷺ:(أيمـا عبـد أصاب شيئا مما نهى الله عنه ثم أقيم عليه[حده] كفر عنه ذلـك الذنب) (4)

وقال ﷺ عن العقوبـات القدريـة:(مـا يصـيب المـؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حـتى الشـوكة يشـاكها إلا كفر الله بها خطاياه) (5)، وقـال ﷺ:(لا يـزال البلاء بـالمؤمن في أهله وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئـة) (6)، وأخــبر ﷺ أن الحمى تنفي الــذنوب كمــا ينفي الكــير الخــبيث الحديد(7)، وفي حـديث آخـر قـال ﷺ:(لا تسـبي الحمى فإنهـا تذهب خطايا بني آدم) (8)

---

1) رواه أحمد أبو يعلى.
2) رواه أحمد وابن جرير وصححه.
3) رواه الحسن بن سفيان وأبو نعيم.
4) رواه ابن حبان.
5) رواه البخاري ومسلم.
6) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة..
7) رواه الطبراني في الكبير.
8) رواه البخاري في الأدب المفرد.

وســرهذا أن هــذا البلاء النــازل يكســر ســورة النفس وكبرياءهـا، ويجعلهـا أهلا لتـنزل الرحمـة الإلهيـة، ولهـذا ورد في الحديث ما يشير إلى هذا المعنى، بل يكاد يصرح به، حيث قــال ﷺ في الحديث القدسي:(إن الله تعالى يقول يـوم القيامـة: يـا ابن آدم! مرضت فلم تعدني؟ قال: يـا رب! كيـف أعـودك وأنت رب العالمين! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مـرض فلم تعـده! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يـا ابن آدم! اسـتطعمتك فلم تطعمني؟ قال: يا رب! كيـف أطعمـك وأنت رب العـالمين! قـال: أمـا علمت أنـه اسـتطعمك عبـدي فلان فلم تطعمـه! أمـا علمت لــو أنــك أطعمتــه لوجــدت ذلــك عنــدي، يــا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني؟ قال: يـا رب! كيـف أسـقيك وأنت رب العالمين! قال: استسقاك عبـدي فلان فلم تسـقه، أمـا إنـك لـو سقيته وجدت ذلك عندي)(9)

ففي هذا الحديث إشارة، بل تصريح إلى أن الله تعالى عند المبتلى رحمة منه له وخيرا وقربا منه لانكسـار قلبـه بـالمرض، فإنه عند المنكسرة قلوبهم.

ووجـه الاسـتدلال بهـذه النصـوص واضـح، وهـو أن قـانون العقوبـات أو التمحيص الإلهي واحـد في الـدنيا والآخـرة، ورب الـدنيا والآخـرة واحـد، وحكمتـه ورحمتـه موجـودة في الـدنيا والآخـرة، بـل إن النصـوص تخـبر بـأن رحمتـه في الآخـرة أكـثر ظهورا من رحمته في الدنيا.

ولهذا، فإن بقاء الخلق في النار مؤمنهم وغير مؤمنهم تـابع لنوع مـا في نفوسـهم من أوزار وذنـوب، وهي مختلفـة اختلافـا شديدا، وتبعا لاختلافها يكون استمرار بقائهم في النار.

ولهذا ورد في النصوص الإخبار بـأن المنـافقين في الـدرك الأسفل من النار، كمـا قـال تعـالى: إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ فِي الـدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا (النسـاء:145) قـال ابن عباس: أي في أسفل النار.

وسر ذلك أن نفوسهم المطاطة المرنـة المتحولـة يصـعب عليها أن تنتقل من حالة الانحراف إلى حالـة الاسـتقامة إلا بعـد تطهير طويل عميق.

وهذا بخلاف من خفف عليه العذاب كمن أخبر ﷺ عنه بأنـه في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه، فإنـه سـرعان مـا تتطهـر

9) رواه مسلم وغيره.

فطرته ليعود إلى عالم السعادة المحضة التي خلق لها.

رؤية صدر المتألهين:

انطلاقا من المنهج الذي تبنـاه صـدر الـدين الشـيرازي في التعامل مع القضايا العقدية والفلسفية المختلفة، والـذي يطلـق عليه (الحكمة المتعالية)، فقد حـاول في هـذا المحـل أن يوفـق بين مـا ورد في العشـرات من الآيـات القرآنيـة من الإخبـار عن الخلود في جهنم(1)، وبين الأصول العقليـة الـتي تبناهـا، والدالـة على عـدم إمكـان دوام العـذاب على أحـد، فلـذلك ذهب إلى القول بالخلود النوعي، حيث قال: (وعندنا أيضاً أصول دالة على أن الجحيم وآلامها وشرورها دائمة بأهلها، كما أن الجنة ونعيمهـا وخيراتها دائمة بأهلها، إلّا أن الدوام لكل منهما على معنى آخـر) (2)

وقال في موضع آخر: (فان قلت: هذه الأقوال الدالـة على انقطاع العذاب عن أهل النار ـ وهي الأقوال التي نقلهـا عن ابن عربي والقيصري ـ ينافي ماذكرته سـابقاً من دوام الآلام عليهم، قلنا : لا نسلم المنافـاة، إذ لا منافـاة بين عـدم انقطـاع العـذاب عن أهل النار أبداً، وبين انقطاعه عن كل واحد منهم في وقت)

ومن الأدلـة الـتي اسـتند اليهـا صـدر المتـألهين في إثبـات الخلود النوعي وانكار الخلود الشخصي ما يلي:

منافاة العذاب الأبدي مع الإيجاد والعلية:

حيث ذكـر أن (في تعـذيب اللـه بعض عبـاده عـذاباً أبـداً إشـكالاً عظيمـاً، خصوصـاً عنـد القـائلين بالتحسـين والتقـبيح العقليين، فان الله خالق العبـاد وموجـدهم ومبـدئهم ومعيـدهم، وشـأن العلـة الفاعلـة الافاضـة والايجـاد على معلولهـا، إذ ليس المعلـول إلا رشـحة من رشـحات جـوده، ولمعـة من لمعـات وجوده، والتعذيب الأبدي منافي الايجاد والعلية) (3)

وأشار إلى هذا المعنى في كتاب الأسفار وشواهد الربوبيـة بقوله : (ثم إنك تعلم أن نظام الدنيا لا ينصلح إلا بنفـوس جافيـة وقلوب غلاظ شداد، فلو كان الناس كلهم سعداء بنفوس خائفـة من عـذاب اللـه وقلـوب خاضـعة خاشـعة لاختـل النظـام بعـد القائمين بعمارة هذا الدار من النفوس الغلاظ العتاة كالفراعنـة

---

1) استفدنا في هـذا المطلب خصوصـا من تحقيقـات مهمـة في كتـاب (الخلـود في جهنّم) لمحمد عبد الخالق كاظم، نشر المركز العالمي للدّراسات الإسلامية..

2) الاسفار، ج 9، ص 348، شواهد الربوبية (المقدمة) ص 314...

3) صدرالدين الشيرازي، تفسير القرآن، ج 5، ص 298، 299..

والدجاجلة، وكالنفوس المكارة كشياطين الإنس بجربزتهم وجبلّتهم، وكالنفوس البهيمية الجهلة كالكفار... وثبت بموجب قضائه اللازم النافذ في قدره اللاحق الحكم بوجود السعداء والأشقياء جميعاً، فاذا كان وجود كل طائفة بحسب قضاء إلهي ومقتضى ظهور اسم رباني، فيكون لها غايات حقيقية ومنازل ذاتية والأمور الذاتية التي جبلت عليها الأشياء إذا وقع الرجوع اليها تكون ملائمة لذيذة، وإن وقعت المفارقة أمداً بعيداً وحصلت الحيلولة عن الاستقرار عليها زماناً مديداً بعيداً، كما قال تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)، ثم إن الله تعالى يتجلى بجميع الأسماء والصفات في جميع المراتب والمقامات، فهو الرحمان الرحيم، وهو العزيز القهار، وفي الحديث القدسي : (لو لا أن تذنبون لذهب بكم وجاء بقوم يذنبون)

منافاة العذاب الأبدي مع الرحمة الالهية الشاملة للكل:

وقد عبر صدر المتألهين عن هذا الدليل بقوله: (فإن ذاته محض الرحمة والخير والنور، وكل ما يصدر عنه يجب أن يكون من باب الجود واللطف، والكرم، ووجود العاهات والشرور إنما يكون عنه بالغرض، وعلى سبيل الشذوذ والندور، ولأنه (سبقت رحمته غضبه)، فإن الرحمة ذاتية، والغضب أمر عارض، والعرض الاتفاقي لا يكون دائمياً.

ونقل لتأييد كلامه عن ابن عربي في (الفتوحات) قوله : (فعمرت الداران أي دار النعيم ودار الجحيم، وسبقت الرحمة الغضب، ووسعت كل شيء حتى جهنم ومن فيها، والله أرحم الراحمين، وقد وجدنا في نفوسنا ممّن جبل على الرحمة بحيث لو مكّنه الله في خلقه لأزال صفة العذاب عن العالم، والله قد أعطاه هذه الصفة، ومعطي الكمال أحق به، وصاحب هذه الصفة أنا وأمثالي، ونحن عباد مخلوقون أصحاب أهواء وأغراض، ولا شك أنه أرحم بخلقه منا، وقد قال عن نفسه إنه أرحم الراحمين، فلا نشك أنه أرحم بخلقه منا، ونحن عرفنا من نفوسنا هذه المبالغة)

ونقل عن القيصري قوله : (واعلم أن من اكتحلت عينه بنور الحق يعلم أن العالم بأسره عباد الله، وليس لهم وجود وصفة وفعل إلا بالله وحوله وقوته، وكلهم محتاجون إلى رحمته، وهو الرحمن الرحيم، ومن شأن من هو موصوف بهذه

الصفات أن لا يعذب أحداً عذاباً أبداً)[1]

ثبات وبقاء الفطرة وعرضية الهيئات الردية الموجبة للعذاب:

ذكر صدرالدين الشيرازي في الأسفار: أن جميع الحركات الطبيعية والانتقالات في ذوات الطبائع والنفوس إلى الله وبالله وفي سبيل الله، والانسان بحسب فطرته داخلة في السالكين اليه، وإذا حصلت في الكافر والمنافق والعاصي ملكات ردية حاصلة عن الكفر والنفاق والعصيان، فلا شك ينحرف عما فطر عليه، وبقدر انحرافه عن الفطرة يعاقب في الآخرة، والآلام دالة على وجود جوهر أصلي ــ وهي الفطرة ــ يقاوم الهيئات الحيوانية الردية والألم الناشىء من هذه الهيئات، والتقاوم بين المتضادين ليس بدائم ولا بأكثري، ولما كان الجوهر النفساني من الانسان غير قابل للفساد، ومبدأ العذاب أمر عارض على الفطرة، والذاتي يدوم والعرضي يزول فيعود إلى الفطرة، فيكون مآله إلى الرحمة[2].

الخلاصة:

بعد عرضنا للآراء المختلفة في هذه المسألة الخطيرة نتساءل عن الحال التي يؤول إليها هؤلاء؟

هل يظلون في النار أبد الآباد.. لا تصيبهم رحمة الله.. ولا يدركهم غوثه، لأن طبيعتهم تستدعي ذلك؟

أم أن فضل الله ورحمته ستسعهم كما وسعت كل شيء؟

وفي تلك الحال.. هل يساكنون الجنة مع المؤمنين، مع أن المؤمنين تقربوا إلى الله ببغضهم، ووالوا الله بعداوتهم؟

أم تحول جهنم لهم جنة كجنة المؤمنين، فيتنعمون فيها كما يتنعم المؤمنون؟

أم تصبح لهم قابلية التنعم بالعذاب، كما يتنعم غيرهم بالنعيم؟

أو أن الأمر يختلف باختلاف طبائعهم ورغباتهم؟

أم أن هناك أمورا أخرى قد لا ندرك بعقولنا البسيطة حقائقها؟

والجواب عن هذا: أن الله تعالى رد الأمر إلى مشيئته، وكل ذلك ممكن، ولكن إعمالا لجميع النصوص نرى أن

---

1) الاسفار، ج 9، ص 352، 353، شواهد الربوبية (المقدمة)، ص 318، 319..

2) الاسفار، ج 9، ص 352، 353، شواهد الربوبية (المقدمة)، ص 318، 319..

الممعنين في الكفر لا يخرجون من النار، بل يمكن أن تبدل نشأتهم لتتنعم بالعذاب كما يتنعم غيرهم بالنعيم، وليس في ذلك أي استحالة على القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء.

والذي دعانا إلى هذا هو ما دل من النصوص على أن الكفار لا يخرجون من النار، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (البقرة: 167)، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (المائدة:37)،ـ وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الحج:22)،، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (السجدة:20)

ومثل ذلك ما ورد من أنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (لأعراف:40)

وبذلك لا نقول بفناء النار، بل إنها كسائر خلق الله لم يرد في النصوص ما يدل على فنائها.

بل ولا نقول بفناء العذاب، وإنما نقول بأن الله تعالى برحمته قد يحيل العذاب عليهم نعيما مقيما قد لا يقل عن نعيم أهل الجنة.

وقد نستغرب هذا، أو نضحك منه، ولكن التخلص من قيود الطبع يدل على أن العبرة في الأشياء لا بالأشياء وإنما بالذائقين لها، فقد يكون الطعام مرا ممقوتا عند البعض، وهو أكلة شهية عند آخرين، بل إن هناك ممن شذت نفسه فاستعذب العذاب واستحلى القسوة وصار ذلك طبعا فيه لا ينفك عنه، فتكون رحمة هؤلاء في توفير ما تستلزمه طبائعهم.

والجمع بين هذا القول وما ورد في الخلود قد يخفف الكثير من الطعون التي ووجه بها القائلون بفناء النار، مع أن الأمر في الأخير يرجع إلى مشيئة الله التي لا يحدها شيء، كما قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾

(هـود:107):(ـ لا ينبغي لأحـد ان يحكم على اللـه في خلقـه ولا ينزلهم جنة ولا نارا)

هذا الكتاب

خلاصة الحقائق التي تبحث فيها هذه الرسالة هي أن نظام القدر الذي هو برنامج الكون ونظامه يتأسس على التعرف على أربعة أسرار كبرى، كل سر منها يشكل حقيقة عظيمة من حقائقه، ويقع الخطأ بقدر الاقتصار على بعض أسراره والغفلة عن بعضها.

وهذه الأسرار الأربعة، هي: التوحيد والعدل والحكمة والرحمة.

فكشف سر التوحيد يبصرنا بالمهندس الأول للكون، والمنظم الأوحد لشؤونه، والمدبر الخبير بتفاصيله، فلا نرى في مرآة هذا السر غير الله، فنغيب بالله عن الكون الذي يسيره.

وكشف سر العدل يعيدنا إلى ذواتنا لنبصر إرادتنا، وهي تتحرك في أطر كثيرة واسعة من الاختيارات، لنتحمل حينها مسؤوليتنا على تصرفاتنا.

وكشف سر الحكمة يجعل من الكون مرآة لتجليات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وكشف سر الرحمة يعيدنا إلى بدء الخلق وغاية الخلق، فالله خلق الخلق ليرحمهم، وأكرمهم بالوجود ليكرمهم بعدها بكل ما يقتضيه وجودهم من أنواع الإكرام.

وكشف كل سر من هذه الأسرار يشعرنا بالسلام الشامل مع الله، ومع الكون، ومع ذواتنا، لأن أول خطيئة هي الصراع، الصراع مع الله، ومع تخطيط الله، ومع مراد الله..